

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجليلي اليابس - سيدي بلعباس -
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية



العلاقات بين إيالة الجزائر و إيالتي تونس و ليبيا
1830 – 1750

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر
مشروع : تاريخ الدبلوماسية والعلاقات الدولية خلال القرنين 19م و 20م.

- إعداد الطالب:
- محمد حلوان

تحت إشراف
الأستاذ الدكتور كريم ولد النبية

أعضاء لجنة المناقشة

- | | | |
|--|----------------|----------------------|
| أستاذ التعليم العالي جامعة سيدي بلعباس | رئيسا . | أ.د/ مجاود محمد |
| أستاذ التعليم العالي جامعة سيدي بلعباس | مشرفا ومقررا . | أ.د/ ولد النبية كريم |
| أستاذ محاضر "أ" جامعة سيدي بلعباس | مناقشا . | د/ تيزي ميلود |
| أستاذة محاضرة "أ" جامعة سيدي بلعباس | مناقشا . | د/ قنون حياة |
| أستاذ محاضر "أ" جامعة معسكر | مناقشا . | د/ حجازي مصطفى |

السنة الجامعية

1435 – 1436 هـ / 2014 – 2015 م

سَمِيعٌ دَائِمٌ حَمِيدٌ

إهداء

إلھکما أمي وأبي أهدي إلیکما ثمرة جهدي
يا من أغدقوا علي بالحنان والعطف من الطفولة إلی الربعان
وعمروا حياتي سعادة
إلی إخوتي مصطفى وحمزة وأخواتي مليكة وسميرة
إلی زملائي الأساتذة
إلی أصدقائي ورفقاء دربي.

شكر وتقدير

في نهاية هذا العمل لا يسعني، إلا أن أتقدم بالشكر الأوفى والامتنان الأسمى إلى الأستاذ الدكتور كريم ولد النبية الذي تحمل مسؤولية الإشراف على هذا البحث، وكان سببا في أن يخرج هذا العمل إلى النور، إذ تتبع خطوات هذا البحث من بدايته إلى نهايته، ولم يخجل علينا بنصائحه وإرشاداته وتوجيهاته ومعرفته العلمية، كما لا يفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل الأساتذة الذين درسوني في مرحلة ما بعد التدرج والى كل أساتذة قسم التاريخ بالكلية.

واعترافا بالجميل، أتقدم بالشكر الجزيل لجميع عمال الأرشيف الوطني التونسي الذين سهلوا لنا مهمة الحصول على وثائق أرشيفية جد مهمة حول العلاقات الجزائرية التونسية في الفترة قيد الدراسة من خلال سماحهم لنا بالنسخ والتصوير، وكذا عمال المكتبة الوطنية بتونس وبالأخص قسم المخطوطات، بالإضافة إلى عمال الأرشيف الوطني الجزائري الذين سهلوا لنا مهمة البحث.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى عمال مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات وعلى رأسهم الأستاذ المتميز الدكتور عبد الجليل التميمي الذي شجعنا على البحث وفتح لنا مكتبته العامرة بالمصادر والمراجع والتي استفدنا منها في بحثنا لاسيما المجلة التاريخية المغاربية، كما لا يفوتني أن أشكر جزيل الشكر الدكتور مهدي جراد رئيس قسم التاريخ بجامعة سوسة الذي كان عوننا لنا في مهمة بحثنا بفتحه لنا مكتبة القسم الزاخرة بالكتب والمجلات، فله منا جزيل الشكر والامتنان.

وفي الأخير أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني في إتمام هذا البحث وأخص بالذكر كل أفراد العائلة الذين صبروا معنا طوال فترة هذا البحث، والأستاذين بن عيسى وناجم اللذان ساعداني في الترجمة كم أشكر الزميلين عصنوني فتحي وعباد ياسين على مساعدتهما لنا في إخراج هذا البحث.

قائمة بعض المختصرات

1/ بالعربية:

أ،و،ت : الأرشيف الوطني التونسي

أ،و،ج : الأرشيف الوطني الجزائري

تح : تحقيق.

تع : تعريب.

ط : الطبعة .

2/ بالفرنسية :

R.H.M : Revue d'histoire Maghrébine.

R.A : Revue Africaine.

O.P.U : Office des Publications Universitaires.

p.u.f : presses universitaires de France.

Op.cit = المرجع السابق

Ibid = المرجع نفسه

مقدمة

مقدمة

إن دراسة العلاقات بين الدول، مهمة في التاريخ البشري، أيا كان نوعها، لأنها تبحث في العناصر والعلاقات التي تربط بين الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتي تختلف من فترة تاريخية إلى أخرى، تبعا للتطورات والمستجدات التي تطرأ على الساحة الدولية، فإذا كان مصطلح العلاقات الدولية يتضمن الإشارة إلى العلاقات بين الدول، فإنه في الواقع أوسع مدى من ذلك بكثير، ذلك أن المقصود من المصطلح، هو رصد كافة الإتصالات بين الدول، وحركات الشعوب، والأفكار، والسلع عبر حدود وطنية، وبالتالي فإن العلاقات بين الدول تعكس كافة صور المبادلات التي تجري بين الأطراف المختلفة عبر الحدود، من بين ما يمكن وصفه بالعلاقات الدولية، فالأفراد الذين يسافرون عبر الحدود، والتجارة التي تنتقل من دولة إلى أخرى، والبعثات التي يتم تبادلها، والمنظمات والهيئات التي ترعى تلك العلاقات، سواء أكانت حكومية أو غير حكومية تدخل جميعا في إطار العلاقات الدولية.

وهذا ما يمكن أن نقيسه على العلاقات القائمة بين إيالات الدولة العثمانية في العصر الحديث، ومن بين تلك الإيالات إيالات الشمال الإفريقي الثلاث، التي كانت تمثل وتشكل وحدة مترامية ومتكاملة من أجزاء الخلافة العثمانية.

إن دراسة العلاقات بين إيالة الجزائر كواحدة من بين أقوى الإيالات، والتي كانت لها مكانة هامة لدى الدولة العثمانية، وإيالاتي تونس وطرابلس الغرب، لهي من بين أهم المواضيع الهامة التي تستوجب الدراسة والتمعن، وذلك لكثرة الأحداث والتطورات التي طرأت على علاقاتها بعضها ببعض، كما يمكن القول بأن دراسة مثل هذه المواضيع لا يمكن فصلها عن التطورات الحاصلة في ميدان العلاقات الدولية آنذاك، لاسيما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وهي الفترة قيد الدراسة.

وإذا ما أردنا الحديث عن العلاقات بين إيالة الجزائر وإيالة تونس خلال الفترة قيد الدراسة، وجدناها إتسمت بالحيوية والنشاط، بسبب كثرة الحروب الدائرة بين جيشي الإيالتين، وإن اتسمت في مرّات عديدة بالسلم والتعاون المتبادل بينهما، في حين أن العلاقات بين الجزائر من جهة، وإيالة طرابلس الغرب من جهة ثانية، إتسمت في مجملها بالطابع السلمي والتعاون الحاصل بينهما، وفي وقوفهما إلى جانب الدولة العثمانية في حروبها ضد القوى المسيحية المتحالفة، ذلك أن إيالة الطرابلسية لم تكن بنفس مكانة الإيالتين الجزائرية والتونسية.

إن الأسباب التي كانت وراء اختيارنا لموضوع العلاقات بين إيالة الجزائر وإيالاتي تونس وطرابلس الغرب يمكن أن نجملها فيما يلي :

أولا: إهتمامنا بالتاريخ العثماني بصفة عامة وبتاريخ إيالات الشمال الإفريقي على وجه الخصوص، والتي تمثل أحد أطراف الخلافة العثمانية، التي كان لها الدور البارز في رسم علاقات الدولة العثمانية مع غيرها من دول حوض البحر المتوسط والدول الأخرى .

ثانيا: قلة الدراسات التي تناولت موضوع العلاقات بين إيالة الجزائر وإيالاتي تونس وطرابلس الغرب مع بعض ، والدراسات السابقة إقتصرت على العلاقات مع تونس بالدرجة الأولى وفي الميدان السياسي فقط على وجه الخصوص.

ثالثا: ميلنا إلى البحث في العلاقات السياسية بين الدول دفعنا إلى البحث في ميدان العلاقات السياسية بين إيالات الشمال الإفريقي .

رابعا: وجود علاقات سياسية قوية ونشطة بين الجزائر وتونس من جهة، وبين الجزائر وطرابلس الغرب من جهة ثانية، أملت طبعها طبيعة النظام السياسي لكل إيالة بحكم الجوار وطبيعة الانتماء للخلافة العثمانية. خامسا: أن العلاقات بين إيالة الجزائر وتونس لم تكن ذات طابع إقليمي محلي، وإنما كانت على صلة بالتطورات الحاصلة في العالم آنذاك، مما يعطي للبحث طابع تاريخ العلاقات الدولية. سادسا: وجود علاقات إقتصادية وتبادل تجاري بيني نشط بين الإيالات العثمانية في شمال إفريقيا، لا سيما بين الجزائر وتونس.

سابعا: بالإضافة إلى العلاقات السياسية والتبادل التجاري النشط هناك علاقات ثقافية وترابط إجتماعي قوي بين الإيالات الثلاث وذلك بحكم الانتماء إلى الحضارة الإسلامية.

إن دراسة موضوع العلاقات بين إيالة الجزائر وإيالاتي تونس وطرابلس، له أهمية كبيرة في فهم ماضي وتاريخ الإيالات الثلاث، وكذا التعرف على الجذور التاريخية للعلاقات القائمة بين تلك الإيالات، سواء ما تعلق منها بفترات الحروب أو السلم.

أما فيما يتعلق باختيار الفترة التاريخية التي هي موضوع الدراسة، أي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر (1750-1830)، فيمكن القول أن تلك الفترة شهدت علاقات نشطة بين هذه الإيالات، لا سيما فيما يتعلق بالجزائر وتونس، والتي تراوحت ما بين فترات السلم والحرب، ومحاولة تونس التخلص من الهيمنة الجزائرية في بعض الفترات، أما فيما يتعلق بطرابلس الغرب، فإنّ العلاقات بينها وبين الجزائر كانت في غالبية فتراتهما إن لم نقل في كلها فترات سلم وتعاون بين الإيالتين، ونلمس ذلك من خلال الموقف الايجابي لطرابلس الغرب من الإحتلال الفرنسي للجزائر، عكس إيالة التونسية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ بداية القرن التاسع عشر، شهدت تنافسا دوليا وعلى الخصوص أوروبا من أجل تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية، فكانت إيالات الشمال الإفريقي الثلاث محورا للتنافس الدولي آنذاك.

أما فيما يتعلق بمنهج البحث في الموضوع، فقد إعتدنا على المنهج التاريخي الذي يعتمد على التحليل والنقد، كما إعتدنا على التسلسل الزمني للأحداث في دراسة العلاقات بين إيالة الجزائرية وإيالاتي تونس وطرابلس من جهة ثانية .

ولما كانت قيمة البحث التاريخي تتركز حول طرح الإشكاليات والإجابة عنها من خلال دراسة الموضوع فقد كانت إشكالية البحث على النحو الآتي:

● ما طبيعة العلاقات بين إيالة الجزائر وإيالي تونس وطرابلس الغرب. هل هي علاقات تعاون وتضامن بحكم الانتماء للخلافة العثمانية أم علاقات توتر ونزاع؟ وهل كانت الدولة العثمانية تنظر بنفس الدرجة للإيالات الثلاث في شمال إفريقيا أم هناك تفاوت بينهم؟
ولما كان لموضوع العلاقات بين إيالة الجزائر وإيالي تونس وطرابلس الغرب من أهمية فإنه إنطوى على مجموعة فرضيات كانت على الشكل الآتي :

أ - ما مدى تأثير النفوذ العثماني على الإيالات الثلاث، وهل كان هناك تفاوت بين هذه الإيالات في الولاء للخلافة العثمانية؟

ب - هل فعلا كان هناك علاقات وتعاون عسكري بين الإيالات الثلاث بحكم الانتماء للخلافة العثمانية في صراعها مع القوى الغربية؟

ج- هل كانت هناك علاقات سياسية بين الإيالات الثلاث؟ وإن وجدت هل جسدت في شكل تعاون إقتصادي وثقافي وترابط؟

د- ما موقف إيالي تونس وطرابلس الغرب من التنافس الاستعماري المبكر على الجزائر سنة 1830م؟ وفي ضوء دراستنا للعلاقات بين إيالة الجزائر وإيالي تونس وطرابلس الغرب رسمنا خطة إستخرجناها من الإشكالية في الفترة ما بين 1750م-1830م، فقسمنا هذا الموضوع إلى مدخل وأربعة فصول.

ففي المدخل أشرنا وكتوطئة للموضوع إلى أهمية البحر الأبيض المتوسط والتنافس الدولي فيه، لما لأهمية البحر المتوسط الغربي في الصراع بين الدولة العثمانية والقوى الغربية، وبالتالي كان للإيالات الثلاث في شمال إفريقيا دور إستراتيجي في رسم العلاقات بينها وبين القوى المتنافسة عليه، ثم أشرنا إلى الأطماع الأجنبية في شمال إفريقيا مع بداية القرن السادس عشر، كالأطماع البرتغالية إلى غاية مجيء العثمانيين إلى شمال إفريقيا وتأسيسهم للإيالات الثلاث الجزائر، ثم طرابلس الغرب، فتونس.

وفي الفصل الأول الذي عنوانه بالعلاقات السياسية بين الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي، فقد تطرقنا فيه إلى أهم الحروب التي قامت بين الإيالتين، وطبيعة العلاقات السياسية بينهما في هذه الفترة، من خلال التطرق إلى التزامات تونس تجاه الجزائر إنطلاقا من الوثائق الأرشيفية التي إعتمدنا عليها، وكذا الدور الجزائري البارز في التوسط بين تونس والدول الأوروبية في ما يتعلق بإبرام المعاهدات.

أما في الفصل الثاني والذي خصصناه للعلاقات بين الجزائر وتونس، خلال الثلاثين سنة الأولى من القرن التاسع عشر، فقد تبعنا فيه أهم التطورات السياسية بين الجزائر وتونس من بداية القرن إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، حيث تميزت هذه الفترة بتواصل الحروب بين الإيالتين خلال نصف الفترة الأولى من الدراسة قبل أن تتخلص تونس من الهيمنة الجزائرية عليها، وكذا موقف تونس من الاحتلال الفرنسي للجزائر.

أما فيما يتعلق بالفصل الثالث فقد خصصناه إلى الدراسة والبحث في العلاقات بين إيالة الجزائر وإيالة طرابلس الغرب، في كل الفترة قيد الدراسة، والتي كانت في معظم فتراتهما متسمة بالطابع السلمي والتعاون من خلال الإشارة إلى الدور الجزائري في إبرام اتفاقيات بين طرابلس الغرب والدول الغربية، وكذا موقف طرابلس الغرب من الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وأخيرا في الفصل الرابع، فقد خصصناه إلى البحث في العلاقات الاقتصادية بين الإيالات الثلاث الجزائر مع تونس وطرابلس الغرب، إعتقاداً على بعض الوثائق الارشيفية التي تصور لنا أنواع المبادلات التجارية، والطرق التجارية الرابطة بين الإيالات الثلاث، لاسيما فيما يتعلق بالتبادل التجاري بين الجزائر وتونس، كما بحثنا في العلاقات الثقافية والترابط الاجتماعي بين شعوب الإيالات الثلاث، من خلال الرحلات العلمية، والتواصل الثقافي، ونماذج لبعض من علماء الإيالات الثلاث، الذين درسوا في المعاهد العلمية التي كان لها دور وإشعاع ثقافي في كامل بلاد شمال إفريقيا.

وختمنا بحثنا هذا بمجموعة من الملاحق المتعلقة بالمراسلات التي كانت تتم بين الدايات الجزائريين من جهة، وبين بايات تونس وباشوات طرابلس الغرب من جهة ثانية.

ولما كان هاجس كل باحث في التاريخ هو الحصول على كم هائل من المصادر التاريخية لإثراء بحثه وإشباعه بالحجج، وبما أن موضوعنا متعلق بتاريخ الإيالات العثمانية الثلاث في شمال إفريقيا الجزائر، وتونس، وطرابلس المتجاورة مع بعضها، فقد اعتمدنا على المصادر الجزائرية والتونسية بالدرجة الأولى، ثم المصادر المتعلقة بتاريخ طرابلس الغرب، ولأجل ذلك قمنا بزيارة إلى تونس في الفترة ما بين 17 نوفمبر إلى 6 ديسمبر 2014م، فاطلعنا على رصيد مكتباتها العامرة بمصادر تتعلق بتاريخ تونس في العهد العثماني، هذا إضافة إلى دور أرشيفها الوطني ومكتبتها الوطنية، بالإضافة إلى بعض مكنتات معاهد قسم التاريخ بها، فيما تعذر علينا التنقل إلى طرابلس بسبب الأوضاع الأمنية غير المستتبة بها، واعتمدنا على ما حوت عليه المكنتات الجزائرية والتونسية من أرشيف، وكتب، ومجلات، متعلقة بتاريخ طرابلس، والتي من خلالها استنتجنا طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين الجزائر وطرابلس الغرب في تلك الفترة.

ومن المصادر التي اعتمدنا عليها نذكر:

- 1 - وثائق الأرشيف الوطني التونسي لاسيما الصندوق 223 ملف 384 والذي إحتوى على العديد من الوثائق التي هي في مجملها رسائل كانت متداولة بين دايات الجزائر وبايات تونس حول مختلف القضايا العالقة بينهما سواء في حالات السلم أو الحرب.
- 2 - الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي ولا سيما ما تعلق بالدفتر 2144 والذي إحتوى على العديد من قيم الهدايا المتبادلة بين دايات الجزائر وبايات قسنطينة بملوك تونس، بالإضافة إلى الدفتر 2984 والذي احتوت أوراقه 11 الأخيرة منه على معلومات هامة عن قيمة المبادلات التجارية بين الجزائر وتونس.

3 - الأرشيف الوطني الجزائري: إذ احتوى على العديد من المراسلات لاسيما تلك الصادرة من الباب

العالي إلى أوجاقات الغرب في حالات النزاعات بينهم ، هذا بالإضافة إلى وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية التي إحتوت على مراسلات مهمة بين باشا طرابلس وداي الجزائر لاسيما في أواخر الحكم العثماني في الجزائر.

ومن المصادر التاريخية نذكر:

- كتاب المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي لمحمد صغير بن يوسف، وهو مؤرخ كرغلي من نسل تركي تزوج بتونسية من مواليد 1694 وتوفي سنة 1764م وهي السنة التي أنهى فيها هذا الكتاب ، إذ يعتبر هذا الكتاب مصدراً من الدرجة الأولى عن الحرب الباشية الحسينية ، كما تضمن معلومات قيمة عن الحرب بين الجزائر وتونس وقد اعتمدنا على الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب.

- إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان لأحمد ابن أبي الضياف إذ يعتبر من بين المصادر التاريخية الهامة في تاريخ تونس، فيستعرض فيه العديد من الحوادث بين تونس والجزائر، ومما لاحظناه عند هذا المؤرخ هو تحيزه في طرحه للأحداث لتونس، ولم يلتزم بجانب من الدقة والموضوعية.

- تاريخ قسنطينة لصالح العنتري، بالإضافة إلى كتاب مجاعات قسنطينة لنفس المؤرخ، فالكتاب الأول يعتبر مهم ، إذ يتعرض بالتفصيل لباياتها الذين تداولوا عليها، وعلاقتهم ببايات تونس لا سيما أثناء الحروب، أما الكتاب الثاني فتعرض لأهم المجاعات والأوبئة التي مرت بها مدينة قسنطينة.

ومن المصادر الأجنبية التي إعتمدنا عليها في هذا البحث، نذكر تاريخ تونس والجزائر في القرن الثامن عشر ميلادي « tunis et alger au 18em siecle » لفونتير دو بارادي ، إذ يستعرض فيه المؤرخ ما شاهدته في تونس والجزائر، لأنه زارها خلال النصف الثاني من القرن 18م، وتطرق فيه لأهم الحروب التي جرت بين الجزائر وتونس .

ويليه تاريخ قسنطينة لأرنست مارسيه « histoire de costantine »، وهو عبارة عن سرد مختصر لتاريخ قسنطينة وباياتها ، وقد اعتمدنا عليه إلى حد كبير في الوصف التفصيلي للخلافات والحروب التي جرت بين الجيشين الجزائري والتونسي وكذا التعرف على بعض الأماكن خاصة في الشرق الجزائري.

بالإضافة إلى ذلك هناك كتاب الحوليات التونسية لألفونسو روسو « AnnalesTunisiennes » ل

" « Alfonse Rousseau »، وهو كتاب مهم يتضمن تاريخ تونس بالتفصيل وعلاقتها بالدولة العثمانية والدول الأوروبية، وإلى جانب ذلك يتحدث على الكثير من الوقائع التي حدثت بين الجزائر وتونس، ومما لاحظناه في هذا الكتاب أنه لم يكن موضوعيا في طرحه للحوادث التي وقعت بين الإيالتين، وأظهر ميولا وتعاطفا مع الإيالة التونسية .

كما إعتمدنا كذلك على الحوليات الليبية لشارل فيرو Charle.Veraud- Annales

Tripolitaines ، وهو كتاب قيم يسرد فيه كل الوقائع والأحداث التي مرت بها الإيالة الطرابلسية منذ أن أصبحت إيالة تابعة للخلافة العثمانية، كما يشير إلى أهم الأحداث التي كانت لها علاقة بإيالة الجزائر. وبالإضافة إلى الكتب، إعتدنا أيضا على العديد من المجالات التاريخية باللغتين العربية والفرنسية، ومن بين المجالات التي اعتمدنا عليها نجد المجلة التاريخية المغاربية، والمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية الصادرتان عن مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات إذ احتوت في أعدادها الكثيرة على مواضيع في غاية الأهمية فيما يتعلق بالعلاقات بين الإيالتين الجزائرية والتونسية، لا سيما فيما يتعلق بالتبادل التجاري البيني، ومواضيع أخرى متعلقة بإيالة طرابلس الغرب، وباللغة الفرنسية إعتدنا على المجلة الإفريقية. « Revue Africain ». ومن الدراسات السابقة التي تناولت هذا الموضوع لاسيما فيما يتعلق بالعلاقات بين الجزائر وتونس، نجد الدراسة القيمة التي قام الأستاذ عمار بن خروف حول علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات 1671-1830م، وهي الدراسة التي استفدنا منها والتي غطت العلاقات السياسية بين الإيالتين في عهد الدايات، والدراسة التي قامت بها حسام صورية حول العلاقات بين إيالت الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر. ومن المصطلحات التي وردت بكثرة في هذا البحث نجد:

الإيالة: وهي أكبر التقسيمات في الدولة العثمانية، فقد كانت الدولة مقسمة إداريا إلى إيالات، والإيالات إلى سناجق، والسناجق إلى أفضية، والأفضية إلى نواحي، والنواحي إلى قرى، وقد أشرف على الإيالات في الدولة العثمانية أمير الأمراء، ثم الوزراء بعد القرن السادس عشر ميلادي، حيث كانوا يمثلون السلطة العثمانية ويجمعون بين الحكم الإداري والعسكري للإيالة، وهذا ما إنطبق على إيالات شمال إفريقيا التي أصبحت منذ القرن السادس عشر ميلادي تابعة للدولة العثمانية.

أوجاقات الغرب: مصطلح أوجاق لفظ تركي ومعناه المكان المعد من الطين أو قرميد الذي تشعل فيه النار، ثم تطور هذا اللفظ وأطلق على الجماعة التي يلتقي أفرادها في مكان واحد، ثم أطلق على مجتمع أرباب الحرف، كما أطلق على الصنف من الجند كالسباهية، وأصبح الوجود في الجزائر يعني المؤسسة العسكرية الإنكشارية المهيمنة على الديوان، والتي تعود إليها السلطة الفعلية عن طريق الداوي ومساعديه من الموظفين الذين عملوا بالحامية العسكرية، وتولوا عن طريقها المناصب المهمة في الجهاز الإداري المعروف محليا بالبايلك.

الباب العالي: وهو مقر رئيس الوزراء، أو مقر الحكم في الدولة العثمانية، وقد أنشأه السلطان محمد الرابع سنة 1654م، وأطلق فيما بعد إسم المكان على ساكنه، وهو يعني الوزير الأعظم، وكان للباب العالي أهمية كبيرة في القرن التاسع عشر ميلادي، وعلى وجه الخصوص في عهدي السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني. ومن الصعوبات التي واجهتنا في إنجاز وإتمام هذا البحث كثيرة، كانعدام المادة العلمية الكافية، لاسيما فيما يتعلق بالعلاقات بين الإيالة الجزائرية والإيالة الطرابلسية، وتعذر إنتقالنا إلى طرابلس الغرب نظراً للوضع الأمني غير المستتب، هذا بالإضافة إلى صعوبات التحكم في البحث بسبب تشعبه واشتماله في الدراسة على العلاقات بين الإيالات على جميع الميادين السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية. كما إستغرق إتمام هذا البحث وقتاً، إذ

وبعد جمع مادته تطلب قراءة الوثائق الأرشيفية والتحقيق في محتواها خاصة وأن بعضها غير واضحة الخط، بالإضافة إلى أسباب أحر عملية وعائلية.

ملاحظة: فضلنا إستعمال مصطلح طرابلس الغرب بدل ليبيا لأنه من خلال تعاملنا بالوثائق الأرشيفية التي إعتدنا عليها لم نصادف مصطلح ليبيا وإنما مصطلح طرابلس الغرب.

والله ولي التوفيق.

مدخل

أولاً: البحر الأبيض المتوسط والتنافس الدولي فيه:

1- أهمية البحر الأبيض المتوسط

ثانياً : اتجاه الأطماع الاسبانية والبرتغالية إلى المغرب الإسلامي

1 - الأطماع البرتغالية

2- الأطماع الإسبانية

أ - طبيعة الاعتداءات الاسبانية على شواطئ المغرب الإسلامي

ب - التدخل الإسباني ودوافعه

* دوافع دينية

* دوافع سياسية وإستراتيجية

ثالثاً: إستنجد سكان المغرب الإسلامي بالعثمانيين

1 - الجزائر إيالة عثمانية

2 - طرابلس إيالة عثمانية

3 - تونس إيالة عثمانية

رابعاً: واقع العلاقات بين الإيالة الجزائرية وإيالتي تونس وطرابلس قبل سنة 1750م

1/ مع إيالة تونس

2/ مع طرابلس الغرب.

مدخل

أولاً : البحر الأبيض المتوسط والتنافس الدولي فيه :

1- أهمية البحر الأبيض المتوسط :

يعتبر البحر الأبيض المتوسط مهد الحضارات منذ الأزمنة القديمة، وهو يتوسط القارات الثلاث إفريقيا وأوروبا وآسيا، إذ لعب دوراً محورياً واستراتيجياً هاماً حول الصراع الذي كان قائماً حوله منذ القدم، كونه منطقة حضارية ترعرعت على ضفافه حضارات راقية كالأمازيغية واليونانية والفينيقية والرومانية والعربية الإسلامية¹، ويصف لنا عبد الرحمن ابن خلدون البحر المتوسط في مقدمته قائلاً: "...وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف، ويبدأ في خليج متضيق في عرض إثني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف² ويسمى الرقاق، ثم يذهب مشرقاً وينفسح إلى عرض ستمائة ميل. ونهايته في آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه، وعليه هنالك سواحل الشام، وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب، وأولها طنجة عند الخليج، ثم إفريقية ثم برقة إلى الإسكندرية، ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج، ثم البنادقة، ثم رومة، ثم الإفرنجية ثم الأندلس إلى طريف عند الرقاق قبالة طنجة، وسمي هذا البحر الرومي والشامي، وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل قريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية³.

ولإبراز أهمية البحر الأبيض المتوسط في التنافس والصراع الدولي لابد لنا من إلقاء نظرة على هذا البحر وما إكتسبه من أهمية منذ أقدم العصور إلى مطلع العصر الحديث.

لقد مارست أغلب الشعوب المتوسطية ركوب البحر، فالإغريق بحكم موقعهم الجغرافي الممتاز وطبيعة شواطئهم الجزرية، كانوا مؤهلين لركوب البحر وكسب عيشهم من خلاله، ولعل هذا ما جعل مونتسكيو في كتابه روح الشرائع أن "...جميع الأغرقة الأولين من القراصين ومن المحتمل أن مينوس الذي كانت له إمبراطورية البحر لم ينل غير أعظم فوز في قطع الطرق"⁴، وقد كان أعدائهم الطبيعيون هم الفينيقيون فهم أول الشعوب المتوسطية المحتكرة للتجارة بهذا البحر، وأعطت المنافسة بين الشرق والغرب بداية الصراع في المجال البحري، ويمكن النظر لفترة الحروب البونية (264-146 ق.م) الطويلة التي دارت بين قرطاج وروما من هذا الباب، وبعد انهيار قرطاج سنة 146 ق.م سيطر الرومان سيطرة كاملة على هذا البحر لعدة قرون، حتى جاء الإسلام واستطاع الفاتحون العرب تحرير بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا من الحكم البيزنطي، فوجدوا أنفسهم أمام بيئة جديدة لم

1 - يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1991، ص41.

2 - طريف: هي إحدى بلديات مقاطعة قانس، التي تقع في منطقة الأندلس جنوب إسبانيا.

3 - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار الأرقم ابن أبي الأرقم، بيروت، ط2006، ص77.

4 - مونتسكيو، روح الشرائع، تر. عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص623.

يألفوها من قبل نظرا لطبيعتهم البدوية¹ ، ولهذا أرسل الخليفة عمر ابن الخطاب إلى عمرو ابن العاص واليه على مصر يسأله عن البحر فأجابه عمرو بهذه الكلمات " إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ، دود على عود"² ، ونتيجة لهذا الوصف منع عمر ابن الخطاب على المسلمين المخاطرة بأنفسهم في ركوب البحر ، غير أن هذا المنع لم يدم طويلا ، حتى أذن معاوية ابن أبي سفيان للمسلمين بركوب البحر لغرض الجهاد في سبيل الله ، فاعتمدوا على سكان الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط في إعداد وتجهيز لوازم ركوب البحر وخوض غماره ، حتى سيطروا على أغلب شواطئه . " ...وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل ميورقة ومنورقة وبابشة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج "³.

وهكذا أعاد العرب إلى الشرق ما فقدوه خلال عهود طويلة من هيبة ومجد وحضارة ، وقد وصف لويس أرشيبالد انتصار العرب على الروم وسيطرتهم على البحر المتوسط بقوله " ...وانقلب انتصار الاسكندر على دارا وانتصار روما على هانيبال ، وانتصار اورليان على الزباد ، ونبت الشرق الحضارة الغربية ...وبدا عصر الإسلام في دنيا البحر المتوسط ، وقد بلغت البحرية الإسلامية ذروة مجدها خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، حيث بلغ أسطول الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر مائتي مركب وكذا أسطول افريقية .

والحقيقة أن البحر الأبيض المتوسط بدأ يشهد مع بداية القرن العاشر الميلادي وحلول القرن الحادي عشر تزايدا ملحوظا في النفوذ المسيحي على حساب الحضور الإسلامي ، وبدأ التدني في النشاط البحري يتضح يوما بعد يوم خاصة بعد فقدان جزر البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية ومالطة⁴ ، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون " حتى إذا أدرك الدولة العبيدية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة فملكوها ... وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا ، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام ، وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لإظهار دينهم وعبادتهم وغلبوا بني خزرون على طرابلس ، ثم على قابس وصفاقس ، ووضعوا عليهم الجزية ، ثم ملكوا المهديّة مقر ملوك العبيديين من أيدي أعقاب بلكين بن زيري ..."⁵.

لقد كان هذا التفوق المسيحي على حساب المسلمين يرسم لنا مقدمات الحرب الصليبية التي بدأت في الجهة الأندلسية ثم انطلقت إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي ، ثم امتدت إلى المسلمين في الشرق⁶ ، ولا يمكن تفسير ذلك إلا على ضوء التفكك السياسي الإسلامي وتدهور النشاط البحري وانهاره ، فهو مرتبط أشد الارتباط بالعوامل السياسية والاقتصادية للدولة .

1 - أحمد سعيد الطويل ، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت . ط1 ، 2005 ، ص 21 .

2 - عبد الرحمن ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص 286 .

3 - ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص 287 .

4 - أحمد سعيد الطويل ، مرجع سابق ، ص 22 .

5 - عبد الرحمن ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص 288 .

6 - أحمد سعيد الطويل ، مرجع سابق ، ص 23 .

وسقوط دولة الموحدين النهائي في سنة 1275/673م فقد المغرب قوة سياسية إستطاعت توحيد جهوده تحت راية واحدة، وبانتهيارها انقسم المغرب إلى ثلاث دويلات هي بنو حفص في المغرب الأدنى "تونس" وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط "الجزائر" والمرينيين في المغرب الأقصى، ويظهر هذه الكيانات السياسية المتناحرة فيما بينها تحولت الثغور الإسلامية في المغرب من الهجوم إلى الدفاع، وأصبح الرباط هو السمة الأولى للجهاد، ولعلّ هذا ما يفسر كثرة الرباطات على طول الساحل المغربي من سبتة حتى الإسكندرية نتيجة لتزايد الأخطار المحدقة بهذا الساحل، وإذا كان هذا هو حال الشواطئ المغربية، فإن حال تجارتها البحرية كان أسوأ من ذلك بكثير، وذلك مع بداية القرن الرابع عشر الميلادي، ويعود سبب ذلك إلى أن سفن النصارى كانت تعكر صفو التجارة البحرية وسلامة المسلمين.

وعلى أية حال فهذه الأوضاع وغيرها تعكس بصورة واضحة مدى التفوق الذي كان يتمتع به النصارى عموماً والإسبان بصفة خاصة، ذلك التفوق الذي بلغ ذروته في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ميلادي باتحاد مملكتي أراغون وقشتالة واستيلائهم على غرناطة سنة 1492/898م آخر معاقل المسلمين في الأندلس، وبذلك فتح الباب على مصراعيه أمام الإسبان لمواصلة هجماتهم على المدن المغربية من المحيط حتى طرابلس، يدفعهم إلى ذلك حقد ديني موروث ورغبة جامحة في التوسع والتنصير¹، ويقول المؤرخ كات " لم يكن للأسبان من هم إلا نقل الحرب إلى إفريقيا بعد أن كانت نفس البلاد الإسبانية مسرحاً لهذه الحرب طيلة قرون، وإرغام العرب من أهل إفريقيا على اعتناق دين المسيح بواسطة السلاح"²، كما وصف الراهب خيمينس ximenes أسقف طليطلة بأنه " أول من فكر في إنقاذ شمال إفريقيا من الوحشية الإسلامية لكي تنتصر فيها المسيحية والحضارة"³، هذا وقد خشى هذا الراهب والمشهور بتعصبه الديني أن يكون سقوط غرناطة وفرار فلول العرب والمسلمين من الأندلس، إيذاناً بتوقف الهجومات ضد العرب⁴، وهكذا توفر الحماس الشعبي والجماهيري اللازم للحركة الصليبية واستغلال هذا الحماس في مطاردة المسلمين والقضاء عليهم عملاً بوصية الملكة إيزابيلا⁵، التي كانت تأمل في أن يطيل الله في عمرها حتى تحرير إفريقيا من سيطرة المسلمين⁶، ولم يكن زوجها الملك فارديناند ولا البابوية في روما أقلّ حماساً منها لهذا العمل الديني البحت في ظاهره، والذي كان يتخذ شعاراً له الإنجيل بيد والسيف بيد، بيد أن هذا لم يكن في الواقع السبب الحقيقي، بل هناك أسباب سياسية واقتصادية تقف وراءه، منها على سبيل المثال الرغبة في

¹ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 24.

² - نقلاً عن أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط3، 1985، ص 82.

³ - أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص 82.

⁴ - مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القلم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، ط 1964، ص 19.

⁵ - إيزابيلا الأولى (1451 - 1504) ملكة صقلية 1469 - 1504 وملكة قشتالة وليون 1474 - 1504، ثم إسبانيا بعد وحدتها مع مملكة أراغون 1479 - 1504م.

⁶ - أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص 80.

السيطرة على أوروبا معنويا تحت ستار الدين، والوقوف في وجه العنيد فرانسوا الأول (1515م-1547م) ملك فرنسا، وأخذ زمام المبادرة في السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط الذي بدأ يشهد ظهور الأتراك المسلمين، ومن العوامل الاقتصادية محاولة إيجاد بديل للإقتصاد الاسباني المنهار، بعد طرد المسلمين والحصول على موارد اقتصادية جديدة من خلال السيطرة على المغرب والوصول من خلاله إلى وسط إفريقيا.

هذا وقد ساهمت تلك العوامل مجتمعة إلى جانب حالة الضعف والتمزق التي كان يعانيها المغرب في وقوعه تحت السيطرة البرتغالية ثم الاسبانية فيما بعد، واشتداد التنافس فيما بينهما للسيطرة على سواحل الضفة الجنوبية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط .

ثانيا : اتجاه الأطماع الاسبانية والبرتغالية إلى بلاد المغرب الإسلامي .

1 - الأطماع البرتغالية :

شهد العالم الأوروبي في أواخر القرن 15م تحولا جذريا نتيجة النهضة العلمية التي تمخضت عنها الكشوف الجغرافية ، وكان للبرتغاليين دور هام فيها، إذ تمكنوا من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح¹ في سنة 1487م، مما فتح أمامهم الطريق للوصول إلى الهند في عام 1498م، وحولوا عندئذ الحركة التجارية العالمية من البحر الأبيض المتوسط إلى البحار الشرقية التي سيطروا عليها، وكان لهذا الحدث 'إنعكاسات سلبية على الأوضاع الاقتصادية لبلدان البحر المتوسط²، هذا وكان المغرب الأقصى هدفا طبيعيا للبرتغال لأنه يحقق مصلحتين في نفس الوقت أولها كونه حلقة في طريق التوسع نحو غرب إفريقيا وثانيها إرضاء الروح الصليبية التي ورثتها أيبيريا أثناء نضالها ضد الحكم العربي الإسلامي ، فشهدت سواحل المغرب غارات مسيحية متعددة منذ القرن 13م³ ، وقد أسس البرتغاليون خلال تقدمهم في سواحل إفريقيا عددا من المستعمرات في شواطئ المغرب الأقصى، كانت أولها سبتة⁴، ففي 25 جويلية سنة 1415م غادرت ميناء لشبونة قوة برتغالية ضخمة بأسطول من 240 سفينة، وحرصت البرتغال على إخفاء وجهة هذه الحملة حتى وصلت سفنها إلى ميناء سبتة المغربي الذي فوجئ بهذا الغزو، ودخل الغزاة المدينة، فمنذ ذلك التاريخ لم تعد سبتة إلى حظيرة الوطن الأم⁵ ، ويذكر المؤرخون السبب المباشر الذي حدا بيوحنا الأول ملك البرتغال إلى غزو سبتة، فيقولون أنه بعد توقيع الصلح مع قشتالة في عام

¹ - هو رأس من اليابسة في القارة الأفريقية بالقرب من كيب تاون (جنوب إفريقيا) يمتد في المحيط الأطلسي، ويشبه في شكله الرأس المحدث. كانت تمر منها السفن التجارية المتوجهة من وإلى آسيا.

² - فاروق عثمان أبابضة ، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر الأبيض المتوسط أثناء ق 16، ط2، دار المعارف القاهرة-1994- ص12.

³ - صلاح العقاد ، المغرب في بداية العصور الحديثة، معهد الدراسات العربية الإسلامية، ط3، 1963، ص 30.29.

⁴ - شويتام ، دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي 1519-1830م، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010، ص 69.

⁵ - شوقي عطا الله الحمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، ليبيا .تونس .الجزائر.المغرب، ط1، مكتبة الأنجلومصرية ، 1977، ص44.

1411م رأى أنه من الضروري أن يشغل النبلاء عن المنازعات الداخلية بحملة سبتة¹، كما إحتلت البرتغال (القصر الكبير عام 1452م، على أن الاستيلاء على طنجة ظلّ منذ ذلك الوقت الحلم الذي يتطلع التاج البرتغالي لتحقيقه، وقد بذلت البرتغال لذلك ثلاث محاولات للاستيلاء على هذا الميناء المغربي آخرها في يناير سنة 1464م خسرت فيها البرتغاليون ما يقرب من مائتي قتيل ، وأكثر من ألف أسير، ولم تلبث البرتغال أن استولت على العرائش ثم طنجة في أوت سنة 1471م².

مهد جيان الثاني الذي حكم البرتغال (1481-1491)لبسط نفوذ بلاده على مينائي أسفي وأزمور. فعقد مع شيوخ القبائل في المناطق المحيطة بالميناءين معاهدات واتفاقات كفلت للبرتغال بعض الامتيازات فيهما، وفي سنة 1508م أرسل الملك إمانويل الأول قوة برتغالية حملتها أربع سفن حربية لتدعيم نفوذ البرتغال في أسفي وتأييد السلطات الموالية لهم بها وإسكات أصوات المعارضين للنفوذ الأجنبي في الميناء، كما اتجهت أنظار البرتغال إلى ميناء أغادير باعتباره مرفأ صالح لرسو السفن، وقد أدركت البرتغال هذه الأهمية منذ السنوات الأولى للكشوفات الجغرافية، فعمدت منذ عام 1447م لربط شيوخ القبائل في المناطق المجاورة، ومن المناطق الهامة التي بسطت البرتغال نفوذها عليها أيضا في الساحل المغربي منطقة أزمور³، ففي أول سبتمبر سنة 1513م وصلت السفن البرتغالية إلى مواقعها، وبدأت تصوب نيران مدافعها على المدافعين فاضطرت المدينة لفتح أبوابها للمهاجمين

2 - الأطماع الإسبانية :

أ- طبيعة الاعتداءات الإسبانية على شواطئ المغرب الإسلامي.

في الوقت الذي بدأت فيه البرتغال نشاطها الاستعماري في أوائل القرن الخامس عشر ميلادي كانت إسبانيا لا تزال مقسمة إلى ممالك لم تتحد بعد، لكن لم تلبث أن أصبحت إسبانيا دولة أوروبية عظمى قوية في البحر والبر بعد انضمام دولة أراغونة البحرية ودولة قشتالة في عام 1469م بزواج فرديناند صاحب أراغونة (1467م- 1516م) من إيزابيلا صاحبة قشتالة (1474م-1504م)⁴.

كان تدخل الإسبان في شمال إفريقيا امتدادا للحرب مع المسلمين، تلك الحرب التي يطلق عليها الإسبان حرب الاسترداد reconquista ، وقد تركت الملكة إيزابيلا في وصيتها ما يلي : "...إني أرجوا الأميرة إبنتي "جين" والأمير زوجها "فيليب" وأمرهما بطاعة وصايا أمنا المقدسة الكنيسة طاعة تامة ، وأن يكون حمايتها والمدافعين عنها

¹ - صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص 30.

² - نفسه.

³ - كلمة أزمور في لغة البربر تعني الزيتون وكانت لها أهمية باعتبارها الميناء الذي يصدر حاصلات قبائل ذكالة ، كما أنها مفتاح الطريق إلى مراكش، ففي 1 سبتمبر 1513م وصلت السفن البرتغالية إلى مواقعها وبدأت تصوب نيرانها على المدافعين عنها فاضطرت إلى فتح أبوابها.

⁴ - هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، تر : زينب عصمة راشد. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ط 3، دار المعارف ، القاهرة، 1961-ص

حسبما يقتضي واجبهما، وألا يكفا عن متابعة فتح إفريقية ومحاربة الكفار في سبيل الإيمان...". وكان رجال الدين الإسبان ولا سيما رجال محاكم التفتيش يغذون على الدوام نار التعصب، وقد أخذوا باضطهاد المسلمين لا سيما بعد سقوط غرناطة سنة 1492م¹.

أخذت إسبانيا مشاركة البرتغال منذ نهاية القرن الخامس عشر ميلادي في اعتداءاتهما على سواحل المغرب، لذا ظهرت الحاجة إلى تقسيم البلاد إلى منطقتي نفوذ، ولهذا الغرض عقدت معاهدة بين البلدين في سنة 1479م أتفق بمقتضاها على أن يكون للإسبان قيادة حرب الإسترداد في المنطقة الواقعة شرق حجر باديس، وهي نقطة تقع عند إلتقاء الساحل المراكشي بالساحل الجزائري تقريبا، بينما يتولى البرتغاليون هذه المهمة في السواحل الممتدة غربا وجنوبا، ثم أكدت إيزابيلا هذه الاتفاقية في مؤتمر توردي سيللاس سنة 1494م، ومع ذلك لم تتقيد إسبانيا بهذه الاتفاقية، ففي سنة 1497م علم احد النبلاء الإسبان بأن ميناء مليلة حال من حاميته فسارع إلى إنتهاز الفرصة فأغار عليه وتمكن من إحتلاله فمنحته الحكومة الإسبانية هذا الميناء كإقطاعية وراثية، وعندما سرى الضعف إلى البرتغال أضاف الإسبان ميناء سبتة إلى ممتلكاتهم في شمال مراكش².

منذ مطلع القرن 16م توسعت مشاغل إسبانيا الخارجية في أكثر من ميدان، في أمريكا وشمال إفريقيا وإيطاليا، ثم في القارة الأوروبية بعد تسلم ملك إسبانيا شارل حفيد فارديناند وإيزابيلا تاج الإمبراطورية الجرمانية المقدسة باسم شارلكان³. كان عمل إسبانيا وسياستها الخارجية يفتقدان إلى التركيز، وهذا ما يفسر نشاط السياسة الإسبانية في شمال إفريقيا أو فتور هذا النشاط، أو يفسر إن صح التعبير تحبط السياسة الإسبانية الإفريقية⁴، كما لا يمكننا أن ننكر عامل آخر ساهم في زيادة الأطماع الإسبانية على سواحل شمال إفريقيا ألا وهو الضعف الشديد الذي كانت تعانيه الدول الثلاث الحاكمة في أقطار الشمال الإفريقي.

إن الدول الثلاث التي كانت تتنافس فيما بينها على حكم دول المغرب العربي: الدولة المرينية والدولة الزيانية والدولة الحفصية قد أضعفتها الحروب الداخلية وإستنزفت طاقاتها المالية والمعنوية، والنزاعات الداخلية والصراعات المتواصلة بين زعماء القبائل المتنافسين فيما بينهم على السلطة، ونتيجة لهذه الصراعات بين زعماء الدول وخصومهم في الداخل لم تتمكن هذه الدول من التركيز على قضايا التنمية والتفرغ للدول الأجنبية "المسيحية"⁵، كما كانت الدول الثلاث في حالة ضعف شديد، مما ساعد على تفكك السلطة السياسية وانتشار الفوضى

1 - حمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط1969، ص1، ص13.

2 - صلاح العقاد، مرجع سابق، ص36.

3 - شارلكان أوكارلوس الخامس (1500-1558م) ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

4 - محمد خير فارس، مرجع سابق، ص15.

5 - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البدء و إلى غاية 1962، دار البصائر، ط3، 2008، ص49.

وصارت أقطار المغرب الإسلامي ولا سيما المغرب الأوسط " الجزائر فسيفساء سياسية يتعذر تحديدها ¹ ، فالدولة المرينية (592هـ-961هـ/1196م-1554م) قد حكمت لمدة 358 سنة، وانتهت سلطتها على المغرب الأوسط سنة 796هـ/1393م أي يوم قام سلطان الزيانيين أبو زيان بن أبي حمو موسى الثاني بقطع الدعوة للمرينيين في تلمسان، ومنذ أن تولى الحكم السلطان أبو سعيد عثمان الثاني سنة 801هـ/1398م. بدأت الدولة تفقد قوتها ولم تعد قادرة على مواجهة البرتغاليين ، أما في عهد السلطان أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد عثمان الثاني الذي تولى الحكم (831هـ/1428م)، فقد اقتسم الوزراء السلطة بينهم ، ففقد هيئته وعم الاضطراب بالبلاد، فثارت الرعية ساخطة على السلطان فقتلته وقتلت معه ولاته اليهود سنة 869هـ/1465م، فانقرضت دولة بني مرين هام 961هـ/1554م يوم تغلب عليها أبو عبد الله الشيخ السعدي . في حين أن الدولة الحفصية (627هـ/948هـ-1229م-1541م) فقد حكمت بعض مناطق الجزائر لمدة 312 سنة، وقد انهارت قوتها بسبب الحروب المتواصلة مع الولايات التابعة لها، والحروب المستمرة مع الدول الأوروبية ، وفي سنة 1513م اضطر السلطان الحسن بن محمد أن يتحالف مع الإسبان ضد الأتراك، وفي يوم 24 سبتمبر 1573م سقطت تونس في يد الأتراك ووقع في الأسر ملكها محمد بن الحسن، وبذلك انتهت الدولة الحفصية، أما بالنسبة للدولة الزيانية بالمغرب الأوسط "الجزائر" (633هـ-936هـ/1236م-1530م) حافظت على كيانها لمدة 294 عاما، لكن الصراعات الداخلية والحروب المتواصلة أنهكت الدولة بحيث أصبح سلاطين الدولة الزيانية يستنجدون بالإسبان ويتحالفون معهم للبقاء في الحكم ².

ب- التدخل الإسباني ودوافعه :

إن الضعف الشديد والتمزق السياسي الذي شهدته الدويلات الثلاث الحاكمة في المغرب الإسلامي في نهاية القرن الخامس عشر ميلادي ومطلع القرن السادس عشر ميلادي، بالإضافة إلى سقوط غرناطة وهجرة المسلمين من الأندلس إلى موانئ المغرب، كل هذه العوامل زادت من حدة الصراع بين شمال إفريقيا الإسلامية وأوروبا المسيحية، كما شجع هذا الانحلال المطامع المسيحية ولا سيما الإسبانية في احتلال المنطقة ، وقد تركز التدخل الإسباني في المغربين الأوسط والأدنى، كما اشرنا إلى ذلك بعد معاهدة نوردى سيلاس سنة 1494م والتي عقدتها إسبانيا مع البرتغال، أما إذا أردنا البحث في الدوافع التي أدت بإسبانيا إلى احتلال موانئ المغرب الإسلامي فيمكن أن نوجزها فيما يلي :

¹ - محمد خير فارس ، مرجع سابق، ص15.

² - عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 50.

* دوافع دينية :

فهي وليدة الصراع مع المسلمين خلال حرب الإسترداد، وقد اشتدت تجاوبا مع دعوات البابا إلى الحرب الصليبية في النصف الثاني من ق 15م إثر سقوط القسطنطينية سنة 1453م، ولعب المتعصبون الإسبان وعلى رأسهم خمينيس دورا بارزا في إعداد الحملات الإسبانية وتوجيهها ، وقد استاء الإسبان من لجوء ملك غرناطة أبي عبد الله وعدد من أعيان الأندلس إلى وهران وترحيب السلطان الزياني محمد الثاني بهم ، وحاول أن يخفف من وقع هذا العمل في نفوس الإسبان بسبب عجزه عن مجابتهم، فسافر إلى اسبانيا مصحوبا بهدايا ثمينة، ونجح إلى حد ما في تخفيف غضب ملك إسبانيا، إلا أن ثورة المسلمين في غرناطة سنة 1501م وهجمات المسلمين على الجزر والسواحل الاسبانية ربيع 1505م زود المتعصبين الإسبان بالحجج اللازمة، لا سيما وأن نشاط القرصنة كان يشجعه ويسهم فيه مسلمو الأندلس المطردون أو المهاجرون من إسبانيا . فكانوا يحملون حقدهم على الإسبان ويقصون على إخوانهم في شمال إفريقيا قصص الحروب والاضطهاد والغدر والنهب والاعتداء على حرمة المساجد والمقدسات، فاثأروا عواطف المغاربة وطلبوا مساعدتهم لإنقاذ إخوانهم الذين حال فقرهم دون مغادرة إسبانيا، كما أن الأمراء الأندلسيين الذين لجأوا إلى بلاطات المغرب وتلمسان وتونس كانوا يستصرخون حكام هذه البلاد ليمدوا يد المساعدة لإخوانهم مسلمي إسبانيا، وبانتظار قيام رد فعل مغربي ضد إسبانيا بدأ سكان موانئ شمال إفريقيا يشنون حربا بحرية ضد السفن والموانئ الإسبانية، وفي كل الموانئ الصغيرة التي استوطن فيها المهاجرون سلحت سفن خفيفة كانت تقوم منفردة أو متجمعة في أساطيل صغيرة بمهاجمة السفن التجارية والموانئ الاسبانية¹ التي إقفرت من سكانها².

* دوافع سياسية وإستراتيجية :

فقد كانت سواحل شمال إفريقيا ضرورية لكل اتصال بحري آمن بين السواحل الإسبانية وسواحل إيطاليا الإسبانية، كما كانت ضرورية لنشاط إسبانيا في البحر المتوسط، وكان الكاردينال خمينيس يعرف كيف يوفق بين الدوافع الدينية والسياسية، فكان يرى أن الاستيلاء على الجزائر ضروري للتوسع الإسباني ، وكانت عملية التدخل من تصميم إيزابيلا والكاردينال خمينيس.

إن الهجوم الاسباني على مناطق المغرب لم يكن في غالبه يحمل مضامين إقتصادية، بل كان طابعه الرئيسي الإنتقام من المسلمين ، واستمر ذلك حتى وفاة الملكة 1504م . وكان للوصايا التي عثر عليها فيما بعد الدور

¹ - محمد خير فارس ، مرجع سابق ، ص 17.

² - في حين كان المسلمون الذين أجبرتهم ظروفهم على البقاء في اسبانيا يتصلون سرا برجال البحر المسلمين، ويمدوهم بالمعلومات اللازمة، ليقوموا بمحاصرتهم دون أن يتعرضوا للأخطار، وقد روع سكان الموانئ الإسبانية ورفعوا شكاوي إلى الملكة وأعلنوا أنه لم يعد في مقدوره دفع الضرائب إذا لم يعد بإمكانهم التجارة مع الخارج. ينظر: H.D.de Grammont , histoire d'alger sous la domination turque-

presentation de lemnouar merouche,editions bouchene,2002.p30.

الرئيسي في مواصلة الحملات العسكرية ضد مناطق المغرب ، وقد احتدم الصراع بين سكان المغرب والإسبان خاصة مع استقرار الأندلسيين المهجرين في سواحل المغرب، فانضموا إلى السكان الأصليين في مهاجمة الثغور الإسبانية ردا على أعمال الظلم والإرهاب التي مارسها الإسبان ضد الأندلسيين المهجرين¹.

قامت حكومة مدريد بأول محاولة لتنفيذ وصية إيزابيلا سنة 1505م²، ففي 10 سبتمبر رست الحملة الإسبانية أمام المرسى الكبير ، وقد ذهل سكان المنطقة من الهجوم المفاجئ الذي حقق الإسبان من خلاله نصرا ساحقا ، دفع حامية الميناء للإستسلام، وقد ارتكب الإسبان أعمالا وحشية قلما عرف التاريخ لها مثيلا ، وتفيد المصادر الإسبانية أن المدينة غدت خالية من الطيور والحيوانات، ولم ينجوا من سكان الجزائر إلا من تمكن من الفرار إلى قمم الجبال³.

قاوم الجزائريون مقاومة ضارية بدون جدوى فقد قتل قائد الحامية، وفشلت الهجمات التي شنها الأهالي الذين هرعوا من الداخل فاضطرت حامية الميناء إلى الإستسلام، وحدث توقف في النشاط الإسباني بسبب الخلاف الحاد الذي نشب بين فارديناوند وصهره فيليب، وبوفاة هذا الأخير⁴ سنة 1506م صار بإمكان فارديناوند متابعة نشاطه.

في عام 1507م قام حاكم المرسى الكبير بعملية حمقاء أدت إلى كارثة كادت أن تؤدي إلى إنهاء الوجود الإسباني في المغرب الأوسط، فقد هاجم قرية مسرغين القريبة من المرسى الكبير للاستيلاء على المواشي، وكي يتجنب مدفعية وهران، سلك طريقا جبليا ضيقا، وصحب القائد معه معظم أفراد الحملة ولم يترك في المرسى الكبير سوى قوة صغيرة، نجح الإسبان في الوصول إلى مسرغين وفاجئوا أهلها وقتلوا المدافعين وأسروا البعض وصحبوا المشية، ولكن الانسحاب كان أصعب من الهجوم، فقد تعالي الصراخ في القرى المجاورة وتدفق الأهالي من كل حذب وصوب، وفتك المغاربة بالإسبان ولم ينجح سوى بضعة أفراد، إلا أن المغاربة لم يستثمروا هذا الظفر، وفشلوا في استرداد المرسى الكبير⁵، فنطاق العمليات الإسبانية لم يتسع إلا بعد سنة 1508م، فقد إستأنف الإسبان نشاطهم في هذه السنة 1508م بقيادة بدرو نافارا الذي تعلم القرصنة في ظروف غير معروفة تماما على سفن مغربية ومسيحية فاستولى عام 1508م على بينيون دوفيليز(حجر باديس) على سواحل المغرب الأقصى الشمالية⁶.

1 - عزيز سامح التري، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، تر محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت ، 1989، ص 17 .

2 - صلاح العقاد، مرجع سابق، ص 34.

3 - عزيز سامح التري، المرجع السابق ، 17.

4 - مات الأمير فيليب صاحب الفلاندر في ريعان شبابه سنة 1506م بعد زواجه من الأميرة الإسبانية عل أن إبنهما شارل الأول صار في عام 1516م وارثا لعرش إسبانيا بعد وفاة أبيه فارديناوند الخامس، وانتخب في جويلية 1519م إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة، وتلقب بشارل الخامس.

5 - محمد خير فارس، مرجع سابق ص 19.

6 - نفسه، ص 20.

تابع الإسبان نشاطهم الاستعماري في هذه الجهات، فقاد الجنرال بيدرو نافارا حملة ضخمة عام 1509م لمهاجمة وهران، فوصلت الحملة إلى المرسى الكبير وأخذ المشاة يزحفون صوب وهران حتى أحرقوا بالمدينة، ولم يجد الجيش الغازي مقاومة تذكر بسبب خيانة القائمين على حراسة الثغر¹، وبعض القبائل الأخرى مثل قبائل بني عامر وغيرهم، فتدفق الجنود الإسبان على المدينة، وفر من استطاع الفرار من أهلها، وتم قتل نحو 8000 من الأبرياء وانتهكت حرمت المنازل والمساجد، ولم يكتفي الإسبان بالاستيلاء على وهران، فاستولوا على بجاية عام 1510م ونهبوها ونقلوا جميع ما فيها من تحف ونفائس إلى إسبانيا في ثلاثين مركبا غرق أكثرها في الطريق، وهدموا قصر اللؤلؤة والذي يعتبر من أبداع نماذج الفن المعماري الإسلامي² وهدموا المسجد الجامع، واتخذ الإسبان من بجاية مركزا لقيادتهم ولمواصلة فتوحاتهم في الشمال الإفريقي³، وفي العام نفسه أي سنة 1510م استولى الإسبان على طرابلس، ولم يؤثر فشلهم في الاستيلاء على الجزيرة على انتصاراتهم واضطرت موانئ أخرى إلى قبول الخضوع للسيادة الإسبانية ودفع الجزية مثل تنس، دلس، وشرشال، ومستغانم، وفي عام 1511م توجه وفد من مدينة الجزائر برئاسة شيخها سالم التومي إلى بجاية التي جعلها بدرو نافارا مركز قيادته، فأبرم معه صلحا تعهد فيه بالخضوع للنفوذ الإسباني والإفراج عن جميع الأسرى من النصارى، ثم توجه الوفد سنة 1512م إلى إسبانيا حيث قدم ولاءه للملك فاردناند، وقبل الوفد تسليم إحدى الجزر وهي عبارة عن صخرة مواجهة لميناء الجزائر على بعد 300متر، وقد أقام الإسبان على هذه الصخرة حصنا « Penon »⁴ ووضعوا فيه حامية ومدفعية، كما استولت إسبانيا على طرابلس في عام 1515م، واتخذتها قاعدة لعملياتها الحربية في البحر المتوسط وظلوا يحكمونها قرابة عشرين عاما، فسيطروا على تجارة الميناء واحتكروها⁵، وهكذا سيطرت إسبانيا بعد بضعة سنوات على أهم المراكز الساحلية، والنقاط الرئيسية من المغرب الأوسط، وكان بإمكانهم الاعتماد عليها للسيطرة على المغرب الأوسط كله مستغلين حالة الضعف، والتمزق السائدة فيه، إلا أن إحتلالهم ظل ناقصا ومقصورا على السواحل، ولعل السبب في ذلك يعود إلى تحول أنظار إسبانيا نحو إيطاليا إذ شغلها الصراع على شبه الجزيرة الإيطالية، وذلك عندما أنتخب ملك إسبانيا شارل الخامس إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة، هذا إضافة إلى تدخل آل بربروسا والعثمانيين لإنقاذ المغرب الأوسط من الخطر الإسباني.

¹ يرى شارل أندري جوليان أن وهران سقطت نتيجة لخيانة أحد سكان المدينة، بعد تفاهم مع ستورا اليهودي ورجلين من المسلمين أدخلوا بعض الإسبان إلى المدينة فتولوا فتحها في وجه إخوانهم. ينظر: شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية. تونس. الجزائر. المغرب الأقصى، مع محمد مزالي. البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978، ص 325.324.

² - محمد خير فارس، مرجع سابق، ص 20.

³ - شوقي عطا الله الجمل، مرجع سابق، ص 83.

⁴ - تعني كلمة بينون بالاسبانية الصخرة الكبيرة، وقد شاع تأسيس الإسبان للحصون فوق الرؤوس والجزر الساحلية في شمال إفريقيا مثل حجر باديس penon de valés.

⁵ - شوقي عطا الله الجمل، مرجع سابق، ص 85.

ثالثا: إستتجاد سكان المغرب الإسلامي بالعثمانيين

1- الجزائر إيالة عثمانية:

لم تمد الدولة العثمانية نفوذها إلى الجزائر وتونس بواسطة غزو عسكري أو تدخل مباشر من حكومة الأستانة كما حدث في مصر، بل جاء تدخلها نتيجة لاشتداد الصراع بين الإسلام والمسيحية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في أوائل القرن 16م، وقد اجتذب هذا الصراع عددا كبيرا من البحارة المغامرين، الذين نشئوا في خدمة أسطول الدولة العثمانية، ثم راحوا يكونون أساطيل صغيرة تعمل لحسابهم الخاص، وتجاهد ضد أعداء الدين في نفس الوقت، فكان هؤلاء المغامرون يعتبرون في نظر المسلمين أبطالا وفي نظر خصومهم قراصنة بحارة لا يخضعون لأي قانون أو نظام¹.

وفي هذه الأثناء ظهر الإخوة بربوس²، أي مع بداية القرن 16م، ففي هذا القرن انتقل نشاط عروج وأخويه من المتوسط الشرقي إلى المتوسط الغربي فجأة، وكان خير الدين قد سبق عروج إلى ذلك³. إتخذ عروج من جزيرة جربة التونسية قاعدة لنشاطه في البحر المتوسط، بناء على اتفاق مع السلطان الحفصي محمد ابن الحسن، وأخذ صيته يذيع وتتناقل الألسنة القصص عن جرأته في نقل أعداد كبيرة من مسلمي الأندلس وإنقاذهم من يد الإسبان، وأدى ذلك إلى إستتجاد المدن الساحلية به لتخليصها من الإسبان، وقد بترت ذراعه في أثناء محاولته في عام 1512م/918هـ تخليص بجاية منهم، وفي عام 1514م إحتل عروج جيحل واتخذها قاعدة لنشاطه، ثم إحتل شرشال، وفي نفس السنة 1514م أعاد عروج الكرة على بجاية بعد النجاح الذي حققه في جيحل ومبايعته أميراً عليها من سكانها والذين طلبوا منه رفقة أمير جبل كوكو احمد ابن القاضي⁴، فنظم حملة سنة 1514م بجيش بري وحاصرها مدة ثلاثة أشهر دون جدوى، فاضطر لرفع الحصار ومعاودة الهجوم في ربيع العام الموالي، ومن حسن حظ عروج وإخوته في هذه السنة أن السلطان العثماني بعث إليهم 14 سفينة ومجموعة من المدفئين وكمية من الأسلحة والذخائر⁵، كما استنجد به أهل مدينة الجزائر وقد عانوا كثيرا من وجود حصن البينيون الذي أوقف نشاطهم البحري، فسارع رئيسهم سالم التومي إلى الاستنجد بعروج لينقذهم من تسلط الإسبان، فتقدم عروج إلى الجزائر وأخذها ورفع على حصونها علمه الأخضر والأصفر والأحمر، وضرب السكة

¹ - صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1، 1993، ص 18.

² - الإخوة الثلاثة: خير الدين وعروج وإسحاق.

³ - محمد خير فارس، مرجع سابق، ص 23.

⁴ - هو أبو العباس أحمد ابن القاضي الغبريني الفقيه، تولى قضاء بجاية على عهد الحفصيين، وعندما إحتلها الإسبان استقر ببلاد القبائل الكبرى (جرجرة) حيث نجح في تكوين إمارة بقلعة كوكو حوالي عام 1511م، ودخل في نزاع مع خير الدين سنة 1518م وتمكن من طرده من مدينة الجزائر 1520-1527م على أن أمره إنتهى إلى الفشل بعد تحول السكان عنه وهزيمته أمام قوات خير الدين وقتله من طرف احد أتباعه.

⁵ - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2007، ص12.

باسمه وأقام بها كملك مستقل مطاع، وعاثت جنوده فيها فسادا، حتى ملّ أهلها وطأهم واستنجدوا بإسبانيا فلبت مطلبهم فأرسلت بعثة حربية في سبتمبر 1516م تحت قيادة ديغو دي فيرا ونزلت جنوده باب الوادي غرب المدينة يوم 30 سبتمبر وتناوشوا مع الأتراك مدة يومين، ثم إن ريحا شرقية هبت فأصبحت خطرا على الأسطول الإسباني وأجبرت دي فيرا على الانسحاب، ففتح عروج أبواب المدينة وهجم على الإسبان حتى لم يبقى من الجيش الإسباني الفار إلا القليل¹.

بعد ذلك رغب عروج في استغلال ضعف السلطة الزيانية، فاستغل المنازعات الأسرية ونقمة أهل تلمسان على السلطان أبي حمو لخضوعه للنفوذ الإسباني، فقرر إحتلال تلمسان بحجة إنقاذها من النفوذ الإسباني، وفي طريقه تضخم جيشه بعدد من المتطوعين الناقمين على أبي حمو، فاحتل قلعة بني راشد وترك فيها أخاه إسحاق على رأس فرقة من الجند ليحفظ مؤخرته وخط تراجعته، وبذلك نجح في إحتلالها سنة 1517م بدون صعوبة، ولكنه بدلا من أن يضع على عرشها الأمير الزياني أبا زيان تسلّم السلطة بنفسه وقضى على الأسرة الزيانية²، وتوغل عروج في أقاليم المغرب فاستولى على وجدة، لكن الإسبان أخذوا يشعرون بمدى الخطر المحدق بهم نتيجة هذه الانتصارات المتتالية من هذا المغامر، فأرسلوا حملة من وهران بقيادة "دي مارتين" استطاعت أن تقطع الطريق بين عروج وقواته في الجزائر، كما نجح الإسبان في إثارة أهالي تلمسان ضده، وحاصروا عروج في مدينة "مشورا" قرب الوادي المالح فأسروه وقتلوه وعدد كبير من جنوده سنة 1518م³.

عندما وصل خبر إستشهاد عروج قرر خير الدين أن يسلك نفس الطريق ومواصلة الجهاد، وفي شأن هذا يقول في مذكراته: "...عندما وصل خبر استشهاد أخي إلى الجزائر قررت أن أعيش لغاية واحدة وهي المضي في نفس الطريق الذي سار فيه أخي، تلك الغاية التي كانت تتمثل في التصييق على الكفار في إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط فما قيمة الحياة بعد مقتل أخي..."⁴، وبعد ذلك اجتمع وجوه مدينة الجزائر وبايعوا خير الدين خليفة لشقيقه عروج مع قرارهم بضم الإمارة إلى الخلافة العثمانية حتى تنال دعم استانبول فعرض ذلك على السلطان العثماني سليم الأول⁵ بواسطة وفد أرسل لمقابلته بالقاهرة فقبل الطلب ووافق على تعيين خير الدين بايلاربايا على الجزائر، ومدته الأستانة بألفي رجل مجهزين بالمدافع، ثم أوفدت إليه أربعة آلاف من المتطوعين، وأصبح خير الدين واليا من ولاية الأتراك، وظلّت الجزائر منذ ذلك الوقت إيالة عثمانية حتى سقطت في يد الفرنسيين سنة 1830م، وقد مر الحكم

¹ - عثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، ط1، دار الغرب الإسلامي، 2003، ص175.

² - محمد خير فارس، مرجع سابق، ص 23.

³ - شوقي عطا الله الجمل، مرجع سابق، ص 79.96.

⁴ - مذكرات خير الدين بربوس، تر. محمد دزاج، شركة الأصاله للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2010، ص93.92.

⁵ - سلطان الخلافة العثمانية من سنة 1512م إلى 1520م

العثماني بالجزائر بأربعة مراحل : مرحلة البايلاريات 1518-1587م، مرحلة الباشوات 1587-1659م، مرحلة الأغوات 1659-1671م، مرحلة الدايات 1671-1830م.

2- طرابلس إيالة عثمانية:

يرى بعض المؤرخين أنّ من أهم الأسباب التي دفعت العثمانيين للقدوم إلى طرابلس الغرب هو ذهاب الوفد الليبي إلى إستانبول وطلب المساعدة من السلطان سليمان القانوني، في حين يرى البعض الآخر أن تسليم إسبانيا طرابلس الغرب لفرسان القديس يوحنا كان من أهم الأسباب التي دفعت السلطان سليمان لتلبية طلب الوفد الطرابلسي، ومهما تكن الأسباب فإن قدوم الوفد منح سليمان فرصة كبرى لملاحقة الفرسان، ومساعدة خير الدين بربروس الذي منحه لقب بايلارباي الجزائر، وبذلك يتمكن السلطان العثماني من توسيع دائرة ملكه. ومهما تكن الأسباب و الدوافع فإن قدوم الوفد أيقظ في السلطان سليمان نار الإنتقام من الفرسان و ملاحظتهم لأنهم شكلوا عامل قلق و إزعاج طوال فترة حكم آبائه و أجداده و حتى حكمه، فأكرم الوفد و رده إلى بلاده برفقة مراد أغا مع قلة من الانكشاريين ، و كلفه بقتال الفرسان ريشما يعد الأسطول و ينتهي من بعض المشكلات التي تواجهه على الجبهة الشرقية ، فعمل مراد أغا على توسيع إمارته ففي سنة 1543م ضم مدينتي مسرطة و ترهونة و في عام 1544م ضم غريان و بني الوليد، و كان في الوقت نفسه يحث على الإسراع بإرسال الأسطول لأن الفرسان يسرفون في القتل و التشريد، و كان الرئيس درغوت¹ يحب طرابلس الغرب و يتطلع لإدارتها فتوجه إلى إستانبول و قدم شرحا وافيا للسلطان عما يحدث في طرابلس من قبل فرسان مالطا ، و شرح للسلطان أهمية مناطق الشمال الإفريقي و ما تتمتع به من أهمية عسكرية و اقتصادية ، و من جراء ذلك أمر سليمان القانوني القبطان سنان باشا بتجهيز الأسطول و التوجه إلى طرابلس لتحريرها و تحرير وهران و بجاية و تونس من المسيحيين، فتوجه سنان باشا نحو طرابلس بأسطول ضخم يتكون من 112 سفينة و 52 مركبا على متنه 8000 إنكشاري و 400 محارب و 600 فارس، كما عهد إلى الرئيس طرغوت قيادة بعض السفن الأخرى²، فنزل قواته أولا في تاجوراء و من هناك وجه رسالة إلى حاكم طرابلس و قائد الفرسان جاسباري دي فالير طالبها منه الاستسلام، لكنه رفض الطلب فقرر سنان باشا مهاجمة طرابلس و أشرف بنفسه على محاصرتها، وحينما كان سنان باشا يحاصر طرابلس جاءه السفير درامونت darmont طالبا منه رفع الحصار ، فأجابه سنان باشا أن

¹ درغوت باشا : يطلق عليه الكتاب الأوروبيون المعاصرون له واللاحقون (Dargut , Drzgut , Dotgutte) ، أما العرب فيسمونه (دارغوث) والأترك (Dorghut) ، وبالتصغير (درغوتشية) ، أصله من بلاد الأناضول نشأ منذ صغره في الخدمة البحرية والقرصنة في بحار الشرق رفقة خير الدين باشا، واشتهر في قيادة السفن حتى نال رئاستها العليا، وله غزوات عديدة في البحر المتوسط منها هجومه على جزيرتي كورسيكا وصقلية ، توفي وهو محاصر لجزيرة مالطا سنة 973هـ/1565م ودفن بطرابلس. للمزيد عن حياته انظر(توري روسي، ليبيا من الفتح العربي حتى 1911، تر خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ط1-1974، ص204 ، وحسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ص 154) .

² - محمود علي عامر، محمد خير فارس ، تاريخ المغرب العربي الحديث ، منشورات جامعة دمشق ، ط 2000 ، ص 161 .

الأوامر المعطاة إليه تقضي بطردهم¹، فحاول السفير الفرنسي بعد ذلك التوجه إلى استانبول للحصول على عفو لفرسان مالطا، لكن سنان باشا منعه من مغادرة المدينة قبل الانتهاء من العمليات الحربية².
لم تستطع الفرسان الصمود أمام القوات التركية، وفي 09 أوت 1551م بدأت بعض الفرسان بالانسحاب من القلعة بسبب قلة الماء في حين كان الأتراك يدفعون مدافعهم باتجاه القلعة، وهكذا تمكن الأتراك من إحتلال طرابلس و طرد الفرسان منها في الرابع عشر من أوت عام 1551م، وعمد سنان باشا³ بعد أن دخلت طرابلس الغرب في حوزة الأتراك على تعيين مراد أغا بالجلاربايا عليها، على الرغم من أن السلطان سليمان القانوني كان قد وعد الرئيس طرغوت بإمارتها، لكن الصدر الأعظم رستم باشا شقيق "سنان باشا" يكن الحقد لطرغوت وهو الذي اقنع السلطان بالتخلي عن وعده و إسناد الإمارة إلى مراد أغا .

و بدءاً من 16 أوت 1551م غدت طرابلس ولاية عثمانية و قد عمد العثمانيون إلى تطبيق الإجراءات العثمانية الإدارية منها و العسكرية، وقد مر الحكم العثماني في طرابلس الغرب بعدة مراحل:

* عهد البكلربكي 1551-1606م

* عهد الدايات 1606-1711م

* عهد الأسرة القرمانلية 1711-1835م

* عودة طرابلس للحكم العثماني 1835م - 1911م⁴.

3- تونس إيالة عثمانية:

لما انتصب الحكم العثماني في الجزائر سنة 1518م وعلم خير الدين ما ألت إليه مملكة الحفصيين من الهرم والإضطراب، عزم على إمتلاكها، فخرج من الجزائر في جيش من الأتراك واستولى على بنزرت، فبلغ الخبر الحسن الحفصي، فهرب من تونس لما كان يتوقعه من الهزيمة، فدخل خير الدين تونس سنة 935هـ/1528م، وخطب بها للسلطان العثماني، ثم أن الحسن داخل الأعراب في القيام على خير الدين، فأجابوه واجتمعوا لقتال الأتراك، فخرج إليهم خير الدين وأنكى فيهم بمقذوفات المدافع التي لم يعهدوها من قبل حتى طلبوا الأمان فأمنهم. ولما يئس الحسن من نصرة الأعراب توجه إلى ملك اسبانيا شارلكان الذي زحف على تونس سنة 1535م ونصب على عرش الحفصيين مولاي حسن⁵.

¹ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 18.

² - شارل فيرو، الحوليات اللبية، منشورات جامعة قاربيونس، بنغازي، ط 1994، ص 93.

³ - سنان باشا (1506م - 1596م) رجل دولة وقائد عسكري عثماني من أصل ألباني، عين حاكماً على مصر سنة 1569. قاد سنة 1574 الحملة العثمانية على تونس التي شكلت نهاية الإحتلال الإسباني للبلاد وبداية الحقبة العثمانية بها.

⁴ - J. Bessis, La libye contemporaine, édition l'harmattan, paris, 1986., p16.17.

⁵ - حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، دار الجنوب للنشر، تونس، 2001، ص 106.

كان قد اتخذ خير الدين من الجزائر مركزا لعمارتها البحرية، وبعد وفاته عين علي باشا خلفا له، وكان هذا الوالي يراقب أحوال المملكة الحفصية، حتى وفد عليه أحد وزراء الأمير أبي العباس أحمد، وحرصه على امتلاك تونس فجهز علي باشا جيشا وقصدها، ولقيه الأمير الحفصي بياجة، وبعد قتال تقدم علي باشا إلى تونس واستولى عليها سنة 977هـ/1569م وأخذ البيعة للسلطان سليم الثاني، هذا وبعدهما رأى الأمير الحفصي زوال ملكه استنجد بملك اسبانيا بعدما كان معاديا له والتزم بأداء مبلغ جسيم من المال، فوجه له الإسبان أسطولا عظيما لإعانتته على الأتراك، ولما أرسى هذا الأسطول في حلق الوادي إستظهر قائده بمكتوب من حكومته يقتضي فرض الحماية الاسبانية على البلاد ومقاسمة الحكم والحماية. فأنكر الأمير هذه الشروط وأنفت نفسه قبولها، فانتقل من حينه إلى صقلية سنة 980هـ/1573م وأقام بها إلى أن توفي، وبذلك تجددت الحماية الإسبانية من جديد على تونس والتي تقاسمها من خلالها الحكم اللوننت الاسباني سريلوبي مع الأمير الحفصي محمد .

كان درغوث باشا قد استولى على القيروان وأتاب على ولايتها حيدر باشا، فرتب هذا القائد جيشا منظما، وانضم إليه الجنود الذين تركهم علي باشا لحراسة تونس، فلما فرض الإسبان حمايتهم على بقايا المملكة الحفصية وتدخلوا في شؤون البلاد، عزم حيدر باشا على إفتكك تونس من أيديهم فلما قرب من تونس العاصمة علم سزا بوصول فرقة من الأسطول العثماني إلى المياه التونسية.

وفي الوقت نفسه كان السلطان سليمان القانوني يفكر في الاستيلاء على تونس، ولأجل ذلك عين وزيره سنان باشا رئيسا للعمارة البحرية المتألفة من نحو ألف سفينة وكان خروج هذا المدد العظيم من استانبول غرة ربيع الأول سنة 981هـ/1574م . تمكن من فتح القلاع عنوة واسر من بها من الجنود الإسبان يوم 25 جمادى الأول سنة 981هـ/1574م وبذلك أصبحت تونس ثالث إيالة في شمال إفريقيا تنضم إلى الخلافة العثمانية.

رابعا: واقع العلاقات بين إيالة الجزائر وإيالتي تونس وطرابلس قبل سنة 1750م.

أولا : مع إيالة تونس

للحديث عن العلاقات السياسية والعسكرية بين إيالتي الجزائر وتونس قبل منتصف القرن الثامن عشر ، ارتأينا أن نلقي نظرة عامة عن بداية تشكل العلاقات بين الولايتين منذ منتصف القرن السادس عشر ميلادي ، أي منذ أن أصبحت تونس ولاية عثمانية نهائيا سنة 1574م ، إن معارك مثل تلك التي قامت بها قوات البر الجزائرية ضد تونس كان الغرض منها هو ضمان مسايرة الحكام التونسيين للزعامة الجزائرية وذلك ضمن الإطار العام للحكم العثماني غير المباشر في شمال إفريقيا¹، فبالرغم من أن البلدين كانا تابعين للدولة العثمانية فإل العلاقات بينهما لم تكن ودية بل سادها الصراع والعداء، وبصورة عامة يمكن إرجاع أسباب ذلك إلى الصراع على النفوذ بين حكام النيابتين وإلى مشاكل الحدود التي كانت تؤدي إلى عمليات غزو واسعة، وربما كان هذا الصراع امتدادا لتقاليد

¹ - وليام سينسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم: عبد القادر زبلدية، دار القصبية للنشر، الجزائر، ط2006، ص163.

تاريخية : فقبيل التدخل العثماني كانت الحكومات القائمة في تونس تسعى على الدوام إلى إخضاع المغرب الأوسط لنفوذها ، فكانت تصطدم مع القوى المحلية أو مع القوى الغربية التي كانت هي الأخرى تحاول بسط نفوذها وسيادتها على المغرب الأوسط، إلا أن دخول العثمانيين الجزائر قلب وغير هذه الأوضاع التاريخية، فقد انتقلت الجزائر التي أصبحت قاعدة للحكم العثماني في شمال إفريقيا إلى وضع الهجوم ، وصارت تسعى إلى ضم كل من تونس والمغرب للسيادة العثمانية وبالتالي لنفوذها ¹.

ما إن علم خير الدين ما ألت إليه مملكة الحفصيين من هرم واضطراب فعقد العزم على امتلاكها ، وربما كان ذلك بإيعاز من السلطان سليمان القانوني فخرج من الجزائر في جيش من الأتراك واستولى على بنزرت فبلغ الخبر الحسن الحفصي فهرب من الحاضرة لما كان يتوقعه من الهزيمة فدخل خير الدين تونس سنة 1529م ، ثم إن الحسن الحفصي داخل الأعراب في القيام على خير الدين فأجابوه واجتمعوا لقتاله ، فخرج إليهم خير الدين بمقذوفات المدافع التي لم يعهدوها من قبل ²، ففي سنة 1531م أرسلت بعثة دبلوماسية تونسية إلى السلطان العثماني سليمان القانوني كان الهدف الجوهرى منها السعي إلى كسب موافقة السلطة السياسية والدينية العليا للدولة العثمانية على ضمها مع إيالة الجزائر والتي بينت الأحداث التاريخية أن لها طموحات وأطماع ترابية في مملكة الحفصيين المنهارة : إن إقدام خير الدين على عثمانة واحتواء تونس بعد ثلاث سنوات من تاريخ هذه البعثة التونسية ، تؤكد صدق مخاوف السلطان احمد الحفصي ³ من جاره العثماني بالجزائر ⁴.

لقد فقدت الدولة الحفصية القدرة على ردع القوى الانفصالية المتمثلة في قبائل المناطق الداخلية ، فقد انحصر نفوذ السلطان حسن حوالي سنة 1530م في الشمال الغربي من البلاد التونسية الحالية وفي بعض المدن النائية مثل سوسة والقيروان وعنابة ، أما في بقية الجهات فقد استعاد سكان البلاد وخاصة القبائل استقلالهم وحریتهم ⁵.
احتل الأتراك ثم الإسبان على التوالي تونس سنتي 1534 و1535م ، وكانت البلاد التونسية في حد ذاتها لا تمهم بقدر مل كان يهمهم موقعها الاستراتيجي المشرف على مضيق صقلية ذلك الممر الرابط بين حوضي البحر الأبيض المتوسط الشرقي منه وهو ميدان هيمنة السلطان العثماني والغربي حيث يصل ملك اسبانيا المسيحي ، فبعد أن اخضع شارلكان تونس لنفوذه سنة 1535م أمر بتشيد حصن منيع وعظيم بحلق الوادي سيضمن بفضل بقاء الجيوش الاسبانية بالتراب الإفريقي ما يقرب من 40 سنة.

1 - محمد خير فارس ، مرجع سابق ، 109.108.

2 - حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس ، الدار التونسية للنشر، ط 1968، ص152.

3 - أبو العباس أحمد هو الابن الأكبر لمولاي الحسن الحفصي، وقد افتك الحكم من والده عام 1543 وكانت تونس آنذاك تحت الحماية الإسبانية، واستمر على العرش الحفصي إلى عام 1573.

4 - هلايلي حنيفي ، النظام الحربي للجزائر منذ مطلع ق 17 حتى 1830، رسالة دكتوراه ، جامعة سيدس بلعباس، 2004/2003 ، ص 258، (غير منشورة) .

5 - محمد الهادي الشريف ، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال ، ط3 ، دار سراس ، تونس ، 1993 ، ص65.64 .

كان علع علي باشا¹ يحلم أن تشمل السيطرة العثمانية شمال إفريقيا ، فركز اهتمامه في بادئ الأمر على تونس ، فكانت الظروف في ذلك الوقت أفضل بكثير مما كانت عليه أيام محاولة خير الدين الأولى ضد تونس سنة 1534م ، فقد كان القرصان درغوث باشا قد نجح في الاستيلاء على طرابلس وأصبح واليا عليها سنة 1551م ، وبدأ يتوغل في الأراضي التونسية على حساب الحفصيين، كما كان يعمل في الوقت نفسه ضد الإسبان ، فنجح سنة 1560م بمساعدة أسطول عثماني في إلحاق هزيمة بالإسبان الذين إحتلوا جزيرة جربة سنة 1559م، وهكذا أصبحت تونس محصورة بين ممتلكات العثمانيين بالجزائر وطرابلس، وكان الحفصيون في غاية الضعف وكان الإسبان يحتلون حلق الوادي² ، ففي سبتمبر من سنة 979هـ/1569م ترك علع علي باشا خليفته مامي قورصو³ وكيلًا على الجزائر، واتجه إلى تونس بجيش يتألف من 5000 جندي مسلحين بالبنادق و 6000 جندي من القبائل⁴ ، فلقبه أميرها أبو العباس احمد الحفصي بباجة، وبعد قتال عنيف انهزم الأمير الحفصي⁵ وذلك بعد فراره لاجئا عند الإسبان في حلق الوادي، فأخذ علع علي من أهل تونس البيعة للسلطان العثماني سليم الثاني⁶ ونصب عليها احد قواده وهو رمضان تشولاق باي⁷ وأبقى معه حامية عثمانية.

إغتنمت إسبانيا الوضعية الناجمة عن انتصار ليبانت على الأسطول العثماني فاستولت على تونس من جديد بقيادة شقيق ملك اسبانيا دون جوان النمساوي في صائفة 1573م، وأقام فيها حكما مشتركا اسبانيا حفصيا دام عشرة أشهر، حتى قدم الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا الذي استرجع تونس وكذلك حلق الوادي فوضع بذلك حدا لحضور الإسبان بتونس وللدولة الحفصية (سبتمبر 1574م)⁸.

¹ علع علي: من أشهر البحارة الجزائريين عين بايلاربايا سنة 1568م ، شارك في واقعة ليبانت الشهيرة التي انهزم فيها الأسطول العثماني ونجا بسفنه الأربعين ، كما تمكن من فتح تونس سنة 1574م، كما تولى منصب القيادة العليا للأسطول العثماني. توفي سنة 1587م. (انظر- عبد الرحمان الجيلالي-مرجع سابق-ص95-96

² - محمد خير فارس، مرجع سابق، ص 48-49.

³ - إسم مامي استخدمه الجزائريون أكثر من الأتراك، وفي شرق الأناضول كان تخفيفا لاسم محمد، وكان يلفظ مامي،مامو، ومامي أيضا ليس اشتقاقا لاسم محمد، والكتابة الموجودة على جامع الهدى تقول بان هذا الجامع بناه الرئيس مامي سنة 910هـ ، وهذا الشخص يكون قد تجول بين أسوار الجزائر قبل مجئ آل برناروس وهو تركي الأصل.

⁴ - عزيز سامح التري، مرجع سابق ، ص 228.

⁵ -عبد الرحمان بن محمد الجيلالي ، مرجع سابق، ص 96.

⁶ - جلس على كرسي الخلافة سنة 1566م/ الموافق لسنة 974هـ/ وتوفي سنة 982هـ/1574م.

⁷ -باي قسنطينة (1567م-1588م) عينه في هذا المنصب محمد بن صالح رابيس في ظروف صعبة ومشاكل معقدة في إقليم قسنطينة اصطحبه علع علي سنة 1570م إلى تونس لمهاجمة الإسبان وذلك لمعاقبة الأمير الحفصي الذي اخلص في تعاونه مع الإسبان، كما تمكن هذا الباي من إخماد الثورات التي اندلعت بإقليمه سنتي 1572م و 1573م، تم تعويضه بجعفر باي سنة 1574م.

⁸-D. de Haedo,Histoire des Rois D'alger, trad par H.D.de Grammont,Adolphe jourdan, Libraire- éditeur, alger, 1881, p135.

تمكنت الجزائر من إخضاع تونس والقضاء على الدولة الحفصية بها، والتي ظلت مرتبطة بها في الفترة ما بين 1574م-1587م أي إلى غاية نهاية عصر الباي لاربايات حين أصبحت تونس باشوية مستقلة تتبع مباشرة السلطان العثماني، إلا أن حكام الجزائر نجحوا في القرن 18م في فرض نفوذهم والذي تمثل في إقامة وكيل جزائري في تونس، وفي فرض بعض الشروط الاقتصادية عليها لصالح حكام الجزائر، ولعل ما سمح للجزائر بالتدخل في الشؤون التونسية طبيعة الحكم في البلدين، فبالرغم من أن الحكم لم يكن مستقرا في الجزائر إلا أن التغييرات كانت تقع في نطاق أفراد لا تربطهم صلة يتولون السلطة ثم يعزلون بإرادة الجند، في حين قامت في تونس حكومات أسر (الأسرة المرادية في القرن 17م، والأسرة الحسينية في القرن 18م)، فكان الصراع بين أفراد هذه الأسر الحاكمة التونسية يخلق مناخا مناسباً للتدخل الجزائري، حيث كان المتنافسون يلتمسون مساعدة حكام الجزائر ضد خصومهم من أفراد أسرهم، وقد حاولت الدولة العثمانية أكثر من مرة التدخل لتسوية النزاعات الجزائرية التونسية دون جدوى¹.

بدأ النزاع الجزائري التونسي مع مطلع القرن السابع عشر ميلادي بسبب الخلاف على الحدود بين البلدين من خلال المنافسات والصراعات القائمة بين مختلف القبائل المتاخمة لحدود التماس بين الإيالتين، لاسيما فيما يتعلق بأراضي المراعي، وقد لعبت مشكلة الحدود بين البلدين دورا كبيرا في تأزم العلاقات السياسية بين الحارتين، ففي عهد باي قسنطينة حسن (1608-1622م) تم برام معاهدة ضبط الحدود مع نيابة تونس² في سنة 1614م³، لكن في عهد يوسف داي (1610-1637م)⁴ قام التونسيون بخرقها فلجأ باي قسنطينة مراد(1622-1647م) إلى استعمال القوة من خلال شن حملة عسكرية ضد تونس، ففي سنة 1628م وفي عهد داي الجزائر حسين باشا (1627-1633) أخذ الجيش الجزائري طريقه نحو الشرق موحدا قوات بايلك قسنطينة باتجاه مدينة الكاف، وبعد تلقيه للدعم والمساندة من الجيش التونسي وأهالي أولاد سعيد⁵ استدرج ثابت بن شنوف الجزائريين إلى مكان من إختياره وألحق بهم بعض الخسائر⁶، وانتهت هذه المعركة بانتصار الجزائريين في

1 - محمد خير فارس، مرجع سابق، ص 109.

2 محمد الصالح ابن العنزي، تاريخ قسنطينة، تقديم وتعليق يحي بوعزيز، دار هومة، الجزائر، ط 2007، ص 47.

3 - تعتبر معاهدة 1614م أول معاهدة فيما يتعلق بضبط الحدود بين إيالة الجزائر وتونس. للمزيد عن هذه المعاهدة ينظر (ernest mercier- histoire de constantine , imprimeurs éditeurs,1903, p220.221. و محمد الصالح ابن العنزي ، تاريخ قسنطينة ، ص 47.)

4 - تولى منصب داي تونس سنة 1610م ، من أثاره الباقية التي خلدت له الذكر الجميل جامعه البهيج المعروف به الكائن قرب ضريح علي بن زياد، وفي عهده حصل الخلاف بين تونس والجزائر سنة 1628م، توفي سنة 1637م ودفن بترتبه في صحن جامع(حسن حسني عبد الوهاب ، مرجع سابق، ص 163-164

5 - أولاد سعيد : قبيلة من أعراب سليم الزاحفين على افريقية مدة المعز ابن باديس في أواسط القرن الخامس الهجري، ويقطن اليوم البعض منهم بجهة النفيضة من ولاية سوسة.

6 - Ernest mercier ,Op.Cit,p222.

المكان المسمى "الستارة - Es-Settara" في 17 ماي 1628م / 13 رمضان 1037هـ، فغنموا من سلاح تونس إثنين وعشرين مدفعا¹، وأرغموا التونسيين على إبرام اتفاق ضبط الحدود² نص على ما يلي :

* يبقى مجرى واد سرات " L'ouad Serat " هو الحد الفاصل بين البلدين في المناطق الجنوبية.

* يقوم التونسيون بتهديم المراكز العسكرية التي أسسوها في المناطق المتنازع عليها (مدينة الكاف).

* يتواصل تحديد الحدود بين البلدين من وادي ملاق إبتداءا من نقطة الاحيرش إلى الكرش فقلوب الثيران ورأس جبل الحافة، ومن هناك إلى البحر.

* أي شخص يذهب للإقامة خارج الحدود يفقد جنسيته ولا يتم الإعلان عنهم من طرف الدولة، ويعتبرون من إختصاص البلد الذي إختاروا الاستقرار فيه.³

إستمر التدخل الجزائري في شؤون تونس، فبعد وفاة باي تونس مراد الثاني⁴ سنة 1675م/1086هـ إنتصب ابنه محمد علي السلطنة، ولم يلبث أن حسده عمه "محمد الحفصي" وأخذ يغري به أخاه عليا على أن يطالبه بالمشاركة في الأمر، فانعقد ديوان الجند الأعلى وكان من قراره خلع محمد وتقديم الحفصي في رجب 1086هـ/1675م، لكن محمد باي هرع يحشد الجموع لقتال عمه المحتال، فانضم إليه غالبية سكان القطر لتعلقهم به وميلهم إليه لشجاعته وسماحته، ولما سمع محمد الحفصي بذلك خلع نفسه وأخبر ابن أخيه محمد بذلك واستقدمه لاستلام زمام الولاية، وركب هو البحر وقصد الأستانة⁵، لكن بعد ذلك تنازع الأخوين محمد وعلي على السلطنة، فقام محمد بسجن أخيه علي، لكنه تمكن من الفرار عند دالي باي⁶، وهناك كون علاقة مع السلطان بن مناصر شيخ الحنانشة⁷ من عائلة حرار التي انقسمت وخضع جزء منها لعائلة الحاج بن مناصر⁸، وهناك تزوج علي باي من إبنة السلطان، فاستعان بصهره لطلب الولاية من أخيه والتف حوله كثير من قبائل العرب التابعة للحنانشة

1 - عبد الرحمن بن محمد الجليلي، مرجع سابق، ص 127.

2 - محمد الصالح ابن العتري، مصدر سابق، ص 47.

3 - Ernest Mercier, op.cit,p222.

4 - إستأثر مراد بالسلطة بعد أبيه . تدخل في طرابلس ونصب بها احد أبناء عثمان باشا والي طرابلس بعد أن ثار عليه جند الانكشارية، من مآثر هذا الباي جامع مدينة قابس والمسجد الحنفي بباجة . توفي بقصر باردوا سنة 1086هـ/1675م.

5 - حسن حسني عبد الوهاب ، مرجع سابق، ص 170.

6 - باي قسنطينة (1676-1679م)، كان رجلا قتالا يأخذ أموال الناس بالباطل فاشتكى به أهل قسنطينة إلى الباشا بالجزائر فقتله وعوضه بابنه. للمزيد انظر (ابن العتري ، مرجع سابق، ص 61).

7 - قبيلة عربية متوطنة بعمالة قسنطينة وهي مجموعة أحلاف قبلية عربية ، وتضم العديد من العناصر البربرية المستعربة ، مركزها مدينتي تبسة وسوق أهراس على وادي مجردة بالقرب من الحدود التونسية ، ويسمى لورونت فيرو الحنانشة بالحرار وهي عائلة كانت إلى حوالي 1830 هي صاحبة النفوذ الواسع على مدى الحدود التونسية ومن ابرز العائلات : أولاد خليفة، أولاد ناصر، أولاد سلطان، أولاد بوعزيز، أولاد إبراهيم (محمد الأمين بلغيث، النسق الثقافي للسلطة في الجزائر وتونس. المجلة التاريخية المغاربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ع/117، 2004، ص34.

8 - Ernest Mercier- histoire de l'afrique septentrionale, tome3, ernest leroux editeur, paris,1868,p284.

وتمكن علي من هزيمة أخيه محمد سنة 1676م/1087هـ الذي فرّ إلى الكاف في نفر من أنصاره، أما علي فإنه جد السير إلى مدينة تونس وأخذ البيعة على أهلها، لكنه فوجئ بخبر إستيلاء علي على بلاد الجريد ، فالتقيا بفحص سمنجة¹ وتحاربا، فاستمرت الحرب بينهما والخلاف بين الأخوين إلى غاية قدوم عمهما محمد الحفصي متقلدا منصب الباشا من الباب العالي، فانتهز ذلك الصراع بينهما للاستيلاء على العاصمة سنة 1678م/1089هـ²، ففي هذه الظروف تدخل الجزائريون في شؤون تونس لما استنجد بهم محمد باي لقتال أخيه، فكانت واقعة الكاف الشهيرة بالشمال الغربي من تونس والتي إنتصر فيها محمد باي على محلة³ علي، ثم نشأ الخلاف بين هذا وبين أحمد شليي الباي الثائر المتسلط على عرش الأسرة المرادية بتونس، وحينئذ إتحد الأخوان محمد وعلي إبننا مراد واتفقا على أن يستنصرا بحكومة الجزائر⁴، فأعانتها علي إنتزاع عرش والدهما من يد الثائر شليي ، فكانت هناك ملاحم وفتن داخلية⁵، وأحاط الجزائريون بمدينة تونس وحاصروها سنة 1685/1096هـ فأطاحوا بأحمد شليي عن العرش، وأخذت البيعة للأخوين معا محمد وعلي فاقتهما إدارة البلاد بينهما، وبينما الأمر على ذلك إذ هجم الجيش التونسي على الباي علي فاغتاله سنة 1685م، فانفرد بالملك يومئذ أخوه محمد⁶، وبعد أيام ارتحل الجزائريون يجرّون ورائهم غنائم الشروط التي اشترطوها⁷.

ثار محمد بن شكر خليفة باي تونس ضد صهره محمد بن مراد مطالبا إياه بالولاية، وكان يعلم سخط الحكومة الجزائرية على رئيسه وصهره الباي المذكور حينما أخلّ ببعض عهوده مع الجزائريين يوم أعانوه الجلوس على عرش والده⁸، فاستعان ابن شكر بالجزائريين بجيش نزل قرب الكاف سنة 1105هـ/1693م، وهزم الباي محمد بن مراد واستولى على ذخائره⁹، فتفقهقر الباي محمد إلى تونس فتتبعتة الجيوش الجزائرية إلى الحاضرة ونصبوا بها حاكمهم ابن

1 - فحص سمنجة ويسمى اليوم الفحص باختصار، وهو وطن بجهة زغوان وأرضه منبسطة صالحة لزراعة الحبوب.

2 - حسن حسني عبد الوهاب ، مرجع سابق ، ص 172.

3 - المحلة : جمع محلات وهي الجند المتنقل في الأرياف الموجه لإفراز الأمن واستخلاص الضرائب ومراقبة القبائل ، فمثلا دأب دايات الجزائر الاعتماد على فرق المحلة بتنظيم حملتين إحداهما في فصل الربيع والأخرى في الخريف يشارك فيها جنود من مدينة الجزائر ، أما المقصود هنا من المحلة هي تلك الجموع من الجيشين الجزائري والتونسي والتي دأبت على الالتقاء والحروب فيما بينها، فكانت التخوم الشرقية من الجزائر مسرحا لها خلال القرنين 17م و18م والنصف الأول من القرن 19م.

4 - متولي الجزائر آنذاك هو إبراهيم خوجة .

5 - للمزيد عن الفتن والاضطرابات الداخلية التي عرفتها تونس في الفترة ما بين 1680م و1685م. انظر (E.Mercier, histoire de l'afrique septen...Op,Cit, pp 299-300 et 301-302)

6 - عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، مرجع سابق، ص 199.

7 - حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 173.

8 - عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع سابق، ص 201.

9 - حسن حسني عبد الوهاب ، مرجع سابق، ص 173.

شكر¹ ثم دارت الحرب بينهما وأسفرت عن انهزام ابن شكر وعودة محمد ابن مراد باي إلى الحكم سنة² 1106هـ/1694م وإجبار ابن شكر إلى الفرار³.

تجددت الحرب بين الجزائر وتونس أيضا مع بداية القرن 18م، ففي عهد الداوي حسن شاوش (1698-1700م) هاجم باي تونس مراد بوبالة (1699-1702م)⁴ قسنطينة، وذلك بعد تحالفه مع مولاي إسماعيل (1671م-) سلطان السلالة الشريفة في المغرب، فاتفقا على أن يقوم مولاي إسماعيل بغزو وهران في جيش قوي ، بينما يتوجه مراد نحو الشرق الجزائري⁵، وفي بداية صيف 1700م حدثت المعركة التي كان يقودها باي قسنطينة علي خوجة (1692-1700) والتونسيين. وعن هذه المعركة يقول ابن ميمون في التحفة المرضية "....ثم أن الباي مراد التونسي فاجأ قسنطينة بهجوم غير منتظر فذبح حراس الحصون وحاصر المدينة، وبهذا الخبر اضطرت الانكشارية في الجزائر...."⁶، فالتقى الجيشان في موقع يسمى الملعب بالقرب من قسنطينة بعد حصار دام ثلاثة أشهر، وخرج الباي مراد منتصرا من هذه المعركة، كما أمر بقطع رؤوس القتلى وإرسالها إلى تونس وتعليقها⁷.

كانت أخبار المجزرة والهزيمة قد جاءت بالملفات من ميليشيات الانكشارية إلى قصر الداوي طالبين الأخذ بالثأر، فما كان من الداوي حسن شاوش إلى أن استقال في الحال من منصبه⁸، وخلفه الداوي مصطفى (1700م-1705م) الذي جمع الانكشارية وزج بهم صوب الشرق القسنطيني لمحاربة الجيش التونسي بقيادة الباي مراد، فالتقى الجيشان بمكان يعرف بـ"جوامع العلمة"⁹ (Djouama-el-Eulma) أو المجاز الأحمر، وكان عدد الجيش الجزائري بالنسبة إلى وفرة الجيش التونسي ضئيلا جدا، فلما اطلع الباي مراد على ضالة عدد الجيش الجزائري استهان به واحتقره طمعا في الانتصار عليه، ودعا قومه إلى الراحة والاستحمام، وقضى ليلته تلك في لعب يقول ابن العنتر في روايته عن هذه المعركة ما يلي: "...وأما مراد باي المذكور لما وصل إلى المجاز الأحمر قريبا من

1 - عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ص 201.

2 - تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية. غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903، ص 69.

3 - Ernest mercier-Histoire de const...Op,Cit, p239.

4 - سمي بهذا الاسم نسبة إلى البالة وهو لفظ تركي يطلق على نوع من السيوف الحادة الشفرتين، فكان له هذا السيف إذ لا يكاد يريجه يوما من إراقة الدماء ، وإذا لم يقتل كان يقول " إن البالة قد جاءت" للمزيد ينظر (حسن حسني عبد الوهاب ، مرجع سابق، ص174.وعبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ص 203).

5 - Ernest mercier-Histoire de const...Op,Cit, p239.

6 - محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر الحمية، تص. محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 26.

7 - Eugene Vayssettes, Histoire de constantine sous la domination turque,de 1517-1837, edition bouchene,2002 ,P91.93.

8 - هلايلي حنيفي، مرجع سابق، ص 261.

9 - جوامع العلمة أو المجاز الأحمر تقع على نحو 30 كيلومترا شرقي مدينة سطيف بالشرق الجزائري .

10 - عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ص 204.

سطيف وكان بينه وبين سطيف مرحلة تلقاه هناك عرضي الجزائر فنزل كل عرضي في مكانه وصاروا قبالة بعضهم وكان مع مراد باي نحو سبعمائة خباء، والذي مع باشا الجزائر نحو مائة خباء، فاستضعفهم مراد باي وقال اليوم نستريحو وغدا في الصبح نأخذوهم ونقتلوا الباشا الذي هو أميرهم، ثم نسيروا إلى الجزائر وعسكره نزل بهم خوف عظيم، وتيقنوا أنهم صاروا في الهلاك فبقوا يخمموا ويدبروا وقالوا إن ضربنا نموتو، وان هربنا كذلك نموتو، فاتفقوا أنهم يهجموا على عرضي تونس، فلما عسعس الليل ونام كل ذي ذيل قام باشا الجزائر هو وعسكره عن آخر، وتقدموا إلى محلة مراد باي فهجموا عليه بهجمة واحدة وهم نائمون وندخلوا عليهم بضرب السيوف من كل جهة (كذا)، فوقع ضجة عظيمة وهزيمة كبيرة في محلة تونس، ومات من عسكرها نحو السبعة آلاف رقبة وفرّ الباقي وتفرقوا في الوطن سببا وهرب مراد باي ولم يثبت خوفا يتمكنوا به وركب على حصان اسمه كحيل فلم يتنفس به من المجاز الأحمر إلى مرج كحيل فسقط من تحته ميتا...¹، فما كانت تدق ساعة نصف الليل من يوم 19 ربيع الثاني 1112هـ/03 أكتوبر 1700م²، حتى انقضّ الجيش الجزائري على الجيش التونسي، وبعد قتال استمر أربع ساعات هزم الجيش التونسي، وظل الانكشاريون يلاحقون فلول الجيش التونسي الهارب حتى الحدود، فقتلوا الكثير من التونسيين وأسروا قرابة ألف شخص³، أما مراد باي فقد فرّ إلى القيروان وعاث فيها فسادا حتى فتك به إبراهيم الشريف⁴ بمواطأة كبراء الجنود، وقيل بإذن من الباب العالي، وكان مقتله في 13 محرم 1114هـ/16 جوان 1702م .

في سنة 1702م وقع الصلح بين الحاج مصطفى داي الجزائر وإبراهيم الشريف باي تونس⁵ فقبل هذا الأخير إعلان تبعيته للجزائر مع دفع الضريبة المفروضة⁶، ولما امتنع هذا الباي عن دفع الضريبة التي في ذمته أعلن الداوي مصطفى الحرب على تونس⁷، وتوجه بجيش صوب الحدود الشرقية في 07 جويلية 1705م، وفي 11 من نفس الشهر هزم وأسر إبراهيم الشريف، وفي 12 جويلية استولى على بلدة الكاف وصادر أرزاق الباي، والمواد الغذائية الموجودة فيها، ثم تقدم باتجاه تونس وحاصرها، فخاف التونسيون من نهب المدينة فقدموا للجزائريين مبلغا قدره 150.000 بياسترا مقابل انسحابهم، لكن الداوي رفض العرض وإزاء ذلك لم يجد التونسيون وسيلة سوى الدفاع عن أنفسهم والتصدي للجزائريين، وخلال ذلك قام التونسيون بشن هجوم مفاجئ على الجزائر وقتلوا أكثر من ثمانمائة، فاضطر الداوي مصطفى للدخول مع التونسيين في مفاوضات، إلا أنهم رفضوا دفع النقود بل

¹ - محمد الصالح ابن العتري، مصدر سابق، صص 62.63 .

² - Eugene Vayssettes, Op,Cit, (p94).

³ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 452.

⁴ - يمثل عهد إبراهيم الشريف (1702-1705م) مرحلة انتقال بين الأسترين المرادية والحسينية، فبسبب رفض مراد بوبالة أوامر السلطان العثماني مصطفى في التوقف عن قتال الجزائريين حينئذ أوعز السلطان إلى إبراهيم الشريف بالتخلص من مراد باي سنة 1702م . ينظر: الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مج2، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، 1985، صص 701.700.

⁵ - محمد بن ميمون، مصدر سابق، ص 27.

⁶ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 453.

⁷ - محمد ابن ميمون، مصدر سابق، ص 28.

طالبوه بدفع التعويضات ، واستمرّ في حصاره لمدينة تونس ففي 06 أكتوبر 1117/1705 هـ أصبح مجبرا على فك الحصار والرحيل، وأثناء بدأ التونسيون وسكان القبائل بمهاجمة مؤخرة جيشه، وبغية التخلص منهم قرّر مهاجمتهم، لكنه تعرّض لخسائر كبيرة وفقد أكثر من 500 شخص¹، فلما وصل الجيش إلى مقربة من الجزائر حوّل الداوي طريقه واتجه إلى منزل له بضواحي المدينة ليختبئ فيه، إلا أن رجال الديوان لم يخف عليهم شيء من أمر الداوي وجيشه، فقد تسرعوا إلى انتخاب حسين خوجة الشريف² دايا للجزائر، وذلك بعدما خنقوا الداوي مصطفى في منزله الريفي. وحجزوا أمواله وأملاكه، بعدما أعطاهم عهدا بأن يبعث إليهم بمائة وخمسين بياسترا بمجرد وصوله إلى تونس وترك عائلته رهونة في هذا المقدار، ولدى وصوله إلى تونس ثارت عليه الرعية التونسية فقبضت عليه وقتلته³.

استأنف الجزائريون تدخلهم في شؤون تونس في عهد الأسرة الحسينية (1705-1957م)⁴، مستغلين تنافس أفرادها وطلبهم المساعدة الجزائرية، فقد تميزت العلاقات بين البلدين في عهد الداوي حسن خوجة (1705-1707م) بميل الحاكمين ظاهريا إلى السلام وإبرامهما لاتفاق سلام بينهما⁵، أما عهد الداوي محمد بكداش (1707-1710م) والذي حقق فيه الجزائريون إنجازا عظيما بتحريرهم لوهران⁶ فإن الباوي حسين بن علي ظلّ حذرا من جيرانه الجزائريين ومن التعاون معهم، فقد كتب الداوي بكداش في مارس 1709م إلى باي تونس يعلمه

1 - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 454.

2 - ما يذكر عن هذا الداوي هو إشفاقه على أسيره "إبراهيم الشريف" باي تونس، فحلّ وثاقه وأعادته إلى ولايته في 40.000 جندي من الحامية، ولم يشترط عليه في مقابل ذلك سوى البقاء تحت نفوذ سلطة الحكومة الجزائرية فأطاع الباوي على ذلك وارتحل متوجها نحو تونس، إلا أن الجيش التونسي أحاط به وقتله وعدد من الحامية الجزائرية.

3 - محمد بن ميمون، مصدر سابق، ص 29.

4 - مؤسس هذه الأسرة هو حسين بن علي تركي، وهو ابن لعلج يوناني كان قد انخرط في مفرزة تم تجنيد أفرادها عن مرتزقة جيء بهم من الممرات لدعم صفوف عسكر تونس التركي، وكانت استقامة خلقه ونجابته ورجاحة عقله قد شدت إليه الأنظار وفتحت أمامه سبل الارتقاء إلى أعلى الوظائف خلال أمد قصير، وعندما خاض إبراهيم الشريف حربه ضد الجزائر كان حسين يشغل منصب أغا الصبايحية، ثم تمكن بفضل أموال أنصاره ودسائس الموالين له من الارتقاء إلى منصب الباوي. انظر (ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار العربية للكتاب، ج2، ط2، 2004، ص 83.82 ومحمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح.علي زاوي و محمد محفوظ، مج 2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 155-156.

5 - عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في عهد الدايات، دمشق، 1996، ص 190.

6 - تلقت الجزائر الدعم من سلطان المغرب مولاي إسماعيل حيث قدم 2000 قنطار من البارود. للمزيد ينظر A.De voux-tachrifat.recueil de notes historiques-imprimerie du gouvernement,alger,1852,p15 et H.D.De grammont,correspondence des consuls d'alger(1690-1742)librarie ernest leroux,paris1890-p106.107.

بعزمه المهجوم على طبرقة¹ بعد رفض الجنويين دفع الضريبة للجزائر وتونس مقابل السماح لهم بصيد المرجان، الأمر الذي رفضه الباي التونسي وتولى بنفسه مهمة فتح طبرقة²، كما أن هناك أمرا آخر كاد أن يوتر العلاقات بين الإيالتين ألا وهو هروب باي قسنطينة سنة 1709م برفقة الأموال التي جمعها من الضرائب إلى تونس³.

تميزت العلاقات في عهد الداوي علي شاوش (1710-1718) بالطابع السلمي بين الإيالتين بالرغم من توفر القضايا التي يمكن أن توتر العلاقات بين الطرفين وتجعلها تميل نحو العداء والصدام، نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر: ففي سنة 1713م (1125هـ) ظهر عند الحنانشة دعي زعم أنه من بني مراد، أغراه الشيخ بوعزيز بن نصر وأرسله لأولاد سعيد للمطالبة بالملك وأخذ يكاتب أعراب إفريقية للالتفاف حوله وتبني قضيته لكن الباي حسين تمكن بواسطة قائد مدينة الكاف طراد بن قبران من مفاجئة الدعي والقبض عليه⁴، كانت تلك التصرفات تصدر عن بعض القبائل الجزائرية الحدودية أو بعض شيوخها، والتي كانت تسبب للباي حسين بعض المتاعب.

خلف الداوي بن حسن (1718-1724م) الداوي علي شاوش، وكان في حاجة إلى السلام وحسن الجوار مع جيرانه ليتمكن من معالجة الوضع الداخلي المتأزم، فسالم سلطان المغرب بواسطة باي وهران وبعث إلى باي تونس رسالة يقول له فيها "أنه يعتبره أخاه"، فكان عهده عهد سلام وحسن جوار مع الباي حسين بن علي⁵، وبفضل سيادة السلام بين الجزائر وتونس وبينهما وبين المغرب أمكن للداوي محمد بن حسن إخماد ثورة القبائل التي استمرت ثلاث سنوات بواسطة علي خوجة قائد متيجة وإنجاز بعض الدفاعات لمدينة الجزائر والحراش⁶.

كان أمام داي الجزائر كور عبدي (1724-1732م)⁷ قضايا داخلية ساخنة عليه مواجهتها كالأوضاع الاقتصادية المتردية وعودة الإسبان من جديد وغزوهم لمدينة وهران سنة 1732م ومرساها الكبير، أما فيما يخص العلاقات مع تونس التي تزامنت وفترة حسين بن علي فقد شهدت حربا أهلية تونسية كانت الجزائر طرفا فيها، فقد حدثت الفتنة الحسينية الباشية⁸

¹ - طبرقة: مرسى على جبل مرتفع، يقع في ناحية عين الدراهم بالشمال الغربي من البلاد التونسية ويوجد في بحرها المرجان الرفيع، وعندما استقر علي باشا على العرش سنة 1741م بادر بإجلاء الجنويين أصحاب امتياز صيد المرجان فيها. (حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص127 و احمد الحمروني، مرجع سابق، ص112-113).

²-A.Rousseau- annals tunisiennes, apercu historique sur la régence de tunis,bastide librair éditeur,pari 1864,p100.

³- A. Berbrugger, epitaph d'ouzoun Hassan, in R.A.N°9 ALGER, 1885, P124.125

⁴ - احمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج2،الدار العربية للكتاب، ط2، 2004، ص98.

⁵ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص198.

⁶-H.D.de Grammont, histoire d'alger sous la domination turque, presentation de lemnouar merouche, editions bouchene, 2002.p282.

⁷-M.Kaddache, l'algerie Durant la periode ottoman, opu ,1998, p115.

⁸ - محمود مقديش، م صدر سابق، ص159.

وخروج علي باشا على عمه حسين بن علي¹ قاصدا جبل وسلات²، لكن حسين لحقه في عدد من رجاله وشردّه إلى الصحراء، وبعد معارك طاحنة اضطرّ إلى الفرار رفقة ابنه يونس نحو الحدود الغربية للإيالة بتوغله داخل التراب الجزائري³، وفي هذا يقول ابن أبي الضياف في الإتحاف: "...وأما علي باشا قصد الصحراء إلى أن وصل الجزائر وصاحبها يومئذ عبدي باشا، وله صداقة مع الباي حسين فاعتقله في مكان من دار السلطان وحجز عليه الخروج إلى أن هلك عبدي باشا وولي مكانه إبراهيم باشا⁴.

بانتقال علي باشا وإبنيه إلى الجزائر، هدأت الحرب الأهلية التي ظلت مشتعلة في البلاد التونسية مدة 18 شهرا، لكن الباي حسين لم يهدأ له بال لأنه صار بين الجزائريين خصم مهم يمكن أن يتخذوه وسيلة للضغط عليه متى أرادوا ذلك⁵، وبالعودة إلى موقف الجزائر من الحرب الأهلية التونسية بين علي باشا وحسين بن علي، فإنها لم تتدخل فيها رسميا بالرغم من أن بعض القبائل الجزائرية المقيمة بالقرب من الحدود مع تونس كقبيلة الحنانشة، وقبيلة ابن علي والزواوة وغيرها شاركت في تلك الحرب مشاركة قوية⁶.

تدخل الجزائريون في شؤون تونس بحلول سنة 1735م، من ذلك أن علي باشا لدى إقامته بالجزائر استمال قلوب رجالها⁷، وذلك لمساعدته على هزم عمه واستعادة الحكم، فكتب الداوي إبراهيم رمضان إلى باي قسنطينة قليان حسين (1713-1736م)⁸ قائلا له: "إنه قادم إليك أخو صاحب ولاية تونس وييده عساكر من عندنا فلازم أنت تنظم ما استطعت من عساكرك واعمل معه كل جهد وتأويل، كن له مصاحبا في الإقامة والرحيل⁹، وبالرغم من الجهود التي بذلها الباي حسين لاستمالة داي الجزائر ومحاوله حمله على قتل علي باشا إلا أن الداوي الجديد اغتنم فرصة امتناع باي تونس عن دفع مبلغ 10 آلاف ريال بنديقي للاستجابة لمطالب علي باشا وأنصاره الكثيرين

¹ - للمزيد عن سبب الثورة وخروج علي على عمه ينظر: M.H.Cherif, pouvoir et société dans la Tunisie de H'usayn Bin Ali 1705-1740, Imprimerie Officielle De La République Tunisienne, T2, 1986, p17-18.

² - صنف العلماء أهل جبل وسيلات على أساس أنهم فرقة خارجة مجبولة على الفساد، فاعتوا بنصاري البر وعرف جلهم بأنه باب جهنم، وأفتى العلماء بمحاربتهم وأخذ أموالهم لأنهم عصاة وأهل فساد، وقد شارك الوسائلية في كل الانتفاضات والثورات التي قامت بتونس كانتفاضة أبا القاسم الشوك 1674 ومراد الثالث 1699 وثورة علي باشا 1728 وأخيرا حفيده إسماعيل ابن يونس 1759-1762. ينظر (عبد الواحد المكثي - شتات أهل وسلات، دار سحر للنشر، د.س، ص26-27).

³ - ألفونص و روسو، الحويلات التونسية منذ الفتح العربي حتى قاريونس، بنغازي، ط1، 1992، ص177.

⁴ - أحمد بن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص111.

⁵ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص204.

⁶ - نفسه.

⁷ - كان علي باشا على صلة مودة وصداقة بداي الجزائر إبراهيم (1732-1745) منذ أن أخرجه من السجن فاستنجد به ضد عمه حسين بن علي فلبى إبراهيم دعوته شريطة أن تبقى ولاية تونس تابعة للجزائر تؤدي الضريبة سنويا قدرها 200 ألف قطعة ذهبية.

⁸ - M. Gaid, l'algerie sous les turcs, maison tunisienne de l'edition, tunis, 1975, p158.

⁹ - محمد الصالح ابن العنتري، مصدر سابق، ص66.

في الجزائر للإطاحة بحكم الباي حسين¹، فقرّر الداوي إبراهيم القيام بحملة ضد تونس الراضة لدفع الفدية السنوية، وذلك في شهر ماي سنة 1735م² فألف جيشا كبيرا من المشاة ووضع 3000 عسكري تحت قيادة الخناجي³ وألفين تحت قيادة علي باشا، والأخر تحت إمرة باي قسنطينة بوكمية، ثم التحق بهم شيخ الحنانشة بوعزيز بن نصر الذي كانت علاقته قد ساءت بالباي حسين لامتناع هذا الأخير من الاصحار اليه في بناته لاولاده⁴، فلما بلغ خروج الجزائريين وزحفهم نحو تونس إلى الباي جمع عساكره والتقى الجيشان بسمنجة قرب واد سليمان يوم 16 ربيع الثاني 1148هـ/04 سبتمبر 1735م⁵ في معركة حاسمة هزم فيه جيش حسين بن علي، مما أجبره على الهروب إلى مدينة القيروان، فوقعت كل ذخائره وعساكره في أيدي الباي بوكمية وعلي باشا⁶، هذا الأخير الذي نصب على عرش تونس يوم 07 سبتمبر 1735م⁷، وبقي الباي بوكمية برفقة جيشه في تونس مدة عشرة أيام، ثم عاد إلى الجزائر ومعه 35 حصانا محملا بالنقود والأموال التي تعهد بدفعها على باشا⁸.

استمرت الحرب الأهلية في تونس بين العم وابن أخيه سنين طويلة حتى كانت سنة 1740م وفيه خرج حسين باي للقتال فاستشهد جنوب القيروان ودفن في تربته المشهورة بتونس⁹، هذا وكان الداوي إبراهيم دشن عهدا جديدا من التدخلات الجزائرية في تونس بعد توقف دام 30 عاما .

شهدت العلاقات بين الداوي إبراهيم وعلي باشا في فترة ما بين 1740 - 1742م نوعا من الهدوء والإستقرار والتعاون، حيث عمل الباي التونسي على تحسين علاقاته مع حكام الجزائر خاصة مع باي قسنطينة حسين (1736-1754م) المدعو بوحنك، والذي ثبت له أنه شخصية مؤثرة في توجيه العلاقات بين الجزائر وتونس نحو السلم أو العداء¹⁰، فعلى صعيد التعاون الخارجي بين الإيالتين أخبر علي باشا الجزائريين بالمفاوضات التي كانت جارية بين فرنسا والجنوبيين من أجل شرائها لجزيرة طبرقة سنة 1741م، الأمر الذي رفضه داوي

¹ - A.Rosseau,Op.Cit,p113.

² - M .Gaid,Op.Cit,p158.

³ - قبل قيام الحملة الجزائرية على تونس بذل الباي حسين جهودا كبيرة لمنع تلك الحملة فعرض مبلغ 50 ألف بياسترا على الداوي إبراهيم فرفض ذلك، كما بدأت مجهودات الباب العالي في إرساء السلام بين الجزائر وتونس بعد وصول مبعوث عثماني يحمل أمراً يطلب فيه من داوي الجزائر بعدم التعرض لتونس بسوء، وإرسال علي باشا وابنه إلى اسطنبول، إلا أنه بوصول هذا المبعوث وجد الحملة الجزائرية قد انطلقت نحو تونس برفقة علي باشا. ينظر (A.Rosseau,Op.Cit,p114)، وعزيز سامح الت، مرجع سابق، ص 486-487، E.Mercie, histoire de .(costan...Op,Cit, p251

⁴ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 227.

⁵ - L.frank,histoire de tunis ,2eme Edition, bouchan-p189.

⁶ - M.Gaid,Op.Cit.p158.

⁷ - A.rosseau,Op.Cit.P116.

⁸ - محمد الصالح ابن العنتري، مصدر سابق، ص 67.

⁹ - حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 118.

¹⁰ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 245.

الجزائر¹، فقام علي باشا بالإستيلاء على الجزيرة في شهر جوان 1741م²، ثم أقدم على تدمير المركز التجاري الفرنسي في تامكرت³ الرأس الاسود « Cap Nègre » في 16 أوت 1741م⁴، فتدهورت العلاقات بينه وبين فرنسا الراغبة في دخول الجزائر في حرب مع تونس⁵، كما تقدم علي باشا بعرض مالي لداي الجزائر قدره مئة سكوين مقابل القضاء على أبناء حسين بن علي⁶، إلا أنّ عرضه هذا لم يلق الإستجابة من الداوي، وفي ربيع سنة 1742م أبدى رغبة في أن تساعد الجزائر في حربه ضد فرنسا هذه الأخيرة التي توترت علاقاتها بالجزائر منذ ديسمبر 1741م⁷.

لقد توترت العلاقات من جديد بين الجزائر وتونس بحلول سنة 1743م، والسبب في ذلك يعود إلى أن الجزائر غدت مأوى لأبناء حسين بن علي الثلاثة: علي الذي استقدمه باي قسنطينة، ومحمد الذي سمح له بالإقامة في مدينة الجزائر، ومحمود الذي التحق به بعد مقتل والده قادما من سوسة عبر مالطة ومرسيليا على متن مركب أرسل إليه من الجزائر⁸.

تطورت العلاقات بين خليفة الداوي إبراهيم الكبير إبراهيم الصغير (1745-1748م) وعلي باشا في اتجاه الصدام المسلح بين الطرفين، فقد تحولت حملة جزائرية في أفريل 1746م في اتجاه تونس، ذلك أن باي قسنطينة عشي حسن لما صمم على الدوشمان⁹ كتب إلى إبراهيم خزانجي الصغير أن يجهز له العسكر ويجمع له الفرسان¹⁰ فأمر الداوي أبناء الحسين بن علي المقيمين بالجزائر بالاستعداد والتهيؤ لحملة جديدة على تونس، تلك الحملة التي قادها الداوي بنفسه في 06 أفريل 1746م بجيش يتألف من 4 آلاف جندي من الأتراك¹¹، وقد كان وصولها لمدينة الكاف برفقة أبناء الحسين بن علي في 10-05-1159-02-06/1746م دوي كبير في كل البلاد التونسية¹²، واستمرّ حصار المدينة من 20-06-1746م إلى غاية 31-07-1746م¹، تبادل فيها الجيشان

¹ - D.Grammont, histoire d'alger sous...op.cit-p300.

² - P.Arthure, histoire de la tunisie, Edition A.S.P.L, Paris, p161.

³ - قرية كانت تقع حذو طبرقة ويسمىها الإفرنج "كاب نغرو" أي (الرأس الأسود).

⁴ - P.Arthure, Op.Cit, p161.

⁵ - De Grammont , correspondance des consuls d'alger, in R.A, N°33, ALGER, 1889, p158-159.

⁶ - كان أبناء حسين بن علي قد فزوا مباشرة بعدما مقتل أبيهم سنة 1740م إلى الجزائر خوفا من بطش علي باشا، وفرّ محمد ومحمود إلى مدينة الجزائر وعلي نحو قسنطينة. ينظر. (ألفونصو روسو، مرجع سابق، ص 248).

⁷ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 246.

⁸ - نفسه، ص 247.

⁹ - الدوشمان: معناها الحرب أو الخصام وفيها غالب ومغلوب.

¹⁰ - محمد الصغير بن يوسف، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، ص. أحمد الطويلي، مج 3، المطبعة العصرية، تونس، 2008، ص 89.

¹¹ - عزيز سامح التز، مرجع سابق، ص 508.

¹² - حمود ابن عبد العزيز، الكتاب الباشي، ص. محمد ماضور، ج 1، تونس 1970، ص 425.

مناوشات ومعارك عنيفة عند أسوارها²، إلا أن باي قسنطينة ولعاملين اثنين: حصانة مدينة الكاف وعروض علي باشا الذي عمل كل ما من شأنه أن يؤدي إلى صرف الحملة الجزائرية كاتب الداوي إبراهيم خوجة يعلمه بأن الحملة على مدينة الكاف فشلت، محاولاً منه الحصول على إذن بعودة جيشه إلى الجزائر، وهو ما تم فعلاً إذ شرعت الحملة الجزائرية في العودة إلى الجزائر في 10 رجب 1159هـ/31 جويلية 1746م³، وبذلك فشلت هذه الحملة في احتلال مدينة الكاف⁴، وهو أول فشل ذريع تمنى به حملة جزائرية كانت تحاول الوصول إلى الحاضرة تونس، وتنصيب أبناء الحسين بن علي على العرش.

بعد الفشل الذريع للحملة الجزائرية في احتلال قلعة الكاف، تحسنت العلاقات بين حكام الجزائر وعلي باشا، بينما اتجهت نحو الفتور مع أبناء حسين بن علي الثلاثة، حتى أن محمود اتجه إلى قسنطينة وأصيب بخيبة أمل كبيرة من جراء الهزيمة فمات أسفا بعد عودة الحملة في 27-10-1746م، في حين أن الأخوين محمد وعلي اتجها إلى مدينة الجزائر واستقرا هناك.

ومهما يكن يمكن القول أن العلاقات بين الداوي إبراهيم والباي علي باشا كانت متقلبة، فبعد التوتر والصدام والعداء مالت إلى السلام الحذر، لان الأسباب المؤثرة في العلاقات لم تستأصل من جذورها، فبقاء أبناء الحسين وأنصارهم في الجزائر كان واستمر عنصر قلق للعلاقات بين الإيالتين.

مما سبق نستخلص أن العلاقات بين إيالة الجزائر وتونس في الفترة السابقة لسنة 1750م تراوحت بين السلام تارة والحرب والتوتر تارة أخرى، وغالبا ما كانت المشاكل الحدودية والقبائل القاطنة على الحدود إذ نجد القبيلة الواحدة تمتد جغرافيا في كل من الإيالتين هما السبب في حدوث النزاع بين الدولتين.

ثانيا : مع طرابلس الغرب :

عندما استولى الأتراك على شمال إفريقيا أقاموا بها ثلاث باشويات (أي باشاليك) وهي الجزائر وتونس وطرابلس، وتتبع السلطان عن طريق قبودان باشا أي القائد العام للأسطول التركي، وتقوم بينها وبين السلطات المركزية علاقات من التفاهم المتبادل في الشؤون الداخلية وفي المواجهة الدفاعية ضد المسيحيين⁵، وعمدت الدولة العثمانية إلى فصل مناطق الشمال الإفريقي إلى ثلاثة أوجاقات مرتبطة كل منها باستانبول المركز ومنفصلة عن

¹ - نفسره، لكن عند بلانتي بدأ الحصار حوالي منتصف شهر جوان. ينظر (Eugène Plantet-Correspondance Des Beye De

Tunis est des consuls de France Avec La Cour 1577-1830-T 2-paris, 1894, P403.

² - يقال أن باي قسنطينة عشي حسن لما رأى ما في الكاف من رجال والعدة وحصانة القلعة كاتب إبراهيم خوجة يستنده فتناقل عن إمداده. ينظر (أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص129).

³ - حمودة ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 128.

⁴ - تعرف هذه الواقعة عند عامة تونس بمخطرة الجزائرية الكذابة وذلك لوقوع الحرب على بعد من الحاضرة تونس، حتى بعض الناس لم يثبت عنده قدوم محال من الجزائر. ينظر (ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص129-130).

⁵ - اتوري روسي، مرجع سابق، ص255.

بعضها عسكريا وإداريا وماليا، وبهذا الحال يمكن للدولة العثمانية ولزيادة ارتباطهم بها تسليط كل منهم على الآخر¹.

لقد تعرضت ولايات الشمال الإفريقي " الباشويات " إلى تغيرات مختلفة تبعا لظروف القوة التي مرت بها الإمبراطورية العثمانية، فنجد في البداية في سواحل شمال إفريقيا باشوات مشهورين عظاما مثل درغوث وعلج علي في طرابلس وصالح راييس وحسن البندقي في الجزائر، ثم يأتي بعد ذلك دور الباشوات الذين يقلون عن أولئك سلطة وأهمية، وهكذا أخذت تضعف باستمرار العلاقات بين طرابلس والقسطنطينية وبين القسطنطينية والجزائر وتونس².

بدأت العلاقات الجزائرية الطرابلسية في العصر الحديث تتشكل منذ النصف الثاني من القرن 16م، عندما أصبحت طرابلس الغرب إيالة عثمانية من إيالات الشمال الإفريقي، فقد عازمت الدولة العثمانية على حسم الصراع الدائر في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط لصالحها وطرد الإسبان من المنطقة، خاصة بعد حملة أندريا دوريا الفاشلة على الجزائر سنة 1541م، ففي سنة 1551م بدأ الحكم العثماني في طرابلس وأصبح مراد أغا أول شخصية تركية تباشر الحكم في طرابلس، ذلك الحكم الذي كان يأمل فيه درغوث باشا، ونظرا لمكانته في حركة الجهاد البحري كافأه السلطان برتبة أمير أمراء الجزائر مع إمارة البحر اعترافا بخدماته وجهوده القيمة، وقد نجح درغوث في الحصول على إمارة طرابلس في 8 ربيع الأول 963هـ/1556م حيث بذل جهودا كبيرة في تثبيت الحكم العثماني في الولاية العثمانية الجديدة في جميع أنحاء طرابلس³.

كان بايلاربايات الجزائر يحكمون النيابة مباشرة أو بواسطة نوابهم، ولم يكونوا يتقيدون كثيرا بآراء الديوان الذي سيصبح فيما بعد الحاكم الفعلي للجزائر، وكانوا يمارسون سلطتهم على باشوات طرابلس وتونس وسلطاتهم مطلقة وكلمتهم نافذة⁴.

بدأ التعاون بين الجزائر وطرابلس في سنة 1571م عندما كانت الدولة العثمانية تعد العدة لمواجهة القوات المسيحية المتحالفة مع البندقية وذلك في موقعة ليبانت الشهيرة⁵، تلك الواقعة التي شارك فيها الأسطول الجزائري بقيادة علج علي باشا⁶، كما شاركت فيها البحرية الطرابلسية بستة مراكب بقيادة والي البلاد جعفر باشا (1569-1581م)⁷، وقد لعب الأسطول الجزائري والطرابلسي دورا مهما في هذه المعركة البحرية بالرغم من

¹ - محمود علي عامر، محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات جامعة دمشق، 200، ص 165.

² - اتوري روسي، مرجع سابق، ص 257.

³ - أحمد سعيد الطويل، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي، دار الكتب الوطنية، ط 1، بنغازي، 2000، ص 39.

⁶ - محمد خير فارس، مرجع سابق، ص 57.

⁵ - خليج يقع غربي اليونان وهو المكان الذي جرت فيه المعركة بين الأسطول العثماني والأساطيل الأوروبية في 1571م وانتهت بجزمة العثمانيين.

⁶ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 230.

⁷ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 48.47.

هزيمة الأسطول العثماني فيها، فقد بقي عالج علي يخوض القتال حتى بعد الهزيمة وتمكن من قتل قبطان مالطا¹، هذا وتعود أسباب هزيمة الأسطول العثماني في موقعة ليبانت كما ذكر إسماعيل سرهنك إلى قلة خبرة قائد الأسطول العثماني، وعدم الاستفادة من مقترحات مجلس الحرب الذي عقده قائد الأسطول والمؤلف من قادة الأساطيل العثمانية المشاركة في هذه المعركة، ومن بينهم جعفر باشا والي طرابلس وقائد أسطولها والقاضي بعدم مغادرة الخليج، حتى تستفيد البحرية من مدفعية القلاع والحصون، غير أن ذلك لم يتم وبذلك خسرت البحرية العثمانية مائتي سفينة وعشرين ألفا من رجالها²، وفقدت طرابلس في هذه المعركة أربعة مراكب ولم يسلم واليها من الكارثة إلا بمشقة³.

تواصل التعاون بين الجزائر وطرابلس خلال سبعينيات القرن 16م وذلك خلال سنة 1574م من أجل تحرير تونس من الإسبان والتي في الواقع لم تكن إلا تكملة للمشوار الذي بدأه العثمانيون لتحرير المغرب من أيدي النصارى⁴، ففي تلك السنة وصل سنان باشا وأسطوله إلى مياه تونس وحاصره، متزامنا ذلك مع قدوم الأسطول الجزائري بقيادة عالج علي الفرطاس، حيث شارك هو أيضا في الحصار، وفي الوقت نفسه كان هناك جيش بري يقوده والي طرابلس مصطفى باشا وحاكم القيروان حيدر باشا حيث شارك في الحصار البري وبذلك تضافرت الجهود من أجل تحرير تونس فاشتدت الحرب، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى استسلمت قلعة الواد وبقية الحصون الأخرى، وبذلك استقرّ العثمانيون في تونس بعد قضائهم على الإسبان والحفصيين معا وأصبحت تونس ولاية عثمانية كما هو الحال بالنسبة للجزائر وطرابلس⁵.

يروى لنا شارل في الحوليات اللبية أنه خلال سنة 1599م توجه أحد الباشوات من الجزائر إلى طرابلس فنزل في طريقه بجزيرة جربة وأقام في قلعة الوادي ثم واصل سفره إلى طرابلس، وبعد مضي بضعة أشهر عاد هذا الباشا الطماع كما يصفه فيرو الذي لم يتمكن من تنصيب نفسه حاكما على طرابلس، فظهر بسفينته على جربة التي كان ينوي أن يستأسد عليها لحسابه، ونصب خيامه هو ورفاقه عند الشاطئ، غير أن قطعاً بحرية نصرانية كانت قد قدمت اثنا الليل للتزود بالماء العذب، ففاجأت هذا المعسكر بينما كان الباشا وأعوانه مستغرقين في نومهم فقتلوهم جميعا وعادوا لسفنهم حاملين معهم غنائم قيمة⁶.

¹ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 231.

² - إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، المطبعة الأميرية، بولاق القاهرة، ج1، 1312هـ، 561.559.

³ - اتوري روسي، مرجع سابق، ص 235.

⁴ - بعد الهزيمة التي تعرض لها خير الدين بربوس في تونس سنة 1535م، إلى جانب هزيمة الأسطول العثماني أمام الدول المسيحية المتحالفة مع البندقية في موقعة ليبانت 1571م أصبح هناك أكثر من دافع لتحرير تونس من الإسبان. ينظر أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 45.

⁵ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 45.

⁶ - شارل فيرو، مرجع سابق، ص 135.

استمرت العلاقات بين الجزائر وطرابلس مع بداية القرن 17م، ففي رواية يسوقها اتوري روسي أن الانكشارية في طرابلس قاموا بعد مقتل صفر داي¹ بمبايعة أحد أشراف قسنطينة بالجزائر وهو مصطفى شريف زعيما عليهم ودايا على طرابلس، وهو من أصل جزائري كان قد وفد إلى طرابلس في عهد سليمان داي، وكان له إلمام بالطب، وقد تميزت شخصيته باللطف والظرف²، وفي نفس الرواية يورد فيرو أن أصل مصطفى الشريف من مكة، ثم انتقل إلى الأستانة واستوطنها، ثم ذهب إلى طرابلس أثناء حكم سليمان داي حيث كان يزاول مهنة التطبيب، ثم رحل وأقام في تونس والجزائر بضع سنوات ما مكّنه من كسب ثقة الحامية التركية³، ونفس هذه الرواية يوردها ابن غلبون⁴، ومن الشخصيات كذلك التي حكمت طرابلس هناك شخصية الساقلي محمد باشا (1633-1649م) ، إذ وبمجرد أن قتل مصطفى باشا انتقلت السلطة إلى المدعو رمضان داي (1631-1633) فكان الساقلي⁵ قد جاء إلى طرابلس من اليونان بحارا على ظهر سفينة مسيحية، ثم سافر إلى الجزائر أين اعتنق الإسلام، بعدها جهز سفينة وصار قرصانا، وعاد إلى طرابلس بسفينته وقدم نفسه إلى رمضان داي مبديا الرغبة في خدمته، وأصبح فعلا احد رياس طرابلس وتزوج من ابنة رمضان داي⁶.

لم تكن تونس تتطلع فحسب إلى التغلب على طرابلس، بل كانت تطمع في أن يكون لها حق السيطرة عليها، ففي سنة 1672م قام مراد بك التونسي بحجة إحلال النظام في إحدى المدن الطرابلسية الثائرة وحماية أبناء عثمان داي (1649-1672م) الذين أوصاه بهم قبل وفاته بالتقدم نحوها على رأس 5000 فارس، وعددًا مماثلا من الطرابلسيين، إلا أنهم أكثر تسليحا بالبنادق من التونسيين، فتقابل الجانبان في منطقة العجيلات وسط السهل الواسع الممتد من زوارة حتى بحيرة السبخ، ومنذ الاشتباك الأول هزم الطرابلسيون وتم احتلال معسكرهم، لكن بالي داي استجدى بالمرابط سيدي عبد الحفيظ محمد الصيد⁷ أن يستحث حمية الناس الوطنية، فقام هذا المرابط بما طلبه منه الداي، وبالفعل استجاب لدعوته جميع الأعراب وحملوا السلاح وسرعان ما أصبح على أهبة الاستعداد جيش قوامه 7000 مقاتل من بينهم أكثر من 2000 فارس، غير أن المرابط نجح في حث مراد بك التونسي على الصلح إلى حد أن هذا القائد التونسي قبل بالعودة على أعقابها كما وافق على إطلاق سراح

¹ - حكم صفر داي طرابلس من سنة 1611-1614.

² - اتوري روسي، مرجع سابق، ص 265.

³ - شارل فيرو، مرجع سابق، ص 141.

⁴ - للمزيد عن شخصية مصطفى الشريف ينظر ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، تعليق الطاهر الزاوي، المطبعة السلفية القاهرة، 1349هـ، ص 104.

⁵ - الساقلي من نصارى ومواليد جزيرة ساقز اليونانية.

⁶ - شارل فيرو، مرجع سابق، ص 143.

⁷ - يسميه أبو سالم العياشي باسم "الصيدلاني" وقد التقى به في طرابلس وتغذى معه أثناء عودته من الحج مارا بليبيا ينظر: عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، تح. سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، مج1، ط1، دار السويد للنشر والتوزيع، ابو ضبي، 2006، ص 502.

الانكشاريين الذين أسرهم أثناء الالتحام المسلح الأول، فعاد بهم المرابط وكان عددهم ينيف على 400، وجعلت مطامع مراد بك هذه في طرابلس الجزائريين يعلنون عزمهم على نجدة حلفائهم الطرابلسيين عن طريق شن هجوم ضد تونس نفسها لاشغالها عن تجريد حملة ضد طرابلس، ولكن بما أن الأمور عادت إلى نصابها فإن الجزائر اكتفت بإبذار تونس بأنها إذا ما استأنفت أعمالها العدائية ضد تونس، فإن الجزائر ستعلن الحرب ضدها¹.

في 13 جوان 1683م تولى حكم طرابلس جزائري يدعى علي وهو روميلي الأصل²، وكان الزعيم الحقيقي لطرابلس في ذلك الوقت هو مراد بك، وفي رجب من سنة 1095هـ/14 جوان-13 جويلية 1684م قرّر هذا الأخير برفقة أعونه خلع علي الجزائري، واختاروا بدلا منه الحاج عبد الله الأزميري³.

في سنة 1693م كان متواجدا بالجزائر دينيس دوزو « Denis Dusault » حاكم معقل فرنسا « Bastion De France »، وكانت قد أنيطت إليه مهمة إقناع الطرابلسيين بالمفاوضات مع الفرنسيين بعد أن فشل السلطان العثماني في ذلك، وقد نزل دوزو في 14 ماي 1693م بطرابلس وتحصل على إذن بمقابلة داي طرابلس محمد الإمام باشا (1687-1701م)، حيث أبلغه بأن صديقه الحميم شعبان داي الجزائر 1688-1695م قد أوعز إليه بالعمل على إرجاع المياه إلى مجاريها بين طرابلس وفرنسا وإقناع ملك فرنسا بتناسي ما بدر من الطرابلسيين من حرق للمعاهدة المبرمة بينهما سنة 1681م⁴، وقد نجح دوزو في مهمته هذه وتمكن بحنكته أن يجنب فرنسا شن حرب جديدة ضد طرابلس، ثم تم إبرام معاهدة بتاريخ 27 ماي 1693م⁵.

خلال الحرب التي جرت بين الجزائر وتونس في سنة 1693م، كان الداي شعبان في الجزائر قد اتفق مع طرابلس الغرب وذلك ردا على اتفاق التونسيين مع الفاسيين⁶، فأرسل داي طرابلس جنودا لمساعدة داي الجزائر في حربه على باي تونس⁷، وفي سنة 1695م قامت أساطيل كل من الجزائر وطرابلس بمحاصرة تونس، فأوفد

¹ - شارل فيرو، مرجع سابق، ص 180.178. و ابنه غلبون، مصدر سابق، ص 139. واليتش بروتشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن 16 حتى

مطلع ق 20، بت عماد حاتم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط2، بنغازي، 2001م، ص 71.

² - يقول عنه فيرو أنه كان علما من أصل نصراني، وكان يعمل في الماضي بتركيا والجزائر إذ قضى زهرة شبابه فوق سفن القرصنة. ينظر شارل فيرو، مصدر سابق، ص 195.

³ - اتوري روسي، مرجع سابق، ص 300.299.

⁴ - حدثت هذه الواقعة أثناء فترة حكم محمد الإمام عندما استولى على بعض السفن الفرنسية، وعندما احتج القنصل الفرنسي لومير لويس « Louis lemaire » أودع السجن، كما قامت فرقة بحرية فرنسية سنة 1692م بقصف مدينة طرابلس دون أن تظفر بالترضية التي كانت تنتظرها فأخفقت في مهمتها وتدخل الباب العالي فأوفد رسولا إلى طرابلس في مارس 1693م لإقناع الطرابلسيين باحترام السلم مع فرنسا، ولكن دون جدوى، وأطلق سراح القنصل الفرنسي لأمير فذهب إلى الجزائر. ينظر اتوري روسي، مرجع سابق، ص 308.

⁵ - شارل فيرو، مرجع سابق، ص 232.

⁶ - عزيز سامح الت، مرجع سابق، ص 434.

⁷ - اتوري روسي، مرجع سابق، ص 312. و واليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 80.79.

الباب العالي مندوبين طالبا منهم استيفاء جميع وسائل الإقناع لحمل هؤلاء القراصنة على التعايش في وئام وقال لهم بلسان مندوبيه- إن المؤمنين الحقيقيين يعتبرون كالأخوة وعليهم أن يتساندوا وأن يغيث بعضهم البعض بدل التناذب والتقاتل¹.

وفي سنة 1700م/1112هـ أسهم الجيش الطرابلسي في الحملة التي وجهها التونسيين ضد الجزائر، وكان مراد بك تونس قد أرسل هدايا إلى داي الجزائر، فرفض هذا الأخير فاستغاض مراد بك لذلك غضبا فكتب إلى خليل باشا قائد جيش طرابلس طالبا منه العون والمساندة ، فتوجه إليه هذا الأخير على رأس قواته²، فاخترقوا الحدود الجزائرية وهزموا أمير قسنطينة وفرضوا على المدينة حصارا شديدا³، وعندما علموا بخبر دنو الجيش الجزائري نحوهم هبوا إلى ملاقاته في السهول الواقعة بين قسنطينة وسطيف فلقى قرابة 9000 رجل حتفهم في تلك المعركة ثم عاد مراد بك إلى الحدود التونسية مدحورا، أما خليل بك طرابلس الغرب فإنه عندما رأى أن النصر سيكون حليف الجزائريين فإنه تقهقر على أعقابهم أثناء القتال هو وفرسانه⁴.

خلال فترة حكم خليل (1702-1709) اندلعت الحرب بين إيالة طرابلس وتونس 1704م/1116هـ، هذا ويروي لنا فيرو بأن إبراهيم الشريف في تونس لما أعلن الحرب على طرابلس قد تلقى من حكومة الجزائر وعداً بمساندته في ذلك، غير أن ذلك الوعد لم يكن جديا، في نظر فيرو، ذلك أن الجزائر كانت تقوم بلعبة مزدوجة حيث أنها كانت متحالفة مع طرابلس في الخفاء⁵.

خلال فترة حكم أحمد القرماني 1711_1745⁶، حاول جانم أغا⁷ الاستيلاء على طرابلس فاستولوا على برقة سنة 1721 واعترف به كثير من زعماء البدو ، وتعود أسباب محاولة احتلاله لطرابلس إلى عزله من قبل السلطان العثماني، فحاول المغامرة باحتلال طرابلس، وقد دعاه إلى ذلك سكان طرابلس ثم تخلوا عنه بعد ذلك

في شأن هذه الحرب يقول بلانتي أنه وصلت يوم 25 أوت 1694م 3 مراكب و 5 زوارق طرابلسية وأُنزلت برأس قرطاج ما يقرب من ألف جندي لمساعدة داي الجزائر الذي كان مشتبكا في حرب مع باي تونس. ينظر: E.Plante, Op.Cit ,V1,p520.

¹ - شارل فيرو، مرجع سابق، ص234.

² - نفسه، ص236.

³ - عزيز سامح الت، مرجع سابق، ص452.

⁴ - شارل فيرو، مرجع سابق، ص236.

⁵ - للمزيد عن تلك الحرب التي جرت بين تونس وطرابلس ودور الجزائر فيها. ينظر ابن غلبون، مصدر سابق، ص 155.156.

⁶ - أحمد القرماني: والي طرابلس من سنة 1711 إلى 1745م وهو مؤسس سلالة الأسرة القرمانية في طرابلس الغرب .

⁷ - قدم هذا الثائر في البداية كمبعوث من قبل السلطان العثماني بعد جلوس احمد القرماني على حكم طرابلس، وكان قد رقي إلى رتبة قبودان باشا أي أميرال الأسطول العثماني وقد عزل بعد ذلك ونفي إلى كانديا بكريت بعد 3 سنوات من تعيينه، وهناك تمكن من الاستيلاء على سفينة تركية، فشحن فيها كنوزه وأمواله، وحاول بمساعدة بعض المغامرين من جماعته الاستيلاء على أي مقاطعة من ولايات إفريقيا الشمالية . ينظر اتوري روسي، مرجع سابق، ص 333.

بسبب وعود مغرية من والي طرابلس احمد القرمالي، وحاول بعد ذلك الإستيلاء على تونس لكنه انتهى إلى اللجوء إلى قرصنة الجزائر اللذين استضافوه¹.

في شهر جوان من سنة 1742م قام أحمد القرماني والي طرابلس بقتل الحاج محمد وهو نجل داي الجزائر إبراهيم (1732-1745)² عندما كان عائدا من الحج³، ففي طريق عودته من الحج نزل عند أبواب مدينة طرابلس فخيم بقافلته فيها فهوجم أثناء الليل فتم اغتياله برفقة جميع من معه من حراسه، ولقد غنم احمد القرماني من وراء تلك الجريمة مائتين من الجياد ذات السروج الرائعة، ومائتين وخمسين جملا وحوالي خمسمائة قطعة من عملة السكين " البندقية"⁴.

في أعقاب تلك الجريمة وردت من تونس والجزائر خطابات تهديد ووعيد تنذر بعزم الإيالتين على التواطؤ معاً لشن حملة ضد طرابلس، فأصدر احمد القرماني أوامره بالتأهب للمقاومة في كل مكان، غير أنّ الأمور توقفت عند ذلك الحد⁵، بسبب تدهور علاقته مع الصقليين فتفادى تعريض طرابلس لحربين في أن واحد مع النصارى ومع حكام الإيالتين المجاورتين، كما أن الجزائر رغبة منها في أن يسود الوئام بين الحكومات الثلاث اقترحت أن تتحد في محالفة دفاعية وهجومية وأن يتضامن الأمراء الثلاث، ويضمن كل منهم عرش الآخر ضد أعدائه من الأجنب، وقد قوبل هذا الإقتراح بارتياح وقبول حسن⁶.

¹ - اتوري روسي، مرجع سابق، ص 333.

² - شارل فيرو، مرجع سابق، ص 300.

³ - اتوري روسي، مرجع سابق، ص 341.

⁴ - شارل فيرو، مرجع سابق، ص 301. و اتوري روسي، مرجع سابق، ص 341.

⁵ - يشير فيرو إلى أن هناك روايات محلية تذهب إلى القول أن احمد القرماني لم يقترف تلك الجريمة إلا تقريبا من إبراهيم داي الجزائر ومن أحمد بك تونس، فقد كان أولهما يرى الحاج محمد منافسا له على العرش ويرغب في التخلص منه بسبب عدااء شخصي بينهما، ولذا فان التلويح بتوجيه حملة ضد طرابلس لم تكن فيما يقال سوى لعبة كاذبة قصد بها إرضاء الرأي العام. ينظر: شارل فيرو، مرجع سابق، ص 301.

⁶ - ميكاكي رودولفو، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرماني، تر، طه فوزي، معهد الدراسات العربية العالية، 1961، ص 81.80.

الفصل الأول

العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من القرن 18 م .
أولا : العلاقات ما بن الإيالتين 1750-1782- من السلام إلى المجابهة والهيمنة الجزائرية

1 - ثورة يونس ابن علي باشا

أ- لجوئه إلى قسنطينة

2 - التدخل الجزائري في تونس سنة 1756م وتثبيت أبناء حسين بن علي على العرش

أ - حرب 1756

* إستعدادات تونس

* إستعدادات الجزائر

ب - الحملة الجزائرية على مدينة الكاف

ج- الحملة الجزائرية على مدينة تونس

د- نتائج حرب 1756م

3 - العلاقات في عهد داي الجزائر بوضبع والباي محمد ابن الحسين (1756-1759)

أ - فيما يتعلق بتكاليف الحملة الجزائرية على تونس 1756م.

ب - تأدية تونس الضريبة للجزائر

ج - إحتواء الجزائريين في تونس تجنباً لنقماتهم

4 - الباي علي ابن الحسين وسياسته تجاه الجزائر

أ - ثورة إسماعيل ابن يونس ولجوئه إلى الجزائر

ب. مواصلة تونس الوفاء بالإلتزامات تجاه الجزائر

* تعويضات مصاريف الحملة

* دفع الهدايا والضرائب

* الاعتراف بسيادة الجزائر

ج- التجاوزات الصادرة من الجزائريين في تونس

د-محمد عثمان باشا داي الجزائر وعلاقاته مع تونس إلى غاية تولي حمود باشا العرش 1766-

1782م63

ثانيا : عودة السلام بين الإيالتين (1782-1805م)

- 1 - شخصية حمودة باشا
- 2 - مظاهر علاقته مع الجزائر إلى غاية سنة 1800م
 - أ - تقديم الهدايا
 - ب - الإحسان إلى الضيوف والمبعوثين
 - ج- إستمرار تونس في إيواء المارين بها من الجزائريين
- 3 - صالح باي حاكم قسنطينة
 - أ - الأزمة مع تونس 1783-1787م .
- 4 - موقف الجزائر من حملة حمودة باشا على طرابلس الغرب 1794-1795م
- 5 - دور الجزائر في إبرام الصلح بين تونس والولايات المتحدة الأمريكية
- 6 - إستعدادات تونس للتخلص من الهيمنة الجزائرية
 - أ - بناء التحصينات العسكرية
 - ب - الإعتماد على الجوسسة
 - ج- الزيادة في عدد الجند
- 7 - التحالف مع المغرب الأقصى .

الفصل الأول: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من القرن 18م:

سوف يتم التطرق في هذا الفصل إلى العلاقات بين الإيالة الجزائرية والتونسية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي والذي تميز بالتوتر بين البلدين تارة وسلام وتعاون تارة أخرى. بعد فشل الحملة الجزائرية في احتلال تونس سنة 1746م، كان عليها أن تنتظر مدة عشر سنوات أخرى لشن حملة على تونس لأجل تثبيت أبناء حسين بن علي على العرش والفارين إلى الجزائر عقب مقتل أبيهم وهزيمة 1746م .

أولا : العلاقات بين الإيالتين ما بين 1750م-1782م

1-ثورة يونس ابن علي باشا:

كان لعلي باشا ثلاثة من الأبناء يونس ومحمد وسليمان ، وكان يونس بالمنزلة الرفيعة عند أبيه لكفاءته وحزمه، وتمكن برفقة أبيه من القضاء على أولئك الذين تجرؤا على التمرد ضدهما، ومحاولتهم إرجاع حكم تونس إلى ذرية حسين بن علي المقيمين بالجزائر وذلك بعد محاولتهم الفاشلة في سنة 1746م من استعادة العرش، لذا فعلي باشا وإبنة يونس وبعدهما ألت إليهما الأموال الطائلة التي تركها ورائهم آل حسين بن علي، زيادة على الأموال التي سلباها من الأهالي التونسيين، أصبحا لا يفكران سوى في تثبيت قدميهما في الحكم، من خلال استغلال تلك الأموال في شراء ذمم أنصارهما، هذا زيادة على أنّ يونس باي حرص على تحويل جانب كبير من تلك الأموال إلى خزائنه الخاصة¹، وبدا هذا الأخير شديد النفوذ عند والده، إلى درجة أن علي باشا لم يكن يسأل عما كان يفعل إبنة بالأموال الطائلة التي استولى عليها، هذا ما أثار ابن علي باشا الثاني محمد الذي كان هو الآخر أميرا طموحا وماكرا، بحيث خشى عواقب الأمور على مركزه، فأخذ يعمل بكل الوسائل على وضع حد لنفوذ أخيه الأكبر بهدف إبعاده أو على الأقل تقاسم النفوذ معه².

ساءت العلاقات بين علي باشا وابنه يونس نتيجة الكلام الذي كان يسمعه عن ولده من حاشيته ومن ابنه محمد حتى صار لا يثق فيه ويخشى غدره³، وفي شأن هذا يول ابن أبي الضياف "...فاستحكمت الوحشة بين الباشا وابنه يونس وخاف كل منهما صاحبه، حتى صار الإبن لا يدخل على أبيه إلا إذا كان خاصته بسلاحهم، وتخلف الأب عن صلاة الجمعة بجامع باردو، لأن الطريق إلى الجامع يمر على باب دار يونس..."⁴، وكذا نجد أن علي باشا فكر في تنحية إبنة من قيادة المحلات⁵، ثم أراد تغريبه عن البلاد بإرساله إلى الحج، ثم فكر في القبض عليه ، ففر يونس

¹ - A.Rosseau,Op.Cit,p147.

² - Ibid.

³ - عمار بن خروف،مرجع سابق،ص276.

⁴ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق،ص136.

⁵ لما استحكم الخلاف بين علي باشا وابنه يونس أصبح لا يثق فيه فشرع في منح ابنه محمد اختصاصات رسمية ماثلة لتلك التي كان يتمتع بها يونس، فبحلول موسم توجيه المحلات العسكرية واستفاء الجباية والمغارم من قبائل الدواخل التونسية، أمر الباشا بتجهيز محلتين بدل واحدة كما جرت العادة من

ودخل القصبه في 24 أبريل 1752م مغاضبا لأخيه وأبيه¹، وتمكن من جلب الطائفة العسكرية التركية إلى جانبه، فحشد منهم 300 ووعدهم بزيادة نصري في الرواتب²، وأيدته بعض الحاميات كحامية الكاف وقلعة حلق الوادي وبعض القبائل كدريد وبعض أولاد سعيد وعرب ماجر، ودخلت حصون أخرى العصيان كبنزرت وغار الملح³، وبذلك انقسمت العاصمة تونس إلى شقين القبلي ليونس والجوفي لأبيه⁴، ورفض يونس الصلح الذي تقدم به والده له بواسطة علماء تونس⁵، وأصرّ على مواصلة الثورة، لكن علي باشا تمكن بفضل بقاء كثير من الجند وكثير من القبائل على الولاء له من فرض حصار عليه في مدينة تونس، كما نجح في إحباط مساعيه في الحصول على مساعدة خارجية ونجدة عن طريق البحر⁶ من مالطا وفرنسا⁷، أو من غيرها بمراقبة المنافذ البحرية والإتصال بالجهات التي طلب منها يونس المساعدة وتحذيرها من مغبة الاستجابة لطلبه، فلم يتمكن ابنه الثائر من الصمود للحصار والقصف المدمر الصادر عن مدافع قواته بقيادة ولديه الآخرين محمد وسليمان والذي استمر 55 يوما⁸. تمكن علي باشا في أواخر رجب 1165هـ/1752م من الإستيلاء على قلعة حلق الوادي بعد نفاذها من الذخيرة، فكان ذلك مقدمة لسقوط الحاضرة تونس أيضا، فغدا واضحا ليونس بأنه لم يعد في وسعه التصدي لقوات أبيه وشقيقه، إذ وفي منتصف نهار 3 شعبان 1165هـ/17جوان 1752م تمكنت قوات علي باشا من التغلب على قوات يونس التي كانت تعاني من نقص وقلة في الذخيرة، فدخل الأميران محمد وسليمان العاصمة التونسية، أما يونس فقد أجبر على الفرار نحو بلدة تبسة بالشرق الجزائري ومنها توجه إلى قسنطينة⁹.

أ- لجوء يونس ابن علي باشا إلى قسنطينة :

لما تأكد يونس من عدم قدرته على مواجهة أبيه وشقيقه محمد وسليمان بعد حصاره مدة بعد حصاره مدة 25 يوما في القصبه ونفاذ ذخيرته، عند ذلك امتطى فرسه وبصحبه المقربين منه ومعه أغلى ما يملك مسرعا نحو بلدة تبسة¹⁰، وفي هذا يقول محمد صغير بن يوسف في المشرع الملكي "...قد قابل بوجهه حرّ الشمس، سايرا لا يدري اليوم من الأمس وعسكره في جرته، إذا بات يونس بات معه، وعلي باشا كل يوم ترد عليه أخباره إلى أن وصل تبسة

قبل وخرج علي باشا بنفسه على رأس محلة الشتاء، بينما خرج يونس على رأس المحلة الثانية وبخروج المختلين أصبح محمد هو السيد المطاع في قصر باردو. ينظر (ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص137. و A.Resseau-Op.Cit-P148.

¹ - محمود مقديش، مصدر سابق، ص 165.

² - M.Poiron, Mémoire Concernant Léat Présent du Royaume De Tunis , Leroux, paris, 1925, p90.

³ غار الملح : ويسمىها الإفرنج "بورتوفارينا وهي ميناء صغير يقع في شمال البلاد التونسية تابع لولاية بنزرت .

⁴ - A.Guellouz.A.Masmoudi.M.Smida,Histoire Général De la Tunisie,les temps modernes1534.1881,T3 , sud edition , tunis, 2010,p230.

⁵ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص139.

⁶ - M.Poiron , Op.Cit,p153.

⁷ - E.Plantet Correspondance Des Beye De Tunis...,Op.Cit,p444-445.

⁸ - أي من 24 أبريل 1752م إلى 17 جوان 1752م.

⁹ - A.Rosseau, Op.Cit,p153.

¹⁰ -Ibid,p154.

ودخلها، فأكرموا رجالها والعسكر الذي في نوبتها...¹، ومن بلدة تبسة واصل سيره إلى قسنطينة في ثلة ممن بقي من خاصته، فأكرمها صاحبها عشي حسن وأحسن نزلها، وكان من الفخامة ما اقتضى أن باي قسنطينة أزمه داره²، وأحلها محلا كريما، وأجرى عليه خيرا جسيما، وبأسطه بإكرام الأخلاق، من غير غش ولا نفاق³، هذا وكان ذهاب يونس إلى قسنطينة ذهاب بدون رجعة، إذ توفي بها في سنة 1768م⁴.

2- التدخل الجزائري في تونس سنة 1756م وتثبيت أبناء حسين بن علي على العرش:

بعد الفتنة الحسينية الباشية، وقيام الحرب الأهلية بتونس سنة 1735م بين حسين بن علي وعلي باشا، وتمكن هذا الأخير من الاستيلاء على عرش تونس بفضل المساعدة الجزائرية، كان أبناء الباي حسين قد فرتوا إلى الجزائر طلبا للمساعدة، وآملا في إستعادة عرش أبيهم، فكانت أولى محاولاتهم سنة 1746م قد باءت بالفشل عند أبواب وأسوار مدينة الكاف، ذلك أن باي قسنطينة الذي كان حليفا لعلي باشا تناقل في إمدادهم بالذخائر الحربية، ما أجبر الإخوة الثلاثة على الرجوع إلى الجزائر وانتظار 10 سنوات أخرى من أجل إعادة الكرة للمرة الثانية. فهل سينجح أبناء حسين بن علي في استعادة عرش أبيهم المغتصب من قبل علي باشا؟.

أ - حرب 1756م :

بعد فشل يونس في الإستيلاء على عرش أبيه، بفشل ثورته سنة 1752، وفراره إلى الجزائر وبذلك إنضاف إلى خصوم أبيه المقيمين بالجزائر محمد وعلي ولدا الحسين بن علي⁵، هذا وكان يونس يأمل في أن يجد عوننا من الجزائر ليتمكن من العودة إلى تونس، وانتزع الملك فيها من والده علي باشا، هذا الأخير الذي بادر إلى تطويق كل مساعي ابنه من خلال إرسال مبعوث إلى الجزائر محملا بهدايا كثيرة للداي، إذ حظي فيها بالمبعوث باستقبال جيد ثم عاد إلى تونس، كما باءت بالفشل كل مساعي يونس في الحصول على مساعدة جزائرية له⁶.

تميزت العلاقات في عهد الداوي محمد بن بكر 1748م-1454م وعلي باشا بالسلام الذي انتابه قلق من الجانبين، فقد ربط الداوي التونسي علاقات ودية مع من لهم تأثير قوي⁷ على قرار الداوي كباي قسنطينة عشي حسن الذي يعتبره ابن عبد العزيز من أصدقاء علي باشا⁸، كما استمرت تونس في هذه الفترة في استقبال الفارين من الجزائر أفرادا وجماعات وقبائل واتخاذها ملجأ لهم، فقد فرّ إليها فريق من الجند قدر عددهم بمائتين إلى ثلاثمائة كانوا مكلفين بتحصيل الضرائب في داخل البلاد، فلما تجمع لديهم مبلغ كبير من المال، قتلوا رئيسهم ولجئوا إلى تونس في مارس 1752م، وقد استاء الداوي كثيرا من علي باشا الذي أعطاهم حق اللجوء، كما لجأت قبيلة من

1- محمد صغير بن يوسف، مصدر سابق، مج3، ص157.

2- أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص141.

3- محمد صغير بن يوسف، مصدر سابق، ص159.

4- أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص142.

5- الابن الثالث للباي حسين هو محمود وكان قد توفي في قسنطينة في سنة 1746م وبها دفن.

6- عمار بن خروف، مرجع سابق، ص288.

7- M.Gaid,Op.Cit.p,159.

8- حمودة ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص427.

الحنانشة إلى المملكة التونسية فرارا من الضرائب ، وقيام علي باشا بضرب قبيلة النمامشة الجزائرية داخل الأراضي الجزائرية والانتقام منها لأنها لم تؤدي له الإتاوة التي كانت تدفعها مقابل السماح لها بالتسوق في أسواق تونس الجنوبية، وهذا ما أثار إستياء لدى الداى محمد بن بكر¹.

قام في خريف 1754م حسن أزرق عينو باي قسنطينة الجديد، والذي خلف الباى حسن بوحنك بغارة على الأراضي التونسية التي كان الحنانشة اللاجئون قد اتخذوها مستوطنا لهم، فقتل الكثيرين وأخذ ماشيتهم في أكتوبر 1754²، أي في الشهور الأخيرة من عهد الداى بن بكر والذي أغتيل في 11-12-1754م، وكان الباى حسن قد كاتب علي باشا وطالبه برد اللاجئين الحنانشة، فلم يلق طلبه الاستجابة المرغوبة، وقد أنف الباى علي باشا أن يرد عليه بنفسه لاعتباره أن مقامه أعلى من مقام باي قسنطينة، فكلف ابنه محمد بالردّ عليه³، وهكذا فقد توفرت عوامل عدة لتوتير العلاقات بين الإيالتين في عهد الداى محمد بن بكر وعلي باشا ، إلا أنها لم تتطور إلى صدام مسلح بين قواهما كما حدث في سنة 1735م في عهد الداى إبراهيم الكبير والباى حسين بن علي، أو في سنة 1746م بين الداى إبراهيم الصغير وعلي باشا، ولعل ذلك يعود للأسباب التالية :

* دخول علي باشا منذ سنة 1748م في عدم تفاهم مع ابنه يونس إنتهى بقيام ثورة بينهما⁴ ، ولجوء يونس إلى قسنطينة بعد فشل ثورته سنة 1752م⁵، فصار يشكل فيها عنصر قلق كبير لوالده، هذا الأخير الذي عمل كل ما في وسعه على أن لا تتطور العلاقات بينه وبين الجزائر إلى صدام، ولتفادي ذلك كان يبادر إلى إرسال مبعوثيه إلى حكام الجزائر محملين بهدايا كثيرة.

* كان الداى محمد بن بكر ميالا إلى السلم لا الحرب، فكان يتحرّج من سفك الدماء في سبيل الأعراس⁶ ، وكان يرد على من يكلمه من رجاله في إعادة الكرة على تونس بقوله " ...عليكم بوهران التي أخذها النصرارى غصبا ... ما أحب للوجقين إلا صلحا ... " ⁷، وقوله " ...قبل إزالة معرة وهران لن نلتفت لشيء ... " ⁸ ، هذا ما جعل خصوم علي باشا في الجزائر وعلى رأسهم ابنه يونس، والأخوان محمد وعلي ولدا الحسين بن علي يئسسون من الحصول منه على حملة تمكنهم من انتزاع الملك في تونس من علي باشا.

* انشغال الداى محمد بن بكر في السنوات الأولى من حكمه بأمرين، أولهما هو العمل على توفير الأمن والإستقرار خاصة في مدينة الجزائر، والعمل على إخماد الثورات التي قامت في عهده، والأمر الثاني الذي كان

¹ - عمار بن خروف ، مرجع سابق، ص283.

² - E.Plantet, Correspondance Des Beye De Tunis... T2-Op.Cit,P475.

³ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص147.

⁴ - E.Mercier,Histoire De L'afrique Septen... Op.Cit,p383.

⁵ - حمودة ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص442.

⁶ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص146.

⁷ - محمد صغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص5.

⁸ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص146.

الفصل الأول : العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من ق18م

يشغل الداوي هو خطر التعرض إلى حملة صليبية دعا إليها البابا، وتحمس لها الإسبان، وكان من المنتظر أن تشارك فيها عدة دول أوروبية، واستمر قيام هذه الحملة لسنوات عديدة من 1749م- 1752م¹.

من خلال ما تقدم من تلك العوامل يمكن القول أن العلاقات الجزائرية التونسية في عهد الداوي محمد بن بكر وعلي باشا تميزت بالسلام والقلق، وذلك لكثرة العوامل التي كانت تدفع بالعلاقات نحو التوتر والعداء، واستمر ذلك التوتر والقلق إلى غاية وفاة الداوي محمد في 1754/12/11م وخلفه الداوي علي بوصبع.

كانت ثورة جديدة قد وقعت في الجزائر أواخر سنة 1754م، أودت بحياة محمد بن بكر ذلك أنه من عادة الدايات في الجزائر حضورهم يوم إعطاء مرتبات الجند، فإذا أخذ الجندي مرتبه ينحرف إلى الداوي ويقبل يده²، وكان من بين الجنود الذين قبضوا مرتباتهم جندي يدعى أوزن علي، فبمجرد أن قبض معاشه مال نحو الداوي متظاهرا بتقبيل يده واستلّ خنجره بغتة وطعن الداوي بن بكر في قلبه فمات في 11 ديسمبر 1754م³.

بعد مقتل الداوي بن بكر، إتفق جند الانكشارية على تعيين علي بوصبع (1754-1766)⁴ دايا عليهم، والذي تميزت العلاقات بينه وبين علي باشا بالعداء والتوتر وذلك للأسباب الآتية :

* إستمرار الإيالة الجزائرية في إيواء خصوم علي باشا، منهم ابنه يونس وابنا عمه الحسين بن علي محمد وعلي⁵، واستمرار تونس في إيواء من لجأ إليها من أفراد القبيلة الجزائرية⁶.

* فشل مساعي علي باشا وابنه محمد، الأول لدى الداوي علي بوصبع، والثاني لدى الباي حسن ازرق عينو باي قسنطينة في كسب ود هما والعيش في سلام ووثام معهما⁷.

إن فشل المفاوضات والبعثات بين الإيالتين في إيجاد تسوية للخلاف بينهما، لا يعود أساسا إلى إمتناع باي تونس وابنه محمد في الاستجابة لمطالب داي الجزائر وباي قسنطينة، وإنما إلى رغبتها في الإطاحة به وبإبنه.

لقد استعدت كل من الجزائر وتونس لحرب عام 1756م على النحو الآتي:

¹ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص286 .

² - ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص147.

³ -A.Rosseau, Op.Cit.p156.

يسمى روسو داي الجزائر المقتول باسم محمد بن بكر ويسمى قاتله باسم أوزن علي، بينما نجد ابن أبي الضياف يسمي الأول احمد ويسمى قاتله درويش داي ويقول عن هذا الأخير انه كان رجلا من الزهاد يسكن المقابر: ينظر ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص147.

⁴ -M.Gaid-Op.Cit.p160.

⁵ - لجأ يونس إلى قسنطينة سنة 1752م أما أبناء الحسين بن علي فلقد لجأ والى الجزائر بعد وصول علي باشا إلى سدة الحكم سنة 1735م: ينظر (محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص8،9).

⁶ -De Grammont, histoire d'alger sous...op.cit,p309-317.

⁷ - من ذلك توجه بعثة تونسية إلى قسنطينة في أوت 1755م محملة بمقترحات تونس السلمية، لكنهما لم يتوصلا إلى اتفاق بسبب عدم التفاهم حول القبيلة الجزائرية التي لجأت إلى البلاد التونسية، كما استقبل الباي علي باشا مبعوثي الباي أزرق عينه في أكتوبر 1755، وقد جدد المبعوثان مطلب باي قسنطينة المتمثل في وجوب إعادة القبيلة الجزائرية المتمردة، إلا أنهما لم يتوصلا إلى اتفاق: ينظر (E.Plantet, Correspondance Des Beye De Tunis... T2-Op.Cit,PP489-492.)

*- إستعدادات تونس :

بعد فشل علي باشا وابنه محمد في التوصل إلى اتفاق سلام مع داي الجزائر وباي قسنطينة وبات من الممكن دخول البلدين في حرب بينهما، إهتّم علي باشا وابنه بتحسين الحاضرة تونس على وجه الخصوص من خلال دراسة مواطن الضعف التي يمكن للعدو إستغلالها، واحتلال المدينة، فوجد أن الجانب الجنوبي للمدينة هو الأضعف، لذا كان من المفيد له إقامة متاريس¹، في تلك الجهة وحفر خندق عميق أمام تلك المتاريس، واتفقا على أن يبني برجاً في أوعار جبل الجلاص على جروف عالية مطلة على ربط باب الجزيرة²، وبرج آخر بالقرب من السيدة المنوية مجهز بكل ما يلزم من المدافع، وهنا يروي لنا ابن أبي الضياف رواية أنّه مما وجد مكتوباً على حائط برج جلاص بعد إتمام بنائه ما يلي: " هذا لا ينفك قد حضر أجلك وأراح الله منك ومن ذريتك يا قاسي القلب، أين تذهب قد جاءك الطلب"³، فمحاها وأهّم أناساً بكتابة ذلك فأودعهم السجن.

واصل علي باشا تحصيناته إستعداداً للحملة الجزائرية فانتقل إلى قلعة الكاف لتحسينها، واختار طائفة من الترك ممن لهم أهل وأولاد بتونس ووجههم لأبراج الكاف⁴، وبحلول ربيع 1756م أعطى الأوامر لسكان المدن والقرى التي تقع على الطريق المتوقع أن يمر بها الجزائريون بمغادرتهم والرحيل عنها إلى تونس العاصمة، وذلك في حالة فشل الكاف في ردهم، كما صدرت الأوامر إلى قبيلة دريد الجيء بالعسك ر إلى تونس فامثلت، وكانت في الموقع المحدد لها في شهر أفريل 1756م⁵.

ولما جاءت الأخبار من الجزائر إلى علي باشا بتأهب الحملة الجزائرية للخروج من الجزائر بعث إلى الكاف قذائف وبارود ومدافع⁶، وزار ابنه محمد بنفسه مدينة الكاف، وبلغ عدد المدافع التي كانت فيها نحو 200مدفع و4000جندي في الحاميات، واختار الباي محمد نحو 500 من الجند الأتراك الذين لهم أهل في مدينة تونس ليعزز بهم حماية الكاف.

* استعدادات الجزائر :

بعدما فشلت الجزائر في الحصول على ما تريده من المال ورد القبيلة الجزائرية التي لجأت إلى تونس⁷، أقدم الباي

¹ - المتاريس: جمع متريز وهي كلمة دخيلة من الاسبانية ومعناها حائط أكبر من قامة الإنسان وأعلى بحيث يمنع القاصد من الوصول إلى ورائه وفيه ثقب الواحد قريية من بعضها لأجل الواقف وراء الحائط يظهر منها سلاحه فقط الذي به يطلق النار على العدو. ينظر (محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص17-18).

² - محمد صغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص18.

³ - احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص158. وصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص20.

⁴ - نفسه.

⁵ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص294.

⁶ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص294.

⁷ - نفسه، ص295.

الفصل الأول : العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من ق18م

التونسي علي فرض نظام الكارانتينية¹ على التجار الجزائريين المتوجهين نحو تونس ، هذا ما جعل الداوي علي بوصبع وحسن ازرق عينو يفكران في الانتقام من علي باشا، ومن اجل ذلك جرد باي قسنطينة التجار التونسيين الذين يقصدون قسنطينة للتجارة، مما أثار إستياء كبيرا لدى باي تونس، ثم إن حسن باي بعث إلى الداوي بوصبع يطلب منه إرسال علي ابن الحسين إلى قسنطينة للشروع في الإعداد للحرب، وبوصوله في خريف 1755م، شرع في إجراء الاتصالات مع القبائل التونسية لاستمالتها إليه²، وبعد فترة وجيزة أقاما معسكرين بقواتهما في المكان المسمى السباخ، وذهب باي قسنطينة إلى الداوي بوصبع في ربيع 1756م للتحدث معه عن أمر الحملة، إلا أن الداوي اظهر له بعض التردد نظرا للطاعون القوي الذي كان يعصف بالجزائر³، هذا ولم يزل باي الشرق بالداوي بوصبع يحاوله في شأن الحملة⁴، حتى وافق عليها وأمر بالإستعداد للسفر⁵، واعلم محمد ابن الحسين بأن يتجهز هو ورجاله الذين انضموا إليه من كل الجهات للمشاركة في الحملة.

كانت الحملة الجزائرية التي توجهت إلى تونس تتألف من 7000 ألف من الجنود المشاة ومن فرسان بايلك الشرق الجزائري⁶، ويرى بلانتي plantet أن الحملة الجزائرية التي وصلت تونس يوم 22 جويلية 1756م تشكلت من 5000 من المشاة و 1000 من فرسان الصبايحية، إضافة إلى عدد كبير من الفرسان العرب الذين ينتمون إلى جهات مختلفة جزائرية وتونسية⁷، أما المؤرخ التونسي صغير بن يوسف في المشرع الملكي فيذكر أن الحملة الجزائرية أخذت معها مدفعا كبيرا تجره الخيل والثيران والبغال، كورة⁸ المدفع الواحد تزن خمسة وعشرين رطلا، وكان يقوم بتمهيد الطريق لهذه الحملة فريق من النصاري والجزايري⁹ بالفؤوس في الأماكن الوعرة لتذليل الصعاب¹⁰. انفرد حمودة ابن عبد العزيز بالإشارة إلى أن الحملة الجزائرية لما وصلت إلى منطقة "شبرو"، ونزلت هناك وصل إلى قائدها العام الباي حسين أمرا بالرجوع من الداوي¹¹، والسبب في ذلك يعود إلى نصائح الموالين لعلي باشا بعدم المغامرة ضده، وذلك بالمبالغة له في الصعوبات التي تواجه الحملة نتيجة القوة الكبيرة التي أصبح يتمتع بها

¹ - الكارانتينية: معناها الحجر الصحي وكانت تقوم به السلطات التونسية على التجار الجزائريين والحجاج المتوجهين إلى البقاع لأداء مناسك الحج ويدوم هذا الحجر أربعين يوما .

² - A.Rosseau, Op.Cit.p158.

³ - في سنة 1752م حل الوباء بالجزائر واستمر 4 سنوات متتالية وتركز التقارير بأنه كان يموت كل شهرين ما يقرب من 170 شخصا، فأصبحت البلاد بالفقر والقحط ، وعلى هذا كان تردد علي بوصبع في تحريك الحملة ضد تونس خشية اشتداد عصفه.

⁴ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص296.

⁵ - من الأسباب الرئيسية للاستعداد للحملة على تونس تلك الإهانات التي كان يتعرض لها باي قسنطينة من قبل علي باشا ، ومن ذلك عدم رغبته في معالجة القضايا موضوع الخلاف بينهما حيث كان يعتبره دون مقامه ، فكان يحيلها إلى ابنه محمد. ينظر: محمد صغير بن يوسف ، مصدر سابق، ج4، ص14، 15.

⁶ - V.De Paradis ,Tunis et Alger a 18^{em} siecle,Paris,1983,p30.

⁷ - E.Plante, Corresponance Des Beye De Tunis Op.Cit,P500.

⁸ - كورة: يقصد بها قذيفة المدفع.

⁹ - جمع عزري وهم الشباب .

¹⁰ - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص37.

¹¹ - حمودة ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص277.

علي باشا عدة وعدداً¹، لكن علي ابن الحسين بن علي كان قد حذر باي قسنطينة من المخاطر التي تنجم عن توقيف الحملة وعدم المغامرة بها، هذا ما جعل داي الجزائر يأمر من جديد بإنقاذ الحملة ، ولم تلبث الحملة الجزائرية أن تحركت من شبرو إلى بلدة الكاف بعد أن أذن لها الداي بذلك .

ب- الحملة على مدينة الكاف :

كانت الحملة الجزائرية قد أقلعت من مدينة الجزائر نحو قسنطينة، وبوصولها إلى منطقة شبرو توقفت عندها²، إذ بلغتها أوامر من الداي بوصيب بالتوقف على عجل، والعودة إلى الجزائر، وكان ذلك التحول في الخطة راجع إلى الدسائس التي حاكها أنصار علي باشا في الجزائر، إذ نجحوا في زعزعة القرار الذي اتخذه الداي بأن جسّموا أمامه المخاطر والصعوبات التي سوف تعترضها، ونصحوه بعدم الإعتداء على حليف كعلي باشا الذي ظلّ مخلصاً للجزائر حتى تلك اللحظة، كما لجأوا إلى التهويل مدّعين للدّاي أن لدى تونس قوات ضخمة سيتورط العسكر التركي الجزائري في محاربتها³، وعندما وصلت لقائد الحملة الجزائرية حسن أزرق عينو أوامر سيّده إجتماع في الحال مع علي ابن حسين باي، وأطلعه على فحوى الأوامر التي تلقاها، فغضب الأمير التونسي المنفي، إلاّ أنّه كتم غضبه وتظاهر على العكس من ذلك، وخاطب حسن أزرق عينو بخطبة أثّرت فيه⁴، ما جعله يقرّر مكاتبة داي الجزائر مهدداً إيّاه بالإستقالة من منصبه كعامل لقسنطينة إن هو لم يأذن للمحلة الجزائرية بمواصلة زحفها على تونس، فما كان من داي الجزائر إلاّ توجيه تعليمات جديدة تلغي سابقتها، وتأمّر بمواصلة المحلة الجزائرية لزحفها على تونس واستئناف العمليات الحربية⁵.

تابعت المحلة الجزائرية سيرها نحو مدينة الكاف الحدودية، وبوصولها إليها في الثامن رمضان 1169هـ/06 جوان 1756م حسب رواية صغير بن يوسف وابن أبي الضياف⁶، وفي 10 جوان /12 رمضان 1169هـ حسب رواية القنصل الفرنسي في تونس⁷، وجدها الجزائريون قلعة محصنة ومنيعة، بها مدافع كثيرة وحامية قوية من الزوايين وجند الأتراك وسكان المدينة ، وبمجرد أن أقام الجيش الجزائري معسكره بالقرب من الكاف ليلة 8 و9 رمضان طلبوا من جندها الاستسلام فأجابوهم بأن: " ملكنا لم يزل بقيد الحياة فلا يسوغ لنا التسليم، فذهبوا إليه فان غلبتموه فالكاف من جملة البلاد " ⁸ ، فجمع حسن باي أعيان الجند وقال لهم : " إن التوانسة بالأمس سمونا بالجزيرية الكذابة ، ولا بد من إزالة هذه الوصمة بالقتال، ولا نبرح مكاننا إلا إذا أخذنا الكاف أو نموت " ⁹ أما يكفيكم في العار

¹ - حمودة ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص277-278.

² - E.Mercier,Histoire De L'afrique Septen...Op.Cit,p385.

³ - A.Rosseau, Op.Cit ,p15.

⁴ - للاطلاع على نص الخطبة التي فعلت مفعولها في نفس باي قسنطينة ينظر : A.Rosseau- Op.Cit.p158-159 و محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4،ص. 25.

⁵ - A.Rosseau, Op.Cit.p159.

⁶ - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4،ص.38 واحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2،ص.149.

⁷ - E.Plante, Corresponsance Des Beye De Tunis... Op.Cit,P498.

⁸ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2،ص.149. و محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4،ص.38

⁹ - نفسه.

أن سموكم أهل افريقية الجزيرية الكذابة ، وما بقي لكم حرم ولا مهابة، فزيلوا هذا العار على أنفسكم وقاتلوا بالجد من بالكذب وصفكم¹.

قام الجزائريون في اليوم الموالي أي في 9 رمضان بنصب مدفعيتهم في موقع لا يبعد عن برج يوجد به الزواويون إلا برقع ميل وأقاموا المتاريس التي أصبحت حاجزا بينهم وبين جند تونس، وفي اليوم الموالي 10 رمضان 1169هـ فوجئ من في الكاف من جند تونس بتحصن المحاصرين لهم في تلك المتاريس، ففكر سكان الكاف في الفرار ثم تراجعوا عن ذلك وصمموا على المقاومة²، وشرعوا في القتال الذي استمر أياما بالليل والنهار، والذي أبلى فيه المخازنية وزاوة³ وأهل الكاف البلاء الحسن، وفي أمسية ذلك اليوم أطلق الجزائريون النار على البرج القريب منهم بواسطة مدفع كبير فأصاب قذائفه الجزء الأعلى من البرج فأسقطته، وفي اليوم الموالي تمكن الجزائريون من إسقاط كامل البرج.

هذا ويرجع المؤرخ التونسي صغير بن يوسف سبب النجاح الذي حققه الجزائريون في ذلك اليوم لا إلى قوة عساكر الحظائر والمعدات التي معهم والمدافع الكبيرة التي احضروها ، وإنما إلى تحاذل الجند التركي التونسي المتواجد في الأبراج وعدم قتالهم مع عسكر زاوة وأهل الكاف، بحيث لم يطلقوا على العدو ولا طلقة واحدة، لا من مدفع ولا من بندقية⁴، وتواطئهم مع الجزائريين، وقد تواصلت المعارك بين الجزائريين والتونسيين في القلعة لمدة أسبوعين إلى أن تمكن حسن باي من الاستيلاء عليها في 24 رمضان 1169هـ/22 جوان 1756، في حين أن الجند التركي التونسي لم يظهروا أية مقاومة للجزائريين وسلموا أنفسهم إليهم وابني الحسين علي ومحمد، إذ ولما فشلت مقاومة الزواويين وأهل المدينة خضعوا للجزائريين وسلموا أنفسهم إليهم ، فلم يتردد الجزائريون في تجريدهم من السلاح ومن لباسهم لأنهم خشيو فيما يبدو أن يخونهم كما خانوا رفاقهم الزواويين وسكان الكاف وسيدهم علي باشا⁵.

وفيما يبدو أيضا أن عدم دفاع الجند التركي التونسي على مدينة الكاف رغبة منهم في الإطاحة بحكم علي باشا الذي قتل إخوانا لهم ونفى بعضهم، وتسبب في لجوء آخرين إلى الجزائر⁶، وأعاب باي قسنطينة عشي حسن

¹ - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص38.

² - نفسه، ص39-40.

³ - عسكر زاوة: هذا النوع من الجند كان موجودا في تونس منذ الفتح العثماني، وهو ي تألف من أبناء البربر، وهم جند كتامة على عهد الفاطميين وجند زاوة على عهد المراديين والحسينيين بنونس وجند " الزواف" على عهد الفرنسيين . أما تسميتهم بزواوة نسبة إلى الجبال الواقعة قرب الحدود الجزائرية التونسية ، ولا ترجع تسميتهم كما هو شائع لقبيلة قرب مدينة الجزائر تسمى زاوة ينظر: الإمام رشاد، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814، منشورات الجامعة التونسية-،1980، ص203.

⁴ - Benyoucef Med Sghir , Mechra El melki-chroniq tunissene, traduir en francés par victor serres et Med Lashram, 1ere edition, Bouslama 1978,P358.

⁵ - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص43.

⁶ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص302.

على هؤلاء الجنود لما جيء بهم إليه من قلعة الكاف تخاذلهم وخيانتهم، حيث لم يستسلموا له منذ البداية كما رغب وأمر بضمهم إلى محلة الشرق التي كانت تحت قيادة علي ابن الحسين¹.

ج- الحملة على مدينة تونس العاصمة :

بعد سقوط مدينة الكاف في أيدي الجزائريين في 22 جوان 1756م، سارت الحملة الجزائرية بقيادة باي قسنطينة نحو تونس في الأسابيع الأولى من شهر جويلية ببطء، حتى لا يصل إليها الجند مرهقين²، ولما وصلت إلى تستور³ التحق بها جموع من الحنانشة، وبعض الجند الأتراك الذين نفاهم محمد ابن علي باشا من مدينة تونس بعد فشل ثورة أخيه يونس في 1752م⁴، ويبدو أن السير البطيء للحملة كان الهدف منه الضغط على معنويات أهل تونس حتى تضطرب أحوالهم، وربما إجبار علي باشا وابنه محمد تسليم المدينة دون قتال.

كان علي باشا في مدينة تونس لدى سماعه خبر سقوط الكاف في أيدي الجزائريين، فشرع يستعد للحملة وينتظر وصولها، فغير مقر إقامته من باردو واعتصم بالقصبة ومعه ابنه محمد، وأنزل المخازنية في أخبية وزاوة بأخبية خارج البلد من جهة القصبة، وعمر المتاريس بأخبية من زاوة والترك ومن له القدرة على حمل السلاح⁵، وبعث أحمد رايس⁶ إلى برج الجلاص وفتح باب التجنيد لكل من يرغب، فتم تسجيل نحو 40 ألف زواوي وكورغلي⁷، وبعث إلى صاحب مالطة على أن يرسل له ثلاثة سفن للرسو في ميناء حلق الوادي⁸، وذلك لغلق الميناء في وجه السفن الجزائرية من جهة، ولتكون له وسيلة للنجاة إلى مالطة⁹ من جهة ثانية، وكل ذلك كان مقابل 100.000 ريال يدفعها لصاحبها، كما قام علي باشا بتحصين دفاعات تونس كإقامة الأبراج والمتاريس... الخ. وهكذا لم يلبث أن وصل الجزائريون إلى أسوار مدينة تونس، فحاصرت المحلة الجزائرية المدينة، ثم لم تلبث أن دخلت في مناوشات ضد التونسيين خارج الأسوار¹⁰، كانت أولها مناوشة زيتون حناية قرش¹¹ في شهر جويلية 1756م وقعت بين فرسان الحملة الجزائرية والفرسان المدافعون على علي باشا قرب طهورية، انتهت بانحزام فرسان

¹ - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ص44.

² - Benyoucef Med Sghir – Op.Cit-P367.

³ - بلدة تقع على واد مجردة وعلى بعد 77 كلم عن العاصمة تونس : ينظر (أحمد الحمروني ومصطفى الحنوش، مرجع سابق، ص).

⁴ - Benyoucef Med Sghir – Op.Cit-P367.

⁵ - احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص150.

⁶ - ممن كان يعتمد عليهم علي باشا في الحروب ويستشيرهم. يقول عنه صغير بن يوسف ".... كان فريد زمانه في أمر الحرب" ينظر(محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4 ص52).

⁷ - Benyoucef Med Sghir , Op.Cit,P364.

⁸ - حلق الوادي : ميناء حربي أصبح في بداية القرى 17م ذا أهمية بالغة وفي خلال القرن 18م قام حمودة باشا (1782-1814م) بتوسيعه. ينظر (أحمد الحمروني ومصطفى الحنوش ، مرجع سابق، ص61).

⁹ - محمد الصغير بن يوسف ، مصدر سابق ، ج4، ص50-51. و E.Plante, Corresponance Des Beye De Tunis Op.Cit.P498-499.

¹⁰ - A.Rosseau, Op.Cit,p159-160.

¹¹ - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4-ص58.

الفصل الأول : العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من ق18م

تونس، وفرار من نجا منهم نحو المدينة، وخيل الجزائر تطاردتهم بالقتل حتى دخلوا القصبية، وأصيب في هذه المناوشة قائد فرسان تونس عثمان أغا إصابة أودت بحياته، ما جعل عامة الناس في تونس بعد سماعهم بموته يعبرون بأن عصمة علي باشا وسيادته ماتت بموت عثمان أغا¹، أما ثاني مناوشة بين الجزائريين والتونسيين كانت مناوشة الحريرية في 22 جويلية 1756م، إذ لما وصلت الحملة الجزائرية إلى الكدية المشرفة على سيدي حسني السيجومي² وعسكرت بها، بدأت مناوشات بين فرسان الحملة الجزائرية وفرسان علي باشا، لكنها انتهت دون أن يتفوق أي منهما على الآخر، بالرغم من تميز علي باشا بعساكره الموجودين في الأبراج بمرية الهند³.

كانت أولى المعارك العنيفة بين الجيشين هي معركة الزياتين⁴ التي حدثت في 1756/07/24م، والتي استبسل فيها جند زواوة من قوات علي باشا، وأرغموا الجزائريين على الإنسحاب إلى معسكرهم تاركين ذلك الموقع للتونسيين⁵، ولولا حنكة ومهارة علي ابن الحسين حسب روسو الذي هدأ من روع أترك الجزائريين، إذ تمكن من إقناعهم بالعودة، فاستطاع أن يسترد بهم المواقع التي كانوا قد فقدوها⁶، فاضطرّ التونسيون إلى الإنسحاب نحو متارسهم، وعاد الجزائريون إلى معسكرهم⁷، وعلى إثر هذه المعركة أدرك باي قسنطينة حسن أن تحقيق النصر يحتاج إلى إمكانات أكبر مما عنده، فكتب إلى دولاتله⁸ علي بوصبح يطلب منه المدد رجالا ومدفعية وان يرسل إليه البونبة⁹، وألح عليه تلبية طلبه لئلا يكون الجيش الذي معه عرضة للإبادة، وفي انتظار ذلك قام الباي حسن بإحاطة معسكره بخندق عريض، ولم تشهد الأسابيع الثلاثة التي تلت معركة الزياتين أي هجوم أو قتال¹⁰.

تجددت المناوشات بين الجيشين ففي 14 أوت خرج الجزائريون من معسكرهم، والتونسيون من متارسهم، وحصل صدام بين فرسانهم، فكانت فيه خسائر الجزائريين أكبر من خسائر التونسيين، إلا أن العشرة أيام التي تلت المناوشة سادها الهدوء بين الطرفين¹¹، وما يذكر عن مدينة تونس أنه منذ مجيء الحملة الجزائرية إليها في شهر جويلية 1756م وهي تعيش في شبه حصار، فانقطع عنها الصادر والوارد إلا ما يأتي من البحر من بنزرت والحمامات¹².

1 - احمد ابن ابي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص150.

2 - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص61.

3 - معناها المنظار (Jumelle).

4 - Benyoucef Med Sghir , Op.Cit,P370.

5 Ibid, p370-371.

6 A.Rosseau, Op.Cit.p,160.

7 - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص307.

8 - صفة للداي أصبح يتلقب بها .

9 - هي الكور أو القذائف التي تطلق من المدافع وتكون حجرية أو معدنية وهي كلمة دخيلة من الإيطالية bomba.

10 -E.Plante, Corresponance Des Beye De Tunis, Op.Cit,P502.

11 -Ibid.

12 - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص64.

حصلت معركة أخرى بين فرسان الجزائر وتونس ومشاة البلدين يوم 24 أوت 1756م على الساعة العاشرة صباحا إنتهت بتفوق الجزائريين الذين كبدوا التونسيين خسائر فادحة فاقت 100 قتيل وحوالي 500 جريح¹، لكن الجزائريين تراخوا عن ملاحقتهم، ما جعل التونسيين يشنون هجوما مضادا محتمين بالمطارس، فجرحوا وقتلوا عددا كبيرا من الجزائريين ما بين 600 إلى 700 قتيل، و 200 إلى 300 جريح، وكانت أيام 25 و26 جويلية لم تشهد أي قتال بين الطرفين، ووصول النجدة الجزائرية من علي بوصبع إلى الباي حسن عبر عنابة، فكانت تقدر ب 200 جندي تركي، وشهدت أيام 30 و31 جويلية، والفتاح سبتمبر 1756م تبادل القصف بين الطرفين المتحاربين من الصباح إلى المساء²، وقد أبلى في هذه المعركة أحمد رايس، الذي أرسل من برج الجلاص على الجزائريين قذائف كثيرة، فقتل الكثير منهم، فأرادوا استمالته وكسبه بالمال لكنه رفض قائلا لهم "... ما هذا فعل أحرار الرجال..."³، ولما يئسوا من إستمالته ركزوا قصفهم عليه، إلى أن أصابته قذيفة فمات متأثرا بجروح، وتمكن الجزائريون من استمالة من بقي في البرج بالمال⁴، فكانت ليلة 2 سبتمبر هي الليلة التي رجحت فيها الكفة للجزائريين⁵، حيث باغتوا من كان في برج الجلاص وفي الصباح الباكر هجموا على من كانوا في المطارس⁶.

تقدم الجيش الجزائري نحو القصبة وتم القبض على علي باشا وابنه محمد باي⁷ بعدما تمت محاصرتهما من قبل باي قسنطينة حسن⁸، في حين أن محمد قبض عليه وهو يحاول الفرار في اتجاه باردو فقطع رأسه بأمر من علي ابن الحسين، وعرض ببطحاء القصبة ليراه الناس⁹، ولم يغادر باي قسنطينة حسن عشي مدينة تونس التي استولى عليها إلا بعدما جاءته الأوامر من الداوي علي بوصبع بقتل علي باشا وتسليم الحكم لمحمد ابن الحسين والعودة إلى أرض الوطن، فشرع بقتل علي باشا في آخر ذي الحجة 1169هـ/25 سبتمبر 1756م، وسلم الحكم لمحمد ابن الحسين، وشرع في العودة عن طريق البر في 02 أكتوبر 1756م¹⁰، وفي أثناء عودته إلى قسنطينة انتابه المرض فتوفي وهو في الطريق إليها¹¹، وقبل ذلك لما وصل إلى مدينة الكاف حمل من كان بها من الجرحى ونسف برجها

¹ - E.Plante, Corresponance Des Beye De Tunis, Op.Cit.p502.

² -Ibid, p503.et 65ص سابق، ج4، مصدر سابق، محمد الصغير بن يوسف،

³ - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص72.

⁴ نفسه، ص76.

⁵ - هناك اختلاف بين المراجع في تحديد يوم النصر الحقيقي للجزائريين على التونسيين، فبلانتي يحدده يوم 2 سبتمبر 1756م، وعند صغير بن يوسف يوم 6 ذي الحجة 1169هـ/01 سبتمبر 1756م، في حين هناك مراجع أخرى تجعل يوم 31 أوت 1756م هو يوم الانتصار. ينظر:

E.Mercier- histoire de costan...Op.Cit.p385. و A.Rosseau- Op.Cit.p-160)

⁶ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص310.

⁷ - E.Mercier,Op.Cit.p385.

⁸ M.Gaid ,Chronique Des Beys De Constantine,O.P.U, 1982-p34.

⁹ - E.Plante, Corresponance Des Beye De Tunis Op.Cit,P504. ج2، مصدر سابق، ج2، 151ص.

¹⁰ -E.Plante ,Op.Cit;p522.

¹¹ -E.Vayssettes,Histoire De Constantine Sous La Domin...,Op.Cit, p117.

المعروف ببرج البلاميتا¹ وهو محمل بالغنائم الكثيرة والأموال والذخائر التي أتى بها من تونس²، وبوصوله إلى قسنطينة كان المرض قد استفحل فيه، فمات بعد أيام قليلة وذلك في أواخر شهر نوفمبر 1756م قبل أن يتمتع بالغنائم الكثيرة التي غنمها من تونس والكاف.

د-نتائج حرب 1756 على تونس :

لقد كان لحرب 1756 نتائج وانعكاسات كان لها الدور الفاعل فيما بعد في رسم معالم العلاقات بين الإيالتين ولعل أهم تلك النتائج ما يأتي :

* خسائر بشرية كبيرة لاسيما في صفوف الجيش التونسي، والتي تراوحت ما بين 5000 و6000 قتيل³، وهذا في مدينة تونس فقط، ضف إلى ذلك مدينة الكاف التي يقدر عدد قتلاها حسب صغير بن يوسف ب 500 قتيل وكثير من الجرحى⁴.

* نجاح الحملة الجزائرية في تحقيق نصر حاسم على الجيش التونسي بالرغم من وجود التحصينات في مدينتي الكاف وتونس العاصمة بعد الفشل الذي عرفته حملة 1746م.

* الخراب والدمار الذي شهدته مدينة تونس بعد سقوطها في أيدي الجزائريين وأترك تونس من اعتداء على الحرمات وتخطيط أبواب المنازل، وطال النهب قصور الباى علي باشا وابنه محمد في القسبة وباردو، وحتى دور القنصليات المسيحية لم تسلم من النهب إلا دار القنصل الإنجليزي، وقد بقيت مدينة تونس عرضة للنهب في اليوم الأول لدخول الجزائريين إليها من الصباح إلى الزوال، وتوقفت بعد اشتداد الحرارة⁵، ويذكر فونتير دو بارادي الذي لم يكن حاضرا في مدينة تونس أنها ظلت عرضة للنهب ثلاثة أيام متتالية⁶، في حين أن ابن أبي الضياف الذي كان متأخرا عن تلك الأحداث بما يزيد عن القرن أن تونس كانت عرضة للنهب مدة شهر ذي الحجة 1169هـ⁷.

* حصول الجزائريين على مغائم كثيرة عادوا بها إلى الجزائر فملئوا سفينة كاملة من السفن الثلاث التي أرسلها الداى من الجزائر لنقلهم ونقل مغائمهم التي أخذوها من خزائن تونس⁸، وذكر ابن يوسف أن بعضهم فضلوا نقل حمولاتهم على البغال والعودة على طريق البر⁹، في حين أن de paradis الذي أقام في كل من تونس (1780-1786) والجزائر ما بين (1788-1790) قدر ما أخذه الجزائريون من تونس بنحو 4 إلى 5 ملايين

¹ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص156.

² - محمد الصالح ابن العنتري، مصدر سابق، ص73.

³ - E.Plante, Correspondance Des Beye De Tunis Op.Cit,P504.

⁴ محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص46.

⁵ - نفسه، ص85-87.

⁶ -V.De Paradis,Tunis et Alger.....Op.Cit,p30.

⁷ - احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص153.

⁸ عمار بن خروف، مرجع سابق، ص314.

⁹ - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص106-107.

جنيه، يضاف إلى ذلك 200 من الأسرى الطبرقيين إفتداهم الإسبان فيما بعد أي في سنة 1770م¹ ، ومن خلال ابن أبي الضياف فإن الباي حسن عاد بمغانم كثيرة من تحف ونفائس ثمينة وسروج، وذكر أن بعض عساكره رجعوا عن طريق البحر وحملوا مغانمهم في ثلاثة مراكب دمرتها عاصفة بحرية فغرقت ولم ينجوا منها إلا 18 رجلا خرجوا بالسبح لساحل طبرقة².

* عودة الحكم في تونس إلى أبناء حسين بن علي، إذ أن باي قسنطينة لدى شروعه في العودة إلى أرض الجزائر، نصب محمد ابن الحسين بايا على عرش تونس، وذلك بأمر من داي الجزائر في أواخر سنة 1756م، ومنذ تلك اللحظة إنتقل الحكم في تونس إلى محمد النجل الأكبر لحسين بن علي، على اعتبار أنه الوريث الشرعي للعرش التونسي الذي اغتصبه علي باشا المقتول عديدا من السنوات³.

وما يمكن الإشارة إليه أن الباي حسن تردد في البداية أن يمنح العرش لأبناء حسين بن علي، فبمجرد أن استولى على الحاضرة تونس ورأى جمال البلاد وأخلاق أهلها وطاعتهم للأمر⁴، كاتب الداوي بوصف له تونس بأنها مملكة فريدة في ثرواتها، وقد صرفت مالك لفتحها واستطعت إعانتك لفتحها معرّضا حياتي في سبيل ذلك، فأنا من الغير أولى بها، ومن الصواب الاحتفاظ بها لخدامك المخلصين، وإن أصبحت السيد في هذا البلد، فسأبعث لك الثروات وسيكون الوجدان واحدا⁵، واقترح على الداوي أيضا ترك البلاد لصاحبها علي باشا مقابل ضريبة يؤديها سنويا للجزائر⁶، فلما سمع محمد وعلي باي ما يفكر فيه حسن باي أشار محمد باي على أخيه علي بأن ينجو بنفسه نحو الجنوب التونسي مستظفرا بأنه يريد إقتراض مال لمرتب العسكر، فقصد الحمامات وسوسة والمنستير وصفاقص والقبروان⁷.

كان رد داي الجزائر على طلب باي قسنطينة مخالفا لما توقعه ورغب فيه هذا الأخير، فأجابته بأن الأوجاق الثلاثة تونس والجزائر وطرابلس من ممالك السلطنة العلية العثمانية متساوية الحقوق ونحن على طاعتها، ولو صحت هذه الضريبة من المال في الإسلام يكون سلطان المسلمين أولى بها ونحن عبيد طاعته⁸، ويبدو جليا أن رفض الداوي بوصف لمطالب باي قسنطينة إنما يدل على صدقه ووفائه للعهد الذي قطعه لمحمد ابن الحسين، كما أن ضم تونس للجزائر لم يكن هدفا مخططا له عند قيام الحملة، وعدم رغبتها في الدخول في نزاع مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة الإسمية والزعامة الدينية والروحية على الإيالات الثلاث تونس والجزائر وطرابلس، زيادة على ذلك أنّ الجزائر لم تكن في حاجة ماسة إلى توسيع مساحتها على حساب تونس، فالمساحة التي كانت تترعب عليها كبيرة

¹ - V.De Paradis.,Op.Cit-p163.

² - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص155.

³ - A.Rosseau, Op.Cit.p,160.

⁴ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص153.

⁵ - Benyoucef Med Sghir , Op.Cit-P389.

⁶ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ص153.

⁷ - محمد الصغير بن يوسف، مصدر سابق، ج4، ص98-99 . وأحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ص153-154.

⁸ - A.Guellouz.A.Masmoudi .M.Smida, Op.Cit-p234.

الفصل الأول : العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من ق18م

وكانت السلطة المركزية في الجزائر تجد صعوبة في فرض سلطتها عليها والمحافظة عليها، وإنما ما كانت تطمح إليه الجزائر هو نوع من التضامن والتعاون والتحالف والمساندة، وتوحيد المواقف تجاه الدول الأوروبية في حالي السلم والحرب .

- تكييف تونس بشروط وبنود جعلتها تبدو مقاطعة جزائرية ومن تلك البنود والشروط ما يأتي:

- منع باي تونس من التسلح في قلعة الكاف وهدم كل التحصينات بها¹.
- على تونس أن ترسل إلى الجزائر سنويا شحنتين كبيرتين من الزيت لإنارة مساجد الجزائر وأضرحة المرابطين².
- إرسال هدية سنوية لحكام الجزائر (داي الجزائر وباي قسنطينة) صارت فيما بعد ومرور الوقت سنوية³.
- وكلاء الجزائر وقسنطينة في تونس يتمتعون بنفس درجة الأهمية التي يتمتع بها قناصل الدول الأوروبية في تونس⁴.
- عند وصول المراكب الجزائرية إلى موانئ تونس فإن قائد ذلك المركب هو من يتولى قيادة الميناء طول مدة إقامته فيه⁵.

هذا وظلت تونس مجبرة على تنفيذ تلك الشروط المتفق عليها طيلة النصف الثاني من القرن 18م، إلى غاية أن تمكن حمودة باشا (1782-1814) من التحرر منها، وذلك بعد نحو خمسين سنة من الخضوع الدائم والمستمر لها⁶.

*وكان من نتائج حرب 1756م أيضا توتر علاقات الجزائر ببعض الدول الأوروبية بعد تضررها من الحملة الجزائرية، فقد تعرضت قنصليات النمسا والسويد وهولندا للتخريب والاستيلاء على أموالها وسجن قناصلها، وتعرض منزل القنصل الهولندي للنهب لأنه قدم البارود والذخيرة للتونسيين، هذا ما جعل الدول الأوروبية تقدم شكوى عاجلة لاستانبول، وعلى الفور أرسلت هذه الأخيرة عدة فرمانات تأمر داي الجزائر بإطلاق صراح القناصل وإعادة الأموال العائدة لهم⁷.

ما يمكن قوله عن حرب 1756م وتداعياتها أن الجزائر نجحت في إيصال أبناء الحسين بن علي إلى سدة الحكم ومن الإطاحة بحكم علي باشا، بعدما أصبح متصلبا في قراراته تجاه الجزائر ولا يساير رغباتها وسياستها بالرغم من أنها صاحبة الفضل في وصوله إلى الحكم والإطاحة بعمه حسين بن علي سنة 1735م، هذا من

¹ -M.Gaid,L'algerie Sous Les Turcs, Op.Cit,p160.

² -H.Cambon, Histoire de la régence de tunis, editions berger levrault, paris, 1948,p85.et M.Gaid, Op.Cit,161. et A.Rosseau, Op.Cit.p,161.

³ - V.De Paradis,Tunis et Alger.....Op.Cit,p80.

⁴ - M.Gaid.Op.Cit.p161.

⁵ - حمدان خوجة، المرأة، تعريب. محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006، ص125.

⁶ - للمزيد عن تلك الشروط والبنود التي أصبحت تلتزم بها تونس منذ عهد محمد باي إلى غاية عهد حمودة باشا. ينظر : De Grammont, Histoire d'alger sous...Op.cit,p313et A.Rosseau, Op.Cit.p,161. وحمدان خوجة، مصدر سابق، ص125-126.

⁷ - إذا كانت العلاقات الجزائرية مع بعض الدول الأوروبية أخذت في التحسن فيما بعد كهولندا التي أبرمت اتفاق سلام مع الجزائر في سنة 1757م، فان العلاقات مع دول أخرى مالت إلى العداء والتوتر على غرار فرنسا ومالطا. ينظر: عمار بن خروف، مرجع سابق، ص321.

جهة، ومن جهة أخرى تمكنت من تثبيت قيادة جديدة ممثلة في أبناء حسين بن علي تضمن هيمنتها عليها وتساير سياستها، وأمر ثالث هو تمكن الجزائر من استعادة هيمنتها على الصعيدين الداخلي والخارجي، وذلك بعد فشلها في حرب 1746م، وعدم تمكنها من احتلال مدينة الكاف وعدم الوصول إلى العاصمة تونس .

3- العلاقات في عهد الداوي بوضيع والباي محمد ابن الحسين: (1756-1759م).

بانتهاج الحملة الجزائرية على تونس، وعودة الجيوش الجزائرية حتى تربيع محمد ابن الحسين على عرش السلطة في تونس وذلك في أواخر سنة 1759م بفضل مساعدة الجيوش الجزائرية، هذا ما جعله يفكر في تجنب أي صراع أو نزاع يؤدي إلى خلاف معها، وإثارة المشاكل من خلال العمل على الوفاء بالتزامات هنجوها، وفي مقدمتها طلبات الداوي علي وبالي قسنطينة ، والإحسان إلى الوافدين إليه من الجزائريين من شخصيات حكومية وقبلية¹ ، كما كان لزاما عليه الوفاء بالتعهدات التي قطعها على نفسه تجاه الجزائر والالتزام بما جاء في معاهدة 1756م، ومما توجب على الباي التونسي الالتزام به نذكر ما يلي :

أ- فيما يتعلق بتكاليف الحملة الجزائرية على تونس سنة 1756.

تم استخلاصها من خلال الرسالة التي بعث بها الداوي بوضيع إلى محمد باي في أواسط رجب 1171هـ (مارس 1785م)، والتي يذكره فيها في آخرها بإجمالي مصروف محلة تونس وهو 12000 دينار سلطاني تقريبا، كمصروف للحملة المنصورة المتوجهة لتونس سنة الدوشمان، من ثمن الدهان والزيت والحليب والإبل والفراسات والمكاحل².

هذا وقد قام الباي محمد بعد ذلك بإرسال 100000 ريال مع مبعوثه إلى الجزائر الباش كاتب احمد الأصرم في شوال 1171هـ / 1758م³، ويبدو أن تونس تأخرت في تسديد تكاليف الحملة الجزائرية، وجاء تسديدها للمصاريف بعد مجيء مبعوث السلطان العثماني إلى تونس، للتحقيق في مصير الأموال التي أخذها يونس من تونس إلى قسنطينة ، وفي قضية اعتداء الجيوش الجزائرية على قنصليات النمسا والسويد وهولندا في تونس⁴ ، فجاه أمر الداوي بوجوب دفع المصاريف في صيغة التذكير : "... إذ جملة مصروف محللكم الذي كان محسوب اثني عشر ألف دينار سلطانية وهو في علمكم ولا يخفاكم..."⁵.

وما يمكن الإشارة إليه أن التأخر في أداء مصاريف المحلة لم يؤثر على العلاقات بين البلدين، ومّا يدل على ذلك هي المساعدات الغذائية التي قدمتها الجزائر لتونس في تلك السنة 1758م⁶ ، بسبب القحط الذي عرفته إيالة التونسية في ذلك العام .

¹ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص353.

² - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، الوثيقة 1.

³ - أ.و.ت، الدفتر 98، ورقة 46(دفتر مقبوض بيت خزندار ومصروفها) نقلا عن عمار بن خروف، مرجع سابق، ص355.

⁴ - عزيز سامح التر ،مرجع سابق، ص 516.

⁵ - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، الوثيقة 1.

⁶ - E.Plante, Corresponance Des Beye De Tunis Op.Cit,P557.

ب- تأدية الضرائب السنوية :

كان مما اتفق عليه بعد نجاح الحملة الجزائرية على تونس أن تلتزم هذه الأخيرة بدفع ضرائب سنوية للجزائر للداي ولكبار مساعديه، إضافة إلى هدايا أخرى كانت ترسل إلى باي قسنطينة المجاور للإيالة التونسية ، ولدى اطلاعنا على بعض الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشييف التونسي، وجدنا أن الباي محمد الترم بتقديم تلك الهدايا حتى أصبحت ضريبة سنوية تدفعها تونس ولا تتخلف عن ذلك حتى لا تعرض نفسها لحرب قد تكون نهايتها كارثية¹، فقد أرسلت تونس للجزائر في شوال 1170هـ/1757م هدية تألفت من برانس وطرايش و 90 دزينة² شواشي وسروج بلغت تكاليفها 4263ريالا³، وهدية أخرى أرسلتها في شهر شوال 1171هـ/1785م حملها الباش أحمد الاصرم بلغت تكاليفها 4399.10ريالا مكونة من: سفاسر⁴ وشواشي وأحزمة وسروج وصنادق...الخ⁵، وهدية أخرى على يد الشيخ محمد وكيل الخرج سنة 1172هـ/1758/1759م ومقدارها 9645سلطاني ، كما نال باي قسنطينة أيضا نصيبه من الهدايا في عهد الداي محمد كما يسجله الدفترين 2144 و 99 بالأرشييف التونسي، فقد بلغ قيمة هدية باي قسنطينة لسنة 1170هـ/1757م ما مقداره 2819 ريالا، تكونت من: 19 دزينة شواشي و 12 سفاسريا وسرج وزوج محازم و 9 برانس حرير...الخ⁶، وقدم لمبعوثي الداي سنة 1758م ما مقداره 4000ريال.

لم تقتصر تلك الهدايا فقط على الداي والشخصيات القريبة منه، بل شملت شخصيات دينية وقبلية وحكومية في بايلكات وأقاليم الجزائر، كباي التيطري، وشيوخ الحنانشة، والناماشة، وزاوة، وزاوية سيدي محمد بن علال، وزاوية احمد بن يوسف بمليانة، وزاوية سيدي علي بن مبارك، وأهل مجاجة (مجانة)، وأهل تلمسان، وتوقرت ووادي سوف، والشلف، وبسكرة، والمسيلة، ومشايخ سيدي عقبة⁷، فنذكر على سبيل المثال لا الحصر تلك الهدايا والإحسانات التي تحصلت عليها شخصيات جزائرية سنة 1757م، فقد حصل محمد بن نعمون كاتب باي قسنطينة (باي الغرب) على 1000ريال، ومبلغ 275ريال إحسان ل 11 نفرا من خدامه أعطي لكل منهم 25 ريال، ومبلغ 150 ريال إحسان لسيارة باي قسنطينة وهم شعبان بن الرئيس، وعماد ابن القضا، ومبارك القريري واخذ كل منهم 50 ريال⁸، إضافة لبعض الإحسانات التي تحصلت عليها شخصيات جزائرية في سنة

¹ - V.De Paradis,Tunis et Alger.....Op.Cit,p80.

² - معناها من كل شيء اثنا عشر .فمثلا 90 دزينة شواشي . كل دزينة تحتوي على اثنا عشر شاشية .

³ - أ.و.ت، الدفتر2144، ورقة 201

⁴ - هو لباس تقليدي نسائي تونسي من الحرير أو القطن أو السنسدس .وهو يتمثل في قطعة كبيرة من القماش يمكنها أن تغطي كامل جسد المرأة.

⁵ - أ.و.ت، الدفتر2144، ورقة 202.

⁶ - نفسه، الورقة 177.

⁷ - أ.و.ت، ينظر الدفتر 2149، الصفحات 197.174.181.251.195.213.214.215.237.239.238.

⁸ - أ.و.ت،الدفتر94،ورقة 17 .

1171هـ/1758-1759م، فقد تحصل محمد بن طيبة كاتب باي قسنطينة على 100 ريال وأربعة أنفار صبايحية قدموا إلى تونس معه، وخمسة أنفار عزارة إذ حصل كل واحد منهم على 10 ريالات¹.

ويبدو جليا أن الباي محمد لم يوطد علاقاته مع الجهات الرسمية كالداي وباي قسنطينة، بل شمل ذلك جهات غير رسمية كشيوخ الزوايا والقبائل كي يكسب ودهم ورضا السلطات الرسمية في الجزائر وربما يعود ذلك إلى المدة الطويلة التي قضاها في الجزائر ما بين 1739م-1756م.

ج- إحتواء الجزائريين في تونس تجنباً لنقمتهم :

عمل الباي محمد في السنوات الثلاث من حكمه على وضع حد لكل ما من شأنه أن يوتر العلاقات بينه وبين الجزائر، فعلى سبيل المثال كان الباي يعرض للجزائريين ما يفقدونه في بلاده، فقد دفع مبالغ مالية لمحمد بن نعمون كاتب باي قسنطينة مقابل الإبل التي استولى عليها بنو رزق بمبلغ يقدر ب 26000 ريال ، وتعويضات أخرى للغرابة الذين ضاعت حوائجهم في مدينة الكاف فدفع لهم مبلغ 500 ريال².

ومن جهة أخرى نجد أن الباي محمد بالرغم من أنه عمل كل ما في وسعه من أجل الالتزام بتكاليف الحملة ودفع الضرائب والهدايا للجزائر وغير ذلك، يعمل في سرية تامة للتخلص من الهيمنة الجزائرية، فتقرب من فرنسا ورغب في التحالف معها سراً ضد الجزائر في أواخر سنة 1757م³، وعرض عليها تسليم جزيرة طبرقة التي كانت تسعى دائما إلى إمتلاكها لتحكّر مواقع صيد المرجان لها، وذلك في مقابل أن تساعد ب 6000 مقاتل، هذا الإقتراح الذي لقي ترحيبا من فرنسا لكنها كانت في حرب داخل القارة الأوروبية، ووعدت الباي التونسي بدراسة الموضوع عندما تكون في حالة السلم⁴.

وما يمكن قوله أن الباي محمد الذي لم تكن له القوة اللازمة لمجابهة الجزائر والدخول في حرب معها، فضل كسب ودها من خلال الالتزام بتعهداته تجاه الجزائر وتأدية الضرائب والهدايا كسبا لودها، وتفادى القيام بكل ما من شأنه أن يثير نقمتها عليه.

4-الباي علي ابن الحسين وسياسته تجاه الجزائر:

بوفاة محمد ابن الحسين في 14 شهر جمادى 1172هـ/11 فيفري 1759م⁵، تولّى أخوه علي باي الحكم من بعده، والذي كان يتميز بأخلاق عالية وبسلوك يتسم بالإستقامة وبكفاءات عالية في الشؤون الحربية وفي سياسته الخارجية ، وقد استمرّ على نهج سياسة أخيه⁶ تجاه الجزائر في الوفاء بالإلتزامات المقطوعة للجزائريين كدفع الضرائب وتقديم الهدايا والإحسانات، واستكمال ما بقي من تكاليف الحملة الجزائرية على بلاده سنة 1756م، والتي أعادت عرش أبيه وأل الحسين بن علي وهذا خوفا من التقصير في ذلك إلى دعم أحد خصومه اللاجئين في

¹ - أ.وت، الدفتر 2144، ورقة 180.

² - أ.وت، الدفتر 94، ورقة 17.

³ - E.Plante, Correspondance Des Beye De Tunis, Op.Cit,P558.

⁴ - Ibid,p 552.

⁵ - L.frank,histoire de tunis,Op.Cit,p190.

⁶ - A.Rosseau, Op.Cit.p,163.

الجزائر وفي مقدمتهم يونس ابن علي باشا، إلا أن هناك أمر كاد أن يوتر العلاقات بين الإيالتين ويتجه بها نحو الصدام ألا وهو الثورة التي قام بها إسماعيل ابن يونس¹.

أ- ثورة إسماعيل ابن يونس ولجونه إلى الجزائر :

كان إسماعيل الابن الثالث ليونس اللاجئ إلى قسنطينة، وبعد مقتل جده علي باشا سنة 1756م ركب البحر في مركب إلى مدينة صفاقس ثم إلى جزيرة جربة ومنها إلى بلدة جرجيس ومنها دخل طرابلس الغرب²، والتي كان يحكمها أبي الحسن علي باشا محمد القرماني³، فأقام بها ثلاث سنوات ثم غضب منه الأمير القرماني لأمر بدر منه، فضيق عليه، فغادر مدينة طرابلس ودخل تونس⁴، وأشعل ضد الباي علي ثورة قرية جمال في ذي القعدة 1172هـ الناقمة على حكم أبناء الحسين بن علي⁵.

تمكن إسماعيل من الحصول على تأييد سكان جمال وتمكن من حشد وجمع قبائل عديدة إلى صفه كبنو زيد والمثاليث، والحزم، والسواسي، وأولاد سعيد، والقواسم وغيرهم⁶، لينتقل بعدها إلى جبل وسلات أين احتضنه أهل الجبل، هذا ودامت ثورته المدعومة من الوسالتيه ثلاث سنوات ما بين جويلية 1759م إلى جويلية 1762م، تمكن فيها إسماعيل من ضم فرسان أولاد عيار وماجر وأولاد مناع من دريد إلى قواته⁷، واجتمع له من الجند 30 ألفا خاض بها حروبا عديدة ضد الباي علي الحسيني، غير أن خطة هذا الأخير قامت على مسلمة أساسية وهي عدم تكرار الخطأ الذي وقع فيه أبوه يونس وهو عدم الصعود إلى الجبل، بل محاصرته اقتصاديا لقطع المادة عنه ونهب وإتلاف زرع الوسالتيه، وعسكريا بتأليب قبائل جلاص وأولاد عون ضد الوسالتيين، خاصة فرقة عسكر باجة التي تمكنت من إلحاق خسائر هامة بالوسالتيه⁸ أدت إلى أسر عدد كبير من فرسانهم، وهو ما تفتن له إسماعيل باي فقرر الفرار واللجوء إلى الجزائر بعد تأكده من إستحالة مجابهة قوات علي باي، فقرر اللجوء إلى الحدود الغربية مع الجزائر فدخل مدينة تبسة ومنها إلى قسنطينة أين استقر فيها منذ 1175هـ.

¹ - كان يونس لما ثار على أبيه ودخل القصبة وخرج هاربا إلى قسنطينة بقي أبناؤه الثلاثة إسماعيل وأحمد ومصطفى بدار سكناهم بباردو ينظر(ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج2، ص161).

² - نفسه.

³ - من سلالة الأسرة القرمانيه حكم طرابلس الغرب ما بين 1754 إلى 1795.

⁴ A.Rosseau, Op.Cit.p,163.

⁵ - كان أعيان قرية جمان قد اتصلوا بإسماعيل وعرضوا عليه فكرة استعادة حكم جده علي باشا ، أما عن سبب قيام هذه القرية بالثورة فيعود إلى تلك الضرائب التي أتقلت كاهلهم منذ عهد محمد باي.

⁶ - A.Rosseau, Op.Cit.p,163.

⁷ - A.Guellouz.A.Masmoudi .M.Smida ,Op.Cit,p246.

⁸ - عبد الواحد المكيني، مرجع سابق، ص40.

ب- مواصلة تونس الوفاء بالالتزامات تجاه الجزائر :

عمل الباي ابن الحسين منذ توليه الحكم على الاستمرار في الالتزام بما هو متفق عليه مع الجزائر من تعويض للمصاريف وتأدية الضريبة السنوية وتقديم الإحسانات والهدايا والاعتراف بسيادة الجزائر، والتغاضي عن بعض التجاوزات الصادرة من الجزائريين في تونس .

*تعويضات مصاريف الحملة :

طلب الداوي بوصبع في شهر أفريل 1759م من الباي علي أن يدفع له ما قيمته 150000 سكوين، وقد تزامن عهد الداوي علي مع قيام ثورة إسماعيل ابن يونس، هذا ما جعله يعجل في دفع تكاليف الحملة، فنجدته في سنة 1173هـ/مارس 1760م بعث إلى الداوي علي بواسطة المبعوث هذا الأخير وهو مسعود بن زكري مبلغ 33000 ريال وبعث إلى باي قسنطينة احمد القلي¹ بواسطة المبعوث نفسه 11.000 ريال، ثم أرسل إلى الباي أيضا 5375ريالا عن طريق الحاج حسين بوشارب شاوش قسنطينة².

*دفع الهدايا والضرائب :

إستمرت تونس في تقديم الهدايا للجزائر والتي أصبحت مع مرور الوقت سنوية لا تتخلف عن دفعها فمثلا أرسل الباي علي إلى دولاتلي الجزائر وأصحابه إلى باي قسنطينة هدية في شوال 1176هـ/ماي 1763م كلفته 7083 ريالا³، كما أرسل الباي علي حمولتين من الزيت مقدار كل واحدة منها 2000مطر زيت، الأولى في ربيع الثاني 1178هـ/أكتوبر 1764م والثانية في ذي الحجة من نفس العام⁴، وفي شوال 1178هـ(مارس-أفريل) 1765م قدم هدية لإبراهيم أخ دولاتلي الجزائر علي بوصبع بلغت تكاليفها 7540 ريالا .

هذا ولا تخلو السجلات التونسية من تلك المؤونات التي كان يخصصها الباي للمراكب الجزائرية عند مرورها ببلادها سواء أكانت متوجهة إلى استانبول أو القادمة منها ومن ذلك ما يلي :

المؤونة التي عينت لمركب به 24 نفرا ترك ومعهم قبطان باشا الجزائر قدمت إلى حلق الوادي متوجهة إلى الجزائر في جمادى الأولى 1178هـ/27 أكتوبر-25 نوفمبر 1764م، تكونت من: 40 قنطار بشماط، 8 أمطار زيت، 4قلال سمن ، قلة زبدة، 3 قناطر زيتون، قنطار روز، رأسين بقر، 8 كباش، 4حمول خضر، 4حمول رمان⁵، وأضيفت لهم حمولة أخرى بعد أن ردتهم عاصفة بحرية، تكونت تلك الحمولة من: 20قنطار بشماط،مطرين زيت، قلة واحدة سمن، قنطار زيتون، مطر خل⁶، ومؤونة أخرى قدمت لشباك قرصان جزائري قدم إلى ميناء حلق الوادي في

¹ تولى بابلك قسنطينة منذ وفاة حسن أزرق عينو 1756م واستمر إلى غاية سنة 1771م. ينظر محمد ابن الصالح العنزي، مصدر سابق، ص74.75

² - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص364.

³ - أ.و.ت، الدفتر 2144، ورقة 205.

⁴ - نفسه، ورقة 207.

⁵ - أ.و.ت، الدفتر 2144، ورقة 11. وللמיד عن تلك المؤونات التي كانت تقدم للمراكب الجزائرية أثناء ذهابها وإيابها من بر الترك : ينظر الدفتر

143، ورقة 87.86 .

⁶ - أ.و.ت، الدفتر 1046، ورقة 11.

21 ربيع الثاني 1178هـ/16 ديسمبر 1764م مكونة من: 30 قنطار بشماط، خمسة أمطار زيت، خمسة أمطار خل، قنطارين زيتون، قنطين سمن، رأسين بقر، حمولتين رمان، حمولتين خضر، 5 حمول بياض¹، ومؤونة أخرى قدمت لحفيد باي التيطري في 17 جمادى الثانية 1179هـ/ديسمبر 1765م متكونة من: قنطارين بشماط، نصف مطر زيت، نصف سمن، ربع قنطار روز، ربع قنطار زيتون، نصف مطر خل²، هذا وقد أخرج الباي علي ما قيمته 750.000 ريال من هدايا وإحسانات وتعويضات للجزائريين خلال السبع السنوات الأولى من عهده، وهي التي زامن فيها الداوي علي بوضع من دون أن يدخل في ذلك قيمة الزيت والفواكه والمرطبات³.

*الاعتراف بسيادة الجزائر:

عرفت السنوات السبع الأولى من حكم علي عدة قضايا كان يمكن أن تؤدي إلى القطيعة بينهما منها : -إستمرار الجزائر في التضييق وإيواء خصوم علي باي ومنهم يونس منذ سنة 1752م وإبنة إسماعيل منذ سنة 1762م⁴، فيونس كان محل تضييق في قسنطينة داخل السجن، وفي سنة 1763م أشيع أنه مات، في حين أن إبنة إسماعيل لما فشل في الاستيلاء على العرش في تونس لجأ إلى الجزائر فألقي عليه القبض في قسنطينة، لكن بالرغم من تخلص علي باي منه، إلا أنه بقي قلقا في شأنه، لأن المبعوث الذي ذهب إلى تونس لتنهئته بتولي العرش شرع في البحث معه حول المقابل الذي يمكن أن يقدمه مقابل الإبقاء على منافسه سجيناً في قسنطينة، وطلب منه الحصول على مبلغ 100.000 بياستر⁵، هذا وقد ظلّ إسماعيل في قسنطينة إلى أواخر 1764م، ثم إنتقل إلى العاصمة بطلب من الداوي علي بوضع الذي أعاد له حريته ومكنه من وسائل الإقامة المناسبة لمقامه، هذا ما أثار قلقاً شديداً لدى باي تونس الذي كان يخشى أن ينتهز إسماعيل الفرصة للعودة إلى تونس التي يمكنه أن يجد فيها موالين من الناقمين عليه وهم كثيرون⁶، ويبدو أن مخاوف الباي علي من خصومه في الجزائر هي التي دفعته إلى الاتفاق مع سلطان المغرب الأقصى في عام 1763م، بالسماح لقرصنة المغرب بالنشاط ضد السفن الأوروبية على بعد 30 ميلاً فقط من الشواطئ التونسية وبيع مغانمهم في موانئها⁷.

وعلى الرغم من إطلاق سراح الداوي لإسماعيل، وهو موقف غير ودي تجاه باي تونس، فإنّ العلاقات لم تتطور في اتجاه القطيعة لان الباي علي كان يقدر جيداً عواقب ذلك ولأن حكام الجزائر كان من مصلحتهم ألاّ تسوء العلاقات مع تونس، وأن لا تندهور مما قد يجرمهم من الضريبة التي كانت تصلهم بانتظام من الباي علي بانتظام⁸.

¹ - أ.و.ت، الدفتر 1046، ورقة 12.

² - نفسه، ورقة 13.

³ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 369.

⁴ -E.Plante, Correspondance Des Beye De Tunis Op.Cit,P594.597.

⁵ -Ibid,p586.

⁶ -Ibid,p622.

⁷ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 372.

⁸ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 373.

-الاعتداء الذي تعرضت له قافلة قسنطينة التجارية المتوجهة إلى تونس بالقرب من تستور في أواخر سنة 1759م على يد عرب أولاد مناع مما أجبر الباي إلى دفع تعويض لتجار قسنطينة تجنباً للنزاع مع الجزائريين¹، ومما قدمه الباي لما أخذه أولاد مناع من تجار قسنطينة 25114ريالاً كمال للأمانات التي ضاعت و 31219ريالاً في حق الشدايد والسفاسر والبرانس .

ج-التجاوزات الصادرة من الجزائريين في تونس :

ومن تلك التجاوزات نشير إلى:

- قضية صيادي المرجان الفرنسيين الذين فروا من القالة الجزائرية إلى جزيرة طبرقة خوفاً من الوقوع في قبضة الجزائريين الذين كانوا يريدون الانتقام منهم لما حصل لبعض سفنهم على أيدي الفرنسيين² .
- قضية جزيرة طبرقة التي كان الباي علي ابن الحسين وقبله علي باشا (1735-1756م)، يتفادى الحسم فيها بما يمكن أن يثير نقمة الجزائريين عليه، هذا وكان الجنوبيون إلى غاية 1741م هم أصحاب الإمتياز فيها³، وكانت فرنسا إلى غاية 1764م تخشى أن يبت الداي في أمر الجزيرة ويجبر الباي علي بالإمثال لقراراته، لكن الباي علي لم يتخذ أي قرار يثير نقمة حاكم الجزائر عليه.

وهكذا يمكن القول أن العلاقات بين الجزائر وتونس في الفترة التي تصادفت حكم علي بوصبع مع الباي علي وبالرغم من وجود عدة قضايا كان بإمكانها أن تؤدي إلى القطيعة بين الإيالتين، فإن باي تونس لم يشأ الدخول في حرب مع جيرانه الجزائريين متتبعا نفس سياسة أخيه، كما أن الجزائر هي الأخرى كانت ترغب في العيش بسلام مع الجارة تونس ضمنا لاستمرار موارد دائمة للتخزين، من ضريبة سنوية والهدايا والإحسانات التي كانت تبعث بهم تونس لداي الجزائر.

د-محمد عثمان باشا وعلاقاته مع تونس إلى غاية تولي حمودة باشا العرش (1766-1782م) :

بعد فترة طويلة قضاها الداي بوصبع في الحكم، خلفه من بعده الداي محمد عثمان باشا الملقب بالجهاد وذلك في 08 أفريل 1766م(21شعبان1179هـ)⁴، ومما عرف عنه هو حبه للجهاد وقيادة المراكب، ورفع الضرائب على السفن كالبندقية وهولندا والسويد والدانمارك وإسبانيا في ثلاث مناسبات⁵، أما فيما يتعلق بعلاقاته مع جاره الباي علي ابن الحسين، فإن داي الجزائر الجديد كان يرغب في إستمرار حالة السلم مع جاره لاسيما

¹ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص372.373.

² - سببت قضية صيادي المرجان إخراجا كبيرا للباي التونسي والذي وقع في إخراج من أمره بعدما طلب مرهالفتنصل الفرنسي في تونس بحمايتهم من الجزائريين، فاعتذر له من عدم قدرته على ذلك خاصة بعدما جاءه التحذير من الداي علي بوصبع من مغبة الاستجابة للطلب الفرنسي، وفي الأخير نجد علي باي يردخ لطلب الجزائريين بالرغم من تحسن العلاقات بين الجزائر وفرنسا وإبرام اتفاق بينهما في 16/01/1764م ينظر: E.Plante, Corresponance Des Beye De Tunis,Op.Cit.p552.601.602.

³ - L.frank,histoire de tunis,Op.Cit,p192.

⁴ - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص79.

⁵ -M.Khaddache, L'algerie Durant La Periode Ottomane,O.P.U,P121 Et. M.Gaid,Op.Cit,p162.

الفصل الأول : العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من ق18م

إذا ما علمنا إستمرار تونس في الوفاء بالتزاماتها تجاه الجزائر، لا سيما وأن الداوي الجديد كان لزاما عليه أن يواجه ثورات الأهالي داخل الجزائر وحملات الدول الأوروبية كالحملة الدانماركية سنة 1770م، والهجوم الإسباني الضخم على مدينة الجزائر سنة 1775م¹، وأن يعمل على تحرير وهران والمرسى الكبير من التواجد الإسباني هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ الباوي علي ابن الحسين كان يتجنب الدخول في صراع مع جاره الداوي الجديد الذي كان عنده إثنان من أخطر أقاربه وهما يونس ابن علي باشا وإسماعيل ابن يونس².

إستمرت تونس في بعث الهدايا إلى الجزائر وشملت تلك الهدايا شخصيات رفيعة كالداوي وحاشيته، وغالبا ما كان يتحف الباوي علي الداوي محمد عثمان باشا بهدية سنوية تكون غالبا في شهر شوال (عيد الفطر) وأحيانا في شهر ذي الحجة (عيد الأضحى)³، وقد حفظت لنا السجلات التونسية المعاصرة لفترة محمد عثمان باشا والباوي علي تلك الهدايا التي استمرت تونس في بعثها للجزائر، ففي سنة 1181هـ/1768م بعث الباوي علي بهدية إحتوت على ثلاثة عناصر هي: الشواشي، والبرانس، والزيت، وبرفقتها رجالات السلطة والموظفين الذين أهديت لهم، كأصحاب المناصب العليا مثل الباشا، والخزناجي، ووكيل الخرج، والبيت مالجي، والخوجات الثلاث، إلى الموظفين الصغار وهم الكاتبين والخزندار، والمترجم، ووارديان باشي، ورئيس المرسى، ووكلاء الخرج، وكان مجموع تلك الهدية 49دزينة شاشية و 34 برونوسا و 77مطر زيت⁴، ونفس تلك الهدية بعثت بها تونس بصحبة حسونة بولكباشي⁵ في 29 ذي الحجة 1182هـ/06ماي 1769م واشتملت على: 87 مطر زيت و 42دزينة شاشية و 30برنوسا⁶.

وواصل الباوي علي تقديم الهدايا لبايات قسنطينة في عهد الداوي بوصبع كسابقه من البايات التونسيين، ففي سنة 1187هـ/1773م قدم هدية لباوي قسنطينة تألفت من: سرج، ومخزومة، وبرنسين من الحرير، و 20 برونوسا جريديا، و40سفساريا جريديا، وثلاث لمبات، زيت، وخاتم فضة⁷، وفي سنة 1192هـ/1778م كان نصيب حاكم قسنطينة صالح باوي (1771-1791م) يتألف من: 40 سفساريا، و 20 برونوسا، و 400ذراع ملف معهود و400ذراع كمخة⁸، وإحسانات أخرى بمبالغ مالية قدمت لأشخاص من قسنطينة توجهوا إلى تونس في سنة

¹ - عبأ الإسبان إمكانيات ضخمة لإنجاح هذه الحملة حيث جندوا جيشا قوامه 22500 رجل عدا القوات البحرية محملا على 344 سفينة حربية وهو أسطول ضخم يدل على الجهد التعبوي الكبير الذي بذلته إسبانيا من اجل تجهيز هذه الحملة . ينظر: جما ل قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، دار هومة، الجزائر، 2010، ص202.203.

² - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص377.

³ - نفسه، ص380.

⁴ - أ.و.ت، الدفتر 143، ورقة 32

⁵ - البولكباشية وهي رتبة عسكرية عثمانية وهي تعادل اليوم درجة نقيب لأنه في حالة الحرب يكون على رأس عدة فرق أو فيالق غير محددة العدد.

ينظر: علي خلاصي، الجيش الجزائري في العصر الحديث، دار الحضارة، ط1، الجزائر، 2007، ص129.

⁶ - أ.و.ت، الدفتر 143، ورقة 34.33.

⁷ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص380.

⁸ - أ.و.ت، الدفتر 2145، ص183.

1791م منهم المرابط العظيم الشريف القسنطيني (60ريالا)، ولقائد البقر الذي ذهب ب 500 رأس (50ريالا)¹.

ولم تقتصر تلك الهدايا على الباشا في الجزائر وباي قسنطينة، بل شملت هدايا تقدم بها الباي لشخصيات دينية وقبلية، كتلك الإحسانات التي قدمت لأشخاص من أهل تبسة سنة 1191هـ (1777-1778م)²، وإحسانات أخرى لأشخاص من الحنانشة (حنانشة الشيخ بوحفص) سنة 1191هـ/ وهم بن بادي، وعمار بن حسين وعبد الكريم، وبوقرة بن مراح لكل منهم 10 ريال، وإحسانات أخرى بحق 326 حمل تمر، منها 300 حمل عادة الشيخ بوحفص شيخ الحنانشة، و 16 حملا عادة الشيخ المذكور و 10 أحمال عادة الشيخ بن بوزيان، مع 68 ريالا حق 17 مطر زيت قفصي و 38 ريال بحق 7قناطر صابون، في حين أن هدية أبو حفص الحناشي تكونت من: ستارة موير بالداي ودير وعمار بالصارمة وركاب مذهب³.

وشملت أيضا تلك الهدايا وفود ومراكب الجزائريين المارين بتونس والمتوجهين إلى بر الترك (إسلامبول) ، فمثلا ما خرج لإبراهيم شاوش قبطان باشا وعلي شاوش الخارجين من الجزائر والمتوجهين نحو إسلامبول: 12 رطل لحم، 205 رطل روز، رطلين سمن، أوقية فلفل، زعفران، شمعة، 1.5 رطل عسل، ومثله زبيب، و 4 أواق قلب اللوز، ومثلها نشا، وطيرين دجاج، وزوج فروخ حمام، ونصف صاع خل، ونصف رطل جبن ،و 5خرارب خضر⁴ ، ونفس تلك الإحسانات كان يتلقاها الجزائريون لدى عودتهم من الحج مثل: تلك المؤونة التي خصصت لثلاثة عشر نفرا قادمين من الحج ومتوجهين إلى الجزائر في 27 رجب 1193هـ/10أوت 1779م وشملت : قلة سمن، 5قناطر بشماط، و12صاع زيت ،نصف قنطار زيتون، مطر زيت، ومثله خل، زوج كباش، ريالين خضرة ، 4أواق فلفل، 10شمعات، نصف أوقية زعفران وحملين بياض⁵.

هذا وكان الباي علي قد استقبل عددا كبيرا من المبعوثين الجزائريين، لا سيما من قبل باي قسنطينة، وقد بلغ عدد المبعوثين خلال سنة 1179هـ/1766م وهي سنة تولي محمد عثمان باشا الحكم 16 مبعوثا ، وبلغ مجموع مرافقيهم 99 مرافقا، وبلغ ما تحصل عليه المبعوثون ومرافقوهم من إحسانات 12020ريالا ، وصرف للمبعوثون الجزائريون ومرافقوهم سنة 1187هـ/1774م ما مجموعه 8643ريالا ، ويصف لنا ابن أبي الضياف غلظة بعض الموفدين ومرافقيهم في تعاملاتهم مع الباي ورعيته حتى فقد الباي لذة الملك وتجرعت رعيته المرارة⁶.

وفيما يتعلق بتكاليف الحملة فإن علي باي تمكن من سدادها نهائيا سنة 1769م (26 أفريل)، ففي تذكرة من باي قسنطينة أحمد القلي (1756-1771) إلى باي تونس تفيد بأن باي قسنطينة إستلم على دفعات من

¹ - أ.و.ت، الدفتر 2145، ص182.

² - نفسه، ص165.

³ - نفسه، ص168.

⁴ - أ.و.ت، الدفتر 143، ص64.

⁵ - نفسه، ص140. وللמיד عن تلك الإحسانات ينظر الصفحات التالية من نفس الدفتر:

149.141.140.138.136.135.115.114.113.67.61.60 .

⁶ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص378.

الفصل الأول : العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من ق18م

خادم الباي في تونس مبلغ 246780ريالا خرج من قسنطينة، وذلك مجموع مصروف الحملة المنصورة لما توجهت إلى تونس سنة الدوشمان من ثمن البشماط، والدهان، والزيت، والإبل، والفراسات، والمكاحل¹.

أما فيما يتعلق بالتحصينات والتسلح في قلعة الكاف، فإنّ تونس في عهد الباي علي واصلت عدم بناء الحصون التي هدمها الجزائريون أثناء حرب 1756م، والإلتزام بعدم بناء حصون جديدة في مدينة تونس ، وفيما يتعلّق بالإعتراف بالسيادة الجزائرية، فالباي علي كان يستجيب لأوامر محمد عثمان باشا ويلي رغباته، ومن ذلك بيع ما يرسله إليه من بقر وإبل وغير ذلك في الأسواق التونسية مثل الخمسمائة من البقر التي جاء بها شخص من قسنطينة لبيعه في أسواق تونس زيادة على حصوله على إحسانات قدرت ب50ريالا².

بالرغم من إقدام أحمد القلي باي قسنطينة على إخراج يونس من محبسه وإطلاق سراحه سنة 1768م وموته بعد أيام من ذلك لما ناله من ضيق الحبس³، واستمرار الجزائر في إيواء ابنه إسماعيل الذي ظل حرا طليقا في الجزائر منذ فراره إليه وزواجه بابنة الخزناجي، وإنجابها منها ابنه الحسن والذي ظلّ دوما مصدر قلق للداي علي إلى غاية وفاته في سنة 1780م⁴، إلا أنّ صفو العلاقات الجزائرية التونسية لم تتعكّر، رغم بعض التجاوزات الصادرة من الجزائريين في تونس، ففي الرسالة التي بعث بها دوروشي القنصل العام الفرنسي في تونس بتاريخ 16 أفريل 1782م أن القراصنة الجزائريين مسؤولون عن كل الإساءات تجاه السفن التجارية لكل الأمم في ميناء حلق الوادي، والباي لا يجرؤ على التدخل لإيقافهم⁵.

فهذه العوامل كلها لم تؤدي إلى القطيعة بين الإيالتين بالرغم من الظروف الصعبة التي مرّت بها كل إيالة، فالجزائر كانت في حرب مع القوى الأوروبية كالحملة الدانماركية سنة 1770م والحملة الإسبانية الكبرى على مدينة الجزائر سنة 1775م ، وتونس في مواجهة الحرب الفرنسية لسنة 1770⁶.

ثانيا : عودة السلام الحذر بين الايالتين (1782-1805م).

توفي علي باي في 18 جمادى الأولى 1196 هـ الموافق ل 31 ماي 1782م⁷، وكان قبل وفاته وبحضور ابنه حمودة وإخوته توجه برسالة إليهم " أترك لكم باقتراب وفاتي مملكة مزدهرة وسيكون حمودة ابني المفضل لدي هو خليفتي، ولكن لا تنسوا أن إخوتكم وأبناء عمومتم هم أبنائي وعليكم جميعا بطاعة حمودة." ⁸ هذا ومن يبحث في

¹ - أ.و.ت، الصندوق223، ملف 384، الوثيقة7.

² - أ.و.ت، الدفتر2145، ص182.

³ -E.Plante, Corresponance Des Beye De Tunis, Op, p660.

وللمزيد عن قصة وخبر خروج يونس من السجن ينظر: احمد ابن المبارك ابن العطار، تاريخ قسنطينة ، ت.رابح بونار، الجزائر، 1971، ص68.

⁴ - E.Plante,Op.Cit.V3,p113.

⁵ -Ibid,p124.

⁶ -H.Dunant, notice sur la régence de tunis, societe tunisienne de diffusion,tunis,1975,p46.

⁷ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص11. بينما يجعل بلانتي تاريخ وفاته يوم:27ماي1782م ينظر:

E.Mercier- histoire de l'afrique . E.Plante,Op.Cit,V3 ,p125. وي 26 ماي عند مرسي ينظر:

septent...Op.Cit.p415.

⁸ - E.Mercier, Histoir De Constan..., Op.Cit,p415.

العلاقة بينه وبين الداوي محمد عثمان 1766-1791 يجد أنها أيضا تميّزت بالسّلام وحسن الجوار ونوع من الوفاق الظاهري بالرغم من القضايا التي كادت أن توتر العلاقة بينهما نحو القطيعة، لاسيما بين 1783-1787م. هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن الباوي الجديد لم يجرؤ طوال السنوات التي عاصر فيها الداوي محمد وباوي قسنطينة صالح باوي 1771-1791 على رفض وطرح موضوع هيمنة الجزائر، لأن الظرف لم يكن مساعدًا له. ولم يستجمع قوته بعد. ومن جهة أخرى نجد أن محمد عثمان داي الجزائر كان راغبًا هو الآخر في إستمرار حالة السلم مع الجارة تونس طالما أنها مازالت ملتزمة بتأدية الضريبة والهدية السنوية. ولكن وقبل الخوض في طبيعة العلاقات بين الطرفين في هذه الفترة يقتضي لنا التوقف عند شخصية حمودة باشا بإعطاء نبذة عن حياته.

1 - شخصية حمودة باشا:

ولد حمودة باشا في 08 ديسمبر 1759م الموافق لـ 18 ربيع الثاني 1173هـ. وأمه جارية تزوج بها أبوه في الجزائر، بوبع في حياة والده في غزوة محرم 1191 هـ/ 9 فيفري 1777م. وبوفاة أبيه سنة 1782م كما ذكرنا بوبع بالخلافة على العرش الحسيني¹، وكان قد ورث بعض الأشياء والقضايا عن أبيه كاستمرار تونس في دفع الجزية والضريبة للجزائر. وعلى الصعيد الخارجي الأوروبي فإنّ أهم حدث خارجي واجهه حمودة هو الحرب مع البندقية² 1782-1792. وذلك دفاعًا عن مصالح تونس وحماية لتجارها وتجارها الخارجية³ ليعلن حمودة الحرب عليها في سنة 1784م. وأمر آخر خارجي وهو إستيلاءه على طرابلس الغرب عندما إستولى عليها علي برغل الثائر، وهدد بذلك تونس خاصة بعدما امتلك جزيرة جربة التونسية، فجهز حمودة جيشًا لاسترجاعها فافتكها سنة 1794م ودخل جيشه تونس. وإعادة صاحبها إلى الحكم علي القرمانلي، أما على الصعيد الداخلي فقد اهتم بإمكانات البلاد في جميع الميادين الزراعية والفلاحية والصناعية من خلال حثه على العمل، ونبذ البطالة، وتأمين السوق الخارجية للإنتاج الزراعي، وحثه على تشجيع الصناعات المحلية⁴.

أما فيما يتعلق بسياسته مع الجزائر وعلاقته معها وهو ما يهمنا وموضوع دراستنا. فستتعرف عليه فيما يلي "

¹ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص11.

² - البندقية: مرفأ كبير في شمال إيطاليا وتسمى باللغة الإيطالية فينيسيا، وقد كانت في القرون الوسطى جمهورية مستقلة ذات سلطة وتجارة عظيمة، أما اليوم فهي مدينة كسائر المدن الإيطالية مشهورة بمبانيها الفنية.

³ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص349.

⁴ - للمزيد عن سياسة حمودة باشا وإنجازاته على الصعيد الداخلي: ينظر الإمام رشاد، مرجع سابق، من ص261 إلى ص309.

2-مظاهر علاقته مع الجزائر إلى غاية 1800:

كان حمودة باشا يسير على نهج السياسة التي إنتهجها قبله أبوه تجاه الجزائر وهي تجنب ما يثير سخط الجزائريين وتقديم الضريبة السنوية والهدايا والإحسانات لداي الجزائر وللشخصيات العليا ولباي الغرب (قسنطينة) ¹ ، وكذا الاعتراف بسيادة الجزائر والاستجابة لطلباتها :

أ - تقديم الهدية :

يذكر فونتيير دو بارادي " V. de paradis " أن تونس استمرت في تقديم الهدايا للجزائر وكانت تتألف من حمولة زيت (250 جرة و 50 جرة سمن و 20 جرة صابون سائل)، وهدايا لكبار أرباب الدولة من الشواشي والسروج المطرزة والشالات الحريرية وعطور الورد وقدر ذلك بنحو 150.000 جنية ².

ب - الإحسان إلى الضيوف والمبعوثين :

إستمر حمودة باشا مثل أبيه في الإحسان وإكرام مبعوثي الداى إليه وأرباب دولته. ومن باي قسنطينة ومن شيوخ القبائل. ولبعض الوافدين من الجزائر إلى تونس في مهمات خاصة. وفي الدفاتر التونسية التي كانت تسجل فيها المصاريف الخارجة على الضيوف خلال عهد حمودة يلاحظ أن قائمة الجزائريين المستفيدين من الضيافة طويلة جدا، وتزيد عن الشهر فمثلا: السيار القسنطيني (المبعوث) كان يتواتر على تونس في مدة سنة كاملة 11 مرة. وكانت تتراوح مدة إقامته ما بين 10 إلى 15 يوماً إقامة في مدينة تونس. وكان السيار بين قسنطينة وتونس يصل في السنة الواحدة إلى خمسة أشخاص مختلفين ينزلون قصر باردو، ويتكفل البايلك التونسي بمصاريف مؤونتهم وتجهيزهم عند رجوعهم إلى قسنطينة ³، وكل سيار منهم كان مكلفا بمسألة محددة ⁴.

ج - استمرار تونس في إيواء المارين بها من الجزائريين :

لم تقتصر تونس في عهد حمودة باشا بتقديم الهدية للجزائر، بل شملت كذلك إيواء وتقديم الإحسانات لشخصيات قبلية وشيوخ زوايا، فعلى سبيل المثال تم الإكرام والإحسان بمبالغ مالية لأشخاص من أهل تبسة سنة 1197 هـ الموافق لـ 1784م وهم: يوسف بن باكير (5ريالات)، والمرابط يوسف ابن الصحراوي (3 ريالات)

¹ - تطلق كلمة باي الغرب في نظر التونسيين على بايلك قسنطينة نظرا لوقوعها غرب إيالة تونس، وهذا ما وقفنا عليه عند تصفحنا للسجلات والدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشفيف التونسي. فنجد دائما عبارة باي الغرب أو هدية باي الغرب مثلا .

² - V.De Paradis, Tunis et Alger.....Op.Cit,p138.

³ - محمد الحبيب عزيزي، شبكة العلاقات البينية تونس وقسنطينة في العهد العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، عدد 64.45، ديسمبر 2012، ص217-218.

⁴ - في الدفتر رقم 275 ص 48 - 54 قدم المسعي سيار قسنطينة لتونس في 20 ربيع الثاني ومعه 5 أنفار ثم رجع في جمادى الثانية، ثم في 14 رمضان، ثم في شوال، ثم في 19 ذي الحجة، ثم في 4 ذي الحجة ثم في 16 محرم 1211هـ. ثم في 9 صفر ثم في 17 ربيع الأول ثم في 3 ربيع الثاني وأخيرا في 19 جمادى الأول، هذا وقد بلغ عدد السيار سنة 1797م / 1213هـ . 5 أشخاص وهم: محمد بورقعة ، سعد بن زكري، محمد بن النمر، أحمد بن مسعي، وبوساحة. ينظر : أ.و.ت، الدفتر 175، ص48-54.

... إلخ¹. كما استمرت تونس في هذه الفترة في إكرام الجزائريين الوافدين إليها من الجزائر أو للجزائريين العائدين بلدهم عبر تونس. ومن ذلك تلك المؤونة التي قدمت من قبل الحاج علي الجزائري وكيل الجزائر في تونس لإسماعيل أخ الحاج عصمان وكيل أزمير في شهر رجب 1210هـ الموافق لـ جانفي 1796م. لما قدم إلى مرسى حلق الوادي، ومعه 64 عسكر وأشخاص آخرين متوجهين للجزائر وذلك: 600 فرد خبز عمل ناصرين. رأسين بقر. 8 كباش. 6 قلال سمن، ومثلهم زيت، قنطارين روز، 15 قنطار بشمات (وأضيف لهم 5 قناطر لما ردهم الريح). وفضيز واحد برغل (وزيد لهم ققيز آخر لما ردهم الريح). 3 قناطر زيتون، 4 أمطار خل، 3 أحمال خضر أجناس، حملين ليم وبرتقال، 30 طير دجاج، 30 ليمون، 1.5 قنطار بصل، رطلين فلفل، 6 أواق زعفران، 25 رطل سكر، 6 رطل قهوة، 10 أحمال حطب، 8 أحمال بياض، 100 حصيرة حلقة كبار، 1 قنطار صابون، و 4 خدات للصابون، وخرج لهم بالمثل للمرة الثانية على يد نفس الوكيل لما ردهم الريح في 7 شعبان 1210هـ الموافق لـ 16 فيفري 1795م². ولما كانت تونس على طريق الحجاج الجزائريين ذهابا وإيابا فقد خصصت لهم الإيالة التونسية مؤونة عند إستراحتهم بما. ومن ذلك تلك المؤونة التي خرجت على يد محمد البرادعي وكيل الجزائر في تونس في 12 صفر 1211هـ الموافق لـ 17 أوت 1796م. للرايس محمد قارة بوشناق وهو قادم من الحج ومعه أربعة أنفار جزايرية وهي كالأتي: 3 قناطر بشمات أبيض، قلتين سمن، نصف مطر زيت، نصف قنطار روز. نصف مطر خل، 30 رطل زيتون، رطل فلفل، رطل قهوة، 15 رطل سكر، 15 شمعة، وحمل خضر أجناس، و 10 دلاعات، ومثلهم بطيخ، 100 عظم دجاج، ومثلهم ليمون، 25 رطل بصل، 3 كباش، حملين بياض³.

بالرغم من أن العلاقات في سنواتها الأولى بين الجزائر وتونس من توالي حمودة باشا لعرش تونس عرفت هدوءا نسبياً كما ذكرنا لرغبة البلدين بالعيش في سلام، لاسيما من جانب تونس التي لم تكن الفرصة مواتية أمامها لتقف في وجه الجزائر، إلا أن هناك العديد من القضايا التي طرحت نفسها في العلاقات بين الإيالتين، وكادت أن تؤدي إلى إشعال فتيل الحرب بينهما لولا الحنكة والدهاء الذي أبداه كل من محمود باشا والباي محمد عصمان ومن تلك القضايا، الأزمة التي حدثت ما بين 1783 - 1787م بين حمودة باشا و حاكم قسنطينة صالح باي. وكذا مسألة تدخل تونس في طرابلس الغرب وإعادة حكم الأسرة القرمانلية، بعد أن غزاها علي برغل والموقف الجزائري من ذلك، ولكن وقبل الإشارة إلى تلك القضايا لا بد من الإشارة إلى شخصية كان لها الدور الأبرز في سير العلاقات بين الجزائر وتونس وكان له موقف حاسم من الباي حمودة باشا التونسي. إنها شخصية صالح باي حاكم بايلك قسنطينة فمن تكون هذه الشخصية؟

¹ - أ.و.ت، الدفتر 2145، ص167.

² - أ.و.ت، الدفتر، 275 - 23.

³ - نفسه، ص33.

3- صالح باي حاكم قسنطينة والأزمة مع تونس 1783-1787. :
لقد اتفق المؤرخون والكتاب على أن صالح باي (1771 - 1792)¹ كان من أعظم بايات قسنطينة وأشهرهم، سواء من حيث أعماله العسكرية أو إنجازاته العلمية والعمرانية²، هذا وقد جاء في مذكرات الزهار عن صالح باي "أنه كان يرفق بالرعيّة ويحسن للفقراء محبا للعلماء والصالحين وكان له حرث كبير وأنعام كثيرة ... وكان مجاهداً وله مآثر كثيرة³، ويقول عنه صالح العنتري : " وكان صالح باي رجلا عاقلا له سيرة مليحة، وسياسة مستحسنة حميدة يسمع كلام الشاكين وينصر المظلومين وهو دائما يحب عمل الخير ويرتضيه ..."⁴، كما يشيد به ابن العطار بقوله: " إنه فاق معاصريه قوة وحكمة فسعدت الناس في دولته⁵. فصالح باي من مواليد مدينة أزمير بتركيا في شبه جزيرة آسيا الصغرى عن أب تركي اسمه مصطفى، وذلك في عام 1739م تقريبا، وعاش سنواته الأولى بصفة عادية، وفي سنة 1755م تسبب في مقتل أحد أقربائه خطأ، فهجر إلى الجزائر حتى يتفادى العقاب. واشتغل في إحدى مقاهي مدينة الجزائر، وتعرّف على العديد من الأتراك في مجلس الأوجاق، ومكنه ذلك من الإلتحاق بفرقة الميليشيا العسكرية للعمل بها قبل أن يرسل إلى مدينة قسنطينة لدعم الفرقة التركية المعسكرة بها. فبرزت شخصيته وشجاعته، فاشترك في حملة الباي أزرق عينو على تونس وأبدى مقدرة وشجاعة في الحرب، أثارت انتباه أحمد القلي فقربه إليه وزوجه إبنته، ثم لما أصبح على رأس البايك عينه قائدا على عرش الحراكته بالأوراس في سنة 1762م وولده 3 سنوات. وعندما توفي خليفة الباي في قسنطينة استدعاه صهره أحمد القلي، وعينه خليفة عام 1765م. لمدة ستة سنوات وفي عام 1771م توفي أحمد القلي، فعين صالح باي في منصبه على رأس البايك، واستمر في منصبه قرابة ربع قرن إلى غاية صيف 1792م. أنجز صالح باي أعمالا كثيرة عسكرية و عمرانية وثقافية واجتماعية، وفي بداية عهده تمردّ عليه أولاد نايل فقاد حملة عسكرية ضدّهم سنة 1772م، وفي 1773م غزا أولاد عمور⁶.

أما فيما يتعلق بعلاقاته مع تونس وأميرها حمودة باشا الحسيني، فقد كانت سيرة حسنة، وكانت بينهما الهدايا العظيمة والموذات الكثيرة، وكان تجار قسنطينة يمشون إلى تونس بالسلع حيوان وغيره، فيبيعونها هناك ويشتركون

¹-M.Gaid, Chronique Des Beyes De Constan...Op.Cit,p38.

²- جميلة معاشي، مخطوط عن صالح باي حاكم بايلك قسنطينة، المجلة التاريخية المغاربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 149، 2010، ص31.

³- أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 65.

⁴- محمد الصالح ابن العنتري، مصدر سابق، ص75.

⁵- احمد ابن المبارك ابن العطار، مصدر سابق، ص70. ومن مآثر صالح باي تجديده لمرسى سكيكدة، والتي عادت مرسا تجاريا كبيرا بين الجزائر وغيرها من الأمم الأجنبية، ومنها أيضا إلحاقه لتوقرت ونواحي الصحراء بالشمال وتوحيده للقطاع الشرقي تحت حكم واحد، كمساهمة منه في توحيد القطر الجزائري توحيدا كاملا وقاه من أفات التمزق والشتات.

⁶ - للمزيد عن صالح باي وأعماله. ينظر المصادر والمراجع التالية: M.Gaid- Chronique Des De Constan...Op.Cit.p38 و: محمد ابن الصالح العنتري، مصدر سابق، ص75-77، و فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة في عهد صالح باي، ميديا بلوس، قسنطينة، 2005، من ص 88 إلى ص118.

السلع من تونس ويأتون بها إلى قسنطينة¹. إلا أن هذه المودة التي كانت بين صالح باي وحمودة باشا لا تعني أنه كان هناك تفاهم دائم بينهما . ففي بداية عهد حمودة باشا حدث نزاع بينهما كاد أن يؤدي إلى إندلاع حرب بينهما. تلك الأزمة التي استمرت على مدار 4 سنوات 1783 - 1787م.

أ - أزمة 1783 - 1787م :

تعود أسباب تلك الأزمة إلى تمرد قبيلة تونسية في عهد والد حمودة باشا علي باي، وتلك القبيلة التي عبرت الحدود التونسية الجزائرية وانتقلت إلى عمالة قسنطينة، وفي حوالي شهر نوفمبر 1783م² أي بعد حوالي سنة ونصف من تولي حمودة باشا العرش، يوعز داي الجزائر محمد عثمان إلى صالح باي حاكم قسنطينة لمطالبة حمودة باشا بتعويض على ممتلكات وخسائر وأتعاب تلك القبيلة³، وعندئذ وصل مبعوث حمودة باشا إلى صالح باي يبلغه بأن القبيلة التونسية لم تعد تتبع تونس، بل أصبحت تتبع باي قسنطينة، وبأن هذا الأخير يطالب باسمها بتعويض قدره 40.000 ريال بندقي⁴ كتعويض عن الأضرار التي لحقتها خلال حملة حسن الكبير ضدها⁵، فتعجب حمودة باشا واندهش بصدد قضية التعويض لحادثة منسية قبل 15 سنة⁶، فأجابه إجابة غير محدودة وأسرع إلى الكتابة لداي الجزائر عازما على قطع العلاقات معه إن هو ساند طلب باي مقاطعته⁷، وفي الوقت نفسه كان حمودة باشا قد أمر في الخفاء بالبدء في استعدادات عسكرية كي لا تباغته الأحداث فيما لو هجم عليه حسن صالح باي⁸، ولم يقف عند هذا الإجراء فقط بل قام بجولة عسكرية في معظم المقاطعات التونسية وخاصة منها المتاخمة للجزائر وذلك لغرضين: كي يهدأ فيها بقدمه شخصا ذلك الانزعاج الذي اجتاحت نفوس الأهالي التونسيين على إثر اندلاع الحرب ضد جمهورية البندقية، والإشاعات التي راجت حول إمكانية غزو جزائري مفاجئ⁹، والغرض الثاني كان لتهديد باي قسنطينة بأن تونس مصممة على القتال والمجاهمة عند حدوث أي تعد من قبله على الحدود التونسية، لكنه وخلافا لما كان متوقعا فإن حمودة باشا لما كان بالقرب من الحدود الجزائرية بعث إليه صالح باي بهدية متمثلة في خيول ثمينة برفقة ضباطه ليتحدثوا معه حول أمر التعويض. ولم يكن حمودة

¹ - محمد الطاهر ابن أحمد النقاد، ذكر طرف من ولاية المرحوم صالح باي أمير قسنطينة، مغلوط بالمكتبة الوطنية التونسية تحت رقم 263 ص18.17.

² - A.Rosseau, Op.Cit.p198.199.

كانت تلك القبيلة التونسية من ناحية الكاف قد التحأت إلى قسنطينة في حدود سنة 1768م فرارا من دفع الضريبة وفضلت الإقامة في بايلك

قسنطينة للمزيد ينظر E.Plante,Op.Cit.V3.p13

³ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص386.

⁴ - A.Rosseau, Op.Cit,p200.

⁵ - حسن الكبير احد أعوان علي باي والذي كلفه الباي علي بالخروج على رأس محلة كبيرة لجمع الضرائب من القبائل الغربية المتاخمة للحدود مع الجزائر .

⁶ الإمام رشاد، مرجع سابق، ص386.

⁷ - E.Vayssette, Histoire De Constan... Op.Cit.p129.

⁸ - A.Rosseau, Op.Cit.p216.

⁹ - Ibid.

باشا ينتظر الالتفاتة الودية، مما جعله يأمل في تسوية ودية للقضية التي نشأت بين الإيالتين¹، وبذلك عاد حمودة باشا إلى عاصمة تونس مرتاح البال من ناحية الحدود الغربية في أبريل 1784م². ولم يمضي وقت طويل حتى جاء رد داي الجزائر على طلب حمودة باشا، وقد كان الرد متحيزا لباي قسنطينة، وبالرغم من أن ذلك الموقف قد إستفز حمودة باشا، إلا أنه كظم غيظه، وحسب روسو فإن الباي حمودة باشا توصل إلى اتفاق مع باي قسنطينة على تخفيض المبلغ من 40.000 ريال بندقي (سكويين) إلى 25.000 سكويين. وأن الباي حمودة دفع المبلغ المذكور في جوان 1784م³ للقبيلة التونسية التي تجاوزت الإقليم القسنطيني⁴، وذلك تفاديا للدخول في حرب بينه وبين الجزائر إلى جانب الحرب التي كانت قائمة بينه وبين البندقية.

بعد مرور 3 سنوات أي في سنة 1787م ظهرت مشكلة أخرى بين الإيالتين، فقد اتهمت الجزائر تونس أنها إستقبلت فوق ترابها عددا كبيرا من سكان قسنطينة الذين أفلتوا من وجه القضاء الجزائري⁵، وكان صالح باي قد بعث رسالة إلى داي الجزائر يشتكي فيها من باي تونس بأن هذا الأخير قام بتشجيع بعض القاطنين في مقاطعة قسنطينة متسببا في هجرة حقيقية من بايلكه نحو تونس⁶، أضف إلى ذلك مسألة فرار الأمير حسن ابن إسماعيل ابن يونس⁷ الذي يعتبر الوريث الشرعي الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من بني الأمراء التونسيين المنحدرين من سلالة علي باشا، وهو الأمر الذي كانت إيالة الجزائر تحتفظ به عندها لجعله سلاحا تهدد به التونسيين كلما لاح في الجو شبح الحرب بين الإيالتين⁸.

كل تلك المآخذ جعلت باي قسنطينة بموافقة داي الجزائر وديوانها على تكوين محلة في قسنطينة من 6000 مقاتل⁹ يتأهب للسير بها نحو الحدود، فلما علم حمودة بذلك أعدّ محلة ضخمة مؤلفة من 2000 تركي و3000 كرجلي، ووحدة ضخمة من قوات البادية، وبدا واضحا أن قوة كهذه تكفي لصد بل ولإلحاق الهزيمة بالجزائريين، لكن حمودة باشا دخل في الوقت نفسه في مفاوضات مع حكومة الجزائر سدّد من خلالها مبلغا ضخماً في

¹- E.Vayssette, Op.Cit.p130.

²- E.Mercier,Histoire De L'afrique Septen...Op.Cit,p416.

³- A.Rosseau, Op.Cit.p217.

⁴- E.Mercier,Histoire De L'afrique Septen...Op.Cit,p416.

⁵- A.Rosseau, Op.Cit.p222.

⁶-E.Mercier,Histoire De Constan...Op.Cit,p425.

⁷- هو حسن ابن إسماعيل ابن يونس ابن علي باشا، ولقد كان حسن هذا قد لجأ صغيرا صحبة والده إسماعيل إلى الجزائر، في أعقاب فتنة جبل وسلات المذكورة سلفا، وبعد وفاة أبيه إسماعيل، فلق حمودة باشا لبقائه في الجزائر بالنظر إلى ما ينطوي عليه ذلك من إمكانية إتخاذ داي الجزائر له وسيلة لإثارة الشقاق والفتنة في تونس، فدرس له حمودة في الخفاء وفدا إتصل به في منفاه بالجزائر، وكان كل ذلك بتواطؤ مع وكيل الجزائر في تونس الحاج محمد البرادعي، وبالفعل نجح هذا المسعى وجاء الأمير حسن إلى تونس سزا، فأكرمه حمودة و أنزله مسكنا مناسباً، إلا أنه وضعه تحت المراقبة الشديدة، وعندئذ تمّ خنقه وقتل بأمر من حمودة باشا في 19 ربيع الثاني 1214هـ/20 سبتمبر 1799م، واستاء داي الجزائر لذلك، خصوصا وأنّ أم الأمير حسن الجزائرية كانت قد علمت أن هرب ابنه إلى تونس كان بتبدير من وكيل الجزائر محمد البرادعي، فطالب داي الجزائر برجوع وكيله من تونس، لكن حمودة باشا امتنع عن ذلك الأمر الذي أدى إلى تدهور الموقف بين الإيالتين ينظر : احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص34.33.

⁸-A.Rosseau, Op.Cit,p221.

⁹-Ibid,p222.et E.Mercier,Histoire De L'afrique Septen...Op.Cit,p425.

1787م¹. مفضلا التضحية بكبريائه الشخصي بدل الدخول في حرب مع الجزائر في الوقت الذي كان فيه عليه الانتقال إلى أسطول البندقية لصد هجماته، وفي أواخر سنة 1787م تحسنت العلاقات بين الإيالتين². ومن مظاهر ميل العلاقات بين الجزائر وتونس نحو السلم والتفاهم أن حمودة باشا الحسيني كان يستجيب في الكثير من الأحيان لمطلب داي الجزائر و باي قسنطينة، ومن ذلك إستجابته لمطلب التعويض في 1783م و1787م، و إستجابته لتوسط الجزائر في إبرام الصلح بين بلاده وإسبانيا، هذه الأخيرة التي كانت ترغب في السلم مع تونس حتى قبل أن تتوصل إلى السلم مع الجزائر سنة 1756م، ولما كانت تدرك ما لأرباب الدولة في الجزائر من نفوذ لدي الباي حمودة. فلقد سعت للحصول على السلم معه عن طريقهم. وأثمرت مساعي الجزائر فبدأت في التقارب والتفاهم والاتفاق على شروط السلام في أكتوبر 1788م، ولكن إبرام الاتفاق النهائي تأخر إلى جانفي 1791م³، كما استجاب حمودة باشا لطلب الجزائر لرد سفينة بندقية أسرها بحارة تونسيون في السواحل الجزائرية دفعا للدخول في نزاع مع الجزائريين، وكان هؤلاء يحصلون على مال كثير من البندقية في مقابل الحماية التي يوفرها لها من التونسيين، فخلال سنتي 1787 و 1788م حصلت الجزائر في مقابل تلك المهمة وفي مقابل إطلاق سراح سفن البندقية التي وقعت في قبضة الجزائريين أنفسهم، لأنها لم تتوفر على جواز سفر مقبول من قبلهم على مبلغ 250.000 جنية⁴.

وما يمكن أن نخلص إليه أن العلاقات بين حمودة باشا والجزائر في فترتها الأولى، أي منذ تولي حمودة باشا للعرش الحسيني إلى غاية وفاة الداي محمد عثمان باشا في 12-07-1791م كانت تتميز بالسلم والود بينهما، بالرغم من وجود العديد من القضايا التي كان بإمكانها أن تشعل فتيل الحرب بين الإيالتين. لاسيما إذا لمسنا تلك الرغبة الجارحة لحمودة باشا في أن يتحرر من هيمنة الجزائر.

تميزت سياسة حمودة باشا مع الجزائر بمسايرة ظاهرة، ورغبة في عدم استفزاز مشاعر الداي ابتداء من سنة 1787 - 1794 - 1795م وهو تاريخ حملة حمودة باشا على طرابلس.

4 - موقف الجزائر من حملة حمودة باشا على طرابلس : 1793 - 1795م:

بتولي الداي حسين باشا 1791 - 1798م منصب الداي في الجزائر خلفا للداي محمد عثمان باشا إستمرت العلاقات السلمية بين إيالة الجزائر وتونس. لأن الداي الجديد كان راغبا في إستمرار السلم مادامت تونس ملتزمة بدفع الضريبة السنوية والهدية إلى الجزائر، فاستمرت تونس في الانصياع لمطالب الجزائر. ذلك أن حمودة باشا

¹ - E.Vayssette, Histoire De Constan...Op.Cit,p130.

² - E.Mercier,Histoire De L'afrique Septen...Op.Cit,p425.

³ - يحي بوعزيز، المراسلات الجزائرية الاسبانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ت، ص57.58.

كما شهدت هذه السنة أيضا تحرير وهران والمرسى الكبير من التواجد الاسباني بالجزائر . للمزيد ينظر: حياة فنون، التواجد الاسباني في الغرب الجزائري خلال الفترتين العثمانية والفرنسية، مجلة الحوار المتوسطي، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، العدد 5 جامعة سيدي بلعباس، مارس 2013، ص90.89.

⁴ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص392.

ماكاد يخرج في حربه ضد البنادقة في سنة 1792 حتى وجد نفسه في حرب أخرى ضد طرابلس ما بين 1794-1795م. فما مدى استجابة الباي حمودة لمطالب الداى حسين في هذه الحرب. وما الموقف الجزائري من هذه الحرب؟

في سنة 1793م تمكن مغامر تركي يدعى علي برغل¹ من الاستيلاء على إيالة طرابلس فجأة، وذلك بعد تسليحه من حسابه الخاص لأسطول صغير حشد فيه قوات مرتزقة جندها من سواحل آسيا الصغرى، ثم تقدم على رأس تلك العصابات نحو مرسى مدينة طرابلس. حيث أشاع العملاء السريون الذين كان قد حثهم فيها بأن ذلك الأسطول قد أرسل من قبل السلطان العثماني للمجىء باشا جديد عينته الأستانة مكان علي القرمانلي المسن². فارتعب هذا الأخير خوفا من المخاطر التي أصبحت تهدد حياته، فما كان منه إلا أن فرّ على جناح السرعة إلى تونس حيث أن علي برغل تمكن من الاستيلاء على طرابلس بدون قتال. وفي هذه الأثناء لما سمع الداى حسين {1791-1798}. باستيلاء علي برغل على طرابلس دخله الرعب منه، لأنه كان وكيل خرج في الجزائر قبل مغادرتها إلى إسطنبول، ومكث في الجزائر فترة طويلة، فما كان من الداى حسن إلا أن يكتب لصاحب تونس أمراً بإياه بالتحرك لطرابلس، وواعدا إيائه بمساعدته بما يجب³، وكان صاحب طرابلس المبعد قد إستعان بصاحب تونس حمودة باشا⁴، وبرغبة هذا الأخير في التخلص من جار مزعج بعدما أصبح يهدد أقاليمه من خلال إحتلاله لجزيرة جربة، فخرجت حملة من تونس وذهبت إلى طرابلس، وأعانت صاحبها ورجعت إلى تونس. ولما بلغ خبر هروب علي برغل لمصر إلى حسين باشا، كتب إلى حمودة باشا يشكره على فعله⁵. ويبدو أن حمودة باشا بنجاحه هذا في إعادة الحكم لأسرة آل قرمانلي بطرابلس الغرب يكون قد إستعرض قوته العسكرية خارج الحدود التونسية. كما بعث بذلك بإنذار إلى الجزائر التي تتربص به منذ أمد بعيد، وفي نفس الوقت ليستعد لمجابهة الجزائر، وهذا ما حدث بالفعل في حرب 1806 - 1807م بين الإيالتين.

5- دور الجزائر في إبرام الصلح بين تونس والولايات المتحدة الأمريكية:

نظرا للمكانة الهامة التي كانت تكتسيها الجزائر في حوض البحر الأبيض المتوسط لاسيما الغربي منه، من خلال فرض هيمنتها على الدول التي تمرّ بالبحر الأبيض المتوسط، لاسيما الدول الأوروبية، ولم يقتصر دورها هذا

¹ - عرف علي برغل بعلي باشا الجزائري لأنه عاش فترة طويلة من الزمن في الجزائر، تولى فيها منصب رئيس البحرية كما كلف بمنصب وكيل الخراج لكنه طرد منها لإتباعه الرشوة والإساءة للأهالي، جمع ثروة عظيمة وتوجه بها إلى استانبول وتمكن بأمواله من شراء منصب والي طرابلس الغرب وبعد فشله في الحصول على الأرز لقب بعلي برغل، ويذكر عمر علي ابن إسماعيل بأن اسمه علي بن زول. ينظر عمر علي ابن إسماعيل، أخيار الأسرة القرمانلية في ليبيا، ص.60.

² - A.Rosseau, Op.Cit,p228.

³ - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 65.

⁴ - لا يبدو أن حمودة باشا الحسيني تدخل في تونس تلبية لرغبة داي الجزائر فقط. وإنما أيضا تلبية لطلب علي القرمانلي الذي إستنجد بصاحب تونس ومن جهة ثالثة تجرؤ علي برغل من النزول بسفينته في جزيرة جربة، والاستيلاء عليها بدون قتال ينظر: A.Guellouz.A.Masmoudi .M.Smida-Op.Cit-p262.

⁵ - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص63.

الفصل الأول : العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من ق18م

فقط على نفسها بل شمل ذلك دول الجوار تونس وطرابلس الغرب مثلا. هذا وقد لعبت الجزائر دورا مهما في عقد اتفاقات وهدنة بين هاتين الدولتين والدول الأوروبية، ومن ذلك مساهمتها في عقد إتفاق هدنة ثم سلام بين إيالة تونس والولايات المتحدة الأمريكية الدولة الناشئة في نهاية القرن 18م والمنافسة للدول الأوروبية.

كانت الإيالة التونسية في حالة حرب مع الولايات المتحدة الأمريكية، وكان البحارة التونسيون يلحقون بالتجارة والملاحة الأمريكية في البحر الأبيض المتوسط خسائر فادحة بشكل مستمر، فقررت حكومة واشنطن وضع حد لذلك، عن طريق التفاوض مع الإيالة حول إبرام معاهدة صلح، وأوكلت هذه المهمة إلى السيد جويل بارلو قنصل أمريكا العام في الجزائر¹، ويذكر جيمس كاثكارت بأن الداوي الجزائري هو الذي أملى الشروط التي يعقد السلام على أساسها بين الولايات المتحدة الأمريكية و الإيالة التونسية، وأن وكيل الداوي حسين لدى باي تونس قد وعده قبل التوصل إلى الهدنة بين البلدين، بأن يستعمل نفوذه لدى باي تونس لكي يطلق سراح أي سفينة أمريكية تقع في أسر القراصنة التونسيين ويعيدها إلى أمريكا²، ونفهم من ذلك الكلام أن كلمته كانت نافذة لدى حمودة باي، وهو ما أكده دوفواز القنصل الفرنسي السابق بتونس حيث قال في إحدى رسائله: " إن وكيل الجزائر في تونس يستطيع تنفيذ أوامر الداوي فيها"³، هذا وتم إبرام الهدنة بين الدولتين في 8 نوفمبر 1796م لمدة 8 أشهر⁵، ثم السلم النهائي الذي وقع في شهر مارس 1799م⁶، وقد دفعت الولايات المتحدة الأمريكية مقابل ذلك الصلح لإيالة تونس مبلغ 50.000 دولار، وليوسف صاحب الطابع⁷ وأجهزته 8000 دولار إلى جانب 28 مدفعا، و 400 قنطار من حبال السفن، شكلت في مجموعها ما مقداره 25.000 دولار⁸.

¹-A.Rosseau, Op.Cit,p236.

² شهدت الفترة ما بين 1784-1816م ازدياد عدد الأسرى الأمريكيان في البلدان المغاربية الثلاث تونس والجزائر وطرابلس الغرب ، وفي خلال هذه الفترة تم أسر 700 أمريكي من قبل الإيالات الثلاث معظمهم القي عليهم القبض في البحر واعتبروا رهائن سياسيين للمزيد ينظر: علي تابلت، الأسرى الأمريكيان في البلدان المغاربية 1784-1816، المجلة التاريخية المغاربية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، عدد 123، مارس 2011، من ص23 إلى ص36.

³- E.Plante, Op.Cit. V3,p298.

⁴ جيمس ليندر كاثكارت، مذكرات أسير الداوي قنصل أمريكا بالمغرب، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982 ص202.

⁵ في الفترة التي حصلت فيها الولايات المتحدة الأمريكية على هدنة لمدة 8 أشهر تم كمن التونسيون من الاستيلاء على سفينة أمريكية تدعى "إيلزا" وطالب الباي بمبلغ 10.000 دولار فدية للأسرى والسفينة، فلجأ بارلو إلى داي الجزائر وبعث هذا رسائل إلى حمودة باشا يحثه فيها على قبول مبلغ مالية مقابل الفدية ومعاهدة السلام، كما هدد الداوي بإجبار تونس على عقد الصلح مع و.م.أ فقد وعد بأن يمنح جواز سفر لكل سفينة أمريكية وأنه سيطلب بتعويض بأربعة أضعاف لأي أضرار تتحملها السفن الأمريكية. للمزيد ينظر " راي إروين، العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب و الو.م.أ (1776-1816)، ترجمة إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر-1984، ص126-127.

⁶-A.Rosseau, Op.Cit,p236.

⁷ هو الوزير أبو المحاسن يوسف حوجة صاحب الطابع أصله من مسامي البغدان أتى إلى تونس صغيرا بصفة مملوك ونخرط في خدمة حمودة باشا الحسيني باي الأمحال، فلمّا لاحت عليه علامة النجاة والإخلاص في رتبة الطبع فاشتهر منذ ذلك الحين باسم هذه الخطة ومازال يتدرج في مراقب الوظائف السامية حتى صار أمين سر الأمير وعمدة الدولة في المهمات والبعثات السياسية، ثم وقعت به نكبة شنعاء في 11 صفر 1230م بعد وشاية سماسرة السوء فراح ضحيتها.

⁸-A.Rosseau, Op.Cit,p236.

الفصل الأول : العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من ق18م

من خلال إبرام المعاهدة الأمريكية التونسية و برعاية جزائرية، يظهر أن الجزائر إلى غاية السنوات العشر الأخيرة من القرن 18م كانت لازالت وصية على تونس وأن هذه الأخيرة كانت لا تزال تلتزم بتعهداتها تجاه الجزائر.

إلى جانب الأزمة الجزائرية التونسية على عهد صالح باي و حمودة باشا ما بين 1787-1873م. والموقف الجزائري من تدخل وإستيلاء على برغل على طرابلس الغرب، والدور الجزائري الفاعل في عقد معاهدة الصلح بين تونس و الولايات المتحدة سنة 1799م. فإن تونس استمرت في تلبية مطالب داي الجزائر ومن ذلك ما يلي:

* استجابة حمودة باشا لداي الجزائر بالموافقة على اتفاقات مع فرنسا فيما يتعلق بالاعتراف بالعلم المثلث الألوان سنة 1794م وقد كان حمودة باشا في البداية ممتنعا من الاعتراف بها. على أمل أن يحصل على شروط أفضل من فرنسا في مقابل الاعتراف بها، وحتى لا يكون اعترافه بها قبل الجزائر مدعاة لاعتداء السفن الجزائرية على السفن الفرنسية الحاملة للراية الثلاثية في المياه التونسية¹.

* امتناع حمودة باشا في سنة 1793م من الدخول في حلف مع بريطانيا والبرتغال ضد فرنسا إلا إذا وافق داي الجزائر على ذلك وانضم إليهم وهو موقف كان حمودة باشا متمسكاً به فيما يتعلق بسياسة تونس الخارجية مع الدول الأوروبية وبحسب ألف حساب للجزائر، إنا أنها تدخل شريكة معه أو يمتنع².

* إقدام حمودة باشا في الفترة ما بين 1794-1805م على إقامة دار ضيافة تحت نظر وكيل الجزائر في تونس لاستقبال وإقامة الضيوف والوفود الجزائريين الذين يحلون بتونس، وكانت جميع نفقات هؤلاء من مآكل وهدايا على حساب الباي³ وإذا علمنا أن تونس هي على طريق الحجاج الجزائريين ذهابا وإيابا، وطريق الوفود الجزائرية إلى إسطنبول ذهابا وإيابا، ومحطة لقراصنة وتجار الجزائر. علمنا ماذا تعني تلك الضيافة وقد رنا تكاليفها⁴، ومن تلك الهدايا نذكر على سبيل المثال: تلك المؤونة التي خصصت لشباك القرصان للسيد قارة محمد باي تلمسان لما قدم إلى مرسى حلق الوادي على يد الحاج محمد البرادعي وكيل الجزائر في تونس وتكونت من: 500 فرد خبزة عمل ناصري، 3 قلال سمن، 4 أقطار زيت، 1/2 قنطار روز، 3 قناطر زيتون، 4 أقطار خل، 4 كباش، فلفل، 5 رطل سكر، 20 شمعة، قنطار بصل، حمل عنب خضر، 20 عظم دجاج، مثلهم لحم، 4 أحمال حطب، مثلهم بياض⁵.

ومن ذلك أيضا فيما يتعلق بالضيافات وإكرام الوكلاء ومبعوثي الداي من قبل حمودة باشا نذكر: تلك المؤونة التي عينت يوم الجمعة 11 صفر 1215هـ/1 أوت 1800م. للحاج إسماعيل وكيل الجزائر و قسنطينة بتونس. مثلما كان للوكلاء الذين من قبله، تكونت تلك المؤونة من: 26 رطل لحم يومي، 4 أقطال سمن يومي، 6 أصواع سميد يومي، رطل ونصف روز يومي، 4 أقطال ونصف غسل يومي، ومثله زبيب يومي، 4 أواق فلفل يومي، مثلهم

¹ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص397.

² - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص388.

³ - أ.و.ت، الدفاتر الإدارية والجبائية، الدفتر 275، ص15.

⁴ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص389.

⁵ - أ.و.ت، الدفاتر الإدارية والجبائية، الدفتر 275، ص35.

نشا يومي، 10 عضمات دجاج، مثلهم ليم بلدي، ونصف صاع يومي زيت، ومثله خل، و أوقية فلفل، ونصف ثمن زعفران، وأوقيتان قهوة، وشمعة واحدة، ثمانية أحمال حطب، و أربعة أحمال بياض¹.

أما فيما يتعلق بالهدايا فقد وصلت تونس بعث الهدايا إلى الشخصيات الجزائرية الكبيرة ورجال الدولة، ومن ذلك الهدية التي أرسلت إلى الجزائر بمعية سي مصطفى بن حمزة سنة 1216هـ-1801م، وهي بالنسبة إلى الباشا (الداي مصطفى 1795-1805): 4 برانس جربي (صنع مدينة جربة)، ومثلها برانس جريدي (بلاد الجريد)، و4 سفاسر جريدي من حرير، و 10 دزينات شواشي، وبالنسبة إلى الخزناسي: 3 دزينات شواشي، وزوج برانس جربي، ومثلها برانس جريدي، و 3 سفاسر جريدي، وهدية أخرى لم يعين صاحبها وهي : 34 برنوس جريدي، 47 دزينات شواشي، 4 محازم، ووضعت كل هدية في صندوق².

ومن جهة أخرى تسجل لنا دفاتر الأرشيف التونسي تلك الهدايا التي تبودلت ما بين الإيالتين ومن ذلك نذكر: هدية داي الجزائر مصطفى إلى تونس وحملها سي مصطفى بن حمزة سنة 1804م. وهدية أخرى من الحاج مصطفى 1800-1804م باي قسنطينة وذلك: زوج قاطات حوايج متمومين بالحزوم، والشد متاع الرأس، وزوج برانس ملف بالفضة، وزوج قاطات حوايج نسواني أحدهم مذهب والأخر موبر³، وهدية أخرى من باي قسنطينة عثمان باي في 30 رمضان 1218هـ/ 13 جانفي 1804م أرسلها صحبة محمد خوجة و الدهماني و الجليلي، وذلك: زوجين قاطات حوايج متمومين أحدهما موبر والأخر ملف مع 4 بواشي ومثلهم أحزمة، إثنان منهما عمل المغرب، و 4 أحزمة حرير، و 4 برانس تبسية، و 8 بلغات⁴.

6- إستعدادات تونس للتخلص من هيمنة الجزائر:

لما تولى حمودة باشا العرش التونسي في سنة 1782م وجد نفسه أما رغبتين تتعلقان بسياسته المستقبلية مع الجزائر. الرغبة الأولى: وصية أبيه التي تقول: " إن موارد تونس تشبه الرغيف من الخبز يقسم على أربعة قطع تؤخذ منها واحدة، وتعطي للجزائريين القطع الثلاث الأخرى، وذلك حتى يمكن العيش مع أولئك الأقبام الجزائريين المضطربين المريعين". والرغبة الثانية هي رغبة حكام الجزائر في أن يبدؤوا معه من حيث إنتهوا مع أبيه، غير أن حمودة باشا الذي كانت سياسته الخارجية على ما يبدو اتجاه الجزائر لا ترضى بغير الاستقلال⁵ إرتأى لنفسه سياسة حذرة تقضي عدم التصادم في أوقات غير مناسبة ترمي في نهايتها إلى تدعيم سيادة تونس واستقلاله عن الجزائر. ومن تلك السياسات نذكر.

¹ - أ.و.ت، الدفاتر الإدارية والجبائية، الدفتر 275، ص38.

² - أ.و.ت، الدفاتر الإدارية والجبائية، الدفتر 269، ص66.

³ - نفسه، ص7.

⁴ - نفسه، ص7.

⁵ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص383.

أ - بناء التحصينات العسكرية :

ركز حمودة باشا على تحصين تونس عسكريا إستعدادا لأي حرب طارئة قد تندلع مع الجزائر، وفي نفس الوقت الاستعداد للتخلص من الهيمنة الجزائرية المفروضة على بلاده بمقتضى معاهدة 1756م، ومن تلك المنشآت العسكرية التي أقامها حمودة باشا معمل لصناعة البارود في سنة 1787م في تونس العاصمة. ومصنع آخر لصناعة القذائف المدفعية في تونس العاصمة سنة 1795م، ومصنع آخر لصناعة المدافع¹، وإقامة أبراج المراقبة كبرج مدينة جربة الذي أسسه في 1795م، وآخر في حلق الوادي في 1797م، وإقامة الأسوار كسور مدينة تونس سنة 1802م، وقبل ذلك شروعه في إقامة سورين أحدهما في باب سويقة والآخر في باب الجزيرة وذلك منذ سنة 1797م².

ب- الاعتماد على الجوسسة :

ومما تجدر الإشارة إليه أن حمودة باشا، وفي إطار سياسته الرامية للتخلص من داي الجزائر، شرع في الاعتماد على نشاط الجوسسة والعيون العاملين داخل الجزائر، وكذلك على استمالة وكلاء الجزائر³ بتونس إلى جانبه، وقد نجح في الأمر بنجاح ملحوظا. فقد أسس حمودة باشا في المرناقية مركزا للتجسس على الجزائر⁴ وعلى أحوال رسل الجزائريين، واستكشف أسرار جوسستهم، أما فيما يتعلق بوكلاء الجزائر بتونس، فقد أهدى لأحدهم جارية حسناء تبين فيما بعد أنها كانت جاسوسة لحمودة باشا، وكانت تقوم بمهمة دقيقة هي إختلاس مراسلات حكومة الجزائر من بيت الوكيل ومدّها من ثقبه لرجل يجلس في غرفة مجاورة فينسخها في الحين ويردها للجارية وهي تضعها في محلها. وبذلك كان حمودة باشا يطلع على أسرار حكومة الجزائر تجاه تونس، ومن أولئك الوكلاء أيضا الحاج محمد البرادعي الذي إستماله حمودة باشا إلى أن صار نصيرا لتونس لا يخفي شيئا عن الباي من المراسلات وتعليمات داي الجزائر لسنتين طويلة⁵، وقد بلغت ثقة حمودة باشا بذلك الوكيل أن بعثه في مهمة إلى الجزائر في 24-10-1795م⁶ وبواسطته توصلت الجزائر كما تقدّمت الإشارة إلى هدنة مع الو.م.أ.

ج - الزيادة في عدد الجند : (الاستكثار).

منذ وفاة علي باي في تونس وتولي ابنه حمودة باشا الحكم على العرش التونسي سنة 1782م⁷، عمل على الإستكثار من الجند الأتراك الذين تناقص عددهم في عهد والده بحيث بات لا يتجاوز ألفين، فأخذ عددهم في

¹ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص215.219.

² - الإمام رشاد، الجيش في عهد حمودة باشا (1782-1814) مجلة الدفاع، وزارة الدفاع التونسية، أعمال ندوة بعنوان تاريخ الجيش التونسي من العهود القديمة إلى عهد التحول، ط2، جويلية 1998، ص77.

³ - أطلقت عدة تسميات على وكلاء الجزائر بتونس في هذه الفترة منها القنصل الجزائري بتونس ومنها القائم بأعمال الجزائر بتونس للمزيد ينظر :

E.Plante,Op.Cit.V2,p478.

⁴ - الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء افريقية، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1323هـ، ص136

⁵ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص384.385.

⁶ - جيمس ليندر كاثكارت، مصدر سابق، ص221.

⁷ -P.Arthure, histoire de la tunni,Op.Cit - p.153.154.

عهد حمودة باشا في التزايد حتى أصبح 9000 جندي في سنة 1811م¹، أما الجديد في سياسة حمودة باشا هو تقوية الجيش بعناصر معظم أفرادها تونسيين من خلال العمل على توطيد التشكيلات التونسية التي كانت موجودة، وتقويتها والإعتماد عليها بدل جند الترك، وقد نفذت هذه السياسة في هيآت عديدة من أقسام الجيش وحتى في قسم المتطوعة²، ومن ذلك أنه وجه عنايته بكل من الحوالب، والصبايحية³، والمزارقية⁴، فقرّهم وأصبحوا قوة جديرة بالتقدير، ويصفهم صاحب الإتحاف قائلاً: "بمؤلاء دافع أهل الجزائر عن الحاضرة، وطوع العاصي وخافه القاصي"⁵. كما اهتم الباي أيضا بعسكر زاوارة ورجال المخزن الذين كانوا هيئة غير نظامية من عسكر الخيالة. واهتمامه بتشكيلات أخرى كالكراغلة مثلاً⁶.

إن هذه القوة المتزايدة لتونس جعلت القنصل البريطاني كلارك يعلق قائلاً على القوة المتزايدة لتونس: "إن الجزائريين يحسدون قوة تونس المتزايدة في مختلف الميادين العسكرية، وأنهم باستمرار يقدمون إستفهامات للباي حول قوته المتنامية بسرعة، غير أنه يظهر أنه غير مستعد للامتنال والرضوخ"⁷. وقبله في سبتمبر 1796م كان قد لاحظ المبعوث الفرنسي إلى تونس هيركوليس تزايد قوة الباي حمودة باشا قائلاً: "إن باي تونس يعد للحرب ضد الجزائر بهدف التحرر من نيرها ومن سيادة الداوي عليه"⁸.

7- التحالف مع سلطان المغرب الأقصى :

عملت تونس في هذه الفترة أيضا على المضي في تطوير علاقاتها مع المغرب الأقصى ليكون لها سندا عند الحاجة، فكان يتبادل مع حكامه الرسل والسفارات والهدايا، وكانت تونس محطة لكثير من المغاربة ومأوى لبعضهم⁹، ومن بين من قصدها من المغاربة الأمير زيدان، ثم الأمير مسلمة ابن السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل الأول لما كان مغاضبا لوالده، والثاني لما كان مغاضبا لأخيه سليمان، ولما تولّى الأمير زيدان الحكم في المغرب بعد وفاة والده. راسل السلطان العثماني وطلب منه كف الجزائريين في تونس، ما يعني أنه كان متعاطفا مع تونس وأهلها. كما توطدت العلاقات بين سليمان الذي تولى بعد زيدان وبين حمودة باشا¹⁰، وقد بلغت بينهما درجة من التعاون والتنسيق وظهر الأول في تلبية السلطان المغربي طلب حمودة باشا بتزويده بالحبوب التي

¹ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص190.

² - نفسه، ص201.202.

³ - الحوالب : فرسان تونسيون كانوا يلتحقون بالجيش أيام الحرب مقابل مرتب يتقاضونه، انخرطوا في عملهم منذ أول الفتح العربي لتونس ونفس الأمر ينطبق على الصبايحية للمزيد ينظر: محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج1، دار صادر، بيروت، ب.ت، ص132.133.

⁴ - المزارقية: كانوا يقيمون في قبائلهم داخل البلاد وهم فرسان يقضون مرتبا من الجباية التي يدفعها اخوتهم بالقبيلة ويستنفرون وقت الحرب. ينظر :

محمد بيرم الخامس، مصدر سابق، ج1، ص132.133.

⁵ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3-ص85.

⁶ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص203.205.

⁷ - نفسه، ص392.

⁸ -E.Plante,Op.Cit.V3,p304.

⁹ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص398.

¹⁰ - نفسه، ص403.

الفصل الأول : العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من ق18م

كان في أمس الحاجة إليها سنة 1803-1804م، ليتجاوز المسغبة التي كانت تعاني منها تونس في تلك السنة، فسمح له الشراء من مملكته وحملها بمراكب في صنحقه، وفي تزويده بمقدار وافر من النحاس على سبيل الإهداء إستعمله حمودة باشا في صنع ما يزيد عن مئة مدفع¹.

مما سبق نستنتج من هذا الفصل أن العلاقات بين الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي تميزت بالتوتر أحيانا وبالسلم والتعاون بين الإيالتين أحيانا أخرى، فمع بداية النصف الثاني من القرن 18م شهدت العلاقات بينها قيام حرب سنة 1756م والتي انتهت في الأخير بانتصار الجزائى وتكريس السيادة الجزائرية على تونس واستمرار هذه الأخيرة في تسديد الضريبة للجزائر والاعتراف بسيادتها في حين أنه لما وصل حمودة باشا إلى الحكم إنتهج سياسة معتدلة تجاه الجزائر في سنواته الأولى من الحكم، إلا انه مع بداية القرن التاسع عشر بدأ يتطلع إلى التخلص من الهيمنة الجزائرية وتحقيق نوع من الاستقلال لتونس.

¹ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص54.

الفصل الثاني

العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830م

أولا : فرار باي قسنطينة مصطفى ألقليز إلى تونس سنة 1803م

ثانيا : دور حمودة باشا في ثورة ابن الأحرش 1804م

ثالثا : تخلص تونس من الهيمنة الجزائرية 1806-1815م

1 - حرب 1806 بين الإياليين

أ - وقائع الحرب الأولى

* نتائجها

ب - وقائع الحرب الثانية

* نتائجها

2 - موقف الدولة العثمانية من صراع الإياليين ومحاولة الصلح

3 - حملة ربيع 1808م

4 - هدنة سبتمبر 1808م بين الجزائر وتونس

5 - المواجهة البحرية بين أسطولي الإياليين سنة 1811م

6 - الحملتين الجزائريتين البرية والبحرية على تونس سنة 1813م

أ - الحملة البحرية (جويلية 1813م)

ب - الحملة البرية (أكتوبر 1813م)

7 - موقف المغرب الأقصى من النزاع بين الإياليين

رابعا : العلاقات بين الإياليين من سنة 1815م-1830م

1 - الحملات الأوروبية والأمريكية على الجزائر وموقف تونس منها

2 - معاهدة سنة 1817م بين الإياليين

3 - عودة التوتر ما بين 1819م-1821م

- 4 - توسط الباب العالي في إبرام الصلح النهائي بين الإيالتين في مارس 1821م
- 5 - التعاون بين الإيالتين في حرب اليونان 1821م
- 6 - السلام الحذر بين الإيالتين 1821-1825م
- أ - مسألة فرار الجنود الجزائريين نحو تونس
- ب - هجرة قبائل الحدود من الجانيين
- ج- التجاوزات الحدودية
- 8 - موقف تونس من الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827-1830م)

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

في هذا الفصل الثاني سوف يتم التطرق إلى العلاقات بين الإيالة الجزائرية والتونسية خلال الثلاثين سنة الأولى من القرن التاسع عشر والتي تميزت بمحاولة تونس التخلص من الهيمنة الجزائرية. فهل سينجح حمودة باشا في تحقيق ذلك؟

أولاً: فرار مصطفى ألقليز باي قسنطينة إلى تونس سنة 1803م:

واصل حمودة باشا حكمه في تونس مصراً على بقاء علاقاته مع القوى الأوروبية حسنة والحصول قدر الأماكن على الهدايا والإتاوات منها. مما وطد العلاقات بينه وبين القوى الأوروبية ولاسيما مع فرنسا. مما أشعر حمودة باشا بقوته مع الأقوى، وفي تلك الفترة وحتى مع الو.م.أ الدولة الناشئة والمزاحمة للقوى الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط. هذا ما أشعره أكثر فأكثر بالإهانة فيما يتعلق بمعاهدة 1756م، والتي وضعت في نظر داي الجزائر تابعا للإيالة الجزائرية، والتي فرضت عليه دفع الضريبة السنوية التي تحتوي على الزيت وسفينة محملة بمواد متنوعة، وأن يمثل لشروط أخرى كارتفاع أو علو الزاوية التونسية في المدن الحدودية¹، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان مقتل صالح باي قسنطينة سنة 1792م وتعويضه ببايات أقل شأناً منه، وعدم استقرار كل واحد منهم في البايك المجاور لتونس فترة طويلة في صالح حمودة باشا، إذ لم يزعجه أحد منهم، كما كان يفعل صالح باي من حين إلى آخر بمطالب غير معقولة كان رفضها يؤدي إلى الحرب، فكانت علاقات حمودة باشا مع الباي حسين بوحناك (1792-1795) ثم مع الباي مصطفى الوزناجي (1795-1798) ومع مصطفى ألقليز (1798-1803) حسنة وكانت هداياه إليهم والى مبعوثيهم وهداياهم إليه متواصلة.

في صائفة 1802م كان باي قسنطينة مصطفى ألقليز قد جهز جيشاً بإيعاز من داي الجزائر ليُتجه به إلى تونس، بعد أن امتنع حمودة باشا عن دفع أموال للجزائر. فكان رد فعل حمود باشا على ذلك الإجراء تحضير جيش للدفاع عن بلده، خاصة وأن خبر استعداد قسنطينة لغزو تونس أحدث فرحاً وبلبله في مدينة تونس²، فوجد حمودة باشا نفسه مهدداً بغتة بالدخول في حرب ضد الجزائريين، ومضطراً بالتالي إلى حشد جيش ضخم لمواجهة تلك الحرب التي قد تشب بين لحظة وأخرى على طول حدوده البرية مع الجزائر³، وبعد ذلك بقي هذا الوضع بين البلدين مدة تزيد عن السنة والنصف. ثم تعكرت العلاقات من جديد بين البلدين بصفة خطيرة حيث أن باي قسنطينة مصطفى ألقليز إدعى فجأةً وعلانية حقه في ملكية بلاد الجريد التونسية. وهي بلاد خصبة ذات إنتاج كبير من التمر ولها من الضرائب مورد عظيم لباي تونس، ووجه في الموضوع رسالة رسمية لحمودة باشا، وفي تلك

¹ - E.Mercier, Histoire De L'afrique Septen... Op.Cit,p425.

² - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص392.

³ - Rosseau, Op.Cit.p239.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

الأثناء نجح حمودة باشا في إستمالة باي قسنطينة أنقليز إلى جانبه على حساب الداوي¹، ثم إزدادت تلك العلاقة بين البابين إلى حد جعل داي الجزائر يكتشفها ويأمر بإعدام باي قسنطينة، حيث أن هذا الأخير فرّ إلى تونس قبل أن يتمكن رجال الداوي مصطفى. (1798-1805م) من تنفيذ الأمر.

ثانيا : دور حمودة باشا في ثورة ابن الأحرش 1804:

تميزت فترة حكم باي قسنطينة عثمان باي (1803-1804م) بحدث هام ألا وهو هجوم الشريف ابن الأحرش الدرقاوي² على قسنطينة سنة 1219هـ/1804م، وهو رجل مغربي يزعم أنه من شرفاء ملوك فاس³، فمن 10-20 جوان 1804م أعلن الجهاد للقضاء على سلطة البايلك وتأسيس حكومة تقوم على المبادئ الإسلامية، وأمر أتباعه بالتوجه للإستيلاء على قسنطينة مركز بايلك الشرق⁴ بجيش قوامه 10.000 جندي وتوجه به إلى قسنطينة⁵، مستغلاً في ذلك غياب واليها عثمان باي الذي كان في مهمة لجمع الضرائب بناحية سطيف، ولما سمع به عجل بالدخول إلى قسنطينة وجمع عسكرياً عظيماً وخيلاً كثيراً وخرج لملاقاته بوادي أزهور⁶. أما فيما يخص دور حمودة باشا في إشعال ثورة الدرقاوي بالشرق الجزائري. فقد برز بشكل واضح بعد دعوة ابن الأحرش من الحج، إذ في طريق عودته صادف عند مروره بالقاهرة نزول الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بوناپرت⁷ بالإسكندرية و استيلائه على القاهرة، وقد شارك ابن الأحرش في مقاومة الجيش الفرنسي بعد التدخل الإنجليزي والانسحاب الفرنسي وعودة مصر إلى نطاق الإمبراطورية العثمانية، فقفل ابن الأحرش راجعاً إلى بلاد

¹ - كان مصطفى القليل قد عزل من منصبه ووضع تحت الإقامة الجبرية مدة، ثم فر إلى تونس والتحق بجمودة باشا وكان سببا في إندلاع الحرب بين الجزائر وتونس.

² - تتحدث معظم المصادر والمراجع على أن الشريف ابن الأحرش رجل في مقتبل العمر، طويل القامة، أشقر اللحية، في غاية الصحة، يتصف بالحيلة والطموح والمكر ويشتهر ببلاغة أسلوبه في الحديث وفصاحة لسانه في مخاطبة الناس، ويتميز عن غيره بسعة أفقه وشجاعته وقدرته على الإقناع، ويمكن تقسيم حياة ابن الأحرش إلى ثلاث مراحل، الأولى إنتقل أثناءها إلى المشرق لأداء فريضة الحج، والثانية تزعم خلالها الثورة بالشمال القسنطيني ضد حكم البايات، والثالثة إنتهت باختفائه وموته بعد أن تعرض لمتابعة الحكام ومعاودة زعماء العشائر الكبرى المتعاملة مع بايلك قسنطينة. ينظر: ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 170.171.

³ - أحمد ابن المبارك ابن العطار، مصدر سابق، ص46.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ج2، ص 173.

⁵ - محمد الصالح ابن العنتري، مجامع قسنطينة، صخ. رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص30.

⁶ -E.Vayssette, Hystoire De Derniere Bey De Constantine, Presentation Abderahmen,Rebahi,Alger,2005,p52.

يقع وادي زهور بين جيجل والقل، وهو واد مشهور بكثرة أشجاره وتشعب طرقاته .

⁷ - إمبراطور فرنسا ما بين 1804-1814م. فبعد قيام الثورة الفرنسية سنة 1789م والاضطرابات التي شهدتها فرنسا ما بين 1789-1795م. عينت الجمعية التأسيسية "حكومة الإدارة" في سنة 1795. والتي إنتهت بانقلاب بوناپرت سنة 1799على إثر عودته من الحملة على مصر فنصب نفسه قنصلاً أولاً ومدى الحياة، وفي سنة 1804م نصب نفسه إمبراطوراً باسم نابليون الأول، وتميز حكمه الذي دام إلى 1814م بالحروب النابليونية التي قادها خاصة ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بروسيا والنمسا)، وضد إسبانيا وروسيا، وأصبحت إمبراطوريته تمتد عملياً من بحر الشمال إلى الأدرياتيك، وسقطت تلك الإمبراطورية بدخول القوات المتحالفة إلى فرنسا وإجبار نابليون على التخلي عن العرش. ينظر: عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، ج4، بيروت، ص510.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

المغرب مع جماعة من الحجاج، فنزل تونس وتعرف على حاكمها حمودة باشا الذي استقبله وأكرم وفادته، وحاول إستغلال طموحه وشجاعته، فأوعز له بالثورة على الحكم التركي بالجزائر ووعدته بالعون والمساعدة¹. ويروي لنا الشريف الزهار قصة ابن الأحرش مع حمودة باشا قائلاً: "وبلغ خبره لأمير تونس يومئذ حمودة باشا، فبعث له واستقدمه فعظمه وشكر صنيعه، وأحسن إليه لكي يؤنسه، وكانت عند حمودة باشا دسيسة في خاطره على ملوك الجزائر ولم يظهر لهم ذلك خوفاً منهم والتزاماً لوصية أبيه على أبي عندما حضرته الوفاة"²، ثم إن حمودة باشا إستدعى في أحد الأيام ابن الأحرش ووسوس له قائلاً: "إن رجلاً مثلك شجاع يجب أن يذهب إلى ملك الترك بالجزائر وينزعه من أيديهم ونحن نمدك بما يخصك والعرب يتبعونك لكثرة ماظلمهم الأتراك..."³.

ويبدو واضحاً وجلياً من خلال كلام الشريف الزهار أن الباي حمودة باشا لما كان بينه وبين أترك الجزائر من ضغينة، لعب دوراً في تحريض ابن الأحرش على الثورة ضد الحكم القائم في الجزائر، إنطلاقاً من بايلك الشرق المجاور للإيالة التونسية لإضعاف الجزائر وشغلهم عنه.

ثالثاً: تخلص تونس من الهيمنة الجزائرية 1806-1815 م :

إلى غاية سنة 1806م حالف الحظ حمودة باشا كثيراً في الكيفية التي عالج بها النزاعات التي كانت تنشب بينه وبين الدول الأوروبية وما أوجده لها من حلول، فكان فخوراً بالسياسة التي كان يتبعها مع حكومات هولندا والسويد و الدانمرك وإسبانيا و و.م.أ. وكان يشعر بالثقة فيما كان يتمتع به من سلطة نافذة، بيد أنه كان يشعر في الوقت نفسه بإذلال جارج من قبل إيالة الجزائر، هذه الجارة الملحاحة في مطالبها دوماً، والمتسمة بعلاقاتها مع التونسيين بالازدراء والإستخفاف، وكانت بعض الشروط التي فرضتها الجزائر على إيالته تثير في نفسه غبناً ما بعده غبن ومذلة⁴، أرغمته على دفع الضريبة⁵ وإرسال شحنتين من زيت الزيتون سنوياً إليها كانت تخصص لإنارة مصابيح مساجد الجزائر، وهو تقليد يعود إلى سنة 1756م⁶، ومنها إلزام دايات الجزائر إيالة تونس بتقصير طول صاري أعلامها عند رفعها على مباني المدن والمعسكرات والحصون والقلاع التونسية، بل إن رواية أخرى تذهب إلى أن أترك الجزائر كانوا يجبرون تونس على ألا يتجاوز مكان علمها منتصف السارية ارتفاعاً، ومنها أيضاً أن تونس أجبرت على هدم تحصيناتها القائمة على حدودها مع الجزائر. وهي التحصينات التي أنشئت في سنة 1756م بين الإيالتين.

¹ - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ج2، ص171.

² - تلك الوصية القائلة "...العشر والخراج الذي تقبضه أعط بعضه للجزائر، وبعضه لمصاريف المملكة وبعضه لتعيش به، وإياك أن تجعلهم أعداء". ينظر أحمد الشريف الزهار: مصدر سابق، ص 85.

³ - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص85.

⁴ -Rosseau, Op.Cit.p252.

⁵ - E.Mercier,Histoire De L'afrique Septen...Op.Cit,p468

⁶ -Rosseau, Op.Cit,p253.

1- حرب 1806م بين الإيالتين :

لقد حصل تحول جذري في سياسة حمودة باشا تجاه نظام الجزائر إذ أصبح منذ سنة 1804م يظهر رغبة في الإستقلال عنه، لكن دون العمل على إستفزاز دايات الجزائر ودون التخلي عن سياسة التسليح والإعداد للحرب متوقعة مع الإيالة الحارة، فبعدهما نجح في إستمالة باي قسنطينة مصطفى أنجليز¹، ودعمه لابن الأحرش وتحريضه على الثورة ضد الحكم القائم في الجزائر. شرع حمودة باشا عندما أحس بقدرته على مجابهة النظام الجزائري في التحضير للحرب، فنراه يثور على رسول الجزائر الذي حل بتونس لتبليغه الرسالة الرسمية من داي الجزائر في قضية منطقة الجريد ويطرده من مجلسه قائلاً له : " ... لولا أنك رسول والرسول لا تقتل لقتلتك، ولكن اليوم إن لم تخرج من البلاد لأقتلتك ... وأمر بإخراجه من دار الضياف وبعد ذلك عزل وكيل الجزائر ثم أطلق لسانه في شتم الجزائريين وأمر الحكام العاديين وقضاة تونس بالحكم في حق الجزائريين مثلهم مثل سائر الناس بعدما كان لهم حكام خاصون بهم².

ومما زاد من غضب داي الجزائر على حمودة باشا، هو إقدامه على إيواء مصطفى أنقليز باي قسنطينة المخلوع برفقة ابنه علي ووعدته بالإعادة لولايته. ما زاد في إغاضة داي الجزائر، وكان رد فعله هو إرسال المزيد من البقر والمواشي لتباع في تونس بأسعار عينها الدايا مسبقاً وكان ذلك " ... بصيغة صريحة في الإمرة على غير الأسلوب الذي أعتد منهم. من لطف الخطاب³، فأنف حمودة باشا من تلك بالاهانة وجمع رجال دولته واستشارهم وتم الاتفاق على أمرين : فالأول هو إرجاع الحاج مصطفى أنجليز " لحل ولاية قسنطينة والأمر الثاني هو : بيع البقر الجزائري في السوق بشهادة عدلين وكذلك أن لا يمنع أحد من بيع بقرة في خلال المدة... " ويورد لنا ابن أبي الضياف رد حمودة باشا على داي الجزائر فيما يتعلق ببيع البقر الجزائري قائلاً : " إن البقر أمرنا ببيعه على يد عدلين ويجمع من ثمنه كذا وتولى قبضه رسولكم بأمرنا. وإن أرسلتم بعده شيئاً للبيع فليكن خطابكم في ذلك لوكيلكم، وحاله في ذلك كعمامة أهل البلد من غير فرق، وقد كنا نرى أن فعلنا معكم سابقاً إنما هو ثمرة محبة، و حيث رأيتموه واجبا فلا نسلم هذا الوجوب"⁴.

بعد هذه الحادثة أمر حمودة باشا بقطع جميع أنواع الهدايا والعطايا التي كانت تقدم إلى داي الجزائر، وأوقف النفقات التي كانت تصرف للجزائريين بتونس، ليس هذا فقط بل أمر برفع راية تونس عالية فوق القصبية بالعاصمة، وبخاصة على الحدود التونسية الجزائرية، وفي كل مكان، كما أمر بالكف عن إرسال شحنات زيت الزيتون إلى الجزائر⁵، لقد أورد الفونسو روسو ثلاث ملابسات كان لها الدور الرئيسي في التعجيل نحو القطيعة بين

¹ - كان مصطفى أنقليز قد فر إلى تونس برفقة ابنه علي ومعهم 14 نفرا فوصل إلى ميناء حلق الوادي يوم الاثنين 14 ذي القعدة 1220هـ (8 فيفري 1806م فأكرمهم حمودة باشا وأحسن استقبالهم ينظر (أ.و.ت، الدفتر 175، ص 97) .

² - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 393.

³ - احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 3، ص 40.

⁴ - نفسه، ص 41.

⁵ -Rosseau, Op.Cit,p253.

الإيالتين، فقد كان لبعض الرعايا التونسيين مراسلات سرية مع باي قسنطينة فوقعت رسالة منها كان قد بعثها إليه أحدهم في يد حمودة باشا وكان فحواها أنه كان يجري تدبير مؤامرة خفية هدفها تأليب عدد كبير من قبائلها ودفعها إلى خلع طاعته والدخول في طاعة جاره داي الجزائر، وتم في الحال القبض على المتآمرين وصدر الأمر لمسلمي قسنطينة بمغادرة الإيالة حالا، ولم يلبث أن أعقب هذا التصرف الحازم إحداث زيادة كبيرة في أعداد قوات الجيش التونسي، وهو إجراء تم اتخاذه بناءً على نصيحة باي قسنطينة السابق الحاج مصطفى أنقليز. والذي تعهد باستمالة جانب كبير من سكان قسنطينة. ودعوتهم إلى العمل تحت راية حمودة باشا. بمجرد قيام القوات التونسية باختراق حدود هذه المقاطعة الجزائرية، ثم أتخذت خطوة أخرى تمثلت في تحسين دفاعات مدينة تونس ومرسى حلق الوادي، وتزويد مدينة الكاف بما يكفي من قطع المدفعية، ومما زاد في غضب داي الجزائر، هو ذلك الأمر الذي أصدره حمودة باشا بتطبيق عقوبة الضرب بالفلقة على عدد من الرعايا الجزائريين، وكان هؤلاء ينتمون إلى عمالة قسنطينة ويعملون في تجارة القوافل، وذلك لمبالغتهم في إساءة معاملة البدو التونسيين عند اجتيازهم للسواحل التونسية بقوافلهم¹.

اعتبرت الحكومة الجزائرية هذه التصرفات المخزية إهانة لها فأعلنت على الفور الحرب على حمودة باشا، إلا أن داي الجزائر أحمد خوجة² كان مشغولاً بالاضطرابات التي اندلعت في بايلك الغرب "وهران" وبالمجاعة التي تعرضت لها بايلكية قسنطينة³.

عندما بلغت العلاقات بين البلدين ذلك الحد من التوتر جمع حمودة باشا رجال دولته ووقع نقاش فيما يجب عمله بشأن الجزائر، واتحدت الكلمة أخيراً على وجوب القتال. فقرّر القطيعة مع الجزائر، ثم أمر جميع الجزائريين بالعودة إلى بلدهم، وكان هدفه من وراء تلك القطيعة هو تثبيت إستقلالية بلاده، ووضع تونس في مأمن من غزو خارجي.

أ - وقائع الحرب الأولى:

اندلعت الحرب عندما ضربت 6 بوارج بحرية جزائرية ميناء حلق الوادي وسدته، ومنعت تحرك الأسطول التونسي التجاري والحربي وأوقفت كل نشاط تجاري خارجي لتونس⁴، قبل ذلك كان داي الجزائر أحمد قد أوعز إلى باي قسنطينة عبد الله⁵ باحتلال تونس. فزحف حتى أسوار مدينة الكاف. مما أثار غضب حمودة باشا، وبعث

¹ - Rosseau, Op.Cit, p254.

² - داي الجزائر في الفترة ما بين 1805-1807م.

³ - أمام الوضع المتأزم في الجزائر، الاضطرابات في الغرب الجزائري والمجاعة في الشرق إكتفى الداوي أحمد في بادئ الأمر بأن أرسل إلى باي قسنطينة القيام بغارات على المناطق المجاورة للحدود مع تونس: ومن ذلك أن عبد الله باي قسنطينة غزا عرش أولاد بوغانم على الحدود التونسية الجزائرية ينظر: أحمد ابن المبارك ابن العطار، مصدر سابق، ص15.

⁴ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص395.

⁵ - باي قسنطينة ما بين 1804-1806م وفي تلك الظروف التي تعكرت فيها العلاقات مع تونس، قطعت العلاقات بين الجزائر وفرنسا فقام الداوي أحمد باشا بإعطاء مراكز القالة للانجليز ليصطادوا بها المرجان بدلا من الفرنسيين، فتأثر سكان بايلك قسنطينة من ذلك لأنّ النشاط كان حيويا مع الفرنسيين أكثر من الانجليز فأحس الباوي عبد الله بذلك، وتخوف من عدم إستجابتهم للتجنيد في حملة تونس، وكتب الداوي في الجزائر بذلك، ويقال

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

وبعث ضده الحاج مصطفى أنقليز، كما تمكنت البحرية الجزائرية بقيادة الرئيس حميدو¹، من غنم ثلاث سفن تونسية بما فيها، وإقامة حصار على ميناء تونس وهو ميناء حلق الوادي خلال الشهر الأول والثاني من سنة 1807²، فكان رد فعل حمودة باشا أن عجل بتحرك حملته نحو الحدود الجزائرية التونسية، وصلت قسنطينة في 24 جانفي 1807م تحت قيادة وزيره سليمان كاهية الكبير، وكانت حملة ضخمة تكونت من 40.000 رجل³ حسب ابن أبي الضياف من الأتراك، والمخازنية، والحوانب، وقبيلة دريد وفرسان من عروش أخرى. حاصرت قسنطينة وتمكنت في البداية من هزم قوات باي قسنطينة وإجبارها على الفرار، وفي هذه الأثناء كان جيش قسنطينة يتألف من 3000 إلى 4000 ألف جندي نظامي يقوده باي قسنطينة.

كانت كل البوادر الأولى تدعو إلى أن النصر سيكون حليف الجيش التونسي، ومن دلائل ذلك ارتفاع الروح المعنوية بين القوات التونسية، وضخامة عددها، وما أبداه أعراب عمالة قسنطينة من إستعداد لمؤازرتهم، زيادة عن سوء الوضع الدفاعي في قسنطينة⁴، ونظراً لأن بعض قبائل الحناشة والأوراس ومجانة، كانت قد وعدت التونسيين بالإنضمام إلى قوات حمودة باشا⁵، وتمكن الجيش التونسي من تحقيق نصراً أولاً في معركة سطح المنصورة في 31-03-1807م. وحسب روسي فإنه كان بإمكان التونسيين الدخول إلى قسنطينة بسهولة، لو توجهوا إليها فور الانتصار ولم يأخذوا في الحركة إليها حتى الغد.

إستمر حصار قسنطينة من قبل الجيش التونسي مدة شهراً كاملاً يرميها بالبونية⁶، وكان سليمان أثناءها يطلب المدد من تونس ولا سيما المدفعية الثقيلة التي كانت تنقصه وتلزمه لإحداث ثغر في سور مدينة قسنطينة⁷، وقد استجاب الباي حمودة باشا لطلبه فأرسل إليه مدد، ومع المدد مصطفى أنجليز الباي السابق لقسنطينة. على أمل الاستفادة من العناصر الموالية له في مدينة قسنطينة، لكن النتيجة كانت عكس ما أراده. حيث تسبب وجود

أن زوجته بنت حسن باي أثرت عليه في موقفه وتخوفه، وشاع بين الناس أنها تتدخل في إدارة البايلك وتتحكم في سياسة زوجها وسلوكه، وعندما وصلت أخباره إلى الداوي بالجزائر غضب عليه وأمر بعزله وإعدامه سنة 1806م، وكان عبد الله باي قبل نشوب الحرب مع تونس اشتغل بأمر الناشر ابن الأحرش. ينظر: E.Vayssette, Histoire De Constan... Op.Cit.p169.170.

¹ - الرئيس حميدو: من أعظم أمراء ورياس البحر الذين عرفتهم إيالة الجزائر في نهاية القرن 18م وبداية القرن 18م، عشق البحر والتحق بالبحرية الجزائرية وعمره 13 سنة إلى غاية أن رقي إلى رتبة أمير البحر، فاستطاع أن يستولي على العديد من سفن الدول الأوروبية في حوض البحر الأبيض المتوسط لاسيما البرتغالية والأمريكية هذه الأخيرة التي جهزت حملة ضد الجزائر سنة 1815م، وخلال معركة اشتبك فيها مع أسطول و.م.أ فقد فيها الرئيس حميدو حياته وذلك بتاريخ 17 جوان 1815م.

² - Rosseau, Op.Cit,p255. والإمام رشاد، مرجع سابق، ص395.

³ أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص. و: E.Plante,Op.Cit.V3,p470.

وهناك اختلاف في عدد الجيش الذي كان يقوده سليمان كاهية فعند فايسات 50.000 ونفس الرقم عند روسو وعند المبارك 100.000.

⁴Rosseau, Op.Cit,p255.

⁵ - Ibid,p255.256.

⁶ - حسب الزهار الحصار استمر شهراً (الزهار ص 96). ونفس الشيء عند صالح العنتري ص88، ونفس المدة عند دوغرامون ص367. ، في حين أن الفونسو روسو يجعل مدة الحصار شهرين .

⁷ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 433.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

مصطفى أنجليز ضمن الحملة التونسية في فشل التونسيين، ذلك أن قادة الجيش التونسي الذين تبخر حلمهم في رؤية واحد منهم يتسلم الحكم في قسنطينة بقدم مصطفى أنجليز إلى قسنطينة¹ تحاذلوا عندما رأوه وأنهم علموا بطبيعة الحال بأنه في حالة الإنتصار مصطفى أنجليز هو المستفيد²، واعتقادهم أن باي تونس بعثه لتسلم الحكم من جديد فيها لما وعده بذلك. فكان كل قائد يفكر في الانسحاب عقب أول هزيمة أو فشل، وانتقل التذمر إلى كل الجيش³، وعلى الرغم من ذلك قرّر سليمان كاهية استعمال المدفعية الثقيلة والهاون المرسله إليه ضد قسنطينة، قسنطينة، لكن وقبل ذلك علم بقدم مدد هام إليهم من الجزائر يتألف من حملتين الأولى على طريق البر بقيادة الأغا أحمد والثانية عن طريق البحر أنزلتها السفن في عنابة ثم توجهوا برا نحو قسنطينة⁴.

وجد قائد الجيش التونسي نفسه مجبرا على صد المدد القادم ضده من الجزائر، والذي وصل قسنطينة في يوم الجمعة 22 صفر 1222هـ/30 أبريل 1808م⁵. وتقابل الجيشان في اليوم الموالي. فوقع قتال عنيف بين قوات الإيالتين. ليصفها سليمان كاهية قائد الحملة التونسية بقوله: "... حتى فاضت أعين الناس دموعا..."⁶، فكانت الهزيمة في اليوم الأول من نصيب الجزائريين. وفي اليوم التالي انهزمت الحملة التونسية. فكانت النتيجة الهزيمة الساحقة لعساكر الباي⁷، فأجبروا على مغادرة معسكرهم مخلفين وراءهم مدفيعتهم وعتادهم الحربي⁸. ذلك العتاد الذي قضى حمودة باشا سنوات عديدة في صنعه وتجميعه⁹، وإذا أراد الباحث الغوص في أسباب هزيمة التونسيين في هذه هذه الواقعة الأولى بين الجيش فإننا نجد إختلافاً بين المراجع الجزائرية والتونسية والأجنبية في تحد يد أسباب هزيمة التونسيين.

ففي وثيقة موجودة بالأرشيف التونسي وجهها قائد الحملة سليمان كاهية إلى حمودة باشا يشرح فيها أسباب الهزيمة قائلا: "... ووقع بيننا وبينهم شرير الحرب والقتال وفاضت أعين الناس دموعاً... الفوشيك والرصاص فرغ علينا من الحملتين¹⁰، لم يبق عندنا شيئا وخشينا من جميع الجهات من أجل ذلك، والعروبة والعسكر كلهم انقلبوا علينا في مواطنهم والكثير منهم باشر بما تكرهه النفوس، والعلفة لا وجود لها بالكلية ولم يصل لنا منها شيء والمؤونة (كدا) علينا كثيرا والطريق بيننا وبينكم صعب المسلك والشوبانية أخذها العدو قبل أن تصل إلينا"¹¹، فيبدو لنا من خلال هذه

¹- Rosseau, Op.Cit,p257.

²-E.Mercier,Histoire De L'afrique Septen...Op.Cit,p470.

³-Rosseau, Op.Cit,p258.

⁴- أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 96.

⁵- يجعل ابن أبي الضياف تاريخ المعركة يوم 03 ماي 1807م/25 صفر 1222هـ.

⁶- أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، ص 158.

⁷- الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 396.

⁸-E.Mercier, Histoire De L'afrique Septen...Op.Cit,p471.

⁹- الإمام رشاد، ص 396.

¹⁰- وهنا يقصد المثلتين اللتين قدمتا من العاصمة واحدة على طريق البر والأخرى على طريق البحر، هذه الأخيرة بوصولها إلى عنابة أفرغت عساكرها هناك ومنها توجهوا براً إلى قسنطينة.

¹¹- أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، ص 158.

الوثيقة أن أسباب الهزيمة متعددة ما بين الخيانة لبعض القبائل والجنود، بالإضافة وقوع الجيش التونسي بين فكي الحملتين اللتين قدمتا من الجزائر العاصمة. زيادة على ذلك قلة المؤونة واستيلاء الجيش الجزائري عليها. ويرجع أحمد الشريف الزهار سبب الهزيمة إلى ذلك الهلع الذي إنتاب الجيش التونسي بمجرد أن ضرب البارود من ورائهم ، "... لكن أهل تونس سمعوا ضرب البارود من ورائهم فالتفتوا فوجدوا عسكر الجزائر قد لحقهم من الورا. فألقى الله في قلوبهم الرعب فولوا الأدبار، ولما رأى جنودنا المنهزم ذلك، وعلموا أن إخوانهم قد وصلوا من عنابة، تقدموا من جديد إلى المعركة ووقع ما بين المسلمين من القتل وقطع الأذنين والأسر، وفتحت أبواب قسنطينة"¹.

بينما يرجع ابن أبي الضياف الهزيمة إلى سببين إثنين أولهما سليمان كاهية الذي وصفه بأنه مغفل "... كان مغفلا بعيداً عن الحزم، يتوقف في أقل الأمور على المشورة، وأضاع بذلك التوقف فرصاً كثيرة"²، والسبب الثاني إلى قبيلة قبيلة دريد التي فرّ فرسانها من المعركة "... هرب منها بعض فرسان دريد، ففرّ الذي أمامه، والذي أمامه حيث انهزم سليمان كاهية ومن معه بالحملة فلم يسعه إلا الفرار..."³ أما صالح العنتري في تاريخ قسنطينة، فيذكر أن المدد الذي بعثه الداوي إلى قسنطينة، قد وقعت بينه وبين القوات التونسية بطرف قسنطينة مقتلة عظيمة ثم بعد ثلاثة أيام كانت الهزيمة على عمارة تونس ما أعظمها هزيمة من موت عساكرهم وانقسام الناس أرزاقهم وباتت قسنطينة في حكم الجزائر..."⁴.

في حين يذهب روسو إلى أن أسباب الهزيمة متعددة من بينها انضمام مصطفى أبجليز إلى المعسكر التونسي، واعتبر أن ذلك غلطة كبيرة اقترفتها الحكومة التونسية بحيث كان أبجليز قد وعدهم بزعة صفوف الجزائريين عن طريق العملاء، والذي إدعى أنهم متواجدين في قسنطينة ورهن إشارته، ويعتبر المحاولات المتكررة لزعة الجزائريين دون التمكن من تحقيق النصر هي التي اضطرت سليمان كاهية قائد الجيش التونسي يأمر الانسحاب⁵.

ومن خلال التفاسير المختلفة لأسباب الهزيمة نجد أن المراجع التونسية ترجع أسباب الهزيمة إلى الخيانة في صفوف الجنود، في حين ترجع المراجع الجزائرية السبب الحقيقي للهزيمة إلى التفوق العسكري بعد الإقتال العنيف.

* نتائج الحملة : كان من نتائج المواجهة الأولى بين الجيش التونسي والجزائري مايلي :

- خسائر كبيرة في الأرواح فقد قدر روسو أن الجيش الجزائري تمكن من أسر ما بين 500 إلى 600 رجل فيهم المستسلم وفيهم الجريح، أما عدد القتلى فيصفهم بالكثرة بحيث لم تمضي أيام على هزيمة التونسيين حتى وصلت إلى مدينة الجزائر قافلة من أربعين بغلا بها أحمال مملوءة بأذان القتلى التونسيين كرمز للغلبة وتذكّار للنصر⁶، كما تعرض الجزائريون إلى خسائر كبيرة لاسيما في معركة سطح المنصورة.

1 - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص96.

2 - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص42.

3 - نفسه.

4 - محمد الصالح ابن العنتري، تاريخ قسنطينة، مصدر سابق، ص89.

⁵-Rosseau، Op.Cit.p258

⁶-Ibid،p261.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

- غنم الجزائريون معظم عتاد الجيش التونسي والذي قضى حمودة باشا سنوات عديدة في صنعه وتجميعه¹، ويشير ابن أبي الضياف إلى أن ما غنمه الجزائريون في هذه الحملة المدافع والخيول والإبل².
 - عزم التونسيين على قيادة حملة جديدة وإرسالها إلى مدينة الكاف لمواجهة أي هجوم جزائري.
 - ضم الجزائريين للجيش التونسي من الأتراك والذين وقعوا في الأسر.
 - قيام الأسطول البرتغالي بطلب من حمودة باشا بحماية شواطئ تونس من هجوم الأسطول الجزائري³.
- ب - الحرب الثانية جويلية 1807:**

بعد الواقعة الأولى التي انتصر فيها الجيش الجزائري على الجيش التونسي قام حمودة باشا في مدة قصيرة بتجهيز جيش قوامه 18000 مقاتل من زواوة، والأتراك، وذلك للتأثر من الجزائر بعد هزيمة جيشه الأولى أمامها وقرّر الذهاب بنفسه على رأس جيش تونسي جديد، غير أن مستشاره رجب بومرّة عارضه في ذلك وأوقفه بوجوب البقاء في تونس⁴، عندئذ قرّر إسناد القيادة العليا لوزيره يوسف صاحب الطابع الذي تقرر أن يتحمل مسؤولية القيادة العليا للجيش⁵ وفي الجهة المقابلة جهز الداوي الجزائري أحمد حملة كبير أسند قيادتها لابن أخيه الأغا حسن، حسن، ثم بعث إلى باي قسنطينة ولد صالح باي بتجهيز حملته⁶، والتقى الجيشان في الموقع المسمى " سلاطة" على واد سراط⁷ يوم الاثنين 12 جويلية 1807م في معركة عنيفة، كاد النصر أن يكون من نصيب القوات الجزائرية، وقد تمكّنوا من رد التونسيين حتى أوصلوهم إلى محلّتهم⁸، إلا أن تزايد المدفعية التونسية أرغمهم كذلك بالتقهقر نحو محلّتهم أيضاً "الجزائريين"، وبعد يوم واحد من الاستراحة تجدد القتال بين الطرفين يوم الأربعاء 14 جويلية 1807م، لكن الجزائريين لاحظوا عند مغيب الشمس أن قسماً من فرسان حمودة باشا أخذوا مكانا على الجبال بقيادة سليمان كاهية، فاعتقدوا أنهم سوف يقومون قبل حلول النهار بتطويقهم، مما جعلهم ينسحبون إلى بلادهم على عجل تاركين أثقالهم وأمتعتهم⁹ دون أن يكتشف التونسيون أمرهم إلا في آخر الليل، واستشار فرسان فرسان العرب يوسف صاحب الطابع بتتبع الهاربين فمنعهم من ذلك¹⁰، وفي الصباح استولوا على أثقال الجزائريين، ولم يعد الجزائريون وقد هزموا شرّ هزيمة يلقون بالاً لأوامر قوادهم، وأخذوا في مواصلة فرارهم عبر الجبال

¹ الإمام رشاد، مرجع سابق، ص316.

² - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص43.

³ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص399.

⁴ - نفسه، ص396.

⁵ -A.Rosseau, Op.Ci,p262.263.

⁶ - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص97.

⁷ - تقع بين مدينة الكاف والحدود الجزائرية.

⁸ أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص48.

⁹ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص441.

¹⁰ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص49.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

على أمل الإفلات من مطاردة التونسيين لهم، غير أن متعقيهم هؤلاء سرعان ما لحقوا بهم وقد نفذت مؤونتهم وذخيرتهم، فاضطر البعض منهم إلى الاستسلام حيث سقطوا كأسرى حرب نحو العاصمة التونسية¹. وفي وثيقة أخرى في الأرشيف التونسي تشير إلى أن مدة القتال استمرت اثني عشر ساعة ونصف تماما، انتهت بفرار الجنود الجزائريين " حتى أن حكاهم وضباطهم فرّوا هاربين بأنفسهم، طالبين النجاة لأرواحهم واستأسرنا منهم ثمانمائة نفر وهلك من رفقاتهم ما يقرب الألفين شخص والباقي فرّوا هاربين وإلى النجاة طالبين ثم استولينا على جميع جمال وأحمال المحال مع مدافعهم وكورهم وسائر المهمات والأدوات الحربية قدر أربعماية خيمة"². وإذا ما أردنا البحث في أسباب هزيمة الجزائريين في هذه الواقعة الثانية وجدنا الخيانة التي ظهرت أثناء المعركة في صفوف الجزائريين من الباي حسين وفي ذلك يقول الشريف الزهار: "... فلما رأى ولد صالح باي هزيمة عسكر تونس وكانت لهم معه كلمة رجح بحملته وترك الأغا وحده يقاتل بعسكره، ثم أمر جيشه بحمل المحلة وهرب راجعاً إلى قسنطينة، وحسن أغا لم يشعر بذلك حتى بلغه هروب الباي..."³، ولم تقتصر الخيانة من الباي حسين، وإنما أيضاً من قائد الحركة ومن شيخ فرجيوّة مصطفى بن عاشور.

* نتائج الحملة الثانية :

كان لواقعة الحرب الجزائرية التونسية الثانية نتائج أهمها :

- خسائر بشرية ومادية هامة في صفوف الجزائريين، فعدد القتلى تراوح ما بين 600 إلى 700 نفر⁴، بالإضافة إلى المعدات الحربية من مدافع وهاونات وقطع حربية... إلخ.
- حصول تونس على غنائم كثيرة ووقوع عدد كبير من الجزائريين أسرى في يد التونسيين⁵.
- تصميم الداوي أحمد على الثأر لهزيمة واد سراط وإصراره على القيام بمحاولة جديدة لإخضاع تونس لشروط الجزائر، فكلف باي قسنطينة الجديد بالاستعداد لحملة انتقامية في ربيع عام 1808م.
- اكتساب القوات التونسية ثقة في قدرتها على تحقيق التفوق على القوات الجزائرية، واطمئنان الحكام التونسيين على قوة بلادهم وقدرتهم على تحقيق الاستقلال عن الجزائر وتحقيق السيادة التونسية.

2- موقف الدولة العثمانية من صراع الإياليتين ومحاولة الصلح:

عملت الدولة العثمانية باعتبارها صاحبة السيادة الشرعية لإيالات الشمال الإفريقي "أوجاق الغرب" كعادتها على التدخل من أجل فض النزاع بين الجزائر وتونس باعتبار أن ذلك مخالف للشرع وينهك قوى البلدين، خاصة إذا ما علمنا أن الدولة العثمانية في حد ذاتها هي في حاجة إلى تلقّي الدعم من هاتين الدولتين في مواجهة حروبها

¹ - من بين ما استولى عليه يوسف صاحب الطابع من أنقال محلة الجزائريين حسب ابن أبي الضياف: مدافع وسلاح وابل ينظر: احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص49. أما روسو فيعدد تلك الأتقال ب10 قطع مدفعية، 130 خيمة، 4000 بعير ينظر:

A.Rosseau, Op.Cit,p264.

² - أ.و.ت، الصندوق223، ملف384، وثيقة161.

³ - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص97.

⁴ -A.Rosseau, Op.Cit,p266.

⁵ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص445.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

مع القوى الأوروبية، وبالرغم من أن الدولة العثمانية كانت في هذه الفترة في حالة حرب مع روسيا، فقد دأب السلطان العثماني على إرسال الفرمانات الهمايونية إلى تونس والجزائر يأمرهم لضبط النفس وإنهاء النزاعات والخلافات القائمة بينهما، كونهما مخالفة للشرع الشريف ومغايرة لرضى الدولة العلية. ولكنهما تجاهلا تلك الفرمانات واستمرّا يسفكان دماء بعضهما البعض، وكانت الفرمانات الهمايونية تؤكد عليهما بضرورة حل النزاع وإنزال سفنهما إلى البحر للعمل سوياً متحدّين من أجل أسر وإغراق سفن العدو¹.

توصلت الدولة العثمانية في سنة 1808م مع روسيا إلى إيقاف القتال وعقد هدنة بينهما، فطلّت الدولة العثمانية تؤكد على أوجاقات الغرب الاتفاق وضرورة التيقظ ومراقبة الأحداث مراقبة دقيقة، ولتهدئة داي الجزائر أحمد أرسل له السلطان برده مع أمير البحر الوزير سيد علي باشا، إضافة إلى رسالة تحتوي على بعض التوصيات بشأن الانتباه لإنجاح خطواته والإبتعاد عن الخصومات والمنازعات².

3- حملة ربيع 1808م:

استعدت الجزائر وتونس بعد معركة وادي سراط في سنة 1807م لخوض حرب جديدة في ربيع 1808م، تلك الحملة التونسية التي كانت تتألف من 3000 تركي و 4000 زواوي، وقوات أخرى من فرسان القبائل التونسية، بينما كانت الحملة الجزائرية تتألف من قوات كبيرة من الجند الأتراك وفرسان القبائل الجزائرية، وكانت تلك الحملة بقيادة حسين أغا وعلي باي قسنطينة 1807-1808م³، إلا أنّ فتنة قام بها أحمد الشاوش والذي أخذ يدبر في مؤامرة لقتل باي قسنطينة والإستيلاء على منصبه فراقب خروجه إلى معسكره لملاقاة حسن أغا القادم من الجزائر، فكان قد لاحظ استقرار الجيوش خارج مدينة قسنطينة، وقدوم الباي علي وحسين أغا إلى داخل المدينة، للاستعداد للرحيل إلى تونس، فذهب إلى معسكر الجيش بوادي الرمال، وتكلّم مع البعض منهم⁴ فحرضهم على عدم المشاركة فيها والخوف من خيانتها، كما وقع في واقعة وادي سراط، ثم ثار على الأغا والباي فقتلها، وبايعه المتآمرون باياً عليهم، وعزم التوجه إلى الجزائر للإطاحة بالداي واستلام الحكم فيها، وبعث إلى حمودة باشا بعثة من ثمانية رسل، حلت بتونس في مطلع جويلية 1808م وعرضت عليه السلم⁵، إلا أنّ الباي التونسي لم يثق في جدية عروض زعيم قسنطينة الجديد⁶، وفي هذه الأثناء نجح داي الجزائر في إرسال باي جديد إلى قسنطينة اسمه أحمد طوبال⁷ مدعوم بتعزيزات كافية من القوات الجزائرية مكنته في الحال من كسب تأييد

¹ - عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 592.

² - نفسه.

³ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 446.

⁴ محمد الصالح ابن العنتري، مصدر سابق، ص 90.

⁵ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 446.

⁶ - A.Rosseau, Op.Cit,p266.

⁷ - أحمد طوبال(1808-1811): باي قسنطينة في عهده فتحت المفاوضات مع تونس وتم التوصل إلى إبرام صلح بين البلدين وقبل باي تونس أن يدفع المبالغ المالية المطلوبة منه كالعادة، وحكم احمد طوبال بايالك قسنطينة بزرانة ثم تسلط عليه اليهودي بكري وأقنعه بان يبيع له كميات من القمح

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

الأهالي والعسكر، ومن إرجاع النظام والسكينة إلى مدينة قسنطينة وجيشها، وكان أول عمل قام به الباي الجديد هو القبض على أحمد شاوش ثم إعدامه¹.

وهكذا لم تدم حملة ربيع 1808م بين جيشي الإيالتين سوى 15 يوماً، ولم ينتهز حمودة باشا فتنه أحمد الشاوش للإستيلاء على بايلك قسنطينة وضمّه إلى مملكته. وربما هذا ما أنهى حظوظ السلم بين الإيالتين، وهو ما تحقق في السنة نفسها.

4- هدنة سبتمبر 1808م :

بعد تلك الفتنه التي أحدثها احمد الشاوش في مدينة قسنطينة، اعتقد الناس أن الأحداث الخطيرة التي كانت قسنطينة مسرحا لها ستؤدي إلى تواصل حالة الحرب بين تونس والجزائر، غير أن الذي حدث هو أن داي الجزائر بادر بإرسال وفد جزائري الى تونس في شهر شعبان 1223هـ/سبتمبر 1808م، وذلك لأجل التفاوض حول الصلح²، ولم تتعثر المفاوضات ولم تدم طويلا، إذ لم تلبث العلاقات الطيبة أن عادت إلى حالتها، وتم إبرام الصلح خلال شهر نوفمبر من تلك السنة³.

هذا ولا يعرف إن كان الداوي أحمد قد تنازل ولو مؤقتا على كل شروطه السابقة مع الباي حمودة أو بعضها فقط، في مقابل التوصل إلى الهدنة⁴، ومهما يكن عن أسباب الهدنة والشروط المتفق عليها من أجل ذلك، فإنه يمكننا القول أن الحرب المدمرة التي قامت بين الإيالتين في سنتي 1807/1808م والخسائر التي تكبدها كل طرف هي من بين الأسباب الدافعة بالإيالتين إلى عقد السلام والهدنة بعدما أنهكت قوى الجيشين، وبالرغم من ذلك فإنّ الباي حمودة باشا ظلّ حذرا من الجزائر حتى بعد أن وقع سلماً معها.

5- المواجهة البحرية بين أسطولي الإيالتين سنة 1811م :

لم تستطع الجزائر تناسي هزيمتها البرية عند حدودها مع تونس، وبالرغم من أنها سعت لدى تونس لإبرام هدنة معها أفضت إلى حقن الدماء على طول الحدود بينهما، إلا أن الجزائر ظلت مع ذلك تأمل في الإنتقام من التونسيين⁵، فقد أصبح داي الجزائر يركز نشاطه الحربي ضد حمودة باشا على قواته البحرية التي لم تتوقف عن ملاحقة السفن التجارية التونسية في عرض البحار، وحتى في الموانئ مؤثرة بذلك على تجارة تونس الخارجية⁶، ففي ربيع سنة 1226هـ/ماي 1811م طلب الداوي علي من الرايس حميدو المهجوم على جزيرة جربة وأخذها، وقد

خلافا لأوامر الداوي الحاج علي فأمر بعزله وقطع رأسه في فيفري
E.Vayssette,Histoire De 1811م. ينظر: Constan...Op.Cit,p185.186.

¹ -A.Rosseau, Op.Cit,p.256.

² - Ibid,p257.

³ - Ibid,p258.

⁴ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص447.

⁵ A.Rosseau, Op.Cit,p268.

⁶ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص400.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

سافر حميدو بالمرآكب إلى تلك الجزيرة وأرسى بمرساها، وقصف بالكور بزها فهرب أهلها وبقي بها أياما ثم غادرها في اتجاه جزيرة قرقنة¹، وفي رواية أخرى أن السفن الجزائرية بسبب جهلهم لطبيعة بحار تلك الجزيرة غاصت سفنهم في السباح المحيطة بالجزيرة، وتعذر عليهم الخروج منها بسهولة، ولم يتمكنوا من الإفلات إلا بعد 9 ساعات من العمل المضني كان سكان المدينة يصبون عليهم وابلا من الرصاص².

جهز حمودة باشا أسطولا بحريا يتألف من 12 مركبا، وفي مياه جزيرة قرقنة التقى الأسطولان الجزائري بقيادة الرايس حميدو، والتونسي بقيادة الرايس محمد المورالي، وجرى بينهما قتال عنيف بتاريخ 22 ماي 1811م³، تمكن فيه الرايس حميدو بعد 6 ساعات من التغلب على الفرقاطة التونسية وأسرها، وأسر قائدها محمد المورالي⁴، في حين أن السفن التونسية الأخرى تمكنت من الفرار ولم تدركها السفن الجزائرية التي لاحقتها⁵، وفي رواية أخرى لألفونسو روسو يشير فيها إلى أن المعركة البحرية لم تدر في الحقيقة سوى بين فرقاطتي قائدي الأسطولين، وبعد صراع مستميت استمر منذ الظهر وحتى الساعة السادسة مساء نكست الفرقاطة التونسية رايتها مستسلمة، أما بقية قطع الأسطول التونسي فقد توجهت إلى عرض البحر ثم رجعت خلال الليل والتجأت إلى مرسى المنستير⁶. انتهت تلك المعركة البحرية بين البحرية الجزائرية والتونسية بهزيمة الأسطول التونسي، فكانت الحصيلة 41 قتيلا من الجانب الجزائري، أما خسائر تونس فكانت 230 قتيلا⁷، وتعلل المصادر والمراجع التونسية سبب الهزيمة البحرية للأسطول التونسي إلى خذل البحارة التونسيين لرئيسهم محمد المورالي، وانسحابهم من المعركة لأنهم أنفوا من تقديم أرنووطي عليهم⁸.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الباي حمودة باشا بعد هذه الهزيمة البحرية، قام بعزل رياس بحريته ونفاهم عقابا لهم على عدم تعاونهم مع قائد الأسطول أثناء الاشتباك مع الأسطول الجزائري⁹، أما الأسطول الجزائري فإنه دخل

¹ - أرخبيل يقع شرقي البلاد التونسية على مسافة 32 كلم من سواحل صفاقس، كانت محل صراع بين الأتراك والإسبان منذ ق 16م، استرجعها الإسبان ثانيا سنة 1625م. يعيش أهله على الملاحة القرصنة والصيد وتربية الحيوانات وفلاحة الأشجار المثمرة وصناعة النسيج. ينظر: احمد الحمروني، مرجع سابق، ص 131.

² - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 400. و E.Mercier, Histoire De L'afrique Septen... Op.Cit, p479.

³ - البير، دوفال، الرايس حميدو، تعريب، محمد العربي الزبيري، الجزائر، 1972، ص 84.

⁴ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 451.

⁵ - البير دوفال، مرجع سابق، ص 86.85

⁶ - A.Rosseau, Op.Cit, p268.

الأسطول البحري الجزائري الذي شارك في المعركة كان يتألف من ستة سفن كبيرة الحجم واربعة زوارق حربية والقوة التونسية كانت تتألف من 12 سفينة حربية ينظر: A.Devoulx, Le Rais Hamidou, Impremeur Libraire Editeur, Alger, 1859, p108.

⁷ - A.Devoulx, Le Rais Hamidou, Impremeur Libraire Editeur, Alger, 1859, p108.

⁸ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 3، ص 51. الأرنؤوط : وهم سكان ألبانيا.

⁹ - نفسه، ص 67-68.

ويذكر الإمام رشاد نقلا عن صاحب العقد المنضد بأن طريقة معاقبة حمودة باشا للرياس التونسيين الذين خذلوا قائدهم محمد المورالي هي التجوال بهم في الأسواق وإلباسهم لباس النساء وبعد ذلك نفيهم إلى القرى.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

ميناء مكرما، واحتلفت الجماهير بالتصفيق والهتاف للرايس حميدو، وبالغ الداي في الإحسان للرايس حميدو، وليبين له عن رضاه تكرم بتزيين عمامته بوردة كانت في يده¹، وفي شهر جمادى الأولى 1226هـ / جوان 1811م 1811م قام الرايس حميدو على رأس ستة سفن حربية باحتجاز كمية من البضائع التونسية كانت محمولة على متن سفينة إنجليزية وتقدر قيمتها ب53874.60 فرنكا².

بعد تلك الواقعة البحرية الهامة³، ظلت العلاقات مقطوعة بين البلدين وحالة الحرب مستمرة بينهما إلا أنه لم يحدث معارك ذات بال، على الرغم من أن القبائل على الحدود بين البلدين كانت دائمة التحرش ببعضها، وأن عسكري البلدين على تلك الحدود كانا في حالة استعداد دائم تقربا لأي هجوم من أي طرف⁴، ومع ذلك فإن الرغبة في وضع حد لذلك الوضع المتأزم كانت تحدو الجانبين، غير أن الكبرياء الذي كان في الحقيقة الباعث الحقيقي على رفع إيالتيين للسلاح في وجه بعضهما البعض أدت إلى تأجيل وضع حد لهذه الحرب مزيدا من الوقت⁵.

وفي أعقاب تدهور العلاقات بين إيالتيين قام السلطان العثماني محمود الثاني (1809-1839م) باستدعاء وكيل تونس في أزمير محمد عرنبود⁶، واستفساره من قبل القبطان دريا محمد خسرو باشا عن سبب النزاع بين الوجقات وعدم وقوع الصلح بينهما⁷، ثم أصدر خط همايوني⁸ من محمود الثاني بإرسال مبعوث إلى كل من الجزائر الجزائر وتونس لعقد الصلح بينهما، واختار لتلك المهمة عمر أغا باش أغا الأسطول الهمايوني مأمورا لتلك الغاية، وقد حذر السلطان العثماني الوجقين من أنّ من يخالف هذا الخط الهمايوني فإنه لن يقبل هداياهم⁹، كما أخبر وكيل تونس باسطنبول المبعوث العثماني بأن الجزائريين خرجوا بسفنهم قرب سواحل تونس، ويكفونون قد هاجموا جزيرة جربة وحربوها¹⁰.

¹- A.Devoulx,Op.Cit,P 109.

²-Ibid,P107.

³- أمام الضربات التي كانت تتلقاها التجارة الخارجية لتونس عن طريق البحر على يد البحرية الجزائرية ، إهتّم حمودة باشا بتقوية بحريته ليتسنى لها التصدي بنجاح للبحرية الجزائرية، فبلغت وحداتها في نهاية سنة 1812م أكثر من خمسين قطعة. للمزيد ينظر : الإمام رشاد ، مرجع سابق،ص 222.223.

⁴ - الإمام رشاد، نفس المرجع السابق،ص 401.

⁵-A.Rosseau, Op.Cit,p269.

⁶ - أ.و.ت، الصندوق 223، الملف 384، الوثيقة 163،ص1.

⁷ - نفسه.

⁸ - بمعنى أمر أو قرار سلطاني.

⁹ - أ.و.ت، الصندوق 223، الملف 384، الوثيقة 163،ص2.

¹⁰ - نفسه،ص3. تلك الوثيقة كانت بتاريخ 7 جمادى الأولى 1227هـ / 18 ماي 1812م من محمد عرنبود باش وكييل تونس بأزمير إلى حمودة باشا بتونس.

في 24 جويلية 1812م بعثت الجزائر قسما من أسطولها الذي كان يتكون من 19 سفينة من اللنجور¹، مكلفا بفرض حصار جديد على مدينة حلق الوادي، وبالرغم من المظهر العدائي لهذه العملية إلا أن قائد الأسطول الجزائري سعى إلى فتح مفاوضات سلم مع حمودة باشا، وتقديم رسالة إليه في ذلك الشأن مقترحا عقد صلح نهائي مع تونس، شريطة أن تقبل هذه الأخيرة ببعض الالتزامات وعلى الأخص الموافقة على إرسال شحنة من زيت الزيتون إلى الجزائر²، ودفع الضريبة القديمة وهدم قلعة الكاف³، فكان جواب حمودة باشا على ذلك العرض تجسيدا صريحا لكل سياسته تجاه الجزائر، فقد أجاب بأنه يرفض رفضا باتا كل اقتراح يفضي إلى إقامة صبغة ضريبة سياسية، لكن وليبرهن على صدق نواياه في عقد الصلح مع الجزائر قبل بيعت حمولة سفينة زيت كل سنة، بدون اعتبار ذلك في أية حالة من الحالات تكريسا لحق تفوق رتبة أو سيادة لصالح الجزائر، وشرح حمودة باشا بعثته لتلك الحمولة بأنه واجب ديني مادام سيكون ذلك الزيت بقصد إضاءة جوامع مدينة الجزائر⁴. ويبدو أن جواب الباي حمودة باشا على عرض الصلح لم يرقى إلى قائد الحملة الجزائرية الرئيس حميدو، وحسب الزهار فإن هذا الأخير رمى بالكور والبونبة مدينة حلق الوادي فهرب من كان بها ووقع هول كبير بمدينة تونس⁵، وفي طريق عودة السفن الجزائرية إلى الجزائر استولت في طريقها على عدة مراكب للتجار التوانسة⁶.

بعد فشل الحملة الجزائرية البحرية على احتلال تونس في صيف عام 1812م، صمم داي الجزائر على الاستعداد ببعث حملتين الأولى برية والثانية بحرية لأجل احتلال تونس في سنة 1813م، إلا أن الظروف الداخلية للجزائر لم تساعد الداي على الهجوم بحملتين في آن واحد على تونس، وفي هذه الأثناء نجد أن السلطان العثماني أمر بحجز سفن بلدان المغرب⁷، وذلك بعد فشل مبعوثه إلى الجزائر في إنهاء حالة الحرب بين الجزائر وتونس.

6- الحملتين الجزائريتين البحرية والبرية على تونس سنة 1813م :

كانت سنة 1813م هي السنة التي شهدت فيها العلاقات بين الجزائر وتونس واقعتين حربيين بينهما واحدة بحرية في صيف 1813 (جويلية)، والأخرى برية في خريف نفس السنة (أكتوبر)، وهما الواقعتان الهامتان وأخر الواقعتان بين البلدين في عهد حمودة باشا الحسيني (1782-1814م).

¹ - نوع من السفن الحربية الخفيفة والسريعة الحركة.

² - A.Rosseau, Op.Cit,p285.

³ - M.Gaid ,Chronique Des Beys ...,Op.Cit ,p67.

⁴ - A.Rosseau, Op.Cit,p285.

⁵ - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق،ص107.

⁶ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق،ج3،ص58.

⁷ - E.Plante,Op.Cit.V3,p509.

أ- الحملة البحرية على تونس (جويلية 1813) :

في 23 جويلية 1813م قدم إلى مياه حلق الوادي أسطول جزائري مكون من 54 مركبا شراعيا من بينها 25 قاذفة¹ بقيادة وكيل الخرج²، فارتاح حصارا بحريا على الميناء مدة شهر³، وبعد ذلك أفلعت السفن الجزائرية عائدة إلى الجزائر، بعدما فشلت في تحقيق النصر على البحرية التونسية خاصة بعد العطب الذي أصاب السفن الجزائرية ما أجبرها على رفع الحصار، هذا وكانت البحرية التونسية قد حشدت لهذه المعركة البحرية مائة (مئة) من اللنجور⁴، ويعزوا الشريف الزهار سبب الهزيمة الجزائرية في هذه المعركة البحرية، إلى مؤامرة وتحاذل مدبر مسبقا في مدينة عنابة من قبل رياس هذه الحملة البحرية بعدما كان قائدهم (وكيل الخرج) قد وعدهم بقتل المتكاسل عن القتال، وفي ذلك يقول الزهار " ... فلما دخلوا لعنابة نادى وكيل الخرج المذكور على رؤساء المراكب، يجتمعون عنده ليتكلم معهم وكان القبطان حميدوا المذكور مريضا فلم يذهب معهم، فعندما اجتمعوا عنده قال لهم: إننا قاصدون تونس، ويجب علينا أن نكون بمرسى حلق الوادي وندخله بعد ثلاثة أيام ومن تكاسل يقتل"⁵، وإلى جانب ذلك فإنّ التفوق العددي للسفن التونسية كان واضحا (أكثر من مئة)، فما إن نشب الإقتال من أول يوم حتى كانت السفن الجزائرية قد تلقت إصابات في قطع أسطولها مما أجبرها على الانسحاب.

ب- الحملة البرية (أكتوبر 1813م) :

مما كان مقررا من قبل داي الجزائر هو الهجوم على تونس من جهتي البر والبحر، فإذا كانت الحملة البحرية قد فشلت في إحتلال تونس في صيف 1813م، فإنّ الحملة البرية تأخرت إلى شهر أكتوبر من نفس السنة، والسبب في ذلك يعود للأحداث الداخلية التي عرفتها الجزائر ولاسيما تمرد باي وهران الذي رفض أن يشارك بقواته في الحملة على تونس⁶، هذا ما إستغلّه حمودة باشا ليقوم بهجوم مفاجئ على بايلك الشرق (قسنطينة)، لكن نعمان باي⁷ تمكن من صد الهجوم التونسي وإجبار حمودة باشا على الانسحاب إلى داخل الحدود التونسية. بعدما قضى عمر أغا على باي وهران المتمرد وقطع رأسه⁸، زحف بمعية باي قسنطينة نعمان باي (1811-

¹ - Ibid,p113. بينما يشير الشريف الزهار أن عدد المراكب كان 64 مركبا

² - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق،ص108.

³ - A.Rosseau, Op.Cit,p285

⁴ - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق،ص108.

⁵ - نفسه،ص108.

⁶ - رفض باي وهران أبو قابوس الاشتراك في الحملة ضد تونس، فجهز الداي جيشا يتألف من 8000 جندي بقيادة عمر أغا للقضاء عليه مما أجبره على تسليم نفسه في النهاية، فتعرض للتعذيب قبل قتله فعلقته جثته وحشي بطنه بالبتن وأرسل إلى الجزائر، للمزيد عن ثورة صحنق الغرب ينظر:

(عزيز سامح التز،مرجع سابق،ص599 و الزهار، نفس المصدر،ص109. H.D.de Grammont,histoire d'alger .Op.Cit,p479) .sous...Op.Cit,p290.et E.Mercier-Histoire De L'afrique Septen...

⁷ - تولى بايلك قسنطينة سنة 1811م قاد الحملة البرية ضد تونس مع أغا الجزائر.

⁸ - E.Mercier,Histoire De L'afrique Septen...Op.Cit,p481.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

1814م) إلى مدينة الكاف، والتي كان قد وصل إليها يوسف صاحب الطابع في 12 أكتوبر 1813م، وذلك بعد أن ركز إسماعيل كاهية جميع أفراد الجيش التونسي في المدينة وحواليها حسب الأوامر الموجهة إليه¹، وبعد العمليات الأولى بين القوات الجزائرية والقوات التونسية التي لم تكن لصالح الجزائريين، حاول عمر أغا التفاهم مع حمودة باشا على شروط السلام، ولكن هذا الأخير لم يقبلها لأنها مدّلة، واستمرت المناوشات بين طلائع الجيشين²، وما إن حل الليل حتى أحسّ بعض رجال الجيش التونسي حركة عامة غريبة في الجيش المقابل وما راعهم راعهم عند بزوغ الفجر إلى أن رأوا جيش الجزائر في حركة فرار وانسحاب كامل³، وكان ذلك في أواخر أكتوبر 1813م⁴، في حين أن الزهار إنفرد في مذكراته بأنه لم يجري أي قتال بين الجيشين في مدينة الكاف، والسبب في ذلك أن عمر أغا لما وصل إلى الكاف بلغه رجوع الحملة البحرية إلى الجزائر، فعاد هو كذلك دون أن يجري قتال بينه وبين أهل تونس، لأن هدفهم كان القتال بترًا وبحرا لإحضار تونس⁵.

كلّف السلطان العثماني محمود الثاني كبير البوابين بالتوجه إلى الجزائر وتونس لحل الخلاف القائم بين الإيالتين، وقد واجه المبعوث صعوبات جمة، ورغم ذلك لم يتوصل إلى نتيجة مرضية لأن أيّاً منهم لم يستمع لأقواله، فعاد كبير البوابين إلى استانبول، فأمر السلطان محمود الثاني بحجز ومقاطعة الجزائريين وسفنتهم في جميع الممالك العثمانية، وأخبرهم في حال عدم خضوعهم لأوامره فإنه سيأمر الأسطول بالتوجه إلى الجزائر لتأديب العصاة والخارجين عن القانون وقطع رأس الداي المتمرد، فخضع الحاج علي باشا، واستتب السلم بين تونس والجزائر⁶، وقد كان ميل الجزائر إلى السلم بعد فشل حملتها على الكاف ومدينة تونس دون أن يبرم عقد بشأنه، وذلك فيما تبقى من عهد الداي علي والباي حمودة باشا⁷، وقد قرر السلطان العثماني فيما بعد رفع الحظر الذي ضربه على السفن والأملاك التابعة لممالك شمال إفريقيا ورعاياها في 03 نوفمبر 1813م⁸.

¹ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 403.

² - جهز حمودة باشا في هذه المواجهة البرية في مدينة الكاف 40.000 مقاتل منها 25.000 من الفرسان و5000 من الأتراك والزواويين ينظر :

E.Plante, Op.Cit. V3, p510.511.

³ - ابن سلامة، العقد المنضد في أخبار مولانا المشير أحمد، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، تحت رقم 18618، نقلا عن الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 403.

⁴ -E.Plante, Op.Cit. V3, p513.

⁵ - الحاج أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 108.

⁶ - عزيز سامح التري، مرجع سابق، ص 597.598.

⁷ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 456.

⁸ -E.Plante, Op.Cit. V3, p513.

7- موقف المغرب الأقصى من النزاع بين الإيالتين:

كان سلطان المغرب الأقصى مولاي سليمان في حالة تقرب للصراع والنزاع بين الإيالتين العثمانيتين في شمال إفريقيا، ويبدو أن هجوم حمودة باشا على الشرق الجزائري كان لتخفيف الضغط على باي وهران بوقابوس الثائر والرافض للاشتراك في الحملة على تونس، فكان موقفه هذا وديا تجاه حمودة باشا ، وتبين لنا السجلات التونسية المعاصرة لتلك الفترة الموقف المتعاطف لسلطان المغرب مع حمودة باشا بعد رفض داي الجزائر لتدخل الدولة العثمانية، ومحاولتها إصلاح ذات البين، فقد حثّ السلطان سليمان حمودة باشا المهجوم على قسنطينة وذلك لمساندة حليفه باي وهران¹ ، ومّا جاء في هذه الرسالة المؤرخة في 18 جمادى الأولى 1228هـ/18 ماي 1813م من السلطان سليمان إلى حمودة باشا ما يلي : "...فقد فتح الله لكم باب الفتح والظفر بقسنطينة إن شاء الله أعاننا الله وإياكم على نصره الدين، وقمع الكافرين المتمردين وهذا حجة الجزائر لما نبذ كلام السلطان في حقه واجب لم تبق له حرمة (كذا) على من خرج عليه والله أرجو أن يوفقنا وإياكم للعدل والإحسان أمين"².

هذا ويمكن الإشارة إلى أن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس بعد وفاة حمودة باشا في سنة 1814م أنّ يوسف صاحب الطابع الذي أصبح خزندار الباي عثمان (سبتمبر 1814-ديسمبر 1814م)، ظلّ حريصا على ألا يكون هناك خلاف في الأمور العليا للملكة حتى لا تستغله الجزائر التي كان لها أذاتها الصاغية وجواسيسها في حاضرة تونس، بحيث كانت تتقرب أي افتتاح على السلطة بعد حمودة باشا لتنتهز الفرصة وتتدخل في شؤونها³. لما أُل الحكم في تونس إلى الباي محمود في 21 ديسمبر 1814م خلفا للباي عثمان، رغب هو الآخر في إقامة السلم مع الجزائر، لاسيما وأنّ يوسف صاحب الطابع كان قد قضى عليه في 29 جانفي 1815م ، فأرسل الباي الجديد مبعوثين إلى الجزائر للاتفاق بشأن السلام بين البلدين، لكن الداوي علي إشتراط قبول تونس بما كانت ملتزمة به قبل تمرد حمودة باشا، لكن محمود باي كان يود أن يقبل فقط بدفع ضريبة مالية دون الشروط الأخرى .

رابعا : العلاقات من سنة 1815م-1830م.

بوفاة حمودة باشا في نوفمبر 1814م⁴، تولى بعده عرش تونس عثمان باي في 15 سبتمبر 1814م⁵، والذي والذي لم يمكث في عرش تونس سوى ثلاثة أشهر، حيث دبرت له مؤامرة وتم قتله في 21 ديسمبر 1814م

¹ - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، الوثيقة 157.

² - نفس الوثيقة . وللمزيد ينظر الملحق رقم 4، ص 255.

³ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 458.

⁴ A.Rosseau, Op.Cit,p288.

⁵ -k.Chater-Dependance Et Mutations Précoloniales, la Régence De Tunis De 1815-1857-Publication De L'universite De Tunis,1984,p40.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

ليتولى بعده عرش تونس الباي محمود، أما في الجزائر فقد اغتيل الداوي الحاج علي في حمامه في 11 ربيع الثاني 1230هـ/29 مارس 1815م¹ وخلفه الداوي عمر باشا .

ظلت العلاقات بين إيالتي الجزائر وتونس محققة حالة من الإنسجام، إذ لم يعد حكام إيالتين يحرضان شعبيهما ضد بعضهما البعض، فقد استؤنفت بعض العلاقات التجارية البرية والبحرية بين البلدين، وبالرغم من أنّ ذلك التقارب لم يؤدي إلى استتباب الأمن بينهما، غير أنّ حالة الحرب المتواصلة بينهما كانت قد تلاشت وأصبحت إيالتان تتطلعان بثقة إلى صلح قريب، وأبدى الداوي عمر (1815م-1817م) رغبة في التعاون ضد الأعداء المشتركين للبلدين² وهم الأمريكيون وبالأخص الأوروبيين .

وجه داوي الجزائر مبعوثا إلى الباي محمود يعرض عليه مجددا مقترحات الصلح، وكان الداوي عمر باشا يرغب من وراء ذلك إرضاء أعضاء الديوان الجزائري الذين كانوا ساخطين عليه لإقدامه مؤخرا على عقد صلح مع الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت شروط الصلح التي إقترحها الداوي عمر هي:

- قبول تونس بالعودة في علاقاتها مع الجزائر إلى الوضع السابق على الحرب التي نشبت بينهما منذ أيام حكم علي باي الحسيني.

- أن تسدد تونس للجزائر بانتظام الإتاوات المالية التي كانت قد اشترطت عليها إبان تلك الحقبة وأن تسدد كذلك المبالغ المتأخرة منها.

- أن تبادر تونس فورا إلى هدم التحصينات الدفاعية التي شيدتها في مدينة الكاف، وهدم بقية التحصينات الحدودية المتاخمة للجزائر³.

هذا وهدد داوي الجزائر محمود باي بأنه في حالة رفضه لهذه الشروط فإنّه سيعلن الحرب عليه، وسيقوم في الربيع التالي بغزو الأراضي التونسية وسيضرب الحصار مجددا على مدينة تونس نفسها⁴، وكان رد فعل باي تونس هو الرفض والاستعداد للحرب وتجهيز الأسطول التونسي، وإعداده لمواجهة هجوم الأسطول الجزائري المحتمل على تونس، إلا أنّ السلطان العثماني تدخل لحث الجزائر على إنهاء حالة الصراع مع تونس، فمال الداوي عمر إلى التساهل في شروطه للصلح مع تونس، كما يستفاد في ذلك من رسالته إلى الباي محمود بتاريخ

¹ - عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871، الدار التونسية للنشر، ط1، 1972، ص 236. ويشير حمدان خوجة أنّ سبب قتل الحاج علي باشا يعود إلى مؤامرة دبرها له الكراغلة وأنه قتل تحت سبيل وافر من طلقات الرصاص ينظر حمدان خوجة، مصدر سابق، ص137.

² - E.Plante, Op.Cit. V3, p508.

³ - A.Rosseau, Op.Cit. p303.

⁴ - Ibid, 304.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

1816/06/08م، إذ لم يطالبه فيها مقابل الصلح إلا بإرسال الهدايا المألوفة¹، إلا أن الباي التونسي رفض ذلك، بالرغم من أن الداوي عمر لم يهمل شيئا لعقد الصلح مع التونسيين²، وهذا خلافا لما ذهب إليه فاييسات من أن مبعوث السلطان إلى الداوي عمر باشا والباي محمود قد نجح في التوفيق بينهما، حيث تخلى الداوي عمر عن المطالبة بمدم تحصينات الكاف وقبول الباي محمود ببعث ضريبة من الزيت سنويا³.

استمرت العلاقات عدائية بين الداوي عمر والباي محمود، وإن لم نسجل صدامات مباشرة بينهما كما كان في السابق، لاسيما في عهد الداوي الحاج علي والباي حمودة باشا ومما يدل على ذلك ما يلي:

- اعتبار البحرية الجزائرية ميناء تونس في حالة حرب وحصار لتجنب الدول إرسال سفنها إليه حتى لا تتعرض للانتقام منها.

- اعتراض السفن الجزائرية السفن التونسية وأسرها مثل: ما وقع للسفينة التي كان يقودها حسونة التونسي⁴.

- أصبحت الجزائر مأوى للتوانسة الهاربين منها مثل: لجوء محمد بن عمر الشريف من قبيلة ماجر إليها بعد فشل ثورته ضد السلطة الحاكمة في تونس⁵.

- استمرار تونس في مأوى للفارين من الجزائر ومن ذلك استمرارها في إيواء الباي الأسبق لقسنطينة مصطفى الجليلي إلى غاية وفاته في ربيع الثاني 1228هـ/أفريل 1813م في منوبة⁶.

1- الحملات الأوروبية والأمريكية على الجزائر وموقف تونس منها :

في شهر ماي 1815م أبحرت من ميناء نيويورك حملة تحت قيادة الأميرال الأمريكي ديكاتور "decateur"، تتكون من ثلاثة بوارج حربية وسفينة ذات صارتين وثلاث سكونات⁷، وكان الهدف منها هو

¹ - جاء جواب محمود باي على رسالة عمر باشا بما يلي: "لقد كان أجدادنا في السابق يوجهون إليكم الهدايا ، إنهم مجانين ولا يفكرون، أما نحن فلسنا على شاكلتهم، وعليه فسوف لن نرسل لكم شيئا ولو كان ذلك حبة قمح . ينظر رسالة الداوي عمر الى السلطان العثماني في بحوث ووثائق في التاريخ المغربي لعبد الجليل التميمي ، ص251. وينظر أيضا: أ.و.ج، خط همايون ، عدد 31210، سنة 1231هـ، علبة 08.

² - عبد الجليل التميمي، مرجع سابق، الهامش، ص251.

³ -E.Vayssette, Histoire De Constantine, in, R.A,Alger , 1860,p442.443.

⁴ -الحاج احمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص119.

⁵ -عمار بن خروف، مرجع سابق، ص491.

⁶ - احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص58.

⁷ - وليام شالر، مذكرات قنصل أمريكا-1816-1824، تعريب إسمايل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص146-147.

في سنة 1795م أبرمت إيالة الجزائر والو.م.ا. معاهدة سلام تتعهد فيها هذه الخيرة بأن تدفع ضريبة سنوية قدرها 12.000 سلطاني (64.800 فرنك)، وضلت هذه الضريبة تدفع بدون انقطاع إلى غاية سنة 1810م، وبعد توقف الدفع نهائيا في 1811م وقعت الحرب رسميا بين الدولتين سنة 1812م، وتسببت هذه القطيعة في مجيء الأسطول الأمريكي إلى البحر الأبيض المتوسط سنة 1815م ينظر: (A.Devoulx,Op.Cit,P 90)

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

تحرير السجناء الأمريكيين وإلغاء الإتاوة¹، وفي ذلك يقول شارل القنصل الأمريكي بالجزائر (1816م-1824م) أنه بدخول الأسطول الأمريكي البحر الأبيض المتوسط في 16 جوان، إلتقى ببارجة جزائرية في عرض البحر فأسرها، وبعد يومين تم أسر بارجة أخرى ذات صارتين، وتم الوصول إلى عرض البحر المقابل للجزائر²، والتقى الأسطول الأمريكي بالأسطول الجزائري يوم 17 جوان 1815م تحت قيادة الرئيس حميدو وبحراقة التي تحتوي على 46 مدفعا، فبدأ القصف من الجهتين فقتل الرئيس حميدو³، وسقطت حراقة بأيدي الأمريكيين وبذلك قتل قتل أشهر القبودانات في إيالة الجزائر⁴.

أثرت وفاة الرئيس حميدو على الداى عمر الذي تفاوض مع الأمريكيين وقبل جميع شروطهم التي أمْلوها عليه وبدون مناقشة، وتم توقيع المعاهدة الجزائرية الأمريكية يوم 30 جوان 1815م، وبعدها تم عقد الصلح مع الجزائر قرّر قائد الحملة الأمريكية القيام بزيارة إلى كل من تونس وطرابلس⁵، فوصل تونس في 28 جوان وبعد مباحثات مع نوح القنصل الأمريكي في تونس طلب إلى محمود باي دفع مبلغ 46 ألف دولار الذي وافق عليه الباى، وغادرها في 2 أوت متجها إلى طرابلس التي وصلها بعد ثلاثة أيام، وطلب من يوسف باشا القرماتلي دفع مبلغ 30 ألف دولار في الحال تعويضا عن غنائم الحرب التي أعادها للبريطانيين، وفي غضون المفاوضات التي جرت بالليل وافق القائد الأمريكي على تخفيض المبلغ إلى 25.000 دولار شريطة أن يطلق عشرة أسرى مسيحيين⁶. على إثر مؤتمر فيينا المنعقد في شهر نوفمبر 1815م، قرّرت الدول الأوروبية تنفيذًا لمقررات ذلك المؤتمر توجيه أسطول إنجليزي إلى سواحل الإيالات المغربية، بقيادة اللورد إكسماوث⁷، لإرغام هذه الإيالات لوضع حد للغزو البحري الذي كانت تقوم به مراكبها ضد السواحل والسفن التجارية الأوروبية، وبعدها قام أكسماوث بتهديد أعضاء ديوان الجزائر توجه هذا الضابط الإنجليزي إلى تونس لإبلاغ حكومة هذه الإيالة مثلما سبق له وأن فعل

¹- E.Mercier,Histoire De L'afrique Septen...Op.Cit,P 490.

²-وليام شالر،مصدر سابق،ص147.

³ - لفظ الرئيس حميدو أنفاسه الأخيرة وهو على كرسي القيادة في 16 جوان 1815م تحت نيران أحد الأساطيل الأمريكية الذي باغته فطوقه، وكانت مقاومة حميدو مشرفة على الرغم من عدم تكافؤ القوات والتفوق الأمريكي ينظر: (A.Devoulx-Op.Cit-P 88)

⁴- A.Devoulx-Op.Cit-P 96.

⁵ - كانت و.م.أ تواجه صعوبات مع هاتين الإيالتين منذ أوائل 1815م، وذلك لأن كلا من الباى التونسي والباشا الطرابلسي قد سمحا للبريطانيين باسترجاع سفن لهم غنمتها السفن الأمريكية وأخذتها إلى مينائي تونس وطرابلس، و قدم القنصل نوح بتونس والقنصل ريتشارد جونز احتجاجا شديد اللهجة لكل من الباى والباشا لكن بدون جدوى: ينظر: (راي إروين،مرجع سابق،ص205).

⁶ - إسماعيل العربي، مرجع سابق،ص254.

⁷ - اللورد إكسماوث: هو قائد الحملة البريطانية على الجزائر سنة 1816م بصحبة الأميرال الهولندي فان كابلان، ورغم فشلها إلا أنها ألحقت خسائر كبيرة في الأسطول الجزائري.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

مع الجزائر وأزمع أن يفعل مع طرابلس، بأنه بناءً على القرار الذي اتخذته مؤتمر فيينا فإن الغزو قد حرم قطعياً على مراكب الإيالات المغربية الثلاث¹.

قامت بريطانيا بتجهيز أسطول حربي ضد الجزائر لإجبارها على إطلاق سراح الأسرى، وتطبيقاً لمقررات مؤتمر فيينا، فقد ألقع الأسطول من ميناء بورتسموث² في جويلية 1816م، ولما وصل إلى جبل طارق عزز بعدد من الزوارق الحربية وست بوارج حربية تابعة للأسطول الهولندي بقيادة نائب الأدميرال البارون "فاندر كاييلان"، وألقع هذا الأسطول بقيادة اللورد اكسماوث فوصل الجزائر في صباح 17 من نفس الشهر³، وطالب الداى بالرد على مطالبه في ظرف ساعتين⁴، وحسب شالر فإن الداى عمر تصرفاً يتسم بقلة التصميم والحزم ولا يليق بشخصيته عندما سمح للأسطول المشترك البريطاني الهولندي بأن يختار المواقع الملائمة لقصف المدينة⁵، وبعد معركة معركة دامية دامت تسع ساعات إنهمز الأسطول الجزائري، فطالب اللورد اكسماوث مقابل عقد الصلح إطلاق سراح جميع العبيد المسيحيين، وإعادة مبلغ 350.000 دولار كان ملك نابولي وسردينيا قد دفعاه فدية لرعاياهم الذين أطلق سراحهم في أبريل من سنة 1816م كما طالب بتنازل الإيالة في المستقبل عن حقها في استرقاق رعايا الدول المسيحية، وقد سارعت الجزائر إلى قبول هذه الشروط فعاد السلم بين الجزائر وإنجلترا. ومما يجدر بالإشارة أن البارون "فاندر كاييلان" قائد القوات البحرية الهولندية في البحر الأبيض المتوسط، قد قام بدور نشيط وملحوظ في هذه المعركة، وبتنسيق مع الأدميرال إكسماوث أجبر الجزائر على عقد معاهدة سلام مع هولندا، بنفس الشروط التي عقدت على أساسها المعاهدة الجزائرية البريطانية⁶، وعقب معركة الجزائر إتجه القائد القائد البحري الهولندي إلى طرابلس، وعقد مع حكومتها أيضاً معاهدة سلام، وافقت هولندا بموجبها أن تدفع لطرابلس مبلغ 5000 دولار سنوياً على سبيل الضريبة⁷.

¹ - A.Rosseau, Op.Cit,p297.

² - مدينة بريطانية تقع في الجنوب الشرقي لإنجلترا ويلقبها أهلها بمدينة بومي، عرفت تاريخياً بأنها قاعدة بحرية عسكرية للقوة البريطانية نظراً لموقعها الاستراتيجي القريب من فرنسا، ومنها أقلعت الحملة تجاه الجزائر في جويلية 1816.

³ - وليام شالر، مصدر سابق، ص 156.

⁴ - الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 122.

⁵ - وليام شالر، مصدر سابق، ص 156.

⁶ - نفسه، ص 157.

⁷ - إن تعاقب الأساطيل الأوروبية على المياه الجزائرية والتونسية والطرابلسية وإرغامها على البدء في إتباع سياسة تتماشى مع المصالح الأوروبية، يعتبر نتيجة من أهم النتائج التي تمخض عنها مؤتمر فيينا، المنعقد في 1815م، ولقد طفقت توجه أساطيلها البحرية منذ ذلك المؤتمر إلى الإيالات المغربية الثلاث لإرغامها على القبول مزيداً من التنازلات، فطمعت فيها حتى أضعف دويلات أوروبا وأصغرها في ذلك الوقت مثل هولندا والبرتغال وسردينيا ونابولي، وكانت فرنسا وإنجلترا هما المشجعتان لتلك الدويلات للتناول على الإيالات الثلاث. ينظر: (A.Rosseau, Op.Cit.p304.)

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

على أن ما يهنا هنا في مسألة التهديدات الأوروبية والأمريكية للإيالات المغربية الثلاث، وبالأخص الجزائر لاسيما فيما تعلق بتوقيع السلم مع الولايات المتحدة، وحملة اللورد اكسماوث هو موقف الباي التونسي محمود من الحملة المزدوجة الانجليزية الهولندية على مدينة الجزائر في أوت 1816م، وعدم تقديمه لأية مساعدة للجزائر من جزاء تحطم أسطولها من اجل إعادة بناءه من جديد، وكان الشريف الزهار في مذكراته قد أشار إلى قيام كل من سلطان المغرب مولاي سليمان وباشا طرابلس يوسف القرمانلي والسلطان العثماني بمساعدتها على إعادة تكوين أسطولها¹.

2- معاهدة عام 1817م بين الإيالتين :

إن الهزيمة التي منيت بها الجزائر على يد اللورد اكسماوث في أوت 1816م، تسببت في قيام حالة تمرد وعصيان عمت مختلف مدن الجزائر، فاضطر الداي عمر إلى توزيع الأموال على الانكشارية خوفا من نهب المدينة، إلا أن نفوذه بدأ يتلاشى نهائيا وغدا يلقب بالمنحوس²، إلى أن لقي حتفه فقتله الانكشارية في قصره في 8 أكتوبر 1817م³، وعلى إثر ذلك بايع الانكشارية الأتراك علي خوجة دايا للإيالة⁴.

عمل علي خوجة على إقامة علاقات طيبة ومهادنة الدول الأوروبية كي يتجنب مخاطرها، محاولا تفادي الأخطاء التي كان سلفه عمر باشا قد وقع فيها، كما حرص على وضع حد نهائي لحالة الحرب التي كانت ما تزال قائمة بين الجزائر وتونس⁵، فأرسل بعثة إليها تتألف من الحاج يوسف من كبار المماليك، وبعث معه العالم العلامة العلامة سيدي علي بن النيكرو والباش كاتب، فتكلموا في شأن الصلح مع الباي محمود⁶، هذا ولم يعلم الشريف الزهار بنتيجة مفاوضات الصلح قائلا "...وبقي الأمر بينهم سرا لم نطلع عليه ورجع الرسل"⁷، في حين أن روسو أشار إلى أن البعثة الجزائرية وصلت إلى حلق الوادي في 06 أكتوبر 1817م، وبمجرد انقضاء فترة الحجز الصحي (الكارانتينة) شرعت في المفاوضات، حيث أبلغ المبعوث الباي التونسي عن رغبة داي الجزائر في وضع حد للعداء الذي بذر الفرقة بين البلدين، وأضعفهما بين القوى المسيحية⁸، غير أن الذي إنفرد به روسو وهو أن الشرط التقليدي القديم الذي كان ينص على إرسال شحنتين من زيت الزيتون التونسي للجزائر مجانا، لم يعد يفرض على الإيالة التونسية، إذ أن المفاوضات الجزائري قد اشترى بأموال كانت معه شحنة من زيت الزيتون التونسي خصصت لإنارة مصابيح مساجد مدينة الجزائر، ومما نصت عليه المعاهدة ما يلي :

¹ - للمزيد عن تلك المساعدات التي قدمتها المغرب وطرابلس للجزائر ينظر: (الشريف الزهار ، مصدر سابق ، ص 127). وعن المساعدات التي قدمتها الدولة العثمانية ينظر : (وليام شالر،المصدر السابق،ص 159).

² - عزيز سامح الترم، مرجع سابق، ص 612.

³ - H.D.de Grammont, histoire d'alger... Op.Cit, p295.

⁴ - A.Rosseau, Op.Cit.p328.

⁵ Ibid,p329.

⁶ - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 138.

⁷ - نفسه.

⁸ -A.Rosseau, Op.Cit,p330.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

- التعهد بأن لا يُزود القراصنة الجزائريون أثناء مرورهم بالثغور التونسية بمراكبهم بأية مؤن، إلا بعد قيامهم بتسديد أثمانها نقداً.

- ألا تصدر المراكب التجارية التونسية من قبل القراصنة الجزائريين مثلما كانوا يفعلون في الماضي .
- أن يسكن وكيل الجزائر في إحدى الضواحي لا داخل العاصمة التونسية نفسها .
- أن الإيالة التونسية التي عانت كثيراً في الماضي من تطاول باي قسنطينة، مثلما كانت تعاني من جبروت داي الجزائر. لا تنظر تونس لعامل قسنطينة إلاّ على اعتبار أنه من أحد ضباط الجزائر، بحيث أنه إذا ما رغب في مراسلة باي تونس، عليه أن يأخذ في الإعتبار ما يستوجب أن يخاطب به سلطانا من عبارات التقدير، كما أشار روسو إلى مسألة رسم خط الحدود بين الإيالتين قد حلت في إطار هذه المعاهدة¹.

وإذا ما بحثنا في الأسباب التي أدت بكل من باي تونس وداي الجزائر إلى إبرام صلح 1817م وجدنا ما يلي:

- تضرر البلدين من جراء الحملات الأوروبية والأمريكية والضغطات عليهما، من أجل القبول بالشروط المفروضة عليهما فمالا إلى إقامة السلم².

- إدراك داي الجزائر الجديد أن إخضاع تونس بالقوة أصبح صعب المنال، خاصة بعد تحطم الأسطول الجزائري على إثر حملة اللورد إكسماوث، وان هدفه الإستعجالي هو البحث عن كيفية إعادة تكوين أسطول بحري.
- استقبال تونس لعدد من الفارين من قبضة علي خوجة في 26 سبتمبر 1817م، فأحسن الباي التونسي إستقبالهم وإكرامهم وقبلهم كلاجئين³.

- ميل باي قسنطينة محمد شاكر (1814-1815)⁴ المدين بالولاء لعمر أغا إلى التواطؤ مع الباي محمود ضد الداوي الجديد⁵.

هذا وكانت تونس خلال فترة تولي الداوي علي خوجة (1817-1818م) قد استقبلت عدة بعثات قدمت من قسنطينة والجزائر، وكانت تلك البعثات محل الضيافة والتكريم من باي تونس، وهكذا يمكن القول أن العلاقات التي عرفت اللأسلم في عهد الداوي عمر، قد عرفت تطورا ملحوظا نحو حالة السلم والاستقرار في عهد خليفته الداوي علي خوجة، والذي تنازل عن شروط من تقدمه من الدايات (الداوي عمر والحاج علي والداوي أحمد) من أجل إبرام السلام بين البلدين على أسس جديدة.

¹ -A.Rosseau, Op.Cit,p329.

² -عمار بن خروف، مرجع سابق، ص495.

³ - A.Rosseau, Op.Cit,p328.

⁴ باي قسنطينة من سنة 1814 الى سنة 1818م. وللمزيد عن شخصية هذا الباي . ينظر محمد الصالح العنزي، تاريخ قسنطينة، ص96.95. و: E. Veyssettes, Mhammed Tchakeur 1814 a 1818, In.R.A , N°05 , 1861, pp93-113.

⁵ -H.D.de Grammont, histoire d'alger...Op.Cit,p382.

3- عودة التوتر ما بين 1819-1821م :

تولى الحكم في الجزائر بعد الداى علي خوججة، الداى حسين في 01مارس 1818م، ولم يطرأ على العلاقات بينه وبين باي تونس محمود أي تغيير، إذ استمرت العلاقات بين البلدين في السنتين الأوليتين من حكم الداى حسين يسودها السلام وحسن الجوار، فكانت بين الشخصيات الرفيعة من كلا البلدين الهدايا والرسائل والبعثات، وغير ذلك من علامات الصداقة والتفاهم ومما يدل على ذلك ما يلي:

- وجود بعثة تونسية بقيادة سليم خوججة حملت هدايا لرجال الدولة في الجزائر، منهم علي ابن النيكرو وأحد كتاب الدولة الجزائرية، من خلال الرسالة التي بعث بها هذا الأخير إلى محمد العربي في أواسط جمادى الأولى 1233هـ/18-27مارس 1818م¹.

- الرسالة الجوابية من الداى حسين إلى الباى محمود في أوائل صفر 1234هـ/ديسمبر 1818م، وما يستخلص منها أن الباى محمود أرسل إليه مبعوثاً أخبره بازدياد مولود للسلطان العثماني محمود الثاني².

- رسالة من محمد باي قسنطينة (الميلي) 1818م-1819م إلى محمود باشا في تونس في 23 محرم 1234هـ/21نوفمبر 1818م يعلمه فيها أنه استلم رسالته، وعلم منها أن مبعوثاً من الدولة العثمانية وصل إلى تونس ثم توجه إلى الجزائر، وأبلغ باي قسنطينة الباى التونسي أن ذلك المبعوث وصل إلى قسنطينة ومعه الرسالة التي أرسلها إليه³.

وهناك العديد من الدلائل والإستشهادات الأخرى التي تؤكد على حسن العلاقات بين البلدين في بداية عهد الداى حسين، لاسيما خلال سنتي 1818م والنصف الأول من سنة 1819م، إلا أنه ما لبثت العلاقات بين البلدين أن اتجهت نحو التآزم والتوتر بين الجزائر وتونس لا سيما خلال النصف الثاني من سنة 1819م، وإذا ما بحثنا في ذلك وجدنا أن ذلك التوتر يعود للأسباب التالية :

- استلام الداى حسين الحكم في الجزائر ورغبته في أن يكون الصلح مع تونس على شرط أداء الزيت الذي كانت تؤديه تونس للجزائر في عهد الباى علي باشا، ولأجل ذلك تبودلت الرسائل بين الداى حسين وباي تونس محمود، فطلب الأول أن يصالح أهل تونس على شرط أداء الزيت فأجابه الباى التونسي بأن ذلك الشرط (أي أداء الزيت) وقعت لأجله الحروب الشديدة والوقائع العديدة⁴.

- الاعتداءات من قبل بعض القبائل التونسية على بعض الوفود الجزائرية في تونس، وما يؤكد ذلك الرسالة التي بعث بها أعيان مدينة تبسة إلى والي تونس سنة 1234هـ/ 1818-1819م، وهم مصطفى التركي وأحمد

¹ - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، الوثيقة 8.

² - نفسه، الوثيقة 9.

³ - نفسه، الوثيقة 90.

⁴ - أ.و.ت، الصندوق 220، ملف 349، ص 8 من الوثيقة 19.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

الحفاف حول الاعتداء الذي كانوا عرضة له من قبل قبيلة الزغامة التونسية إذ حاصرتهم ومنعت خروجهم من البلد ونهبت وقتلت أفرادا منهم ، ويرجون التدخل لحمايتهم ونفس الأمر ينطبق على قبيلة أولاد بن طالب¹.

- تمادي الباي محمود في اتخاذ مواقف عدائية مخالفة لمواقف الجزائر، فبعد أن قبل بمواقف اللورد اكسماوث 1816م التي رفضتها الجزائر، قبل أيضا في سبتمبر 1819م بمقرارات مؤتمر اكس لاشايل² التي رفضتها الجزائر³. وبحلول سنة 1820م بدأ الوضع يتأزم أكثر فأكثر بين الجزائر وتونس، بالرغم من ذلك الصلح الموقع بينهما في أكتوبر 1817م ، ففي خلال شهر مارس سنة 1820م قامت قوة من الفرسان الجزائريين التابعة لعمالة قسنطينة بالإغارة على الأراضي التونسية المجاورة للحدود، ففسر محمود باي تلك الغارة على أنها توطئة مبيتة لاستئناف وشيك للحرب ، فأمر حوالي الألف من فرسانه بالتوجه إلى منطقة التوترا، وفي الوقت نفسه أصدر الأوامر لإبنه الذي كان على رأس محلته بمنطقة الجريد بالتوجه فوراً نحو الحدود التونسية الجزائرية لحمايتها، غير أن ما حدث أن الجزائريين لم يواصلوا هجومهم، بل انسحبوا مصطحبين معهم بعض الأسرى وقطعانا من ماشية التونسيين⁴، وبعد مضي ثلاثة أشهر (جوان 1820م) وقع حادث آخر زاد من مخاوف الباي محمود تجاه الجزائر، ذلك أن مركبا تونسيا كان راسيا في مرسى الجزائر ينتظر تفريغ حمولته من البضائع التونسية، لكن الجزائريين ماطلوا في ذلك، هذا ما أربك قائد المركب، الذي بدأ في الإلحاح على مطلبه بالسماح له بالإبحار ومغادرة المرسى، غير أنه أحيط في السر بأن الداوي قد أمر بالقبض عليه ومصادرة مركبه، فما كان من الراسي التونسي إلا مغادرة المرسى تحت جناح الظلام خفية، ولما وصل إلى تونس قام بإبلاغ الباي عن كل ما جرى له⁵.

أقدمت البحرية الجزائرية في شهر جوان 1820م على أسر ثلاثة مراكب تونسية محملة بالبضائع في عرض البحر المتوسط بين مالطة وسردينيا وتم اقتيادها إلى عنابة⁶، مما زاد في غضب باي تونس ، حيث أمر بتجهيز تسعة سفن حربية للإبحار ومهاجمة وترصد البحرية الجزائرية في 28 أكتوبر 1820م، فأخذ هذا الأسطول التونسي يتجول بين جزر الباليار الاسبانية وبين مرسى الجزائر، وظلت هناك بدون جدوى إلى غاية نهاية شهر ديسمبر 1820م، ثم عادت إلى ميناء حلق الوادي بتونس على أمل الخروج مرة أخرى في فصل الربيع الموالي لنفس المهمة⁷، في حين أن الشريف الزهار يرى أن الجزائريين استولوا على مركبين لتونس، مركب كان تحت قيادة حسونة ورديان باشي من حلق الواد، والمركب الثاني فيه هدية للدولة العثمانية ودخلوا ابهما ميناء عنابة، ثم أطلقوا

¹ أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، الوثيقة 15.

² - مؤتمر إكس لاشابل 1818م: عهد إلى كل من فرنسا وبريطانيا في هذا المؤتمر القيام بمسعى مشترك لدى القسطنطينية والجزائر لوضع حد لما أحمته أوروبا حرب القرصنة في البحر الأبيض المتوسط، فقامت الدولتان بتسليم مقررات المؤتمر إلى الجزائر في 5 سبتمبر 1819م، إلا أن الداوي حسين رفض التخلي عن حقه في تفتيش السفن الأجنبية ليعرف الصديق منها من العدو. ينظر : (احمد عز ت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية، بيروت، 1970، ص 339-340).

³ - عمار بن خروف، نفس المرجع، ص 502.

⁴ - A.Rosseau, Op.Cit,p.339

⁵ - Ibid,P.340

⁶ - Ibid. et Ernest Mercier- histoire de l'afrique sept...Op.Cit,P512.

⁷ -Ibid,P341.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

سراح أهل تونس ممن كان في المركبين، وأمر ببيع سفينة حسونة ورديان، أما المركب الثاني فقد تم إبقائه على حاله عندما وجد فيه مكاتيب هدية للدولة العثمانية، فأعيد المركب إلى تونس¹، أما ابن أبي الضياف فيشير إلى أن المراكب التونسية كان عددها ثمانية أقلعت إلى الجزائر فردها الرياح إلى حلق الوادي فأرست أمامه². إن هذه التحركات توضح لنا أن العلاقات بين البلدين بدأت تميل نحو التوتر والتأزم خلال سنتي 1820م و1821م. فهل يستمر الوضع على هذا الحال إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م؟

4- توسط الباب العالي في إبرام الصلح النهائي في مارس 1821م:

لم يكن في وسع الباب العالي ألا يكثر للعداء الجديد الذي نشب بين الجزائر وتونس بعد معاهدة أكتوبر 1817م، فقد حرصت الدولة العثمانية على إعادة روح التضامن والأخوة بين النيابتين المتصارعتين، لا سيما إذا ما علمنا أن الوجودين يتبعانها، وهي في أمس الحاجة إليهما لمساعدتها على حروبها مع القوى الأوروبية، لا سيما الحرب اليونانية سنة 1821م.

بادر السلطان العثماني محمود الثاني بإرسال مبعوث خاص إلى كل من محمود باي والداي حسين للعمل على إصلاح ذات البين بين حكومتيهما، وحملهما على إبرام صلح دائم وراسخ بينهما³، فكتب لكل أمير كتابا بذلك⁴ وأوفد إليهما مبعوثا خاصا لإجراء الصلح بينهما، هو الكاتب الخاص للقبودان باشا، فقد وصل هذا المبعوث إلى تونس خلال شهر يناير 1821م، وتوجه إلى قصر باردو مباشرة، وكان له لقاء مع الباي محمود مؤكدا له حرص الباب العالي على سيادته المطلقة على الإيالتين، ملحا على الجزائريين بأن يردوا المراكب التجارية الثلاثة للتونسيين، والتي كانوا قد استولوا عليها سنة 1820م، هذا وقد وجد المبعوث العثماني الرغبة من الباي محمود في إبرام الصلح مع الجزائريين، شريطة أن يقبل به هؤلاء بحسن نية، ثم غادر المبعوث تونس باتجاه الجزائر لإنهاء مهمته فيها، وخلافاً لما كان يتوقعه وجد داي الجزائر مستعدا لوضع تسوية مع جارته تونس⁵، في وقت كانت فيه الأخطار الأوروبية تهدد بلاده، نتيجة لرفضه مقررات مؤتمر أكس لاشايل المتعلقة بحضر القرصنة. بعد ستة أسابيع من مكوثه بالجزائر، عاد المبعوث العثماني من الجزائر برفقة ممثل الداوي حسين المفوض من أجل الصلح إلى تونس، وعلى إثر مباحثات عدة عقدت بقصر باردو مع كل من محمود باي وابنه ووزرائه، تمّ التوصل إلى بنود المعاهدة التي وضعت حداً نهائياً للخصومة بين البلدين، وذلك في يوم الثلاثاء منتصف جمادى الثانية 1236هـ/20 مارس 1821م⁶،

¹ - الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 146.

² - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 3، ص 134.

³ - A.Rosseau, Op.Cit,p340

⁴ الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 146.

⁵ A.Rosseau, Op.Cit,p341.

⁶ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 3، ص 134.

لكن عند روسو الصلح إبرم في 14 مارس 1821م. ينظر: A.Rosseau, Op.Cit.p343: أما عند فايسات أبرم يوم 11 مارس 1821م ينظر

Ernest Mercier, histoire de l'afrique sept...Op.Cit,P512 :

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

على أساس رد جميع ما أخذ للتونسيين¹، وفي وثيقة أخرى في الأرشيف التونسي تم إبرام الصلح بعد إسقاط شرط الزيت "... فاجتمع بقبطان باشا وعرض عليه النازلة وطال بينهما التفاهم بحضرة مبعوثي الجزائر أيضا، وأخيراً انفصلت النازلة على أن يصطحب الوجقان ويسقط أداء الزيت للجزائر ويؤدى بدله خمسة وستون ألف قرش للترسخانة السلطانية، كما تؤدي تونس الهدية كل ثلاث سنوات فتم الأمر السلطاني بذلك..."²، ونادت بإعلانه أفواه المدافع في يومه صباحا ومساء³، فانطفأت نار الفتنة التي كانت بين الفريقين⁴.

ومما تجدر الإشارة إليه أن توقيع الصلح بين الجزائر وتونس، جاء بعد تلك العاصفة البحرية التي حلت بالأسطول التونسي يوم 4 جمادى الأول 1236هـ/7 فيفري 1821م⁵، فتحطم كلياً بما فيه من المدافع والسلاح وآلات الدفاع، كما قضت العاصفة على أكثر من 1500 من رجال البحرية التونسية فكانت كارثة عظيمة⁶، وهو ما تدل عليه عبارة ابن أبي الضياف " وضاع هذا الأسطول بما فيه من المدافع والسلاح وآلات الدفاع وحصل لتونس أمام الجزائر ذل وصغار"⁷.

بعد تلك الكارثة الطبيعية التي حلت بالأسطول التونسي، سعى الباي محمود إلى تعويض ما ضاع له من مراكب عن طريق البناء في تونس والشراء من مرسيليا بفرنسا⁸، بحيث لم تمضي سوى شهور قليلة حتى صار لتونس أسطول صغير ساعدت به الدولة العثمانية في حربها مع اليونان في سبتمبر 1821م.

5- التعاون بين الإياليتين في حرب اليونان سنة 1821م :

كانت قد انفجرت ثورة في اليونان سنة 1820م، وقد انتشرت بسرعة هائلة⁹، ومثلما توقعه الباي التونسي فان الباب العالي لم يلبث أن وجّه نداءً للإيالات المغربية الثلاث لمساعدته في الجهاد ضد التمرد النصراني في اليونان¹⁰، ففي يوم 15 أبريل 1821م جاء أمر من الباب العالي بتقتيل ومذبحة الليونانيين، إلا أن هذا القرار كان له أثر آخر، وهو جعل الثورة نشيطة وشاملة لجميع أرجاء اليونان، فنجح هؤلاء على مستوى البحر، مما اضطرّ السلطان العثماني إلى الإستنجاد بالإيالات التابعة له في شمال إفريقيا¹¹، فوصل مبعوث عثماني إلى تونس

¹ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص134

² - أ.و.ت، الصندوق220، ملف349، ص08 من الوثيقة 19.

³ - أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص134

⁴ - الشريف الزهار، مصدر سابق، ص147.

⁵ A.Rosseau, Op.Cit,p343.

⁶ أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص134.

⁷ - نفسه .

⁸ -A.Rosseau, Op.Cit.p344.

⁹ -Ernest Mercier, histoire de l'afrique sept...Op.Cit,P512

¹⁰ - حسب ابن أبي الضياف فإنه خلال هذه الحرب كاتبت الدولة العثمانية سائر ممالكها الإسلامية في التحريض على حماية الدين وجمع عصابة المسلمين، وكاتب علماءها علماء الإسلام فأتى الباي محمود باشا مكتوب من الدولة ومكتوب من شيخ الإسلام إلى رئيس المجلس الشرعي بتونس محمد بيم وجميع العلماء. للمزيد عن ذلك المكتوب ينظر: أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص135.

¹¹ -Ernest Mercier, histoire de l'afrique sept...Op.Cit,P512.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

قبل نهاية شهر أوت من سنة 1821م¹ طالباً من الحكومة التونسية بأن تعث جميع السفن المتوفرة إلى الشرق للمشاركة في الحرب المقدسة، وفي الأيام الأولى من شهر أكتوبر شكل الأسطول التونسي قلعة للأرخبيل وكان يتكون من ثلاثة سفن غرابية شراعية مسلحة كل منها ب 20 قطعة مدفعية، ومن مركبين ذوات 10 مدافع، ومن إثنين من ذات الصواري، ومن زورق مسلح ب 6 مدافع تحت قيادة مصطفى رايس²، وفي العام الموالي بعث الباي من جديد إلى الدولة العثمانية بحراقتين تمت صناعتهما في مرسيليا لأجل الدولة العثمانية، كما وصل الجزائر مثل ما وصل تونس فأمر الداى حسين بتعمير ستة مراكب وإعطائها ما يخصها من المؤونة وآلات الحرب وعين عليه الحاج علي غرناوط³، هذا وقد انضمت السفن الحربية الجزائرية إلى الترسانة التونسية وعتاد طرابلس ومصر، وشكلت إنقاذ كبير للعثمانيين ومتابعة للقراصنة اليونانيين⁴.

6- السلام الحذر بين الإيالتين 1821-1825م:

عرفت هذه الفترة تحسناً في العلاقات بعد إبرام صلح 1821م، ومما يدل على ذلك ما يلي :

- تبادل الهدايا ومن ذلك الهدية التي قدمتها تونس للجزائر في شعبان 1236هـ/ جوان 1821م لترسل إلى باي الغرب (باي قسنطينة)، واستئناف الجزائر تصدير الحيوانات إلى تونس، فبلغ عدد الصادرات نحو تونس 1100 رأس على يد حميدة بمبلغ إجمالي يساوي 2142 ريالاً⁵.

- إحسان باي تونس لرياس البحر الجزائريين ومن ذلك دخول الرايس عريف إلى مرسى حلق الوادي، وبرفقته سفينة إسبانية غنمها في المحيط وهي معبأة بالسردين المالح، فأدخلت السفينة في الترسخانة لإصلاحها، وحفظ البضائع التي كانت تحملها⁶.

- محاولة كل من الجزائر وتونس إيجاد حل لمشكلة الديون الجزائرية المترتبة على بعض التونسيين، فكانت موضوعاً للعديد من المراسلات بين الداى حسين والباي حسين فيما بعد⁷.

- إعفاء الجزائريين من الحجز الصحي (الكاراتينة) لدى مرورهم بتونس، متوجهين إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وهو ما توضحه الرسالة التي بعث بها الداى حسين إلى الباى محمود في تونس قائلاً "...فالمراد منكم أن تبادروا لهم بالمقصود والمراد وتعجلوا لهم بذلك من غير جعل كراتينة لهم لأجل خاطرنا..."⁸.

¹ -A.Rosseau, Op.Cit,p344

² -Ibid,p345.

³ - الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 148. وعند وليم شالر فإن عدد السفن التي بعث بها الداى ثمانية. ينظر: شالر، مصدر سابق، ص 181. يعد الحاج علي غرناوط من أشهر القباطنة في ميدان القرصنة.

⁴ - أ.و.ج، دفتر خط همايون، عدد 38548، تاريخ 1237هـ. Op.Cit,P512. E- Mercier, histoire de l'afrique sept...

⁵ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 506.

⁶ - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، الوثيقة 71.

⁷ - لدى اطلاعنا على بعض الوثائق الأرشيفية وجدنا أن العديد منها لاسيما في خلال سنتي 1823م و1824 تتحدث عن تلك الديون وهي الوثائق التي تحمل الأرقام التالية: 86.89.91.92.96.97.98 من نفس الصندوق .

⁸ - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، الوثيقة 88.

- تبادل الرسائل بين البلدين فيما يتعلق بالأخطار الخارجية المحدقة بالإيالات المغربية، ولا سيما الجزائر التي كانت تعاني من حصار الأسطول الإنجليزي لها، ومن ذلك الرسالة التي بعث بها الداوي إلى الباوي محمود في آخر جمادى الثانية 1239هـ/29 فيفري 1824م يخبره بوقوع الحرب بين الجزائر والإنجليز، وانتصار الجزائريين فيها، ويطلب منه إتخاذ الحذر من الإنجليز، وإبلاغه بكل ما يصله من معلومات حول تحركاتهم ونواياهم "...ثم المراد منكم أن كل ما يطرق مسامعكم من أمورهم وأحوالهم وحركاتهم وسكونهم وكافة أشيائهم وشؤونهم التي لا تخفى على سيادتكم بالبحث عليها، فاعلموا جميعها وكيلنا محمود بن محمد أمين السكة..."¹.

إلى جانب هذه المظاهر التي تدل على حسن العلاقات بين البلدين في هذه الفترة التي صادفت حكم الداوي حسين مع الباوي محمود 1821م-1824، هناك قضايا أخرى كادت أن توتر العلاقات بين البلدين لعل أهمها : - الخلاف حول حدود منطقة صيد المرجان في الجهة الشرقية من الجزائر، حيث تبودلت الرسائل في شأن ذلك سنة 1237هـ/ديسمبر 1821م، أما الخلاف فقد كان حول حدود منطقة صيد المرجان من الجهة الشرقية الموالية لتونس، وهي مدينة طبرقة إذ اعتبرتها الشركة الفرنسية منطقة جزائرية واعتبرتها تونس منطقة تونسية². - استمرار البلدين في إيواء المناوئين للحكم في كل منهما مثل: إستقبال الجزائر لداعية شر من تونس من أولاد يونس ابن علي باشا، جاء لطلب المساعدة والحماية من داي الجزائر أملاً في إعانته بمحلة لأخذ ملك أجداده³، كما استمرت تونس في استقبال من يلجأ إليها من المتمردين على داي الجزائر وبابي قسنطينة⁴. - استقبال تونس سنة 1825م لأكبر المناوئين للحكم في الجزائر وهو الشيخ أحمد التيجاني، أحد شيوخ الطريقة التيجانية، فقد سافر لأداء فريضة الحج، ثم رجع لتونس⁵، وكان له أتباع كثيرون في الجزائر وتونس⁶، فلما سمع الداوي حسين بعودته إلى تونس، وقد كان يتربص به وبأخيه، فكاتب الباوي يطلب إعتقاله أو إرساله للجزائر فأنف ذلك، فأمن الباوي التونسي ابن التيجاني وخيره بين البقاء في تونس أو العودة إلى الجزائر، ففضل التيجاني العودة للجزائر، فأمن له طريق العودة تحت حراسة عقد من الخيل، وكاتب أعيان قبائل الهمامة وقفصة والجريد وغيرهم ممن يترجمهم في طريق عودته بإجلاله وإكرامه، إلى أن وصل إلى زاويته بعين ماضي بتماسين في أواسط سنة 1240هـ/أوائل سنة 1825م⁷.

¹ أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، الوثيقة 105، وعن تلك الحرب التي وقعت بين الجزائر وبريطانيا ينظر: الشريف ال زهار، مصدر سابق، ص 151. 154. والملحق رقم 9.

² - أ.و.ت، الدفتر 2847، الوثيقة 2، ص 5.4.

³ الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 150.

⁴ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 507.

⁵ - احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 3، ص 156.

⁶ - الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 159.

⁷ - احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 3، ص 157.

أ- مسألة فرار الجند الجزائري نحو تونس :

تعد مسألة فرار الجند من الجزائر نحو تونس، من أبرز القضايا التي تبودلت بشأنها العديد من الرسائل بين الباي حسين في تونس والداي حسين في الجزائر، ففي السجلات التونسية "الأرشيف الوطني بتونس"، العديد من تلك الرسائل المتبادلة بينهما حول هذه المسألة، مع التأكيد على وجوب إرجاعهم إلى الجزائر، هذا دون أن نغفل تلك الفرمانات الصادرة عن السلطان العثماني، والتي تحت كلها على وجوب احترام تعاليم الباب العالي فيما يتعلق بالترسانة العسكرية لكل وجق من أوجاقها في شمال إفريقيا.

ففي سنة 1825م أصدر السلطان العثماني أمرا إلى حسين باي بعدم السماح للجنود الجزائريين الفارين من بلادهم بالإقامة عنده، أو العبور إلى طرابلس ووجوب القبض عليهم وإعادتهم إلى الجزائر¹، وذلك عقب رفض باي تونس بعد أن راسله في ذلك الداي حسين، هذا ما أجبر السلطان العثماني على إعادة التأكيد على ذلك²، وهذا من خلال الرسالة التي بعث بها قبودان دريا محمد خسرو باشا إلى حسين باي تونس في 13 أبريل 1825م/25 شعبان 1240هـ التي يطلب فيها تسوية الخلافات بين الجزائر من جهة وتونس وطرابلس من جهة ثانية، والأمر بعدم قبول الجنود الجزائريين الفارين وتجنيدهم هناك وإنما القبض عليهم وإرسالهم إلى الجزائر³.

لم تتوقف ظاهرة فرار الجنود الجزائريين نحو تونس، وهذا ما يفهم من خلال المراسلات التي ظلت مستمرة بين الجزائر وتونس خلال سنتي 1827م و1828م، ومن ذلك الرسالة التي بعث بها الحاج أحمد باي⁴ إلى سليمان الوزير الأول وشيوخ القبائل في تونس في أول ربيع الأول 1243هـ/21 أكتوبر 1827م، فكان جواب والي تونس بأن بلاده لم تعد لها فائدة ولا مصلحة في رعايا الجزائر عندها، وكان أحمد باي قد كاتبه في شأن أنفجار إعتقد أنهم قصدوا تونس فكان رد القائد سليمان قطيعيا بأنهم لم يأتوا إليها، ومما جاء في ذلك الرد ما يلي: "...فإننا وجقات مصطلحين، لا يمكن أن نترك بيننا واحداً نعلمه هنالك إلا ما غاب عن علمنا وأنتم كذلك"، ومع ذلك فإن أحمد باي لم يصدق تماما أن تونس لم تستقبل أولئك الفارين، حيث رد قائلا: "وأما إن كان فعلكم كقولكم فلا يكون بيننا غدر ولا خديعة ولا مكر، ولا يكون شيء إلا بعد إخبار سيدكم (باي تونس)، وحيث كان جوابكم ما ذكرتم، فإن الأمان والعافية بين الجميع وذلك ما نريده لكل مسلم لا يدخل نفسه في كلف أو فساد⁵، وفي رسالة أخرى تؤكد إزدياد فرار الجنود الجزائريين نحو تونس بتاريخ 23 جمادى الثانية 1243هـ/10 جانفي 1828م، والسماح لهم

¹ أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، وثيقة 1.

² عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 624.

³ أ.و.ت، الصندوق 220، ملف 348، الوثيقة 03.

⁴ أحمد باي : أخر بايات قسنطينة تولى البايك سنة 1826م إلى غاية سنة 1837م للمزيد عن سيرته ينظر: مذكرات احمد باي وحمدان حوجة وبوضرية- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973، من ص 11 إلى ص 102. وكتاب صالح فركوس، الحاج أحمد باي قسنطينة، 1826-1850 ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2007.

⁵ أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، الوثيقة 59. نقلا عن عمار بن خروف مرجع سابق، ص 513. وخليفة حماش، كشاف وثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف التونسي، ص 274. منشورات جامعة الأمير عبد القادر، ط 1، 2013، ص 274.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

بالتوجه نحو الشرق على خلاف قواعد الباب العالي التي تمنع ذلك ، وقد أكد الداوي حسين في هذه الرسالة إلى باي تونس بأنه ألغى الأحمال خوفا من فرار الجند قائلا "...ومنع مرور المحال السائرة خوفا من ميل البعض من العساكر إلى الهروب أيضا وهذه الكيفية ينشأ عنها خلل في نظام الوجع..."¹ ، كما أبدى في الرسالة على أن تحترم الأوجاقات الثلاث النظام الذي كان سائدا من قبل، بحيث يلقي القبض على الجنود الهاربين إلى أي محل وتتم إعادتهم إلى الوجع الذي فرّوا منه بواسطة وكلائهم² ، هذا وقد أجاب الباي حسين على تلك الرسالة في 4 فيفري 1828م/19 رجب 1243هـ بعد أن إستشار الشيخ سي محمود الأصرم باش كاتب وصاحب الطابع ويوسف بن فرحات باش حانبة³ ، فكان جوابهم باتفاق وإجماع للداوي حسين كالآتي:

"...إن وجقنا ووجقهم في غاية الاستواء والصفاء والحمد لله والعافية حاصلة للجميع بفضل الله ولا يسعى أحد

الوجقين في إذابة الآخر وضرره، وإذا قدم أحد من أعيان بلدهم فارا إلى أرضنا من غضبهم عليه واحتمى بحرم وجقنا (كذا) يرضون عليه، ويرجع إليهم كما كان، وإذا كان من غير الأعيان وكان طالبا للمعيشة في بلادنا فلا نعتني بقدمه ولا نسأل عنه، فهذه آداب الأوجاق المستوية أهلها يتمعشون من بعضهم، ومع ذلك إننا ننبه أهل بلادنا أن لا يقبلوا قادما إليهم وليرجعوه من حيث أتى، وكذلك أنتم فإنه بلغنا أن هذا شأنكم على من يفر من بلادنا، وكل من الوجقين حرم لأهل الوجع الآخر كما لا يخفاكم"⁴. هذا وكادت العلاقات أن تتوتر بين الوجقين بسبب قضية الجنود الفارين ، قبل أن يرد الباي حسين على رسالة الداوي، فقد قامت تونس بتحصين حدودها الغربية مع الجزائر⁵ ، لكن وبعد جواب تونس تلطفت العلاقات بين الطرفين، وتكون الجزائر قد أجبرت تونس على تغيير مواقفها تجاه الجنود الفارين إليها وردهم إلى الجزائر.

ب- هجرة قبائل الحدود من الجانبين :

كانت مسألة هجرة القبائل من الإيالتين من القضايا الهامة تسببت في توتر العلاقات بين الجزائر وتونس ، ففي عهد الداوي حسين حدثت هجرة أزيد من تسعين أسرة جزائرية إلى تونس، وقد أشارت إلى تلك الهجرات من الجانب الجزائري الرسالة التي بعث بها أحمد باي إلى الباي حسين بتاريخ 24 رمضان 1242هـ/ 20 أفريل 1827م، إذ طلب فيها إعادة الجزائريين الفارين من قبيلة العوادة، واقترح إرسال موظفين جزائريين إلى تونس لمعرفة أولئك الفارين وتحديد مكان وجودهم وفي ذلك يقول "...إنه من الواجب اللازم إعلامكم بمن هو باق إلى الآن

¹ - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، وثيقة 56.

² - نفسه. وتجدر الإشارة إلى أن المراسلات بين باي قسنطينة وباي تونس تعود إلى سنة 1826م فيما يتعلق بالجنود الفارين، ومن ذلك نص الوثيقة المؤرخة في 10 رمضان 1242هـ/1826م، والتي ذكرت بأنه تم هروب مجموعة من البولداش إلى تونس وصل عددهم ثمانين : ينظر دوبالي خديجة ، رسائل احمد باي الى حسين باشا 1826-1830، رسالة ماجيستر، 2006/2005 جامعة وهران، ص185.

³ - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، وثيقة 55.

⁴ - نفسه.

⁵ -E.Plante,Op.Cit.V3,p508.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

ببلادكم، ومستقرّ في وطنكم من رعيتنا مثل العوادة وغيرهم أزيد من تسعين بيتا، وإن أنكر هذا خدامكم الذين هم بجوارهم فنوجه من عندنا من يقف عليهم ويبينون مكانهم ويميزونهم فلان مع فلان¹.

وكان الداوي حسين قد أكدّ من جهته على عدم السكوت عن القبائل التونسية التي تدخل الأراضي الجزائرية من الزغالمة وأولاد بوغانم وأولاد خيار وبني جريان وغيرهم قائلا "...ولا يمكن السكوت عليهم ونحن أخوة وانبرم بيننا أصدق صلح وأتم محبة ومودة، ونعلم أنك مع علو قدرك وكمال عقلك وحسن خلقك وتمام ودك أنك لا يرضيك ذلك لديك ما هنالك..."².

وفي الجهة الأخرى نجد تونس تطالب بوشتانة وهم فرقة في وطن الحنانشة، وكانوا يؤذون من جاورهم من القبائل التونسية والجزائرية وفي ذلك يقول "...بلغنا جوابكم في شأن وشناتة وهم فرقة في وطن الحنانشة لهم عليهم عوايد من قديم الزمان محسوبون عن رعيتهم جاري عليهم حكمهم مختلطين مع غيرهم كثرت بهم الشكاية وفشا فسادهم وبانت منهم الإذابة"، وتجنبا لما يوتر العلاقات بينهما اقترح احمد باي ردا هذا نصه "...برد كل رعية لمحلله وردعها عن الفرار من مقرها فترجوا بذلك الهنا وبلوغ القصد والمنى، وتكون العافية بين الوطنين وينصلح أمر الوجودين..."³.

ج- التجاوزات الحدودية :

وتعتبر هي الأخرى من القضايا التي تسببت في توتر العلاقات بين البلدين، فإذا كانت هذه التجاوزات تصدر من الجانب الجزائري في عهد البايات والدايات، فقد أخذت منحى آخر في عهد الداوي حسين والباي حسين إذ أصبحت تصدر من الجانب التونسي، ومن تلك التجاوزات نذكر:

- إقدام الباي حسين سنة 1825م على توسيع امتياز صيد المرجان في المياه التونسية⁴ متجاوزا نحو الغرب طبرقة، وحسب روسو فان الباي حسين أثار بذلك الإجراء نزاعا جديدا مع الجزائر ولا سيما مع فرنسا صاحبة امتياز صيد المرجان في مياه القالة، فقد تلقت نبأ توسيع الباي الحدود التونسية باستياء كبير⁵، ومن جهة أخرى نجد الشركة الإنجليزية التي أصبحت تحتكر صيد المرجان في تونس، تحاول وضع يدها على الثروات المرجانية على امتداد سواحل الجزائر المجاورة التي كانت فرنسا تقوم باستغلالها، وحينما قارب العقد على نهايته، قامت الشركة الإنجليزية (تاتشر) ببذل مساع لدى الداوي حسين كي يمنحها عقد الامتياز، غير أن مفاوضاتها معه فشلت تماما، ما جعلها تتطلع إلى فسخ عقد الامتياز كلية .

¹ - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، وثيقة 60.

² نفسه .

³ - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، وثيقة 60.

⁴ - أقدم الباي حسين في أواخر سنة 1824م. على منح امتياز صيد المرجان للشركة الإنجليزية تاتشر لمدة 10 سنوات بعد أن كانت تحتكر فرنسا هذه

التجارة في تونس . ينظر : A.Rosseau, Op.Cit,p367.

⁵ - هذا وقد قامت الشركة الإنجليزية بتوسيع صيد المرجان إلى وادي باب العرق الذي يجري بين جبل روطند والقالة .

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

- اعتداء أشخاص من قبيلة الهمامة التونسية على قرى جزائرية في مدينة تبسة ، وهو ما تؤكد الرسالة التي بعث بها محمد باي (محمد منماني) إلى الباي حسين في ربيع الثاني 1241هـ/نوفمبر 1825م، مطالبا إياه بالعمل على رد ما أخذوه بدون نقصان ودفع الدية اللازمة على الرقاب التي ضاعت¹.

- التجاوزات الحدودية التي قامت بها قبيلة ورغة التونسية ، وهذا ما أجبر أحمد باي على مكاتبة باي تونس في أمرهم ويقترح عليهم إمكانية توظيفهم في الفلاحة في أراضي الحنانشة، ومما جاء في تلك الرسالة بتاريخ 24 رمضان 1242هـ/20أفريل 1827م "...إن ورغة قد تعدوا الحد الفاصل بينهم وبين الحنانشة ، وبهذا السبب يقع بينهم الفساد وإن شئت فابعث من قبلك من يقف على الحد المعروف والرسم الفاصل المألوف ، فإن الكثير والجم الغفير من معشر الوطن يعلمونه ويتحققونه، لكن إن شاء ورغة أن يحرقوا بلادهم بأجر المعروف عندهم بالحكر فيحرقون برضاهم ويودون الحكر على حسب العادة، والطريقة السالفة ومرادنا بهذا سداً للذرايع بأن تنقطع بين الفريقين مادة الهرج والمرج، فلا تقع شكوى ولا تدفع لأحد منهم قصة إن شاء الله..."².

هذا وقد أجاب مصطفى أخ الباي حسين على رسالة أحمد باي قائلا : "...وقوله أن ورغة قد تجاوزوا الحد (كذا) ما وجدنا عليه من قبلنا لم تتجاوزته ولا زلنا باقين على حده، وما نحن موجهون من له خبرة وبصارة بأرضهم ويحدودها ، فإذا وجدهم قد تجاوزوا حدهم ولو بقدر شبر، فإننا نرجعه ونحكم فيهم..."³.

ومن خلال هذه الرسائل المتعلقة بالتجاوزات الحدودية بين قبائل البلدين ، نستنتج أن الإيالتين كانتا تتجنبان الدخول في صراع علني، وفضلا حل هذه القضايا بالطرق الدبلوماسية من خلال تبادل الرسائل المفعممة بعبارات الود والاحترام والتقدير.

8- موقف تونس من الاحتلال الفرنسي للجزائر(1827-1830م) :

لقد أجمعت معظم المصادر والمراجع التاريخية على أن العلاقات الجزائرية التونسية أخذت منحرجا آخر منذ بداية تأزم العلاقات بين الجزائر وفرنسا، وعلى وجه الخصوص منذ حصار الأسطول الفرنسي للسواحل الجزائرية في سنة 1827م ، واستمر ذلك إلى غاية إعلان الحملة الفرنسية واحتلال الجزائر في 05 جويلية 1830م. لقد تعرضت الجزائر إلى حصار بحري إستمر ثلاث سنوات من سنة 1827م إلى غاية 1830م⁴ ، مستغلة فرنسا في ذلك حادثة المروحة⁵ ، ففي منتصف شهر جوان أرسلت عمارة فرنسية بقيادة القبطان كولي في مرسى الجزائر، وقام هذا الضابط بإرسال تهديدات باسم ملكه إلى الداى حسين يطلب فيه تقديم اعتذارات عن حادثة

¹ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 517.

² - أ.و.ت، الصندوق 223، ملف 384، وثيقة 60 .

³ - نفسه، وثيقة 55.

⁴ - أعلنت فرنسا الحصار البحري على السواحل الجزائرية منذ 15 جوان 1827م.

⁵ - في 30 أفريل 1827م ذهب القنصل الفرنسي إلى الجزائر "دوفال" تماشيا مع التقليد المقام منذ مدة طويلة، ليهنئ الداى بمناسبة عيد بيرام الكبير الذي يتبع نهاية رمضان، وهناك خلاف حول ما حدث عمليا في تلك المناسبة، غير أن ضربة على الكتف بواسطة المروحة المطرزة التي أعطاهما للقنصل كعلامة على نهاية المقابلة قد فسرت كلعنة للشخص ولشرف فرنسا ينظر : وليام سبنسر، مرجع سابق، ص 219.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

المروحة، وإذا لم يستجب الداوي لهذا الطلب خلال 24 ساعة فإن القوات الفرنسية ستقوم في الحين بأعمالها العدائية ضد الجزائر¹، هذا وقد استقبل باي تونس أمر الحصار الفرنسي على السواحل الجزائرية براحة بما فيه الساحل الشرقي القريب من حدود إيالته، ولم يكن له ردود فعل إيجابية بموجب المجاورة والأخوة في الدين والدم، فهذا القنصل الفرنسي في تونس قايس «Guys» كتب في تقرير لحكومته بأن باي تونس مرتاح من طريقة معاملة فرنسا للجزائر، ومن الحملة التي سوف تشنها ضدها، لأنه كان يتمنى منذ زمن بعيد سقوط الجزائر². على إثر حادثة المروحة وتحطم الأسطول الجزائري في معركة نافارين³، كان الداوي حسين يأمل في أن يقف الباي التونسي إلى جانبه في نزاعه مع فرنسا، والذي تظاهر في البداية بالتعاون مع الجزائر من خلال استقبال تونس لقرصان جزائري إستولى على سفينة فرنسية في 06 أوت 1827م وتسليمه حمولتها إلى وكيل الجزائر في تونس في 17 سبتمبر 1827م⁴، إلا أنه فيما بعد قام بما أثار غضب الجزائر وأرضى فرنسا عليه، فقد تمادى في استقبال العساكر من الجزائر وتوجيهها نحو المشرق، مما أضعف القدرة العسكرية للجزائر⁵.

هذا وقد أورد ألفونسو روسو مما أشيع مطلع سنة 1828م، بأن باي تونس قد استجاب لنداءات داوي الجزائر الملحة⁶، وقرّر الوقوف إلى جانب الجزائر ضد فرنسا التي كانت على وشك الهجوم على إيالة الجزائرية، وكان القنصل الفرنسي الجديد في تونس دي لسبس⁷ تواقا لمعرفة المسلك الفعلي الذي يزمع الباي التونسي سلوكه تجاه المسألة الجزائرية، والتحقق من صحة ما أشيع عن وقوف الباي إلى جانب داوي الجزائر، فاجتمع القنصل مع الباي التونسي حيث طلب منه توضيح موقفه بشكل قاطع، وأبدى حسين باي رغبته في التزام موقف محايد تجاه الحرب التي يجري الإعداد لها، بل أنه أسرّ للقنصل الفرنسي بأنه يتمنى في قرارة نفسه إنتصار الجيوش الفرنسية على إيالة الجزائر، وأنه لذلك لن يستجيب لأي نداء يوجهه إليه السلطان العثماني لدفعه إلى الانحياز إلى الجزائر، وأبان حسين باي عن مدى كراهيته للجزائر وداياتها وأمله في أن تقتصر منهم فرنسا بكل شدة⁸.

غير أنه ما يبدو لنا أن الباي التونسي لم يلتزم الحياد أثناء الحصار الفرنسي على السواحل الجزائرية، وإنما توطأ مع النظام الفرنسي، وهذا من خلال التقرير الذي ذكره أحمد باي في 15 محرم 1243هـ/1827م بأن وكيل

¹ - جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا، ص272.

² - L.Péchet, France Et L'afrique Du Nord Avant 1830, Goposso Imprimeur Editeur, 1914, p587.

³ - مرفأ جنوب اليونان وقعت فيه الحرب العثمانية الأوروبية وانتهت بجزمة الأسطول العثماني في نوفمبر 1830.

⁴ - E.Plante, Op.Cit. V3, p375.

⁵ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 520.

⁶ - كان الداوي قد أرسل إلى باي تونس في 1828/02/28م مبعوثا يكون قد عرض عليه التحالف وطلب منه النجدة والعون بالرجال والأغذية ينظر:

Plante, Op.Cit. V3. p651.

⁷ - عين قنصلا جديدا لفرنسا بتونس في 15 ديسمبر 1827م خلفا للقنصل السابق قسطنطين.

⁸ - A.Rosseau, Op.Cit, p377.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

فرنسا السابق بمنطقة القالة قد توجه إلى قبيلة نهد¹ الواقعة على الحدود التونسية، واستأذنها ببناء مركز يمارس فيه نشاطه التجاري²، وما هو مؤكد أنّ هذا المركز لم يكن الغرض منه التجارة بقدر ما كان يراد منه التحسس وتحسس الأخبار بشأن كل ما يتعلق ببايلك الشرق³، كما عمد حكام تونس إلى السهر على حماية مصالح فرنسا المتواجدة فوق أراضيها، فمن خلال مضمون الرسالة التي بعث بها قايس فنصل فرنسا بتونس إلى حكومته بتاريخ 1243هـ/1827م، مفادها أن حكومة تونس قامت بتسليح أربع بركوات مدفعية حتى تتمكن من حماية الممتلكات الفرنسية المتواجدة على أراضيها ضد اعتداءات البحرية الجزائرية، وهذا دون طلب من فرنسا⁴، وتسهيلاه وتسهيلاه شراء ما يلزمهم منها كالثيران لاستهلاك لحومها من قبل عسكر الحملة الفرنسية على الجزائر، وقد قام المبعوث الفرنسي إلى تونس المكلف بشراء الأغذية منها بشراء عدة حمولات وجهت إلى سيدي فرج بالجزائر⁵، كما قامت تونس بتزويد فرنسا بمعلومات عن الوضع الداخلي في الجزائر، وقد كان الباي حسين يطّلع على ما يجري في البلاد الجزائرية بفضل الاتصالات التي كانت قائمة بينه وبين القبائل النائرة على الداي عن طريق الرسائل التي كان يحملها إليه منهم⁶، كما قدمت السلطات التونسية مساعدات للقوات الفرنسية ففي سنة 1245هـ/1829م قامت الحكومة التونسية بتموين الجيش المكلف بشن الحملة على الجزائر بقطيع من البقر، فقررت فرنسا أن تمنح لمصطفى أخ الباي حسين بايلك قسنطينة، على أن يكون له كل مداخيل البايك، وفي مقابلها يدفع ضريبة تقدر ب800.000 فرنك فرنسي خلال سنة 1831م ومليون فرنك فرنسي لسنوات القادمة⁷.

من جهة أخرى عملت فرنسا على إعلان حرب نفسية ضد الجزائر كمقدمة للحملة العسكرية بقصد خلق الهوة بين الشعب الجزائري والقيادة، وحتى لا تتكاثر الجهود للوقوف في وجه الغزاة، إذ وقبل أن يغادر الجيش الفرنسي ميناء طولون⁸ متجها إلى الجزائر أعلن بيان مطبوع باللغة العربية حولت منه 400 نسخة بقنصلياتها بتونس بتونس لتمريرها من هناك إلى الجزائر⁹، وقد عهدت هذه المهمة إلى القائد العسكري الجنيرال دي بورمون¹⁰ Débormont الذي أمر بصياغة ثلاثة بيانات بلغة عربية قريبة من العامية الدارجة في الجزائر، وتكفل بها

¹ - تقع على الحدود بين الجزائر وتونس وهي في معظمها تميل إلى الاستقلال، وقد كانت تتعرض من حين لآخر إلى بعض الحملات من بايات قسنطينة تارة ومن بايات تونس تارة أخرى، طالبين منها دفع ما يجب من مطالب مخزنية، فتميزت بالعصيان والتمرد على السلطات الحاكمة، لهذا لجأت إليها السلطات الفرنسية لبناء هذا المركز متأكدة من مساعدتها لها ينظر. Charles Feraud, La Call.

² - Charles Feraud, La Call, T.Y.P-De L'association Ouvriere, 1877,p63.

³ - دويالي خديجة، رسائل احمد باي إلى حسين باشا 1826-1830، رسالة ماجستير، 2006/2005 جامعة وهران، ص185.

⁴ -E.Plante,Op.Cit.V3,p634.

⁵ -A.Rosseau, Op.Cit,p380.

⁶ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص522.

⁷ -M.De Lesseps,Algerie Et La Tunisie,Librairie Hachatte,1909,p184.

⁸ - طولون : ميناء يقع جنوب فرنسا وهو الميناء الذي أفلتت منه الحملة الفرنسية على الجزائر .

⁹ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ص187.

¹⁰ وهو قائد الحملة الفرنسية على الجزائر

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

السيد بارون روبينيوسك¹ وتوجه بها إلى تونس التي وصلها في 30 أبريل 1830م، وفي تونس جمع عددا من المترجمين الأكفاء القادرين على شرح النصوص لسكان الإيالات الثلاث الجزائر، وتونس، وطرابلس الغرب، وحتى سكان المغرب الأقصى²، ويقول حمدان خوجة³ في كتابه المرأة عن ذلك " قد رأيت بنفسني أثناء سفري إلى قسنطينة تلك البيانات المختلفة التي يكون معناها واحد⁴ .

قامت الدولة العثمانية في شهر ماي 1830م بإرسال مبعوث إلى الجزائر هو طاهر باشا، وبوصوله إلى تونس منعه الباي التونسي من التوجه إليها عن طريق البر في 10 ماي 1830م، وذلك بخلع الداوي حسين وتشكيل حكومة جديدة ووضع حد لحالة النزاع مع فرنسا بتقديم الترضيات اللازمة لها⁵، فلم تسمح له السلطات التونسية بالنزول في البر بمناج الكارانتينة⁶ في الظاهر، ولكن في الواقع خشية إغضاب فرنسا التي كانت مصممة على الحملة ضد الجزائر لأن ذهاب طاهر باشا عن طريق البر لا يمكن أن يكون بدون مرافقة حامية له على قدر مقامه، فيظهر لفرنسا على أنها إعانة للجزائر بتحليل⁷، فسافر طاهر باشا بجرا إلى الجزائر، ولما وصل إليها في 25 ماي 1830م منعه قائد الحصار من الاتصال بدادي الجزائر حسين، فاضطرّ التوجه إلى طولون بفرنسا، لكنه لن يجد التجاوب المرغوب لدى الحكومة الفرنسية⁸، وهكذا تعذر عليه إتمام ما جاء من أجله وعاد خائبا إلى إسطنبول، ولم ينس أبدا أن باي تونس عطله عن مهمته، وكان يردد ذلك لكل من يأتي إلى إسطنبول من تونس⁹، تونس⁹، هذا ويشير كوران بأنه لو أن الباي التونسي سمح لطاهر باشا بعبور الأراضي التونسية والالتحاق بالجزائر لترتب عن ذلك حل النزاع سواء أكان ذلك بعزل حسين باشا أو إعدامه، ولتغير مصير الجزائر وسلمت من احتلال الفرنسيين، ولكان لغرب البحر الأبيض المتوسط نظام سياسي آخر من شأنه أن لا يبكر بالتوسع

¹ وهو نفسه الذي سيكلف بتنظيم شرطة الجزائر، والذي تكلم عنه حمدان خوجة ينظر: حمدان خوجة، المرأة، ص256.257.

² الجليلي السايح، موقف بايات تونس من الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1837م، حولية المؤرخ، العدد1، 2002، ص250.

³ لقد كان بعض المؤرخين لا يفرقون بين حمدان خوجة صاحب كتاب المرأة وحمدان بن أمين السكة، فقد كان هذا الأخير عسكريا فعينه دي بورمون أغا العرب، ثم عندما أحس كلوزيل بميوله الوطنية عزله يوم 7 جانفي 1831م، وفي العام التالي نفاه روفيكو إلى باريس حيث تزوج بفرنسية وتوفي هناك سنة 1834م.

⁴ حمدان خوجة، المرأة، ص225.

⁵ كانت السفارة الفرنسية في استانبول متأكدة من أن مهمة طاهر باشا سوف لن تؤدي إلى أي نتيجة فقد حاولت تأخير سفره إلى عدة أسابيع عندما منعت تسليم طاهر باشا رسالة إلى قائد الحصار، ولم تسلّم هاته الرسالة إلا بعد أن تأكد السفير من عزم دولته على القيام بحملة عسكرية من جهة، ومن جهة أخرى فإين طاهر باشا المكلف بالمهمة سوف لن تصحبه إلا باخرة حربية من الدرجة الثانية ولا يرافقه إلا عددا قليلا من الرجال ومن العتاد والآلات الحربية الضرورية لخدمته. ينظر: ارجمنت كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر- ت. عبد الجليل التميمين منشورات الجامعة التونسية، 1970 ص56.

⁶ نظام الحجز الصحي والذي يدوم 40 يوما.

⁷ أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص166.

⁸ أرجمنت كوران، مرجع سابق، ص59.

⁹ أحمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص167.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

الاستعماري لإفريقيا من جهة، ومن جهة أخرى فان الباب العالي سيتولى مصير ربط الجزائر بالدولة العثمانية كما كان الشأن بالنسبة لطرابلس الغرب سنة 1835م¹.

كان الداوي حسين في الجزائر يأمل في أن يقف باي تونس إلى جانبه في نزاعه مع فرنسا، ففي ربيع سنة 1828م طرحت فكرة إقامة تحالف يشمل الجزائر والمغرب وتونس وطرابلس الغرب للدفاع عن مصالح الإسلام المهاجم من قبل الفرنسيين والروس، وكانت هذه الفكرة محل التداول بين وكلاء الجزائر والمغرب وطرابلس في تونس مع الوزير الأول التونسي باش مملوك صهر الباي حسين²، لكن ذلك التحالف المنشود لم يتحقق فظل كل بلد يواجه مصاعبه لوحده³.

بعدها فشل الداوي حسين في إستمالة الباي التونسي بواسطة مبعوثيه إلى تونس ووكلائه فيها عبر له في فبراير 1829م صراحة عن استيائه من سياسته المنحازة⁴، وهدده برفع شكوى ضده إلى السلطان العثماني، كما أقدم على تهديده بشن حملة عسكرية ضده للقضاء عليه فلم يتقده منها إلا غزو فرنسا للجزائر ونجاحها في الإطاحة بحكمه في 5 جويلية 1830م فسّر الباي حسين بذلك الغزو وذلك النجاح دون عامة الناس في تونس⁵.

بعد إحتلال فرنسا للجزائر واستسلام الداوي بتوقيعه لوثيقة الاستسلام، بدأ الفرنسيون يخططون لضم كافة الأقاليم ومن بينها إقليم الشرق الجزائري، وقد لجأ كلوزيل⁶ إلى إصدار أمر بعزل أحمد باي وإبرام اتفاقية مع باي تونس لتصبح قسنطينة بمقتضاها تابعة لتونس، ويتولى إمارتها الأمير مصطفى بن محمود أخو الباي التونسي، وفي ذلك يقول احمد باي في مذكراته "... علمت أن الجيرال الذي كان يحكم الجزائر أمر بعزلي وأبرم في هذا الموضوع عهدا مع باي تونس، وينص هذا العهد على أن قسنطينة تكون تابعة لتونس وأن سي مصطفى أخ العاهل التونسي هو الذي يتقلد مرتبة الباي فيها⁷، إلا أنه لم يقدر لهذه الاتفاقية أن ترى النور، ويبدو أن الفرنسيين كانوا يهدفون إلى استفزاز باي قسنطينة، واختبار نوايا بايات تونس خاصة وأهم كانوا يعلمون مدى التنافس والتطاحن بين الإيالتين

¹ أرجمن كوران، مرجع سابق، ص60.

²-Plante,Op.Cit.V3,p651.

³- كانت إيالات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومملكة المغرب الأقصى تعيش نوعا من التعايش دون رابطة قوية تجمعهم فجهلهم لمصالحهم المشتركة بالإضافة إلى التهديدات من الخارج والنزاعات بينهم وغياب روح التضامن جعلت منهم قوة هشة لم تصمد أمام التهديدات الخارجية ينظر:

M.Belhamisi , marine et marins D'Alger 1518-1830, T3,bibliotheque nationale d'Algérie, imprimerie EN-Nakhla,Alger,1996, p80.

⁴- كان للداوي حسين جواسيس في بلاط الباي حسين وحتى في مجلسه بخبرونه باتصالات الباي مع فرنسا ومحتواها ينظر تلك الرسالة التي بعث بها دو لسييس إلى لافيرو بتاريخ 26 جانفي 1828م في : Plante,Op.Cit.V3. p649.

⁵ A.Rosseau, Op.Cit,p390.

⁶ ولد سنة 1772 وتوفي سنة 1842م تولى القيادة العامة في سبتمبر 1830 واستمر إلى غاية جانفي 1831م ثم عاد إلى الجزائر وتولى القيادة العامة في جويلية 1835م، فارتكب أبشع الجرائم في حق الجزائريين ثم عاد إلى فرنسا في فيفري 1837م للمزيد ينظر: حمدان خوجة، مصدر سابق، الفصل العاشر من الكتاب.

⁷- مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضرية، مصدر سابق، ص 21.

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

بعدها نجحت الحملة الفرنسية في الإطاحة بالداي حسين وحكومته، بادر الباي حسين إلى تقديم التهنة لقائد الحملة الفرنسية الجنيرال دي بورمون وإلى الدخول في مباحثات معه ثم مع من خلفه الكونت كلوزيل بواسطة مبعوثيه إليهم ، وعن طريق القنصل الفرنسي العام في تونس والمبعوثين الفرنسيين إليه بشأن تمكين تونس من حكم الجزائر أو البعض من بايلكها¹.

تمّ الاتفاق خلال المباحثات التي جرت بين الطرف الفرنسي والتونسي في خريف 1830م إلى التوصل إلى عقد اتفاقية 18 ديسمبر 1830م² بمنح حكم بايلك قسنطينة إلى الباي مصطفى أخ الباي حسين كما ذكرنا على شروط يؤديها إلى فرنسا، كما بيع إقليم وهران إلى نفس الباي بمليون فرنك آخر سنويا على أن يولي عليه ابن أخيه أحمد وذلك يوم 06 أفريل 1831م.

ونتيجة لقبول باي تونس مبدأ تفويض أمر بايلك وهران وبايلك قسنطينة إلى أفراد عائلته، أرسل إلى الجزائر بعثة يرأسها ضابط القصر "محمد شولاق" ورفيقه "حسين مورالي" في شهر أكتوبر 1830م، حيث أستقبلا بكل عناية وإكرام من قبل كلوزيل ، وقد أجريت مباحثات سياسية بين الطرفين استطاع من خلالها الحاكم العام الفرنسي أن يورط البايات التونسيين في احتلال فرنسا للجزائر ، وذلك من خلال الوعود المادية منها والسياسية التي أوهمت البايات التونسيين بالحصول عليها ، ولعل هذا ما يمكن استخلاصه من قول الحاكم العام الفرنسي للوفد التونسي بأن دولة الفرنسيين ما صنعت هذا الأمر مع دولة ومكنتها من قسنطينة وعمالتها ، إلا مرادها أنها بعد مدة تمكنها من جميع عمالات الجزائر وما احتوت عليه من البلدان بعد الاتفاق بينهم على ما يتراضون به وسمع مني يقينا وصدق به انه أثناء العامين من هذا الوقت لا بد أن تكون جميع عمالات الجزائر في قبضة ملك تونس لما بينهم وبين دولة الفرنسيين من المودة ثم أضاف قائلا (خذ مني يقينا واعلم به الجناب العلي أنه لا يتم العام حتى يكون باشا تونس مستوليا على جميع مملكة الجزائر³ ، وأصبح الباي التونسي منذ تلك الأحداث يلقب نفسه بأمر إفريقيا⁴ ، وبذلك تطابقت مصالح الحكام التونسيين في هذا النزاع مع مصالح العائلة المالكة الفرنسية التي كانت ترغب في تحقيق ذلك الإنتصار لتعزز بنجاح عسكري الوضع الداخلي المعرض للخطر، هذا وقد ظنّ الباي حسين أنه بالاتفاقين المذكورين يوسع رقعة نفوذه في مناطق هامة من الجزائر، وكان يتوهم أيضا أن فرنسا ستسلم له أيضا ولاية الجزائر، وتنسحب منها بعد أن انتقمت من الداوي حسين⁵ ، وبذلك يصبح الحاكم المطلق لولايتي تونس والجزائر.

¹ - عن تلك البعثات ينظر إلى المراجع التالية : احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص.... وحمدان خوجة ، المرأة، ص219-220. و

M.S.Mzali, Les Beys De Tunis Et Le Roi Des Français, Maison Tunisien De L'édition, tunis, 1976-p111.

² M.S.Mzali, Op.Cit, p33.34 233.232. مصدر سابق، ص.

³ - الجليلي السايح ، المقال السابق ، ص253. و عبد الجليل التميمي ، مغامرة الحماية التونسية على وهران سنة 1831 ، المجلة التاريخية المغربية، عدد5، زغوان، تونس، 1976، ص8.

⁴ - نفسه.

⁵ ينظر عن نص الاتفاق حمدان خوجة ، مصدر سابق، صص231-235.

أما فيما يخص موقف السكان التونسيين في هذا الموضوع فمن المستبعد أن لا يكونوا على بصيرة ودراية بتصرفات ومواقف الباي التونسي ، في حين أن الفئة المستنيرة فإن موقفها يمكن أن نستخلصه من موقف احمد بن أبي الضياف عميد المؤرخين التونسيين خلال القرن 19م، فبالرغم من أن طاهر باشا المبعوث العثماني قال له عندما إلتقاه باسطنبول بعد سنة من ذلك " ... ما يكون جوابكم لله عن تعطيلي الذي عطلم به مصلحة جمهور من المسلمين " ¹ ، ولعلّ جوابه هذا يعود إلى كونه مؤرخ البلاط ولا يعقل أن يكون رأيه مخالفا لرأي الحكام التونسيين الذين تواطؤوا مع العدو الفرنسي .

أما فيما يتعلق باتفاقية 18 ديسمبر 1830م فإنه يتضح من بنودها مدى إستغلال الباي التونسي للظروف التي ألمت بالجزائر دون تمعن في العواقب نتيجة تصديقه لنوايا الجنيرال الفرنسي ، فأرسل إلى الجزائر الوزير صاحب الطابع وسليمان كاهية لإمضاء هذه الاتفاقية .

لقد وقف الحكام التونسيون موقف المعارض لكل مساعدة توجه إلى الجزائر ، وخاصة إلى بايلك الشرق الذي بقي رافعا لواء الدفاع عن الجزائر بعد سقوط العاصمة في يد الفرنسيين طيلة فترة مقاومة أحمد باي، ولعل ما يؤكد ذلك ما أورده أحمد باي نفسه في مراسلاته المتعددة إلى مقر الخلافة، ففي رسالة من احمد باي إلى السلطان محمود يصف له فيها صعوبة الاتصال بمقر خلافة نظرا للحصار المفروض عليه من كل ناحية قائلا : "... وحالنا مع هذا جار بمطابقة الوقت ومقتضيات تعلقات الزمان لا تخلو من تحمل المشاق والسلوك في المسلك الخطير الشاق وتضيق كثيرا في خلال ذلك حالنا، وتتكدر خواطرنا لامتناع الطرق البرية والمسالك البحرية بيننا وبين التوصل إلى أخبارنا وإنهائها إلى جانب الحضرة... " ² ، هذا وقد أخذ باي تونس في توجيه الرسائل إلى سكان بايلك الشرق يذكرهم فيها بأن قسنطينة كانت تابعة لتونس ، وأنه يعتزم إرجاع الوضع إلى ما كان عليه في السابق، ويذكر أحمد باي بأنه درس هذا الوضع رفقة ديوانه، وبعد المناقشات تم الاتفاق على توجيه رسالة إلى الباي التونسي تؤيد وتؤكد ولاء السكان وتمسكهم بحكم الحاج احمد باي، ورفضهم الانضمام إلى الحكم التونسي وأنهم " ... وبكل صراحة سنفضل احتلال الفرنسيين لا حبا في الكافرين ولكن لأننا نعلم بأن جوارهم سيجر لنا الحرب إن أجلا أو عاجلا، ولأننا سنعرض لهجوماتهم، ولن نستطيعوا شيئا لحمايتنا " ³ .

هذا ولما شرع الباي التونسي في تطبيق اتفاقية 18 ديسمبر 1830م بأن أرسل بعض قواته بقيادة خير الدين أغا إلى وهران في 19 جانفي 1831م ⁴ ، وصلت إليها في 9/02/1831م ⁵ ، لبسط النفوذ التونسي عليها وكتب وكتب إلى الحاج أحمد باي والى علمائها وأعيانها يطلب خضوعهم له ، واستعد لإرسال وزيره شاكير صاحب

¹ - ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص 167.

² - مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضرية، مصدر سابق، 24.

³ - نفسه، ص23.

⁴ - احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص177.

⁵ - عبد الجليل التميمي، مقال سابق، ص 6

الفصل الثاني: العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830

الطابع لإخضاع بايلك قسنطينة لفائدة أخيه الباي مصطفى طوعا أو كرها في ربيع سنة 1831م¹، فرفضت الحكومة الفرنسية التصديق على الاتفاقية الموقعة من قبل كلوزيل وممثل الباي حسين²، واقتاحت شروطا جديدة لم يقبلها الباي التونسي³، وتبعاً لذلك تخلى الباي عن البايلكين وشرع في سحب قواته من وهران في ربيع الثاني 1246هـ (سبتمبر - أكتوبر 1831م)⁴.

مما سبق تبين لنا أن تونس لعبت دورا هاما ومحوريا في إنجاح الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م، فبالرغم من الإغراءات التي قدمتها فرنسا للباي التونسي إلا أنها لم تكن سوى مراوغة وخديعة سياسية، فقد بينت الأيام فيما بعد أن تونس ذاتها سوف تتعرض لحملة فرنسية، ولم يكن سقوط الجزائر في أيدي الفرنسيين سوى مقدمة لسقوط إيالات الشمال الإفريقي العثمانية تحت السيطرة والهيمنة الغربية ولاسيما الفرنسية⁵.

¹ - عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 526.

² -M.S.Mzali, Op.Cit ,p .23

³ احمد ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص178.

⁴ عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 526.

⁵ - تعرضت تونس للحماية الفرنسية سنة 1881م. فكانت ثاني إيالة في شمال إفريقيا تسقط تحت نير الاستعمار الفرنسي بعد الجزائر سنة 1830.

الفصل الثالث

العلاقات السياسية بين إيالة الجزائر وطرابلس الغرب 1750 – 1830م

أولا : فترة التعاون بين الإيالتين 1750 – 1793

ثانيا : التدخل الجزائري في شؤون طرابلس الغرب (1793- 1815م)

1 - مسألة إستيلاء علي برغل علي طرابلس وموقف الجزائر منه

أ - شخصيته

ب - إستيلاءه علي طرابلس

ج- الموقف الجزائري من إستيلاء علي برغل علي طرابلس

2 - الوساطة الجزائرية في عقد معاهدة بين طرابلس والولايات المتحدة الأمريكية

أ- دخول الولايات المتحدة البحر المتوسط

ب- المفاوضات الأمريكية الطرابلسية

ج- دور الجزائر في إبرام الصلح الأمريكي الطرابلسي

3- الحرب بين الولايات المتحدة وطرابلس 1801-1805م

4- موقف الجزائر من الصراع الأمريكي الطرابلسي

5- صدى الصراع الأمريكي الطرابلسي في كل من الجزائر وتونس

أ- في الجزائر

ب - في تونس

ثالثا : العلاقات بين الإيالتين 1815-1820

1- موقف المؤتمرات الدولية من النشاط البحري لإيالتي الجزائر وطرابلس الغرب

أ- مؤتمر فيينا

ب- موقف طرابلس من حملة اللورد إكسماوث علي الجزائر

ج- مؤتمر إكس لاشابيل

رابعا : العلاقات بين الإيالتين من 1820-1830م

1 - التعاون الجزائري الطرابلسي في حرب اليونان 1821م

أ- المشاركة الجزائرية

ب- المشاركة الطرابلسية

ج- المقارنة بين المشاركتين

2 - موقف طرابلس الغرب من الاحتلال الفرنسي للجزائر

أ-الموقف الرسمي

ب-موقف النخبة

الفصل الثالث: العلاقات السياسية بين إيالة الجزائر وإيالة طرابلس 1750-1830

خلال هذا الفصل سوف يتم التطرق إلى العلاقات بين إيالة الجزائر وإيالة طرابلس الغرب خلال الفترة قيد الدراسة، أي من سنة 1750م إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830، وذلك بالتطرق إلى واقع العلاقات بين الإيالتين العثمانيتين في شمال إفريقيا، من خلال الإشارة إلى دور الجزائر في إبرام معاهدة بين إيالة طرابلس الغرب ودولة الولايات المتحدة الأمريكية، والدور الجزائري في نفس الوقت في الحرب التي قامت بين البلدين مع مطلع القرن التاسع عشر، هذا بالإضافة إلى دور طرابلس أثناء حملة اللورد إكسماوث على الجزائر سنة 1816م من خلال المساهمة في إعادة بناء الأسطول الجزائري، إلى جانب مساهمة الإيالتين في حرب اليونان سنة 1821م، وأخيرا موقف طرابلس الغرب من الاحتلال الفرنسي للجزائر.

أولا : فترة التعاون بين الإيالتين 1750م- 1793م:

كانت سنة 1711م سنة الأحداث البارزة في تاريخ طرابلس الغرب من خلال وصول أسرة القرماني إلى الحكم، إذ مهدت لوصولها عوامل منها :

* تشكل طبقة القبولغلية الذين أصبحوا يحتلون مركزا متميزا ويتطلعون إلى السلطة ويعيش أغلبهم في ضاحية المنشية بطرابلس في منطقة الساحل.

* الانحطاط الاقتصادي للإمبراطورية العثمانية مما أدى إلى أفول قدرتها السياسية والعسكرية في منتصف القرن 17م، وقد أدى الضعف الداخلي والتحالف العسكري للإمبراطورية العثمانية إلى توقف حكام إيالات الشمال الإفريقي عن الاعتراف بسلطة السلطان إلا من الناحية الرسمية.

* النزاعات والخصومات الداخلية في تشكيلة الانكشارية والتي أضعفت نفسها عدديا و نوعيا، مما مكن القبولغلية من التطلع إلى السلطة¹.

تميزت العلاقات الجزائرية الطرابلسية خلال بداية فترة العهد القرماني² بالسلم وحسن الجوار، وهي تلك الفترة التي تصادفت مع حكم أحمد القرماني (1711_1745) مع دايات الجزائر الأربعة علي شاوش 1710_1718 والداي محمد 1718_1724 وكورد عبدي 1724_1732 والداي إبراهيم 1732_1745_1745 باستثناء واقعة سنة 1742 واغتيال الحاج محمد صهر الداوي إبراهيم في الجزائر 1732_1745³.

¹ - اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 104.105.

² - أسرة تركية الأصل من مدينة قرمان الواقعة جنوب الأناضول في آسيا الصغرى، جاء الجد الأكبر مصطفى القرماني إلى مدينة طرابلس في منتصف القرن 16م أثناء قدوم حملة سنان باشا لطرده فرسان مالطا من طرابلس الغرب سنة 1551م، وبقي من جملة البحارة الذين أبقاهم سنان باشا هناك، وقد استقر مصطفى باشا في منطقة المنشية، ومارس التجارة، وتمكن من امتلاك مزارع وتزوج واندمج أبناؤه بالأهالي . للمزيد ينظر: ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، ت. الطاهر الزاوي، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة، 1349هـ. ص 161. ورودولفو ميكافي، طرابلس الغرب تحت أسرة القرماني، ت. طه فوزي، معهد الدراسات العربية العالية، 1961م، ص 12.11.

³ - ميكافي رودولفو، مرجع سابق، ص 80.

تميزت علاقات طرابلس الغرب بجيرانها من إيالات الشمال الإفريقي في ذلك الوقت فكانت علاقات طيبة بوجه عام، وان سادها بعض الضعف أحيانا، عندما كانت تتعارض مصالح الحكام الشخصية، مثل ما حدث بين طرابلس وتونس بسبب النزاع حول مدينة جربة، واستعداد يوسف القرماني لرد قوات محمد علي والي مصر عندما سمع عن نبأ اتفاهه مع الفرنسيين لغزو الجزائر، أما فيما عدا ذلك فقد كانت الرابطة قوية بدت في أروع صورها في ذلك التعاون البحري بين سفن النيابات المغربية الثلاث، طرابلس وتونس والجزائر، ولذلك حاولت الدول الأوروبية أن تبث الفرقة بين هذه النيابات وتقضي على هذا التعاون¹.

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي طالبت بريطانيا من محمد باشا القرماني (1745-1754) بعقد معاهدة معها أسوة بالمعاهدة التي جددتها مع فرنسا، وحصلت من جراء توقيعها سنة 1751م على مكاسب ضخمة مكنتها من تحقيق امتيازات سياسية واقتصادية، وغدت الجالية البريطانية أكثر الجاليات الأوروبية تواجدا في ولاية طرابلس خلال ولاية محمد باشا كما ضمنت المعاهدة عدم مساعدة الطرابلسية للسفن الجزائرية والتونسية في حال وقوع صدام بينها وبينهم².

إن أه م ما ميز فترة النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي في تاريخ طرابلس الغرب هو اتجاهها إلى القرصنة "حركة الجهاد البحري" وذلك أسوة بالجزائر والذي يقضي بأن تدفع الدول الأوروبية البحرية إتاوات أو هدايا منتظمة نظير امن ملاحظتها في المتوسط، ويرجع ذلك إلى اعتقاد المغاربة بأن البحر الأبيض المتوسط بحر إسلامي، وعلى ذلك يجب على الدول المسيحية أن تدفع تلك الإتاوات وكثيرا ما كانت تعقد معاهدات خاصة تحدد قيمة تلك الإتاوات، هذا وقد هيأت الطبيعة للجزائر لكي تصبح قوة مرموقة في البحر المتوسط بسبب ساحلها الذي يمتد على مسافة 1200 كلم في مواجهة سواحل إيطاليا وفرنسا، وتجلي هذا التفوق بصورة خاصة خلال القرنين 16 و 17 م، وامتد نشاط البحرية الجزائرية خارج المتوسط حتى وصل بحار الشمال لذلك كان نصيب الجزائر من الإتاوات يفوق بكثير نصيب طرابلس³.

لجأت طرابلس الغرب في الفترة ما بين 1750م-1773م إلى ممارسة القرصنة في حوض المتوسط وإرغام الدول الأوروبية على دفع إتاوات ومبالغ مالية⁴، كما كان البحارة الطرابلسيين يهاجمون السفن كافة، وقد تمكنت من إيقاع الرعب والخوف بالدول الأوروبية، فسارعت هذه الأخيرة لكسب ود طرابلس والالتزام معها بمعاهدات واتفاقيات جديدة خلال النصف الثاني من القرن 18م، كما اضطرت فرنسا إلى تجديد المعاهدة التي عقدتها مع طرابلس في سنة 1728م، والتزمت هذه الأخيرة بالمحافظة على علاقاتها الطيبة مع فرنسا⁵.

¹ - ميكاكي رودولفو، مرجع سابق، من مقدمة الكتاب - "ل".

² - محمود علي عامر، محمد خير فارس، مرجع سابق، ص 212.

³ - صلاح العقاد، مرجع سابق، ص 77.76.

⁴ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 86.

⁵ - محمود علي عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث. ليبيا، مطبعة الاتحاد، جامعة دمشق، 1986م، ص 86.

الفصل الثالث: العلاقات السياسية بين إيالة الجزائر وإيالة طرابلس 1750-1830

لم تكن البحرية الطرابلسية ذات أهمية كبيرة في هذه الفترة إذا ما قارناها بالبحرية الجزائرية التي كانت تملك أسطولا قويا وعددا كبيرا من البحارة كما هو موضح في الجدول التالي الذي يوضح عدد المراكب والمدافع للإيالتين خلال هذه الفترة¹.

طرابلس			الجزائر		
ملاحظات	عدد المدافع	عدد المراكب	عدد المدافع	عدد المراكب	السنة
/	37	04	245	22	1754م
/	65	06	260	21	1755م
/	100	14	201	18	1756م
/	117	17	224	22	1757م
/	43	10	271	23	1758م
/	11	09	212	30	1759م
/	66	11	322	27	1760م
أكبر معدل لطرابلس	173	17	268	27	1761م
أكبر معدل للجزائر	67	14	578	47	1762م
/	117	14	357	26	1763م
/	80	12	53	10	1764م
/	49	11	352	24	1765م
/	44	09	158	14	1766م
/	08	04	320	21	1767م
/	20	06	286	18	1768م
/	24	08	186	15	1769م
/	10	04	196	13	1770م
أقل معدل للجزائر	26	06	13	05	1771م
أقل معدل لطرابلس	06	03	64	07	1772م
/	10	04	70	08	1773م
/	1082	183	4626	398	المجموع

¹- P.Danial, Un Active En Trompe L'œil-R De L'occident Musulman, De La Méditerranée, 1er Trimestre, 1988-N.47, pp127.142.

إنّ الجدول السابق يوضح الفرق الشاسع بين القوة البحرية للإيالتين والذي إنعكس على المردود الاقتصادي لبحرية كل من طرابلس والجزائر ، وتعتبر سنة 1761م هي أكبر معدل وصلت إليه البحرية الطرابلسية من حيث عدد المراكب والمدافع وقل معدل كان في سنة 1772م ، أما الجزائر كانت أفضل سنة لها هي سنة 1762م وقل نسبة كانت في سنة 1771م ، ويبدو أن السبب في تزايد النشاط البحري للإيالتين راجع إلى انشغال أوروبا بحرب السبع السنوات بين فرنسا وإنجلترا¹.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه في سنة 1206هـ/1791م حدث خلاف بين الجزائر وطرابلس الغرب وعلمت إستانبول بذلك، فأمرت أمراء الجزائر وطرابلس الغرب إلى الإبتعاد عن مثل تلك الخلافات، وأكدت لهم بأن مثل هذه المنازعات لا تليق بالمسلمين، فعلى كل منهما ضبط الأعصاب والتفاهم كي يزدادوا قوة ومتانة².

ثانيا: التدخل الجزائري في شؤون طرابلس 1793-1820م

سوف يتم التطرق إلى العلاقات الجزائرية الطرابلسية في هذه الفترة والتي تمتد من سنة 1793-1820م وهي الفترة التي تصادف تولي الدايات التاليين للحكم في الجزائر، الداى حسن 1791-1798م، الداى مصطفى 1798-1805م، الداى أحمد 1808-1815م، الداى علي الملقب بالغستال 1808م، الداى الحاج علي 1809-1815م، الداى عمر أغا 1815-1817م، الداى علي خوجة 1817-1818م، والداى حسين 1818-1830م، وفي طرابلس الغرب صادفت إستيلاء علي برغل على الحكم ما بين 1793-1795م، ثم عودة الحكم لأسرة القرامانليين ممثلا في شخصية يوسف باشا 1795-1832م. أطلقنا على هذه الفترة التاريخية بفترة التدخل الجزائري في شؤون طرابلس بداية باستيلاء علي برغل على طرابلس وموقف الجزائر من ذلك ثم التواجد الأمريكي في حوض البحر المتوسط وإبرام معاهدات مع إيالات الشمال الإفريقي من خلال دور الجزائر في إبرام المعاهدة الطرابلسية الأمريكية ثم موقف الجزائر من الحرب الأمريكية الطرابلسية 1801-1805م.

1 - مسألة إستيلاء علي برغل على طرابلس وموقف الجزائر منه:

أ_ شخصية علي برغل :

بينما كانت الأسرة القرمانيية تنهار وتفكك بفعل خلافاتها الداخلية في عهد الباشا علي 1754-1793 حتى ظهرت إلى الوجود في طرابلس شخصية علي برغل ,فمن تكون هذه الشخصية ؟

¹ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 88.87.

² - عزيز سامح الت، مرجع سابق، ص 557.

فعلي أفندي أصله من جورجيا، وكان يلقب باسم علي الجزائري¹، كما لقب بعلي برغل² ظهر فجأة حكما مستبدا على مصائر طرابلس، حيث سترك في تاريخها أثرا معنويا لعينا، كان ينتمي إلى ذلك النوع من الرجال الذين يتميزون بالإقدام، و انتهاز الفرص المناسبة لتوجيه الضربة المناسبة³.

لقب علي برغل بعلي الجزائري لأنه عاش فترة طويلة في الجزائر، وله سجل حافل بالجهاد البحري في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، خاصة بالجزائر التي له معها معارك كثيرة ضد الأساطيل المسيحية في البحر الأبيض المتوسط⁴، حيث يصف لنا نقيب أشرف الجزائر عن معاصريه قولهم "والذي سمعت من كبراء بلدنا الجزائر الذين يعرفون علي برغل هذا هو أنه رجل عاقل كريم منصف للحق حتى أنه ألقى بنفسه للموت في قضية القبطان الذي أخذ مراكب الأمير ولو لم يفعل ذلك لكان الأمير يقتل القبطان وهذا القبطان لا يوجد الزمان بمثله في الجهاد رحمه الله⁵، كما قاد علي الجزائري البحرية الجزائرية و التونسية في الحرب التي خاضها الأسطول العثماني ضد المغامرين الروس حول جزيرة مرتد⁶ سنة 1788/1202م ووصف في هذه المعركة بالشجاعة والبسالة كما وصفه قنصل نابولي بطرابلس بأنه رجل ذكي وطموح⁷.

¹-Ch.Veraud- Annales Tripolitaines- Presentation De Lora Lafi- 1er Edition- Edition Bouchen-2005-p273.

يذهب الأب برنيا إلى انه مغامر تركي من أصل يوناني للمزيد ينظر: كوستانزيو برنيا، طرابلس من 1510-1850- ت. خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، تونس، 2009، ص 272. ونفس هذا الطرح يذهب إليه عمر علي ابن إسماعيل، اختيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا 1795-1835- مكتبة الفرجاني، طرابلس، ط1، بيروت، 1966، ص 61، في حين أن شارل فيرو رفقة ميكاي رودولفو يذهب إلى أن أصله من جورجيا التي كانت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي و حاليا هي دولة مستقلة للمزيد ينظر: ميكاي رودولفو، مصدر سابق، ص 120. في حين اننا نجد توللي ريتشارد التي عاشت 10 سنوات في طرابلس تطلق على علي أفندي اسم علي بن زول للمزيد ينظر: ريتشارد توللي، عشر سنوات في بلاط طرابلس، ت. عمر الديراوي ابو حجلة، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ص 536. بينما نجد احمد النائب الطرابلسي يسميه علي باشا برغل للمزيد ينظر: أحمد النائب، مصدر سابق، ص 301.

²- سمي علي الجزائري باسم علي برغل وذلك نسبة الى اطعامه البرغل لجنوده وكلمة برغل كلمة تركية معناها القمح المسلوق والذي كان علي الجزائري يطعم به جنوده بدل الأرز الذي انقطع مجيئه من مصر. ينظر: ميكاي رودولفو، مصدر سابق، ص 122. و عمر علي ابن إسماعيل، مرجع سابق، ص 58.

³- كوستانزيو برنييه مرجع سابق، ص 272.

⁴- محمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 106.

⁵- الزهار الشريف احمد، مصدر سابق، ص 63.

⁶- جزيرة مرتد هي إحدى جزر الأرخيبيل اليوناني.

⁷- أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 106.

كان علي الجزائري في بداية عهده وكيل الخرج في البحرية الجزائرية، وانطلاقاً من وظيفته هذه كان يضع حركات القرصنة في عرض البحر تحت رقابته¹، فجمع بذلك ثروة كبيرة²، لكن مطامعه أثارت غضب الشعب الجزائري³ بسبب مغالاته في جمع الضرائب، وإثقال كاهل الشعب الجزائري بها⁴، فقد اتصف نشاطه في جمع الضرائب بانعدام الرحمة والغلو وهو ما نفر منه سكان الجزائر⁵ الذين تكتلوا للقيام بثورة تطيح بحكم الداوي⁶، فعمد فعند هذا الأخير على طرده من الجزائر⁷، وذلك بغية تهدئة الوضع والحيلولة دون قيام الثورة، وبعد أن تملك هذه الثروات الطائلة التي نهبها خلال القرصنة والجمع غير الخاضع لرقابة الضرائب بدأ يتطلع إلى السلطة بأنظاره⁸.

ب- إستيلاءه على طرابلس :

بعد أن فقد علي برغل مركزه كرئيس للبحرية الجزائرية لجأ إلى القسطنطينية⁹، حيث أقام عند أخيه الذي كان نائباً لأميرال الأسطول العثماني¹⁰ فاستطاع بواسطته والذي كان له نفوذ لدى السلطان العثماني أن يحصل على الموافقة على تعيينه واليا على طرابلس بدلا من الوالي القرمانلي علي باشا (1754م- 1793م)¹¹.

لما كان علي الجزائري يعرف الوضع المتوتر في إيالة طرابلس الغرب فقد اتجه إلى استانبول وتوصل بواسطة أخيه الذي كان ذا تأثير واسع على البلاد وعلى السلطان بصفة خاصة أن يحظى بتأييد مطامعه في الإيالة¹² التي كانت تدار من قبل حكومة ضعيفة استنزفت الحروب الأهلية قواها¹³، أما سبب تأييد الباب العالي لذلك فكان يرى انه من الضروري بالنسبة له أن يحل مشكلة طرابلس الغرب فقد كانت المنطقة بؤرة للتوتر، وكان قسم من أعيان الإيالة يطالب بإلحاح بإقرار صيغة ثابتة للحكم، وفضلا على ذلك كانت استانبول دوما تتطلع إلى تصفية الاستقلالية الكبرى لطرابلس الغرب، وإلغاء وراثية الأسرة القرمانلية¹⁴.

1- اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص140.

2- عمر علي ابن اسماعيل، انحيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا 1795-1835، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ط1، بيروت، 1966، ص 61.

3- كوستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 272.

4- عمر علي ابن اسماعيل، مرجع سابق، ص 61.

5- اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص140

6- يذكر صاحب المنهل العذب احمد النائب بأن داي الجزائر شقيق علي برغل. ينظر: احمد النائب، مصدر سابق، ص 317.

7- كوستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 273.

8- اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص141.

9- كان علي برغل او علي بن زول يحاط علما وهو يبهر المرة تلو المرة قرب شواطئ طرابلس الغرب بالوضع السياسي والاقتصادي في تلك البلاد وبالبناء النفسي للقسم الأكبر من السكان، وكان المسمى كامارتي وهو شخص مقرب وموثوق من طرف علي القرمانلي يقوم بمساعدة علي الجزائري في الحصول على هذه المعلومات، فقد كان على صلة دائمة بعلي الجزائري وكان يسرب له جميع أسرار البلاط القرمانلي، وهو الذي أوحى إليه بفكرة السيطرة على طرابلس وأقنعه بموثوقية القيام بهذه المغامرة وسهولتها ينظر: اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 141.

10- ميكايي رودولفو، مرجع سابق، ص 120.

11- كوستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 273

12- اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص141.

13- Ch.Veraud, Op.Cit,p274.

14- اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص141.

بيد أن الخلافة العثمانية كانت آنذاك تعاني من الانهيار، ولم تكن قادرة على تخصيص أسطول لتجرد من السلطة به حاكم طرابلس الغرب، وانطلاقاً من هذا كله كان الباب العالي مستعداً لتأييد أي مغامر يمكن أن يخدم الامبراطورية العثمانية بحق وصدق وان يؤديها خفية وبعمل مباغت واقتحامها حتى بقوات محدودة، وكان علي برغل رجلاً ثرياً لا يطالب بالسفن ولا بالجنود¹.

تجمع أسطول علي برغل في البداية في ميناء مودون « Modon » وهي النقطة التي تجمع فيها أسطول علي برغل الذي كان مؤلفاً في البداية من ستة سفن تم استئجارها من جزيرة هيدرا « Hydra » اليونانية، حيث أن علي برغل كان قد استدان مبلغاً باسم أخيه، وهكذا فإن ذلك الجيش كان مشكلاً من رجال جمعوا من شبه جزيرة المورة، أما المدافع القليلة التي كانت بجوزته فقد تم الاستيلاء على معظمها من سفن صقلية في عرض البحر حيث تم اختطاف اثنتين منها فصار الأسطول مكوناً من ثمانية سفن²، كما جند علي برغل عدداً كبيراً من المرتزقة ليذهب بهم إلى طرابلس³.

تقدم أسطول علي برغل إلى طرابلس بقوة تقدر بحوالي 300 رجل ولم ينزل إلى البر، واكتفى بأن يحتل قسم من جنوده حصن بيت الرايس Beit El-Rais، وابلغ الأهالي يوم وصوله بفرمان السلطان الذي يعلن تنحية أسرة القرماني، وتولية علي برغل واليا عليهم⁴.

لقد أجمع الكثير من المؤرخين الذين كتبوا عن تلك الفترة التاريخية على أنه حينما وصلت السفن التي تقل علي الجزائري إلى ميناء طرابلس، نزل منها مندوب عن السلطان العثماني، وتلا فرماناً سلطانياً بانتهاء عهد الأسرة القرمانية وتولية علي الجزائري مكانها، غير أنهم جميعاً لم يثبتوا بدليل قاطع نوعية هذا فرمان هل كان حقيقياً أم مزوراً، فنجد منهم من لم يتأكد من صحة هذا فرمان، ومنهم من لم يستطع أن يعطي رأيه صراحة فيه، ومن هؤلاء ميكافي رودولفو حيث يول "وما إن ألقى الأسطول مراسيه حتى نزل منه قابوحي باشي⁵، ومعه حوالي 400 رجل مسلح، وتلا علناً مرسوماً سلطانياً حقيقياً كان أم مزوراً أعلن فيه سقوط علي القرماني وتولية علي أفندي الذي عين بدلاً منه، ودعا القرماني للخضوع لأمر السلطان وهدده بقرب وصول قبودان باشا⁶ على رأس أسطول كبير⁷.

هذا وبالرغم من أن ميكافي إعمد في تأليف كتابه هذا على كتاب "توللي ريتشارد" كأحد المصادر الرئيسية، نظراً لأنها كانت شاهدة عيان لكثير من أحداث تلك الفترة التاريخية، وقد جاء في كتابها أنه طلب منها

¹ - اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 141.

² - Ch. Veraud, Op.Cit,p274.

³ - عمر علي ابن إسماعيل، مرجع سابق، ص 63.

⁴ - كوستانزيو برنيا، مرجع سابق، ص 273.

⁵ - رئيس البوابين في القصر السلطاني، وكان يعد منصباً قيماً من مناصب القصر الهمايوني ينظر: سهيل صابان، مرجع سابق، ص 171.

⁶ - ويسمى قبطان دريا Captan-Derya أميرال البحرية الكبير ورئيس الأسطول العثماني وهو أعلى رتبة عسكرية في البحرية العثمانية: ينظر سهيل صابان، مرجع سابق، ص 177.

⁷ - ميكافي رودولفو، مرجع سابق، ص 59.

الصعود على سطح القنصلية الإنجليزية لرؤية الباشا الكاذب الذي كان يغادر الميناء متوجها إلى القلعة ليستولي عليها ، ثم تقول أن هذا الباشا كان كاذبا حيث لا يوجد أي شخص في طرابلس يشك في أن هذا الفرمان غير مزور، حيث نجدتها تقول في صفحات كتابها " لقد ظهرت في الميناء عدة سفن تركية بقيادة علي بن زول ونزل من إحدى هذه السفن قبطان باشا واعلم الباشا بأنه يوجد في السفينة علي بن زول مرسل من السلطان العثماني بفرمان لتولية البلاد، ثم علمنا بأن هؤلاء الأتراك لم يكونوا من القسطنطينية، وإنما هم غزاة حضروا لنهب المدينة¹ .

بعد أن استولى علي الجزائري على قلعة المدينة تركز في طرابلس بصفة نهائية، ومعظم المؤرخين الذين يصفون مرحلة علي الجزائري وخاصة بعد استيلاءه على طرابلس يجمعون على انه كان يحمل فرمانا يرسمه نائبا للسلطان في إيالة طرابلس الغرب² ، وبوصوله إلى ميناء طرابلس شعر الباشا علي (1754-1793) بشيء من هممة الشباب فكان يود المقاومة، لكن الرعب استولى على قلوب جميع من كانوا ا حوله، أما الأهالي الذين أنهكهم الحصار الطويل وكانوا يخافون الجوع إذ أغلق الأسطول التركي الميناء، فقد أقنعهم شيخ البلد بوجوب الخضوع والتسليم³ ، وقد فضل علي الحرب ليلا بثروته ونسائه وأبنائه واتجه بحرا إلى تونس .

بدأ الحاكم الجديد نشاطه بتدعيم سلطته الخاصة ونفخ شخصيته الذاتية واستهل أوامره باستبدال مراسيم الدخول إلى بلاطه ، فصار على القناصل والممثلين الأجانب منذ ذلك الحين أن ينزعوا أحذيتهم عند دخول القصر وان يتخلوا عن سلاحهم ويقبلوا يد الباشا عند لقائه⁴ .

عمل علي باشا الجزائري فور تسلمه الإدارة على التخفيف من قيمة الضرائب المفروضة على الولاية اتجاه المركز وضرب العصاة ولاحقهم، وألزم الجند بالطاعة وهدد المخالف منهم بالجلد⁵ ، ومن الصعوبات التي واجهته هي تسديد مرتبات جنوده المرتزقة ففرض على سكان طرابلس وعلى الجالية اليهودية بالدرجة الأولى ضرائب جديدة، وقد ترك هذا الاستبداد الشخصي تأثيراً كبيراً على سكان المدينة، ولما كان الأعيان يعلمون أن دورهم سيأتي أخذو بمغادرة المدينة⁶ ، كما أصدر علي الجزائري أمراً بإعدام أي تاجر يمتنع عن فتح متاجره ويوقف أعمال أعمال التجارة، وبصورة تدريجية أخذ جو الرعب يسود البلاد ، ويصور لنا ميكافي رودولفو الوضع المتأزم في

¹ - ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص 561.560.

² - اليتش بروتشين ، مرجع سابق، ص142.

³ - ميكافي رودولفو، مرجع سابق، ص 121.

إن السهولة التي احتل بها علي برغل طرابلس في عام 1793م لا يمكن تبريرها على نحو مقبول إلا بالشلل السياسي الذي عم البلاد كنتيجة لإحياء مشاكل أسرية إضافية داخل الأسرة القرمانلية في العهد الأخير من فترة حكم علي باشا، وكانت الشخصية الرئيسية التي لعبت دورا في هذه المسألة التي في النهاية إلى اندلاع حرب أهلية في طرابلس، ثم إلى احتلال أجنبي تمثل في شخصية سيدي يوسف الابن الثالث والأصغر للباشا. للمزيد عن تلك الحرب الأهلية ينظر: كولافو لايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرمانلي، ت. عبد القادر مصطفى المحيشي، مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ط1، طرابلس، 1988، ص 19.

⁴ - اليتش بروتشين ، مرجع سابق، ص144.

⁵ - محمود علي عامر، مرجع سابق، ص 94.

⁶ - اليتش بروتشين ، مرجع سابق، ص144.

طرابلس قائلاً: "ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أصبح الأهالي يتوقعون ما هو أسوأ ، ولما كان التجار العرب واليهود يخافون على أموالهم أكثر مما كانوا يخشون على حياتهم، فقد رحلوا عن المدينة، أو اعتكفوا في منازلهم وأصبح منظر المدينة يدل على الكآبة والموت، وكان الواقع يفوق كل ما يمكن يتوقعه، إذ أن حكومة علي برغل كانت قاسية كل القسوة، وكانت تستعمل العنف والتجريد من الأموال وتحكم بالإعدام لأتفه الأسباب، كما ألزمت الطائفة اليهودية بدفع معونة مالية تبلغ ستين ألف زكيني، وصادرت أملاك الكثيرين من المسلمين ، وكان يحكم بالإعدام على كل من يشبهه في أمره، وبالجملة فقد كانت حكومة إرهابية بمعنى الكلمة وبقيت ذكراها في نفوس الأهالي زمناً طويلاً"¹ ، وعندما شعر علي برغل بالقوة بسبب الانتصار الذي أحرزه في طرابلس واستيلاءه عليها، بدأ في تنفيذ مخططاته المعادية لتونس ومن الأعمال التي قام بها حجزه في جانفي من سنة 1794م لإحدى سفن القرصنة التونسية المسلحة ب 28 مدفعا وطاقم مؤلف من مائتي رجل بعد أن اضطرب بسبب العواصف إلى اللاتجاه لميناء طرابلس، ومنها دعوته لجنود الترك بتونس إلى ترك البلاد والاتحاق به للعمل تحت راية الدولة العثمانية².

عقب إقرار السلطان العثماني به كباشا لطرابلس بدأ علي برغل سياسة خارجية مفعمة بالنشاط موجهة ضد المطامع الإقليمية لتونس³، فشرع في تنفيذ خطته التوسعية ضدها⁴، ففي يوم 24 سبتمبر 1794م أقفلت سبعة سفن مسلحة من طرابلس متجهة نحو جزيرة جربة⁵، تحمل حوالي 1000 رجل بقيادة قره محمد⁶ بدون استئذان من الباب العالي، فهجموا على الجزيرة صباحاً ففر عاملها، ثم نادى قره محمد في الناس بالأمان وفتح مكتوباً زعم انه من مقر الخلافة⁷، وعندما علم حمودة باشا (1782-1814م) بأن مغتصب الإيالة الطرابلسية قد تعدى حتى على أراضي تونس⁸، وجه ضده جيشاً انضم إليه الأميران احمد ويوسف⁹ لاستعادة جربة واعداد

¹ - ميكاكي رودولفو، مصدر سابق، ص 124.

لم يمضي يوم دون قطع رأس بعض الأتراك والمراكشيين ممن يقيمون في البلاد، ومن القادمين من الخارج، وأصبحت الحكومة بالغة القسوة لدرجة أنها كانت تقطع رؤوس ثمانية أشخاص في بعض الأيام، وعشرة في أيام أخرى، وكان هناك من يتم خنقهم أو دفنهم أحياء، وكان علي برغل يخرج بنفسه في الليل يتجول متنكراً حتى في خارج المدينة، وما كان ليرجع إلى القلعة دون أن يلوث يديه بدم إنسان، كان رجلاً ببريا قاسي القلب أسوأ من نبيرون واشد قسوة منه. ينظر: ميكاكي رودولفو، مرجع سابق، ص 124.

² - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 371.

كان من بين الأسباب التي أدت بعلي برغل إلى احتلال جزيرة جربة أنها كانت في السابق تابعة لطرابلس، هذا إضافة إلى رغبة علي برغل الانتقام من حمودة باشا حاكم تونس بسبب مساعدته وتأييده للقرمانيين واستقبالهم كلاجئين سياسيين عنده (الأمير علي وولديه احمد ويوسف). ينظر: البيتش بروتشين، مرجع سابق، ص 147.

³ - كولافو لايان مرجع سابق، ص 37.

⁴ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 372.

⁵ - جربة : جزيرة تبعد عن طرابلس ب 200 ميل ، وكانت في الماضي تابعة لطرابلس الغرب .

⁶ - يذكر عنه ميكاكي رودولفو انه كان يعمل فيما مضى خزنداراً بالجزائر. ينظر ميكاكي رودولفو، مرجع سابق، ص 127.

⁷ - أحمد النائب ، مصدر سابق، ص 303.

⁸ - A.Rosseau, Op.Cit,p228.

⁹ -Ch.Veraud, Annales Tripolitaines..., Op.Cit.p274.

كان حمودة باشا التونسي عقب احتلال طرابلس الغرب من قبل علي برغل قد منح حق اللجوء السياسي لعلي باشا القرماني المسن وولديه احمد

ويوسف في شهر أوت من سنة 1794م: ينظر -A.Rosseau-Op.Cit,230.231 -Ch.Veraud , Op.Cit.p283.et

إياهم بانتزاع طرابلس برمتها من علي برغل¹، وفي يوم 2 نوفمبر 1794م بينما كان الأسطول التونسي يقلع تجاه جربة، كانت تتحرك أيضا حملة برية إلى طرابلس قوامها نحو 20.000 رجل بما فيهم أحمد ويوسف القرمانليين بقيادة الوزير مصطفى خوجة²، وبعد استرداد جزيرة جربة التي أخلاها قره محمد عند اقتراحهم منها، إختزقت القوات التونسية الحدود وتقدمت في الأراضي الطرابلسية وعسكرت على طول طريق الرؤساء الموالين للأسرة الحاكمة المعزولة، وقد وصل جيش تحرير طرابلس الذي إزداد عدده حتى بلغ 30.000 رجل بالقرب من المدينة في 16 جانفي 1795م واحتلّ المنشية والساحل وتاجوراء أثناء الليل³، فأصبحت طرابلس مطوقة من جميع الجهات، فركب الرعب علي الجزائري وهو يتربّح مشهد الهزيمة الشاملة⁴، فحاول المقاومة ولكنه عندما تأكد من أنّ أنصاره قد انضموا إلى جانب يوسف قرّر مغادرة البلاد خوفا على حياته، وفي 19 يناير 1794م جهز ثلاثة سفن شحنتها بكل ما وصلت إليه يده، وفرّ هاربا نحو مصر، وهكذا إنتهى حكم علي برغل لطرابلس الغرب، والذي استمر م ن 29 جويلية 1793م إلى يوم 19 جانفي 1795م، وعادت البلاد من جديد لحكم الأسرة القرمانلية ممثلة في شخص يوسف باشا (1795-1832م)⁵.

ج- الموقف الجزائري من إستيلاء علي برغل على طرابلس:

مما عرف علي برغل أو علي الجزائري أنه عاش فترة طويلة في الجزائر⁶، كان فيها مسئولا عاما عن البحرية، وهو منصب شبيه بمنصب وزير البحرية، وكان قد صاهر داي الجزائر وتزوج من أسرته، مما يسّر له الترقى في المناصب حتى وصل إلى منصب وكيل الخرج⁷، لكنه طرد فيما بعد من الجزائر نتيجة لإتباعه الظلم بعد جمعه لثروة طائلة⁸، بعدما أثارت مطامعه اللامتناهية الشعب الجزائري⁹، إذ وبعد طرده من الجزائر توجه إلى استانبول وبدأ يستخرّ ما لديه من أموال بغية الحصول على إمارة طرابلس الغرب، فكيف كان موقف الجزائر ودائها حسن باشا(1791-1798م) من علي برغل الذي عاش ردحا من الزمن بها، وكيف كان موقفها من احتلاله لطرابلس وجربة؟

لقد اختلفت آراء المؤرخين حول موقف الجزائر من إحتلال علي برغل لطرابلس في فترة 1793-1795م، فنجد نقيب أشرف الجزائر الشريف الزهار في مذكراته يذكر لنا أن الداوي حسن في الجزائر قد دخله الرعب لما

¹-Ibid,p284.

²- ميكاكي رودولفو، مرجع سابق، ص 128. وابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص 24.

³- ميكاكي رودولفو، مرجع سابق، ص 128

⁴- يقول كولافو لايان بأن القوة التي غادرت تونس باتجاه طرابلس في نوفمبر 1794م كانت تحدف إلى تحقيق غرضين أولهما استعادة جربة وثانيهما إعادة الأسرة القرمانلية إلى عرش طرابلس، وكانت تتشكل من 20.000 إلى 30.000 مقاتل مع ستة مدافع قوية وعشرة قطع ميدانية وثلاثة مدافع هاون. ينظر: كولافو لايان، مرجع سابق، ص 38.

⁵- عمر علي ابن إسماعيل، مرجع سابق، ص 73.

⁶- محمود علي عامر، مرجع سابق، ص 95.

⁷- Ch.Veraud, Annales Tripolitaines,... Op.Cit,p273.

⁸- محمود علي عامر، مرجع سابق، ص 95.

⁹- كوستانزيو برنيل مرجع سابق، ص 273.

علم باستيلاء علي الجزائري على طرابلس، لأنه كان وكيل خرج فيها، قبل أن يغادرها على غير وئام وتفاهم معه إلى استانبول ومنها إلى طرابلس، فكتب إلى الباي التونسي حمودة باشا يطلب منه التوجه إلى طرابلس لإعادة صاحبها المبعود واللاجئ عنده، كما أبدى له استعدادا ورغبة لمساعدته بما يريد، وفي شأن ذلك يقول: "... ولما سمع به حسن باشا دخله الرعب منه وبعث لصاحب تونس، وأمره أن يتحرك لطرابلس ليعين صاحبها القديم، ويقول له أنني أردت أن أمدك بما تحب" ¹، إلا أن ما يبدو لنا أن تحرك حمودة باشا لطرابلس لم يكن استجابة لأمر داي الجزائر فقط، وإنما استجابة أيضا لطلب أحمد القرماني الإعانة منه ²، ولرغبة الباي حمودة نفسه التخلص من جار جار مزعج وعنيد، كان يطمح إلى التوسع على حساب مملكته، وأبان عن جدية في تحقيق ذلك باحتلاله لجزيرة جربة التونسية ³.

ومهما يكن الدافع الذي كان وراء إقدام حمودة باشا على إعادة عرش طرابلس لأسرة آل القرماني فإنه لما بلغ فرار علي برغل إلى مصر لداي الجزائر حسن باشا، كتب هذا الأخير إلى حمودة باشا في تونس يشكره على طرده من طرابلس وإعادة الحكم للأسرة القرمانية قائلا: "...ولما بلغ خبر هروب علي برغل لمصر إلى حسن باشا كتب إلى حمودة باشا يشكره على فعله" ⁴، كما يمكن اعتبار تصرفات علي برغل ضد حمودة باشا من بين الأسباب الأسباب التي دفعت الباي التونسي حمودة إلى شن حملة ضده، ومما يؤكد ذلك ما ذكره عمر علي ابن إسماعيل من أن علي برغل لم يعمل على كسب صداقة حمودة باشا باي تونس، بل كان يراه عدوا له، فعمل علي تحريض بعض التجار من الجزائريين وبعض البدو التابعين لتونس على القيام بثورة ضده، وعندما لم يتحقق له غرضه هذا اصدر أوامره إلى بحارته بالقبض على أي سفينة تونسية ومصادرتها ⁵، وما يؤكد ذلك أيضا ما ذكره ميكافي رودولفو من أن علي برغل كان يشعر بحقد شديد على الحكومتين المجاورتين في افريقية تونس والجزائر ⁶. ومما يذكره لنا ألفونسو روسو في الحوليات أن هذه الحملة المحظوظة والموفقة على طرابلس رفعت عاليا شهرة حمودة باشا بين العرب وأحدثت مزيدا من الغيرة والاعتياظ لدى حكام الجزائر، كما أثارت ضده غيرة وحساسيات الديوان الجزائري ⁷، ومما تجدر الإشارة إليه أن روسو لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في إثبات مقولته هذه.

والذي لا شك فيه هو أن النجاح الذي حققه حمودة باشا في حرب طرابلس قد أكسبه تجربة في حوض الحرب بعيدا عن العاصمة تونس، هذا ما جعله يتجرأ فيما بعد على تكرارها في الجزائر سنة 1807م.

¹ - الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 62.

² - نفسه، ص 63.

³ - ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 3، ص 23.22.

⁴ - الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 63.

⁵ - عمر علي ابن إسماعيل، مرجع سابق، ص 73.

⁶ - ميكافي رودولفو، مرجع سابق، ص 126.

⁷ - A.Rosseau, Op.Cit, p231.

2- الوساطة الجزائرية في عقد معاهدة بين طرابلس والولايات المتحدة الأمريكية:

بتولي يوسف باشا الحكم¹، دخلت إيالة طرابلس مرحلة جديدة تعتبر من أهم مراحل تاريخها الحديث، فهي إلى جانب كونها مرحلة تحسن شامل شهدته البلاد في جميع المجالات ومرحلة استقرار نسبي للأوضاع الداخلية فهي كانت مليئة بالأحداث الدولية التي ارتبطت بها إيالة طرابلس الغرب بحكم موقعها الاستراتيجي الهام على الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، فقد شهدت هذه الفترة صراعا وتنافسا بين مختلف القوى البحرية الأجنبية ومحاوله كل منها الهيمنة والاستحواذ على تجارة المنطقة، التي كانت توفر دخلا مجزيا لإيالات المغرب.

هذا وقبل التطرق إلى دور الوساطة الجزائرية في إبرام الصلح بين الولايات المتحدة وطرابلس لابد من إعطاء نبذة عن بدايات التواجد الأمريكي في حوض البحر الأبيض المتوسط.

أ. دخول الولايات المتحدة البحر الأبيض المتوسط :

يعتبر القرن السادس عشر ميلادي من أهم القرون بالنسبة إلى أوروبا ، لأن هذا القرن ترسخت فيه عملية الاستكشاف البحري ، حيث بدأت السفن الشراعية تزاوّل نشاطها في التعرف على موانئه ، وتدخل في علاقات دولية كثيرة على أساس المنفعة التجارية² ، ومن تلك الدول نجد الولايات المتحدة الأمريكية والتي ظهرت أولى مراكبها في مياه البحر الأبيض المتوسط في سنة 1034هـ/1625م عندما استولت البحرية المراكشية على مركب شراعي أمريكي من مستوطنة إنجلترا الجديدة " New England " ³، وفي سنة 1678م وقع مركب آخر في يد المراكشيين والذي كان على ظهره الدكتور ماسون " Mason" ، والذي أبحر من إحدى المستوطنات الأمريكية إذ شغلت عدم عودته الرأي العام الأمريكي ، وبحلول القرن الثامن عشر ميلادي زاد عدد المراكب الأمريكية التي تتعرض للأسر وعدد الأسرى الأمريكيين في إيالات الشمال الإفريقي ، وخاصة مراكش والجزائر على الرغم من أنها كانت تبحر تحت العلم البريطاني ، الذي لم يستطع توفير الحماية اللازمة لها على ما يبدو ، وعندما استقلت الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1776م ، كانت السفينة ماريا « Maria » المبحرة من بوسطن تحت العلم الأمريكي والذي لم يكن معروفا قبل هذا الحادث في شمال إفريقيا تقع في يد البحارة الجزائريين ، فارتفع بعد ذلك عدد المراكب التجارية التي تقع في الأسر نتيجة لازدهار التجارة الأمريكية عبر البحر الأبيض المتوسط ، والذي حقق فائضا في الأرباح خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر⁴ ، وانطلاقا من إنعاش التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط اتخذت الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة خطوات حيوية لتحصل من حكام إيالات الشمال

¹ - باشا طرابلس (1795-1832) وهو أشهر شخصية في سلالة القرمانلي التي حكمت طرابلس، وعرف باعتباره أول رئيس دولة يعلن الحرب على الولايات المتحدة المستقلة حديثا في حرب استمرت بين عامي (1801 - 1805).

² - محمد الهادي أبو عبد الله ابوعجيلة ، النشاط الليبي في البحر الأبيض المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية 1711-1835م، وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية، منشورات جامعة قارونس، ط1، بنغازي، 1997، ص255.

³ - تكرر جلين معارك طرابلس بين الأسطول الليبي، تر. عمر الديراوي أبو حجلة ، مكتبة الفرجاني، طرابلس . ليبيا ، 1967، ص194.

⁴ - الشتيوي منصور عمر ، حرب القرصنة بين دول المغرب العربي والولايات المتحدة الأمريكية، مكتبة الفرجاني، ط1، طرابلس، ليبيا ، 1970، ص35.30 .

الإفريقي على ضمانات لأجل سلامة بحريتها في مياه المتوسط لقاء دفع إتاوة محددة ، إلا أن المطالب المرتفعة لحكام هذه الإيالات أفضت إلى إطالة أمد المفاوضات لسنوات طويلة دون جدوى ، كما أن توجه الولايات المتحدة الأمريكية إلى حليفها فرنسا بطلب التوسط لم يكمل أيضا بالنجاح ، ففرنسا شأنها في ذلك شأن إنجلترا لم تكن ترغب في أن يكون لها منافس جديد على التجارة في المتوسط ، فضلا عن ذلك رفض الفرنسيون طلب الولايات المتحدة باستخدام الأسطول الفرنسي لحماية سفنها من القراصنة¹.

إن اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالبحر الأبيض المتوسط لم يتجسد بصفة فعلية إلا بعد نيلها لاستقلالها عن التاج البريطاني سنة 1776م ، حيث أصبحت السفن الأمريكية تفقد الحماية التي كانت بريطانيا تقوم بها لمستعمراتها التجارية في أمريكا الشمالية، ولسلامة سفنها ، ولكن بعد الاستقلال أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تصادف الكثير من الصعوبات ، فكان عليها أن تجد حلولاً لتلك المصاعب خاصة وأنها أصبحت دولة ناشئة وفي بداية عصر التصنيع، وأنها أخذت تدفع بعجلة اقتصادها إلى الأمام ، فزادت منتجاتها الصناعية والزراعية ، الأمر الذي فرض عليها الدخول في تجارة البحر الأبيض المتوسط ، لتصدير الفائض من منتجاتها إلى دول شمال إفريقيا² ، ونتيجة لزيادة التجارة الأمريكية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، كان من الطبيعي أن تظهر ردود فعل كثيرة من خلال الهدف من السياسة الأمريكية التي سلكتها مع المناطق التي تتعامل معها تجارياً، فلم تكن التجارة وقتئذ إلا أسلوباً من الأساليب التي ابتكرت لخلق مناطق نفوذ ، ومن ممارسة الهيمنة والسيادة عليها، لذلك فليس بغريب أن يكون للتجارة في مفهوم الوطنية الأمريكية معنى آخر يستهدف السيادة ، وهذا المفهوم يعتبر من الإيديولوجية الوطنية قديماً جداً ، فقد مارسته أوروبا في سياستها الخارجية ، وحققت عن طريقه بسط نفوذها وسيادتها في مناطق كثيرة من العالم ، غير أن المفهوم في الوطنية الأمريكية والذي يزاوج فيما بين السيادة وأعمال التجارة قد اصطدم بمناوئين أشداء في كل من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب للسفن الأمريكية فلم تحقق أهدافها³.

¹ - اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 168.

² - محمد الهادي أبو عبد الله ابوعجيلة، مرجع سابق، ص 256.

³ - نجم الدين غالب الكيب، الحرب البحرية بين نيابة طرابلس الغرب وأمريكا (1801-1805)، طرابلس، ليبيا، 1971، ص 26.25.

فقدت نيابات الشمال الإفريقي حيويتها واندفاعها للنزاعات المحلية التي عصفت بالنيابات الثلاث فالولاة العثمانيون وجدوا ابتزاد النفوذ الأوروبي في المنطقة إفساداً لمهماتهم وإقصاءً علنياً للمد العثماني ، فقدموا تقريراً للسلطان العثماني يعلمونه بذلك ، وبما أن السلطان لم يتخذ أي إجراء عملي ، فقد فضل الولاة وسكان الولايات الاعتماد على إمكاناتهم المحدودة فالأسطول العربي ظل يمارس نشاطه البحري بسفن القرون الماضية ، في حين انصرفت الدول الأوروبية إلى تطوير أساطيلها البحرية إضافة إلى ممارسات سياسية أكدت أطماع دول أوروبا بممالك الدولة العثمانية في مناطق الشمال الإفريقي . ينظر محمود علي عامر، محمد خير فارس، مرجع سابق، ص 228.

في ظل هذه الظروف شكل الكونغرس الأمريكي سنة 1784م لجنة خاصة على مستوى رفيع تضم كل من ج. أدامز و ف. فرانكلين وت. جيفرسون وأوكلوا إليها مهمة دراسة موضوع عقد معاهدات مع دول المغرب لحماية ملاحتها البحرية في حوض المتوسط¹ ، وتقديم المشورة الممكنة ، وفي السنة التالية أمر الكونغرس أعضاء اللجنة بالشروع في المفاوضات مع حكام الشمال الإفريقي² ، ف وقعت الولايات المتحدة الأمريكية أول معاهدة للصدقة والتجارة مع المغرب الأقصى "مراكش" في سنة 1785م³.

كانت توجد أربع دول مغربية يتحتم على الولايات المتحدة أن تعقد معاهدات معها ، والمرجح أن المعاهدة مع الجزائر ستكلف أكثر مما تكلفه المعاهدات مع الدول الأخرى مجتمعة ، والكونغرس لم يعتمد سوى مبلغ 80 ألف دولار للمعاهدات مع الدول الأربع ، فكان عقد المعاهدة مع المغرب الأقصى نجاحا حقيقيا حققته الولايات المتحدة في سياستها مع دول المغرب ، وأما المفاوضات التي دخلت فيها مع الجزائر وطرابلس فقد أسفرت عن فشل ذريع⁴ ، ومع ذلك فان الموضوع لا يخلو من مغزى وأهمية بسبب وقوع بعض الأمريكيين في الرق ، ومطالب الدولتين المغريتين ، والوسائل المؤقتة المختلفة التي التجأت إليها الولايات المتحدة أو فكرت في اتخاذها فيما يتعلق بتحقيق السلام ودفع الفدية ، وبسبب الظروف التي أحاطت بالمفاوضات والتي أدت إلى فشلها⁵ ، وكانت المحاولة اقل نجاحا في عقد معاهدة مع الجزائر وهي واحدة من أقوى إيالات الشمال الإفريقي التابعة للدولة العثمانية تملك أسطولا كبيرا للقرصنة⁶ ، كما أن إعلان الهدنة بين اسبانيا والجزائر سنة 1785م والتي سمحت للجزائريين بالوصول إلى المحيط الأطلسي⁷ ، تلك المعاهدة التي تدوم لمائتي سنة، وهكذا أقلعت سفن جزائرية نحو المحيط الأطلسي للبحث عن سفن أمريكية ، فكانت أول سفينة أمريكية تأسرها الجزائر هي ماريا " Maria من بوسطن ، وذلك في 25 جويلية 1785م على مسافة ثلاثة أميال جنوب شرق خليج « Cape .St.Vincent » وكان على متنها سبعة بحارة تحت قيادة القبطان « Isaac Stephens » ، ثم بعد خمسة أيام القي القبض على سفينة تجارية أخرى اسمها « Dauphin » على مسافة سبعين عقدة جنوب غرب لشبونة تحت قيادة « Richard O'brien » وعلى متنها 14 بحارا ، واجبر جميع الأسرى على العمل في الأعمال الشاقة⁸.

¹-E.Dupuy, Américains Barbaresques 1776-1824, presentation. A.Blondy, Editions Bouchene, 2002, p30.

² - البيتش بروتشين، مرجع سابق، ص 168.

³ - راي إروين، مرجع سابق، ص 55.54.

⁴ - في نفس الوقت الذي دخلت فيه الولايات المتحدة الأمريكية في مفاوضات مع المغرب الأقصى ، كانت قد باشرت مفاوضاتها مع إيالتي الجزائر وطرابلس في الفترة ما بين 1784-1795م من اجل عقد معاهدات مع الدولتين مشاهمة لتلك التي عقدتها مع المغرب الأقصى سنة 1785م .

⁵ - راي إروين، مرجع سابق، ص 63.59.

⁶ - البيتش بروتشين ، مرجع سابق، ص 169.

⁷ - راي إروين، مرجع سابق، ص 63.

⁸ - علي تابلت ، الأسرى الأمريكان في البلدان المغاربية 1784-1816م، المجلة التاريخية المغاربية ، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي

والمعلومات، عدد 142، مارس 2011م، ص 29.

بذلت الولايات المتحدة الأمريكية مجهودات كبيرة لآجل عقد اتفاقيات مع دول المغرب الثلاث المتبقية الجزائر وتونس وطرابلس مثل ما فعلت مع المغرب الأقصى ، ففيما يتعلق بطرابلس فقد كان اللقاء الذي جمع السفير الطرابلسي عبد الرحمن البديري بكل من جون ادمز وتوماس جيفرسون في لندن سنة 1786م أول لقاء عالي المستوى بين مسؤول طرابلسي ومندوب عن الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان السفير الطرابلسي في مهمة رسمية في ذلك العام وقد استغرب عدم حضور المبعوث الأمريكي لمقابلته كما فعل وزراء خارجية الدول الأخرى الذين كانوا في لندن آنذاك، ويظهر أن الأمريكيين قد تنبهوا للأمر واستغلوا هذه الفرصة لمقابلة الدبلوماسي الطرابلسي على أمل الوصول معه إلى عقد اتفاقية أو معاهدة، وبالفعل عقدت عدة اجتماعات درست خلالها العلاقات بين البلدين¹، وقد أبلغ الحاج عبد الرحمن² مفاوضيه أن الوصول إلى سلام دائم مع بلاده لا يكلف الولايات المتحدة الأمريكية سوى 30 ألف جنيه³، ويمكن تقسيم المبلغ على دفعات، أما إذا كان السلام لمدة محدودة فإن المبلغ بالتأكيد سيكون أقل، كما أكد السفير الطرابلسي أنه بإمكان الولايات المتحدة الأمريكية عقد هذا الاتفاق مع تونس ومراكش ، وعلى الأرجح أن الجزائر ستطلب مبلغا أكبر ، وبعد هذه المحادثات التي لم تؤد إلى نتيجة، يئس المفاوضون في الوصول إلى اتفاق مع طرابلس نظراً لعدم وجود اعتمادات مالية تغطي ما تطالب به إيالات المغرب ، وفي بداية سنة 1787م وقبل رجوع السفير الطرابلسي إلى بلاده التقى من جديد مع جون ادمز الذي أبلغه بأنه لم يتلق أي تعليمات أخرى من حكومته⁴، وهكذا أقفل ملف المفاوضات بين الطرفين دون الوصول إلى عقد معاهدة أو إتفاقية.

أما فيما يتعلق بالمحاولات الأمريكية في إبرام اتفاقية مع الجزائر، إذ وبينما كانت السلطات الأمريكية تقوم بالخطوات الأولى لبناء أسطول حربي ، كان الأمل لا يزال يساورها في التوصل إلى تسوية سلمية مع الجزائر⁵، فكان أول المبعوثين الأمريكيين إلى الجزائر جون لام « John Lamb » وكان الممثل الأمريكي الأول فيها ، ورناندال « Randal » وذلك في سنة 1786م لأجل التفاوض على عقد معاهدة سلم مع الجزائر ، إلا أن الداوي محمد عثمان باشا رفض استقبالهما⁶، على أن أول معاهدة بين الجزائر والولايات المتحدة لم تعقد إلا سنة 1795م حيث دامت الاتصالات والمفاوضات عشر سنوات كاملة، وأثناء هذه المدة لم تترك الولايات المتحدة الأمريكية دولة أوروبية إلا واتصلت بها ، من الصغرى كالبندقية إلى المتوسطة كهولندا إلى الكبرى كروسيا القيصرية، لتكون معها حلفا ضد الجزائر خاصة والدول المغربية عامة⁷.

¹ - الشتيوي منصور عمر، مرجع سابق، ص 10.9.

² - كان يعمل سفيرا لطرابلس بلندن.

³ - الشتيوي منصور، مرجع سابق، ص 10.

⁴ - راي إروين ، مرجع سابق، ص 70.69.

⁵ - نفسه، ص 103.

⁶ - مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج1، دار الأمة، ط2، الجزائر، 2007، ص 218.219.

⁷ - نفسه، ص 219.

عندما فشلت الولايات المتحدة الأمريكية في تكوين حلف أوروبي ضد الجزائر ، سأل الرئيس جورج واشنطن في 08 مايو 1792م مجلس الشيوخ الأمريكي عما إذا كان يوافق على مشروع لعقد معاهدة سلم مع الجزائر ¹ ، وبناءً على ذلك طلبت الولايات المتحدة من قنصل السويد بالجزائر سكجولدبراند « Skjoldebrand » أن يقوم بحس النبض لمعرفة رغبات الداى فيما يتعلق باستقبال مبعوث أمريكي ² ، وفي مقابلة بين القنصل والداى حسن باشا (1791-1798م) صرح الأخير بأن المبعوث الأمريكي يستطيع القدوم في أي وقت شاء ، لكن عقد السلم سيكلف الولايات المتحدة مبلغا كبيرا لفدية الأسرى ولدفع ضريبة سنوية كما هي العادة مع بقية الدول ³ ، هذا وقد شرعت الولايات المتحدة الأمريكية في مفاوضاتها الجادة مع الجزائر ، فبعثت بشخصية دونالدسون الذي وصل إليها في 3 سبتمبر 1794م ، فشرع في مفاوضات مع الداى حسن باشا ، ويقول جيمس ليندر كاتشارت أن الداى قد طالب في البداية بمبلغ 2.247000 دولار تدفع منها قيمة شراء سفينتين حربيتين كل واحدة منها ذات 36 مدفعا، ومبلغا كبيرا من المال لشراء العتاد الحربي يدفع ضريبة سنوية وهدايا مرة في كل سنتين من النمط الذي تدفعه هولندا والسويد والدانمارك، ولما عرض دونالدسون مبلغ 543000 دولار أبدى الداى احتقاره لهذا العرض، على أن الداى لم يصبر على طلبه الأول، بل عرض أن يقبل مبلغ 982.000 دولار ، ولكن دونالدسون ابلغ الداى انه ليس بإمكانه دفع هذا المبلغ، فكان رد الداى انه إذا لم يكن لدى دونالدسون عرض آخر يتقدم به فعليه أن يغادر الجزائر ⁴ ، وأخيرا وبعد إسترضاءات وتوسطات ومحاولات، قبل الداى حسن بعقد معاهدة سلم مع الولايات المتحدة، ولكن بشروط كانت مرهقة لها ⁵ .

تم توقيع معاهدة السلام بين الولايات المتحدة والجزائر في 5 مارس 1795م تدفع الولايات المتحدة الأمريكية بموجبها مبلغ 642.500 دولار كفدية لمائة أسير، وكهدايا لحكومة الجزائر ⁶ ، وضريبة سنوية مقدارها 12.000 سكوين ⁷ جزائري وهو ما يساوي 21.600 دولار تدفع في شكل تجهيزات بحرية ⁸ ، بالإضافة إلى مبلغ الفدية المنصوص عليه والذي وضعه دونالدسون ودفع من قبل خليفته جويل بارلو « Joel Barlow » مندوب الولايات المتحدة بالنيابة لدى الجزائر، وقد تسبب في تأخير الدفع سوء حالة الاقتصاد الأمريكي التي كان معها

سعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تكون حلفا ضد الجزائر ، فسعت إلى كل من الدانمارك وإيطاليا وهولندا وإسبانيا وفرنسا وحتى إلى روسيا تحثها على تشكيل حلف أوروبي أمريكي ضد الإيالات المغربية في شمال إفريقيا عامة والجزائر على وجه الخصوص .

¹ - راي إروين ، مرجع سابق، ص 227.

² - E.Dupuy, Op.Cit, p71.

³ راي إروين ، مرجع سابق ، ص 104.

⁴ - نفسه ، ص 107.706.

⁵ - مولود قاسم نايت بلقاسم، مرجع سابق، ج 1، ص 228.

⁶ - وليام سينسر، مرجع سابق، ص 186.

⁷ - Sequin: عملة من الذهب ذات قيمة غير ثابتة، كانت تستعمل في الجزائر وفي الدويلات الإيطالية وفي تركيا، وكانت تساوي في الجزائر في ذلك الحين دولارين (بالدولار الإسباني) للقطعة .

⁸ - راي إروين ، مرجع سابق، ص 227.

الحصول على المبلغ الضروري في غاية الصعوبة¹، وفي شأن ذلك يقول القنصل الأمريكي اللاحق بالجزائر وليام شالر (1816-1824م) ما يلي: "إن الأحوال المالية لأمريكا كانت إذ ذاك من الضعف، بحيث عانت الحكومة مشقة كبيرة في جمع هذا المبلغ لمواصلة وإنهاء المفاوضات"².

وافق مجلس الشيوخ الأمريكي على الاتفاقية بين الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية في 02 مارس 1796م، فاضطرت هذه الأخيرة لأن تدفع ضرائب للجزائر في ظروف قاهرة، وعقب ذلك حينما اتسعت التجارة الأمريكية وازدهرت زادت مطالب الجزائر وتنوعت في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تبدي استعدادا للاستجابة إليها لكي تتجنب انقطاع العلاقات والذي سيؤدي إلى حدوث خسائر فادحة في تجارتها وفقدانها لسمعتها السياسية³.

وإذا ما ألقينا نظرة عن العلاقات الجزائرية الأمريكية خلال هذه الفترة سوف نلاحظ عددا من النتائج، فقد أطلق سراح الأسرى الأمريكيين بالجزائر⁴، وفي الوقت نفسه أقيمت علاقات سلام بين الولايات المتحدة وأقوى بلدان المغرب وأخطرها شأنا، ثم إن الداي حاكم الجزائر وعد بأن يساعد ويتوسط لدى الولايات المتحدة للوصول إلى عقد معاهدات لدى كل من حمودة باشا باي تونس ومحمد يوسف القرماني باشا طرابلس لعقد معاهدة سلم معهما بضمان من داي الجزائر نفسه⁵.

ب- المفاوضات الطرابلسية الأمريكية :

إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد أهملت عن عمد أو غير عمد المفاوضات مع طرابلس في أواخر عهد علي القرماني، وحتى فترة حكم علي الجزائري، على الرغم من أن علي الجزائري كان على علم بأحوال هذه الدولة الجديدة والناشئة، غير أنه لم يكن في وضع يسمح له بمواصلة الحملات البحرية ضد المراكب الأمريكية أو ضد غيرها، وعند تولي يوسف باشا مقاليد الأمور واعتماده على البحرية في إعادة بناء إيالة وتأكيد سيادتها وتزايد الحملات البحرية خلال (95-1797م)، واستيلائها على العديد من المراكب المختلفة بما في ذلك

¹ - وليام سبنسر، مرجع سابق، ص 186.

² - وليام شالر، مصدر سابق، ص 130.

³ - وليام شالر، مصدر سابق، ص 131.

⁴ - لعب اثنان من الأسرى دورا هاما وهما كاتشارت واوبريان في تقديم معلومات إلى مفاوضي السلام، والقناصل الأمريكيين في البحر الأبيض المتوسط، والرسامين في الولايات المتحدة حول وضعيتهم في الجزائر، قدم كاتشارت خلال مدة أسره 12 عاما تقريرا، مساعدات مالية ومواد غذائية لرفاقه الأسرى، فهو من مواليد أيرلندا في جوان 1767م، ذهب إلى أمريكا عشية الثورة الأمريكية، والتحق بالبحرية خلال الحرب على ظهر الفرقاطة الأمريكية «Confederacy»، والقي عليه القبض من قبل البريطانيين في نيويورك، غير أنه دبر الفرار بعد سنتين من السجن، وتعاطى التجارة إلى تاريخ أسره من قبل الجزائريين سنة 1785م، أما الأسير المشهور الآخر فهو ريتشارد اوبريان «Richard O'Brien»، فهو مواطن من Maine أصبح ضابطا بحريا متمرنا في فرجينيا، وصل إلى رتبة رقيب في الثالثة والعشرين من عمره في قيادة شرعية بصاريين Jefferson خلال الثورة الأمريكية، وبعد الحرب اكتسب شرعية للتجارة في سوق West India غير أنه فقدها في الرحلة الأولى، بعدها مباشرة أبحر على ظهر السفينة Dauphin من فيلادلفيا نحو البحر المتوسط، أين ألقى عليه الجزائريون القبض على تلك السفينة في عام 1785م. ينظر: علي تابلت، مقال سابق، ص 31.30.

⁵ - وليام شالر، مصدر سابق، ص 130. و راي إروين، مرجع سابق، ص 119. ومولود قاسم نابت بلقاسم، مرجع سابق، ج 1، ص 232.

المراكب الأمريكية ، فقد استولى الرئيس مراد¹ بتاريخ 08 سبتمبر 1796م على أول مركب أمريكي في عهد يوسف باشا ، إلا انه وتماشيا مع سياسة الاحترام المتبادل بين إيالات المغرب، فقد أطلق الباشا سراحه نظرا لجواز سفره الجزائري حيث كان يحمل لها الجزية السنوية، ويبدو أن هذا الحادث قد نبه الولايات المتحدة إلى عودة النشاط البحري الطرابلسي في مياه البحر المتوسط ، وبالتالي أصبحت تشكل خطورة كغيرها من إيالات المغرب على مراكبها التجارية، وان عملية سلامها مع الجزائر تبقى ناقصة ما دامت هناك قوة أخرى تهدد تجارتها وعليها البحث عن وسيلة تحقق لها السلام مع طرابلس أسوة بالجزائر التي عقدت معها معاهدة في سنة 1210هـ/سبتمبر 1795م .

ج- دور الجزائر في إبرام الصلح الأمريكي الطرابلسي :

إن إبرام المعاهدة الجزائرية الأمريكية في 05 سبتمبر 1795م كانت قد تصادفت مع اعتلاء يوسف القرماني لعرش طرابلس الغرب بعد القضاء على علي برغل الثائر والمغتصب لها مدة 3 سنوات واستعادة الحكم للأسرة القرمانية ، على أن المعاهدة الجزائرية الأمريكية لم تعطي للولايات المتحدة الأمريكية موطن قدم لها في السواحل المغربية وفتح البحر الأبيض المتوسط أمام تجارتها فحسب، بل جعلت من داي الجزائر بعد برطلته بالهدايا الضخمة مستشارها الأمين في المنطقة ومساعدتها في الوصول إلى تسويات مماثلة مع تونس وطرابلس² . قامت البحرية الطرابلسية بأسر سفينتين أمريكيتين صوفيا وتسي³ ، فتم إطلاق سراح الأولى لأنها كانت تحمل أموال الاتفاقية التي كانت الولايات المتحدة ستدفعها لداي الجزائر حسن باشا، في حين أن الثانية تم تحويلها إلى سفينة قرصنة واستعبد بحارتها⁴ .

إن حصول الولايات المتحدة الأمريكية على معاهدة مع طرابلس كان أمراً صعباً وأكثر تكلفة، فقد كان باشا طرابلس يوسف القرماني أكثر تعنتاً ، وكان من الواضح أنه يريد الدخول في منافسة مع داي الجزائر حسن باشا (1791-1798م) في المجال السياسي⁵ .

قررت أمريكا الدخول في مفاوضاتها مع طرابلس الغرب من أجل إطلاق سراح رجالها المعتقلين وفي نفس الوقت توقيع معاهدة صداقة مع طرابلس لصالح تجارتها في حوض البحر الأبيض المتوسط⁶ ، ففي شهر أكتوبر من سنة 1796م، تم تفويض أوبريان لعقد معاهدة سلام مع طرابلس التي وصلها في شهر نوفمبر من نفس السنة ،

¹ يعتبر من العناصر البشرية الوافدة إلى البحرية الطرابلسية حيث اعتنق الإسلام واتخذ اسم مراد بدلا من بتر ليسلي ، وقد اشتهر بغزواته البحرية والتي استطاع من خلالها الحصول على العديد من الأسرى والمراكب ، فقد قام بسبعة حملات خلال ثلاث سنوات (96-97-1798م) حيث تحصل من خلالها على سبعة مراكب تابعة لكل من الدانمارك وأمريكا والسويد والنمسا، وقد بلغ ثمن هذه الغنائم ما يزيد عن 30.000 فرنك ، كما قام بعدة حملات أخرى فيما بعد ضد مراكب نابولي وروسيا وهامبورغ. ينظر أحمد سعيد الطويل ، مرجع سابق، ص 178.179.

² تكرر جلين ، مرجع سابق ، ص 165.166.

³ بينما نجد عند اروين أن الاستيلاء على السفينتين كان في شهر سبتمبر .

⁴ كولافو لاين ، مرجع سابق، ص 51. و ميكاي رودولفو، مرجع سابق، ص 136.

⁵ كان يوسف باشا القرماني متمسكا بطلباته وهي مساواة طرابلس بتونس والجزائر وجعلها في نفس المرتبة معهما.

⁶ كولافو لاين ، مرجع سابق، ص 51.

وعلى الفور إتصل بيهودي يدعى فرفرا ، كما قام بزيارة قنصل كل من السويد وفرنسا واسبانيا والدانمارك في طرابلس، وبعد تلك المحادثات استقبله يوسف القرمانلي ، وقد أثبت الاجتماع الأول بين السفير الأمريكي والداي حسن مدى غيرة يوسف القرمانلي من الداوي الجزائري وجشعه، ولاحظ أن الداوي وأمريكا أصبحا صديقين حميمين¹.

لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى داي الجزائر حسن باشا من أجل عقد إتفاقية السلام مع طرابلس ، فكتب باشا طرابلس يوسف القرمانلي حول الموضوع ، فرفض الباشا الطرابلسي قبول عرض الولايات المتحدة أثناء المفاوضات التي بدأت في شهر نوفمبر عام 1796م لقلّة المبلغ والذي بلغ 40.000 على أساس أنه كان أقل من المبلغ الذي كانت تدفعه الولايات المتحدة لكل من الجزائر وتونس والذي كان يتجاوز 642.500 دولار و107.000 دولار على التوالي ، وهنا وعد المفاوض الأمريكي ريتشارد أوبرايان الباشا الطرابلسي بسفينة إضافة إلى أموال الإتفاقية والهدايا القنصلية.

تم توقيع الإتفاقية الطرابلسية الأمريكية في 4 نوفمبر 1796م بمبلغ 40.000 دولار مع الهدايا القنصلية بمبلغ 12.000 دولار نقداً²، بالإضافة إلى هدايا أخرى تتمثل في ذخيرة بحرية³، على أنه فيما بعد خصص مبلغ 1000 دولار لتقدمه للقائد الأعلى للقوات البحرية الطرابلسية، وقد بلغ مجموع تكاليف المعاهدة 56.486 دولار، والمعاهدة تحتوي على 12 مادة صيغت على غرار المعاهدة الأمريكية الجزائرية والمعاهدة الأمريكية المغربية⁴ وكان ما ورد في المعاهدة الطرابلسية الأمريكية ما يلي: "هذه معاهدة سلم وصدّاقة مع باشا طرابلس بتاريخ 04 نوفمبر 1796م ، أمضيت بين محمد يوسف باشا ،باي طرابلس وجويل بارلو القنصل العام لأمريكا في الجزائر ووكيلها المفوض من الرئيس الأمريكي"⁵ ، هذا وبعد توقيعه للمعاهدة مع طرابلس ، حمل أوبرايان المعاهدة إلى الجزائر⁶ ، والتي وقع عليها الداوي حسن في 1 يناير 1797م⁷، وفي 10 فبراير 1797م صادق عليها هامفري ، وفي 10 جوان من السنة نفسها صادق عليها مجلس الشيوخ الأمريكي⁸.

إحتوت المعاهدة الأمريكية الطرابلسية على 12 مادة ، وتنص المادتان 1 و 12 على أن داي الجزائر هو الذي يضمن استمرار المعاهدة وانه من المطلوب إليه أن يقدم المساعدة لتسوية النزاعات التي قد تقوم بين الطرفين

¹ - راي إروين، مرجع سابق، ص125.

² - كولافو لايان، مرجع سابق، ص 51.

³ - شملت تلك الذخيرة البحرية أقمشة قنب وألواح وأخشاب وساعات ومجوهرات حيث قام القنصل أوبراين بتسليمها إلى يوسف باشا يوم 1796/11/21م بمدينة طرابلس . ينظر: كولافو لايان ، مرجع سابق، ص51.

⁴ راي إروين ، مرجع سابق، ص 126.

⁵ - مولود قاسم نايت بلقاسم، مرجع سابق، ج1، ص 232.233.

⁶ - راي إروين ، مرجع سابق، ص 126.

⁷ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 259.

⁸ راي إروين ، مرجع سابق، ص 126.

المتعاقدين¹، وقد جاء في المادة الأولى ما يلي: "هذه معاهدة سلم دائمة وصداقة متينة بين الولايات المتحدة الأمريكية وباي وسكان طرابلس البربروسقي بقبول الطرفين، وبضمان الداي القوي جدا، داي الجزائر"². ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا جعلت الولايات المتحدة من داي الجزائر كحلقة وصل بينها وبين باشا طرابلس؟ هل هو وسيط بين الطرفين أم مسؤول عن ذلك؟ وعلى الأرجح انه في نظر يوسف باشا وسيط وحليف ضد النصارى عموما، وهو يفترض أن يكون هكذا، أما في نظر الولايات المتحدة فهو مسؤول عن حماية هذا الاتفاق، ربما على اعتبار الجزائر أكبر قوة بحرية في المنطقة بالإضافة إلى كونها تحت السيطرة العثمانية أكثر من تونس وطرابلس.

وعلى أية حال مهما كان دور الجزائر في هذه المعاهدة فإنها جاءت تلبية للظروف التي كان يمر بها الطرفان في هذه الفترة، فطرابلس أحوج ما تكون إلى السلام في هذه المرحلة المبكرة من حكم يوسف باشا، والذي كان منهمكا في إعادة بناء بحريته وإعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد، الأمر الذي جعله يقبل هذه المعاهدة على الرغم من كونها تضع طرابلس في درجة أقل من تونس والجزائر، وهي مسألة وقت ليس إلا، أما بالنسبة للولايات المتحدة فهي كسب للوقت أيضا، فإعداد القوة البحرية يجري على قدم وساق وهو ما أكده الرئيس جورج واشنطن في 07 ديسمبر 1796م بقوله "...علينا القيام بإعداد أسطول بحري لبلادنا... فالأسطول ضروري لحماية علمنا وحيادنا، وأؤكد لكم أن تجارتنا في المتوسط سوف لن تعرف السلام بدون حماية"³، وفي الوقت نفسه كان قنصلها يجمعون المعلومات الضرورية عن الأساطيل البحرية لإبالات المغرب وأحوالها الداخلية وبث روح الفرقة بينها، وهكذا نجح هؤلاء الجواسيس "القناصل" في الحصول على المعلومات اللازمة التي سيتم بموجبها تحديد كبش الفداء.

إن إتفاقية سنة 1796م لسوء الحظ كانت تحمل معها بذور الخلاف المستقبلي، وكانت السبب الأساسي للنزاع المسلح للفترة ما بين 1801-1805م ما بين طرابلس والولايات المتحدة، حيث طلب الأمريكيون العودة أو الرجوع إلى في تسوية الخلافات الناتجة عن تفسير المادة الأولى والثانية عشر من الاتفاقية إلى الصديق المشترك للجانبين داي الجزائر، وهذا يعني ببساطة بالنسبة للباشا تحكيم "صديق مشترك"، إلا أن الأمريكيين كانوا يعتقدون خطأ اعتماد طرابلس على الجزائر وان في الرجوع إلى داي الجزائر ضمانا للاتفاقية وتجلى هذا الاتجاه أيضا في تصريح أسند لريتشارد اوبرايان الذيفاوض الاتفاقية مع طرابلس، وذكر سيدي أحمد رايس بحرية طرابلس والذي أرسل كمبعوث خاص إلى الجزائر سنة 1797م ليوسف باشا بأن اوبرايان أكد له بأنه شخصا القنصل العام الأمريكي لدول شمال إفريقيا والذي لا بد وان يقيم في الجزائر، وان جميع المعاملات التي يقوم بها القنصل الأمريكي بطرابلس لا بد وان تقدم له، أما يوسف باشا وأعضاء ديوانه فإنهم من ذلك أي من خلال بناء التمثيل القنصلي الأمريكي في الشمال الإفريقي أن أمريكا تنظر إلى طرابلس على أنها تابعة للجزائر، وهذا الاتجاه يعني بالنسبة

¹ - راي إروين، مرجع سابق، ص 126.

² - مولود قاسم نايت بلقاسم، مرجع سابق، ج1، ص 233.

³ - الشتيوي منصور عمر، مرجع سابق، ص 101.

للباشا تناقضا كاملا لما ينادي به من تأكيد لاستقلال طرابلس السياسي، ليس عن الجزائر فحسب، وإنما أيضا عن السلطان العثماني، وقد استمر الباشا في جعل موقفه واضحا جدا، فقد أشار في عام 1798م للسيد انجرام القائم بالأعمال الأمريكي في طرابلس وجوب معاملة أمريكا لطرابلس كدولة مستقلة وذلك من أجل إقامة علاقات طيبة، هذا إضافة إلى أن مقابلته الأولى في إبريل 1799م مع جيمس ليندر كاثكارت القنصل الأمريكي المعين حديثا في طرابلس، أكد الباشا النقطة ذاتها وجزم بأنه: "...هو أمير مستقل، ولا يخوف بالجزائر أو تونس، ولا حتى بالسلطان العثماني فهو يحكم في مملكته تماما كما يفعل داي الجزائر في بلاده"¹.

وبالنظر إلى طلب طرابلس في اعتراف كامل باستقلالها السياسي، يبدو أن الرواية الأمريكية لمسببات الحرب ساذجة، لقد رجحت سبب الحرب إلى القرصنة التي تمارسها طرابلس وتصميم أمريكا على وضع حد لها، غير أنه طبقا لطرابلس أن ما أدخل أمريكا الحرب إنما هو فشلها في الوصول إلى تقييم صحيح للعلاقة السياسية بين الجزائر وطرابلس، بالإضافة إلى أن أمريكا لا تستطيع إقامة الدليل على اتهام طرابلس بالقرصنة لأنه فيما بين سنة 1796م عندما وقعت الإتفاقية وسنة 1801م عندما بدأت الخلافات، لم تهاجم طرابلس السفن الأمريكية إلا مرة واحدة².

كتب يوسف القرماني إلى ريتشارد أوبريان القنصل العام لأمريكا في الجزائر في شهر سبتمبر 1798م للمطالبة بدفع الولايات المتحدة ما تبقى من حساب الاتفاقية، مبديا تدمره ضد تجاهل أمريكا الإيفاء بتعهداتها طبقا للاتفاقية "...إنني في حيرة من عدم معرفة السبب الذي جعل الأمة الأمريكية تتجاهل طرابلس لوقت طويل... منذ توقيعنا الاتفاقية"³، وكان المبرر الذي قدمه أوبريان لهذا التأخير وهو قسوة فصل الشتاء في أمريكا، لم يقنع الباشا حيث كان معروفا تماما لدى طرابلس أن الجزائر قد استلمت سفينتها بالإضافة إلى إمدادات من السلاح والذخيرة.

لم تتمكن الولايات المتحدة الأمريكية من الاحتفاظ بعلاقات السلام مع طرابلس إلا بصعوبة⁴، إذ رفض يوسف القرماني إستقبال جيمس ليندر كاثكارت الذي ظهر في ميناء طرابلس يوم 15 أبريل 1799م⁵، والسبب في هذا الرفض، كما ذكر الباشا هو انه لم يتلق السفينة "صوفيا" على سبيل الهدية كما وعده بذلك أوبريان⁶، هذا وقدم القنصل نفسه كقنصل لأمريكا لدى طرابلس، حيث أن كاثكارت نفسه قد اعترف بعد

¹ - كولافو لايان مرجع سابق، ص 53.52.

لقد أصر الباشا على هذا الموقف حتى سنة 1801م عندما نشبت الحرب فعلا بين البلدين، في حين تشبث الأمريكيون برأيهم، وفي هذا يكمن السبب الأساسي للحرب الطرابلسية الأمريكية ما بين 1801-1805م.

² - كولافو لايان، مرجع سابق، ص 53.

³ - نفسه، ص 54.

⁴ - راي إروين، مرجع سابق ص 140.

⁵ - كولافو لايان، مرجع سابق، ص 55.

⁶ - راي إروين، مرجع سابق، ص 140.

الاستفسار منه من قبل ماكدونغ¹، بأنه لم يحضر معه لا الذخيرة البحرية ولا البرية التي كانت تمثل جزءا من الهدايا القنصلية، ولا حتى السفينة التي وعد أوبرايان تقديمها للبasha، فكانت ردة فعل البasha منطوية: بما أن الأمريكيين لم يفوا بالتزاماتهم فلا يعتبر نفسه ملزما بالإيفاء بالتزامات ه أيضا²، ولما استقبل البasha كاثكارت تشكى أمامه بمرارة واستنكر أوبرايان، لا بسبب الهدايا فقط ولكن أيضا بسبب أقوال عزيت إليه مؤداها أن طرابلس تابعة للجزائر³، وقد اجتمع القنصل البريطاني بجميس لندر كاثكارت وابلغه أنه من العادة في طرابلس أن يتم تبليغ البasha بصورة رسمية عن قدوم أي سفينة، وبعد مداولات بين البasha والقنصل البريطاني فإن البasha لم يوافق على استقبال القنصل الأمريكي، على اعتبار أن أمريكا لم تنفذ ما اتفق عليه أثناء عقد الصلح معها، وأعلن يوسف باشا أنه إذا لم يتسلم الأعتدة والسفينة التي اتفق عليها خلال أربعين يوما فإنه سيأمر بحارته بمهاجمة السفن الأمريكية، فأجابه القنصل الأمريكي انه على استعداد أن يدفع ثمن الأعتدة المطلوبة⁴، أما السفينة المطلوبة فهي خارج نطاق بحثه⁵. وعلى الرغم من تمسك البasha بموقفه بعدم مقابلة كاثكارت، إلا أنه قد سمح في النهاية لمدوب عنه وهو الرايس مراد مقابلته على ظهر السفينة "صوفيا"، لكي يستطيع التفاهم معه بلغته ودون وسيط على الأرجح، ويبرز هنا دور اليهود في العلاقات بين الولايات المتحدة وإيالات المغرب، فعلاوة على الرسائل التي حملها كاثكارت من الرئيس الأمريكي وداي الجزائر وباي تونس إلى يوسف باشا فقد حمل معه أيضا رسائل من مشيع بكري كوهين وبعض اليهود الآخرين في الجزائر، إلى إسحاق فرفرا وهو أحد كبار الأثرياء اليهود في طرابلس والمستشار المالي للبasha⁶، ويظهر أن هذه الرسائل قد أسهمت في نجاح الوساطة والوصول إلى حل يرضي البasha مؤقتا على الأقل وهو دفع كاثكارت مبلغ 3.000 محبوب⁷، بالإضافة إلى هدايا تبلغ قيمتها (5.450) دولار وضمن فرفاره المبلغ المتبقي لطرابلس وقدره (14.250) دولار، وبعد هذه التسوية ارتفع علم الولايات المتحدة في سماء طرابلس بعد أن حيته مدافع القلعة بإحدى وعشرين طلقة ردت السفينة صوفيا بمثلها.

¹ القنصل البريطاني في طرابلس وفي نفس الوقت كان مكلفا برعاية المصالح الأمريكية في طرابلس، وذلك لعدم وجود قنصلية أمريكية في طرابلس: ينظر محمد الهادي ابو عبد الله ابوعجيله، مرجع سابق، ص 261.

² -كولافو لايان، مرجع سابق، ص 55.

³ - راي إروين، مرجع سابق، ص 140.

⁴ - بعد أسبوع من المساومة وافق البasha على قبول مبلغ 18.000 دولار تكاليف الذخيرة العسكرية والبحرية، كما قبل الهدايا القنصلية الأخرى، ورفع العلم الأمريكي. للمزيد ينظر: كولافو لايان، مصدر سابق، ص 53.52.

⁵ - تكرر جلين، مرجع سابق، ص 195.194.

⁶ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 228.

⁷ عملة ذهبية عثمانية ضربها السلطان العثماني سليم الأول (1512-1520م)، وكان محبوب متداول في طرابلس منذ عام 1685م تحت اسم قنذلي، وكان محبوب يعادل حوالي دولار وربع في تلك الفترة. للمزيد ينظر: تكرر جلين، مرجع سابق، ص 201.

وصلت تقارير إلى طرابلس خلا شهر ماي من سنة 1800م تفيد بوصول هدايا أمريكا إلى الجزائر وتونس¹، وما إن سمع باشا طرابلس بذلك حتى ازداد غضبه فاستدعى القنصل الأمريكي ودار بينهما الحديث التالي:

الباشا: كيف وصلت رسائلك من أمريكا عن طريق تونس؟

القنصل: من باخرة قادمة رأساً من أمريكا .

الباشا: ماذا تفعل تلك الباخرة بتونس؟

القنصل: تفرغ بضائع مقدمة لتونس.

الباشا: وما هي تلك البضائع؟

القنصل: لا أعرف أنواعها، ولكنها هي نفس البضائع الواردة في الاتفاق معكم.

الباشا: ماذا في رسائلكم؟

القنصل: رسائل تخص ما سبق وان أعلمتكم به من قبل.

الباشا: أنا أعلم بكل الهدايا التي تقدمونها إلى تونس والجزائر، وتفاصيل مفاوضاتنا معها، وان لدي قائمة بكل الهدايا التي قدمتموها لتونس. وتساءل الباشا قائلاً: لماذا لم ترسل الولايات المتحدة الأمريكية هدية؟ إن الولايات المتحدة تتصرف نحوي وكأنها ترغب نفسها إرغاماً، رغم أنني وقعت معها إتفاقية، وقبلت وساطة الجزائر، ورضيت بمبلغ أقل من المبالغ التي أملتتها على غيرها من الدول، ورغم أنني انتظرت مدة عامين حتى جاء القنصل الأمريكي ولم يأتي بالبضائع المفروضة على بلاده.

لم تكن الولايات المتحدة جادة في أن تدفع مخصصات إيالة طرابلس والهدايا القنصلية التي نصت عليها معاهدة سنة 1796م، بالإضافة إلى ما تعهد به قنصلها أوبرايان للباشا الطرابلسي وهو تقديم سفينة ذات صاريين كهدية من حكومته، تلك الهدية التي أصرّ عليها الباشا وأنكرها القنصل الأمريكي كاتكرت، بل أن أيتون القنصل الأمريكي في تونس قد علق على مطلب الباشا هذا بقوله " إن التاريخ سيسجل أن الولايات المتحدة تطوعت بسفينة حربية لخدمة رئيس قرصنة... لا يمكن أن يمحو هذا الانطباع سوى الدم، ألا يوجد شيء يستنهض بلدي"²، ولقد حاول يوسف باشا تحقيق مطالبه في الحصول على المعاملة التي تعامل بها أمريكا كلا من الجزائر وتونس³، فقد كتب بذلك إلى الرئيس الأمريكي آدمز « John Adams » في 25 ماي 1800م مذكراً إيّاه بأنه إذا كانت أمريكا مستعدة... للنظر إلى إيالة طرابلس بنفس الطريقة التي ينظر بها إلى إيالات شمال إفريقيا الأخرى⁴... وأتعامل على قدم المساواة في الأهمية والصدقة فإننا نأمل أن تتبع تعابيركم بالأفعال، وليس بكلمات

¹ كولاfo لايان، مرجع سابق، ص 56.

² - راي إروين، مرجع سابق، الهامش رقم 17، ص 140.

³ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 229.

⁴ يقصد الجزائر وتونس.

فارغة¹، وحتى يعبر الباشا عن حسن نواياه تجاه الحكومة الأمريكية فقد أطلق سراح السفينة كاترين وبجارتها والتي استولى عليها قائد الأسطول الطرابلسي عمر الشلي بتاريخ 1800/9/25م، وفي نفس الوقت ليوبخ الولايات المتحدة مرة أخرى عن طريق قنصلها المقيم بطرابلس، وبنهها بضرورة احترام طرابلس كقوة بحرية، وأنه سينتظر ستة أشهر أخرى ليرى الموقف الأمريكي، وفي هذه الأثناء إستمر كاثكارت في مناشدة تدخل داي الجزائر مصطفى (1798-1805م)²، في العلاقات الطرابلسية الأمريكية، وهي تصرفات كان يمقتها الباشا، وحيث أن أمريكا لم تعط طرابلس مستحقاتها كقوة بحرية، وحيث يبدو أن الرئيس الأمريكي قد عامل طرابلس بازدراء عن طريق عدم الإجابة على رسالة الباشا لمدة سنة كاملة³، فقد أجبرت طرابلس على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع أمريكا وإعلان الحرب ضدها في 14 ماي 1801م⁴.

3- الحرب بين الولايات المتحدة الأمريكية وطرابلس: 1801-1805م.

لاشك أن الأمريكيين غير مقتنعين بدفع الأموال إلى إيالات الشمال الإفريقي منذ البداية، ولكن نظرا لافتقارهم للقوة البحرية الكافية لحماية تجارتهم هو الذي دفع بهم إلى شراء السلام من إيالات المغرب وخاصة الجزائر⁵، وحرصها على إرضاء الداي وعدم إغضابه⁶، وفي الواقع أن الأمريكيين كانوا يهدئون الحكام المسلمين في الظاهر ويرتبون لعمليات أخرى في الخفاء، وقد استفادت الحكومة الأمريكية كثيرا من تلك التقارير التفصيلية التي كان يبعث بها القناصل الأمريكيون، والتي لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا واحتوتها⁷. في هذه الظروف وصل توماس جيفرسون T.Jaferson « إلى السلطة في الولايات المتحدة، وهو من أنصار استخدام القوة ضد إيالات المغرب، وكان وصوله إلى السلطة متزامنا مع استكمال بناء الأسطول الأمريكي واستعداده للخروج إلى مياه البحر المتوسط .

خرج الأسطول الأمريكي مع بداية شهر يوليو 1801م بقيادة الكومودور ديل « Deelee »، فوصل جبل طارق بعد حوالي شهر من إقلاعه، فوجد سفينتين طرابلسيتين في الميناء فأمر السفينة الحربية "فيلاديلفيا" بمراقبة

¹ - كولافو لايان، مرجع سابق، ص 57.

² بذل الداي مصطفى جهودا كبيرة من أجل الوصول إلى تسوية بين طرابلس وأمريكا، ففي يناير 1801م عندما كان كاثكارت يتخبط في بحر من الصعوبات في طرابلس كتب رسالة إلى يوسف القرماني في صالح الولايات المتحدة، وعاد في شهر أفريل من نفس السنة ليكتب رسالة ثانية إلى والي طرابلس، إلا أن علم الولايات المتحدة قد انزل في شهر ماي، كما ثبت أن الرسالة الثالثة التي بعث بها الداي إلى الباشا في 22 يوليو كانت هي الأخرى بدون قيمة والسبب في ذلك أن الولايات المتحدة لم تكن تعزز تلك الرسائل بالمال إلى طرابلس. ينظر: راي إيروين، مصدر سابق، ص 155.

³ كولافو لايان، مرجع سابق، ص 57.

⁴ - عمر عبد العزيز عمر، جمال محمود حجر، صور من تاريخ العلاقات الدولية في العصر الحديث، دار المعرفة الجامعية، 2012، ص 253.

⁵ - كانت الولايات المتحدة في هذه الفترة قد منحت الجزائر ثلاث مراكب حربية أمريكية هدايا، بالإضافة إلى الآلاف من الدولارات والمعدات الحربية الأخرى. ينظر: محمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 229.

⁶ تكرر جلين، مرجع سابق، ص 221.

⁷ - عمر عبد العزيز عمرن جمال محمود حجر، مرجع سابق، ص 252.

السفيتين الطرابلسيتين ومنعهما من الهروب¹، بعدها سافر ديل برفقة أسطوله إلى الجزائر وذلك لتسوية بعض المشاكل مع الجزائر وتونس، ثم أبحر بأسطوله إلى طرابلس حيث وصلها في 24 جويلية 1801م، ونظرا لعدم وجوح قنصل أمريكي في طرابلس فقد اتصل بالباشا عن طريق السيد نسون قنصل الدانمارك المكلف برعاية مصالح الولايات المتحدة²، مستفسراً عن سبب وجود تلك السفن: هل هي قادمة لأجل الحرب أم السلام؟ فرد عليه ديل قائلاً: إن سبب وجودي أبعد ما يكون عن الحرب، ولكن إعلانك للحرب ضدنا أجبرني على تصيد سفنك وتخطيطها وهذا هو هدي الرئيسي"³، ثم أعلن ديل بأنه سيضرب حصاراً بحرياً على طرابلس ويستولي على المراكب المراكب الطرابلسية بالإضافة إلى أي مراكب داخلية أو خارجة من طرابلس، غير أن هذا الحصار لم يستمر طويلاً فقد اضطر ديل بعد فترة وجيزة إلى رفع الحصار نظراً لحاجته إلى المواد الغذائية والمياه الصالحة للشرب والذهاب إلى مالطا ثم إلى جبل طارق⁴.

وتشير بعض المراجع إلى أن ديل عزم على زيارة الجزائر - باستخدام نفوذه- لإحلال السلام بين الولايات المتحدة وطرابلس الغرب، وفي منتصف شهر نوفمبر 1801م تقدم ديل وأوبرايان بمقترحات ومزاعم إلى داي الجزائر، ولكنهما لم يلقيا إلا الوعود البراقة⁵.

كانت حملة ريتشارد ديل مخيبة لأمال القناصل الأمريكيين في شمال إفريقيا، فلم تنجح في إنزال العقوبة القاسية بإيالة طرابلس وإرغامها على قبول السلام بقوة السلاح⁶، فجهزت أمريكا حملة بحرية ثانية بقيادة ريتشارد موريس «R.Maurice» ، والذي ألقع أسطوله إلى الشرق في ربيع سنة 1802م، فكان وصوله إلى جبل طارق في 1802/5/25م ، حيث وجد سلطان مراكش في ثورة جامحة ضد الحكومة الأمريكية بسبب رفض الأمريكيين السماح له بتصدير القمح إلى طرابلس، مما اضطر موريس إلى تسوية هذه المشاكل التي لم تكن مع مراكش فحسب، بل حتى مع الجزائر وتونس أيضاً ، وبعد وصول الأسطول الأمريكي إلى مياه طرابلس تبخرت جهود موريس في تلقين درس مباغت ليوسف باشا، فمحاولات الحملة في قصف طرابلس من البحر لم تعط النتائج المرجوة، إذ أن مدافع القلعة الموضوعة على الشاطئ أجبرت المراكب الأمريكية على التراجع عن أسوار المدينة⁷.

خلال هذه الحملة الأمريكية الثانية وقع حادث أزدات الولايات المتحدة من خلاله وساطة الجزائر، ففي 25 جوان 1802م وقعت سفينة تجارية أمريكية تسمى "فرانكلين" مع بحارتها التسعة في يد الطرابلسيين والتي كان

¹ - راي إروين ، مرجع سابق، ص 154.

² - نفسه، ص 156.

³ - محمد الهادي أبو عبد الله ابوعجيلة، مرجع سابق، ص 274.

⁴ - خطاب ديل إلى وزير البحرية الأمريكي بتاريخ 18 أوت 1801م نقلا عن : منصور عمر الشنيوي، مرجع سابق، ص 143-145.

⁵ - لويس رايت وجوليا ماكليو، الحملات الأمريكية على شمال إفريقيا القرن التاسع عشر ، تر. محمد روجي البعلبكي، بيروت، د.ت، ص 130.

⁶ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 234.

⁷ - اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 182.

يقودها موريس ثم اقتادوها إلى الجزائر، وكان علمها الأمريكي منصوبا بشكل منكس تحت العلم الليبي، وذلك حسب التعهد الذي كانت الجزائر قد تعهدت به بإعطاء الحرية للبحارة الطرابلسيين باستعمال موانئها، وذلك كإجراء تضامني ضد ما يقوم به الأسطول الأمريكي من حصار حول طرابلس¹، وقدم الذين أسروها بعض المسيحيين والزنوج هدية إلى الداوي مصطفى الذي اغتمت هذه المناسبة ليلقي درسا على ربانها بشأن فشل يوسف القرمانلي في الاحتفاظ بعلاقات السلام مع الولايات المتحدة، ولكنه في الوقت نفسه أمر بإرسال شحنة من القمح إلى طرابلس²، وكان أوبرايان قد طلب من الجزائر أن تساعد على تحرير السفينة وبجارتها، وقد حاولت السلطات الجزائرية حسم هذه القضية، حيث قام وزير بحرية الجزائر بالاتصال بالبحارة الطرابلسيين لإخلاء سبيل هذه السفينة وبجارتها مقابل خمسة آلاف دولار، إلا أن البحارة رفضوا ذلك ما لم يتلقوا تعليمات من طرابلس بالموافقة على ذلك³، لأن لديهم تعليمات من الباشا بأن يعودوا بجميع الأسرى إلى طرابلس، وعلى إثر ذلك أعلن الداوي مصطفى انه يجب على السفينة "فرانكلين" وبجارتها أن يغادروا الجزائر، إلا أنه فيما بعد تم إطلاق سراح خمسة من الأسرى الذين كانوا ينتمون إلى جنسيات غير أمريكية، وأما الباقون فقد احتجزوا حتى شهر أكتوبر 1802م حينما تم تسريحهم نتيجة لتدخل الجزائر، ذلك التدخل الذي كلف الولايات المتحدة ستة آلاف وخمسمائة دولار⁴.

فشلت حملة موريس في تحقيق أهدافها مما أجبره على رفع الحصار المضروب على طرابلس يوم 1803/06/26م مبرا هذا الإجراء بالآتي:

* إن السفن الطرابلسية الكبيرة قد استولى عليها الأسطول أو شتت شملها، وأما السفن الباقية فليس في وسع السفن الحربية الأمريكية الوصول إليها.

* إن موقف الجزائر وتونس مشحون بالتهديد، كما يدل على ذلك ما شوهد من أن السفن الحربية الأمريكية الكبيرة التابعة لهذه الدول تقوم بجولات مجتمعة⁵.

بعد فشل حملة موريس على طرابلس قامت الولايات المتحدة بإعداد حملة جديدة على طرابلس في 20 ماي 1803م، وأسندت قيادتها لإدوارد برييل وتقرر أن يقوم بمرافقة برييل العقيد توبياس لير الذي عين قنصلا عاما في الجزائر⁶، مع سلطة الإشراف على النشاط القنصلي في جميع بلدان المغرب، كما فوض بان يأخذ المهام التي أنيطت من قبل كاتكارت للتفاوض مع باشا طرابلس، وقد وصل القائد برييل جبل طارق في شهر سبتمبر 1803م، ثم ما لبثت هذه الحملة أن ظهرت طلائعها أمام سواحل طرابلس في الأسبوع الأول من شهر أكتوبر،

¹ - نجم الدين غالب الكيب، مرجع سابق، ص 45.

² - راي إروين، مرجع سابق، ص 168.

³ - محمد الهادي أبو عبد الله ابوعجيلة، مرجع سابق، ص 276.

⁴ - راي إروين، مرجع سابق، ص 169.

⁵ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 237.

⁶ - اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 182.

وقد فرض برييل حصاراً على المدينة استعداداً لضربها¹، إلا أن البحرية الطرابلسية حققت نجاحات إذ استمرت في اختراق الحصار الأمريكي، وحافظت على عدم انقطاع الإمدادات الغذائية والذخيرة ما بين طرابلس وباقي دول شمال إفريقيا، بالإضافة إلى أنها دمرت هجوميين للعدو في شهر ماي 1803م²، وفي 31 أكتوبر وقعت عملية حربية أشد خطورة كان يديرها الأسطول الأمريكي تحت إمرة العميد برييل، غير أن تلك العملية كانت وبالا على الأمريكيين أنفسهم لا على أعدائهم³، فقد تمكنت بحرية طرابلس من أسر أكبر سفن الولايات المتحدة فيلاديلفيا بطاقمها المكون من 307 شخص من بينهم 29 ضابطاً ومزودة ب 42 مدفعاً⁴، وقد عملت الإستراتيجية الأمريكية خلال بقية السنة على كيفية استعادة فيلاديلفيا، وعندما ثبت صعوبة إتمام ذلك دبروا أمر إشعال النار بها في يوم 16 أكتوبر 1804م⁵.

لجأت الولايات المتحدة إلى خطة جديدة لأجل إخضاع طرابلس الغرب وهي استخدام أخ الباشا أحمد القرمانلي من أجل إخضاع مدينة درنة والتي سقطت في أيدي هذا الأخير برفقة ايتون، حيث دخل أحمد المدينة في يوم 1805/04/28م بعد معارك طاحنة راح ضحيتها العشرات من الضحايا من كلا الجانبين⁶، وعندما أصبحت طرابلس مهددة إتصل يوسف باشا بالقنصل الأمريكي وأبلغه برغبته في السلام الذي أبرم في 03 جوان 1805م، ورفع العلم الأمريكي على مبنى القنصلية⁷، وأطلقت السفن الحربية الأمريكية مدافعها تحية لهذا الحدث التاريخي، وبالمقابل ردت عليها مدفعية القلعة⁸، وقد أقرّ الباشا ومجلس ديوانه بنود هذه المعاهدة يوم 10 من نفس نفس الشهر، كما صادق عليها مجلس الشيوخ الأمريكي في 12/04/1806م بأغلبية 21 صوتاً مقابل 8 أصوات⁹.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه إذا كان دور الجزائر واضحاً وبارزاً في عقدة معاهدة 1796م بين طرابلس الغرب وحكومة الولايات المتحدة فإن معاهدة 1805م لا تنص في أي بند من بنودها على أن يكون داي الجزائر ضامناً لتنفيذها واحترام بنودها، أو لإسناد دور الحكم بين الدولتين في حالة قيام نزاع بينهما.

4- موقف الجزائر من الصراع الطرابلسي الأمريكي :

¹ - مصطفى عبد الله بعيو، دراسات في التاريخ اللوي، الإسكندرية، 1953، ص 152.

² - كولافو لايان، مرجع سابق، ص 58.

³ - Ch.Veraud, Op.Cit,p300.

⁴ -Ibid.

⁵ - كولافو لايان، مرجع سابق، ص 59.

⁶ - تكرر جلين، مرجع سابق، ص 613.617.

⁷ - راي إروين، مرجع سابق، ص 214.

⁸ - كودري جونانان يوميات الطبيب كودري في قلعة طرابلس الغرب (1803-1805م)، تع عبد الكريم أبو شورير، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، ليبيا، 1982م.

⁹ - راي إروين، مرجع سابق، ص 216.

عندما قامت الحكومة الجزائرية للتوسط بين أمريكا وطرابلس لإنهاء النزاع بينهما ، رفض يوسف باشا هذه الوساطة ، وكتب إلى دايها خطابا يطلب منه ألا يتدخل للمصالحة بينه وبين أمريكا، وشرح له وجهة نظره المتصلة بهذا النزاع القائم بين البلدين، وبنوايا الدول الأجنبية، بعدم دفع الإتاوات المقررة عليهم لدول شمال إفريقيا، ومما قاله الباشا " ...وقبل أن يهاجمونا علينا أن نضربهم ، ومثلهم أمريكا التي يجب أن تفهم ذلك ، وأطلب منك ألا تبدي أي واسطة بيني وبين أمريكا - وهذا باسم الأخوة الصحيحة - وصرف النظر عن هذه القضية ، وأذكرك بموقف والدك عندما عرض وساطته بيني وبين أمريكا، واحتراما له قبلت هذه الوساطة، حيث أنهم طلبوا الصلح واستعدوا على أن يدفعوا مائتي ألف فرنك سنويا ، لكنهم لم يدفعوا أي شيء ، وتعللوا بأسباب كثيرة، وأرجوا ألا يخدعوك ويطلبوا منك التدخل في هذه القضية ، والظاهر أن الأمريكان سيلجئون إلى قنصل بريطانيا ولكني لا أعترف بذلك إلا من جانبكم ...¹.

ومن أجل هذا فقد استجاب الداى لطلبه وأخذ يقدم له جميع وسائل التأييد الأخوي تجاه هذه المحنة الكبرى، حيث أصدرت الحكومة الجزائرية أمرا لجميع الموانئ باستقبال السفن الطرابلسية ، واتفقت الجزائر مع الحكومة الطرابلسية بأن أعطت كامل الحرية لسفنها باستعمال موانئها لجلب ما يستولون عليه ، ونظرا لهذا الموقف الذي إتخذته الجزائر تجاه طرابلس فإن القنصل الأمريكي إجتمع بوزير البحرية الجزائري في 27 جوان 1802م أوضح له وجهة نظر حكومته تجاه موقف الجزائر المؤيد لطرابلس ، حيث قال : "زرت وزير البحرية الجزائري وفهمت منه : أنه نقل وجهة نظري إلى الداى وقال : أن الداى يرى مسألة ضمان الجزائر قد فسخت بمجرد إعلان الحرب بين طرابلس وأمريكا ، وأنه ليس من المنطق التدخل ضد الطرابلسيين الذين تحاصر بلادهم سفن الولايات المتحدة الأمريكية ، وباختصار أكد لي أن هذا الأمر هو الأخير².

5- صدى الصراع الأمريكي الطرابلسي في كل من الجزائر وتونس:

في الحقيقة لم يكن موقف الولايات الإفريقية المجاورة لطرابلس تونس والجزائر من الصراع الطرابلسي الأمريكي على المستوى الرسمي أقل من موقف يوسف باشا ذاته من الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م ، فجميع هؤلاء ، الداى والباي من طينة واحدة ، ومن ذوي المبدأ السياسي النفعي ، المبني على المصالح الفردية الأنانية ، وكانا يفتقدان الرؤية السليمة للمخاطر المحدقة بهما وبإياليتهما، فالأسطول الأمريكي بعد عقده لمعاهدة السلام مع طرابلس كان أول عمل قام به هو محاصرة تونس سنة 1806م³، ثم جاء بعد ذلك دور الجزائر، بعدما فقدت آخر قادة مراكبها العظام الرايس حميدوا في سنة 1815م على يد الأسطول الأمريكي بقيادة ستيفن ديكاتور « Stephen Decatur »، ولكن إذا كان الموقف الرسمي متشابها من الحملات الصليبية على مصر وطرابلس

¹ - مقتطف من رسالة يوسف باشا القرمانلي إلى ابن حسن باشا داي الجزائر بتاريخ 1 محرم 1216هـ الموافق لسنة 1801م نقلا عن عمر علي ابن إسماعيل ، مرجع سابق، ص 402.401.

² - خطاب القنصل الأمريكي في الجزائر أوبرايان إلى وزارة الخارجية الأمريكية بتاريخ 27 جوان 1802م نقلا عن : منصور عمر الشنوي ، مرجع سابق، ص 173.175.

³ - معلوم الإمام هيفاء، العلاقات الأمريكية، الشمال الإفريقي في العصر الحديث ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 16.15، جويلية 1979م- ص75.

والجزائر وتونس، فإن الموقف الشعبي مختلف عن ذلك تماما ، أو يفترض أن يكون هكذا من خلال رابطة العقيدة الإسلامية والحوار والمصير الواحد والأصل والتاريخ المشترك لسكان هذه الإيالات.

أ- في الجزائر :

يعتبر النفوذ التركي في الجزائر أكثر وضوحا منه في تونس وطرابلس فقد حافظت إيالة الجزائر على ميزاتهما التركية ووصفت بأنها "...سلطة قوية برّاً وبحراً وغنيمة وحاكمهم تركي عجمي لا يقدمون كورغوليا ولو كان مليا ولا يقدمون ويقدمون المراتب المعتبرة إلا من جنسهم وابن عمهم تركي أعجمي... ولا يدخل محلة (الجباية) لا بدوي ولا عربي ولا رعية"¹، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت حكامها الأتراك ينظرون إلى جيرانهم الشرقيين في تونس وطرابلس على أنهم اقل تأثيرا في أحداث البحر المتوسط السياسية والاقتصادية، فكانت هي الوسيط في أول معاهدة طرابلسية أمريكية سنة 1796م/1212هـ، وبالرغم من محاولات الجزائر تسوية النزاع وإقناع يوسف باشا بقبول الصلح بمبلغ رمزي، ولكن إصراره على أن تكون طرابلس مساوية لكل من تونس والجزائر في المعاملة قد أدى إلى إعلان الحرب، وحاول يوسف باشا استقطاب الداوي مصطفى 1798م/1213هـ - 1805م/1220هـ وذلك بتوحيد الجهود والتصدي للنصارى، غير أن داي الجزائر لم يكن موقفه لصالح طرابلس بقدر ما هو لمصلحته الشخصية، ولا شك في أن استمرار الحرب بين طرابلس والولايات المتحدة الأمريكية من مصلحة الداوي التي حرصت أمريكا على تحييده مقابل المال والهدايا، ويبدو هذا واضحا من معارضة وكيل الجزائر بطرابلس للاتفاق المبرم في جوان 1805م²، في حين أن الموقف الشعبي في الجزائر يبدو غير واضح نظرا للسيطرة التركية على مقاليد الأمور ومحاولة الجزائريين التخلص من هذه السيطرة .

وعلى أية حال فالداوي لم يمتنع عن تقديم التسهيلات البحرية للأسطول الطرابلسي أثناء فترة الصراع ورفضه الضغط على البحارة الطرابلسيين الذين استولوا على السفينة الأمريكية فرانكلين بقيادة أندرو موريس، حيث سمح لهم بأخذ الأسرى إلى طرابلس ، كما سمحت الجزائر للبحرية الطرابلسية باستخدام موانئها للتزود بالمياه العذبة والمواد الغذائية، بالإضافة إلى استمرار الحركة البحرية مع موانئ إيالة طيلة سنوات الصراع، وتعتبر العلاقات الطرابلسية الجزائرية أفضل بكثير من العلاقات التونسية الجزائرية التي اتسمت بعدم الانسجام والتوتر الذي وصل إلى إعلان الحرب بين الإيالتين المتجاورتين في سنة 1806م، علاوة على كونها أفضل من علاقة الجزائر بمراكش (المغرب الأقصى) نظرا لتداخل المناطق الحدودية بين هذه الجهات وكذلك السكان، على عكس طرابلس التي تفصلها صحراء شاسعة عنها.

ب. في تونس :

¹ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 259.

² - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 259.

على الرغم من عدم وجود أي صدى للصراع الطرابلسي الصليبي بقيادة الولايات المتحدة في المصادر التونسية¹، إلا أنه يمكن استنباط موقف شعبي تضامني بين الأوساط التونسية في المصادر الأجنبية التي اعتمدت على مراسلات دبلوماسية تعود لتلك الفترة، هذا الموقف يبدو أكثر اتساعا ووضوحا عما كان عليه الحال في مصر، ولعل ذلك راجع إلى قرب إيالة تونس من مركز الصراع، وعمق الروابط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الإيالتين ووجود ممثلين رسميين (وكلاء) لرعاية المصالح المتبادلة بينهما في كل من طرابلس² وتونس³ منذ عودة الأسرة القرمانلية إلى الحكم سنة 1795م، بالإضافة إلى اشتراك طرابلس وتونس في حركة الجهاد البحري المغربي ضد الصليبيين، وهي الصبغة الدينية للنشاط البحري المغربي عموما منذ بداية العصر الحديث، خاصة إذا ما علمنا أن التونسيين تعرضوا لمثل هذه الهجمات من عدة دول مسيحية كان آخرها الحرب مع البندقية في نهاية القرن الثامن عشر ميلادي.

كان ذلك قد ولد مناخا شعبيا قويا في تونس ضدّ الولايات المتحدة، كان يعبر عن وحدة مصير سكان الإيالتين ويكشف عن عمق العلاقات بينهما ومدى تأثرها بالأحداث التي يمر بها البحر المتوسط، والتي تركت أثارها على الموقف الشعبي التونسي وبالتالي على الموقف الرسمي للإدارة التونسية، من خلال الضغط عليها في استمرار الاتصالات التجارية البحرية بين موانئ طرابلس وتونس رغم الحصار الأمريكي، وبعتراف قائد الأسطول الأمريكي نفسه الذي أفاد بأنه لم يرى أثناء وجوده أمام سواحل طرابلس إلا بعض المراكب التونسية⁴، وذكر ايتون في إحدى مراسلاته من عملية حصار طرابلس قد أثارت النفوس في تونس⁵، كما ساهمت المراكب التونسية في سد حاجة طرابلس من السلع تصديرا واستيرادا، فكانت الزوارق التونسية الخفيفة تنقل الحبوب ومختلف السلع إلى الموانئ الصغيرة غربي طرابلس مثل صبراتة وزوارة خلال فترة الحصار، وعندما إستولى الأمريكيون على السفينة الطرابلسية بولينا وكان على ظهرها أحد التجار التونسيين والذي صودرت بضاعته، الأمر الذي أدى إلى تدخل الباي حمودة لحماية أحد رعاياه وأبلغ القنصل الأمريكي بتونس عن ذلك بقوله "أن تجار بلاده سوف يستأنفون عملياتهم التجارية مع طرابلس، وانه يأمل أن يحتجز العديد منهم كي يذكي ذلك نار الانتقام في نفوس رجاله، وطلب منه نقل هذا القرار لقائد أسطولهم في البحر المتوسط .

إن حمودة باي لا يهمله كثيرا الصراع الذي تخوضه إيالة طرابلس مع الولايات المتحدة، ما دام هو يحصل على ما يرضيه منها، أليس يوسف باشا القرمانلي يقاتل من اجل هذا الهدف أيضا الذي تحصل عليه بدون حرب؟

¹ - على سبيل المثال إتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف،. والحوليات التونسية لألفونسو روسو.

² - جحيدر عمار، العلاقات الليبية التونسية في القرن التاسع عشر، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 29، زغوان، 1983م، ص 125.144.

³ - الشتيوي منصور عمر، مصدر سابق، ص 180.181.

⁴ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 257.

⁵ - راي أروين، مرجع سابق، 170.

ولذلك كان يقدم العون والتسهيلات للأسطول الأمريكي من أجل الحصول على المال، ولكن كان يتم وراء ستار من السرية خوفا من ردة الفعل الشعبية من هذا الموقف الموالي لدولة مسيحية على حساب إحوة أشقاء¹، لقد تزايد الشعور العدائي نحو الولايات المتحدة مع تشديد الحصار والقصف المدفعي لمدينة طرابلس، وابتهج التونسيون كثيرا عند سماعهم بسقوط فيلاديلفيا في حريف 1803م، وقد علق على هذا الحدث احد المسؤولين في الإدارة التونسية بقوله "لقد أصبح الأمريكيون الآن مثل الأرض".

يعتبر الدعم الذي قدمته دول المغرب- الجزائر تونس والمغرب- إلى طرابلس أحد العوامل الأساسية التي ساعدت البحرية الطرابلسية على تحقيق النصر على أمريكا، فلقد أرسل يوسف القرماني، عقب إعلان الحرب ضد أمريكا مبعوثا خاصا لهذه الدول، ليشرح موقف طرابلس ويطلب مساعدتهم، فأجابت الدول الثلاث بالإيجاب بسبب تدمرهم المألوف من تصرف أمريكا في علاقاتها الدولية معهم من جهة، وبسبب العلاقات التجارية التي ربطتهم ببعضهم من ناحية أخرى، وكذلك بسبب عضويتهم المشتركة في العالم الإسلامي، فبالنسبة لدول شمال إفريقيا، تعتبر بقية العالم غير المسلم "دار الحرب" والذي أتيح للمسلمين حمل السلاح ضدهم دفاعا عن دار الإسلام، وعلى هذا، فقد نظر إلى الحرب الأمريكية الطرابلسية على أنها حرب تشن من قبل دولة كافرة ضد دولة إسلامية².

إن التضامن المغربي مع طرابلس، أثناء الحرب مع أمريكا لم يكن تضامنا معنويا فحسب وإنما كان مجسدا بطرق علمية:

أولا: عارضت دول شمال إفريقيا الثلاثة بشدة الحصار الأمريكي، وصممت من خلال الحرب على كسره، وان تساعد طرابلس بالسلاح والذخيرة بالإضافة إلى مساعدات أخرى من القمح والشعير والزيت. ثانيا: سمح للقراصنة الطرابلسيين باستخدام رايات هذه الدول لتغطية مناوراتهم ضد الحصار الأمريكي، ولذلك ارتبك الأمريكيون في التمييز ما بين سفن بلاد العدو وسفن جارقاتها ن وأصبحوا عاجزين في عملياتهم البحرية ضد طرابلس.

ثالثا: العلاقات بين الإيالتين ما بين 1815-1820

1- موقف المؤتمرات الدولية من النشاط البحري لإيالتين الجزائر وطرابلس الغرب:

عملت الدول الأوروبية مجتمعة بعد الانتهاء من حروب نابليون بونابيرت، على وضع حد لمسألة القرصنة في حوض البحر الأبيض المتوسط بعدما تضررت تجارتها البحرية من جراء ذلك، ولأجل ذلك عقدت مؤتمرين هاميين في تاريخ العلاقات الدولية إلى ذلك الحين، مؤتمر فيينا وأكس لاشابيل وتجسيدا لقرارات المؤتمر الأول شنت بريطانيا التي كانت تعتبر سيدة البحر الأبيض المتوسط حملة بقيادة اللورد إكسماوث على إيالات الشمال الإفريقي وبالأخص على الجزائر. فما موقف مؤتمر فيينا وأكس لاشابيل على نشاط البحرية الجزائرية والطرابلسية؟ وما

¹ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 257.

² - كولافو لايان، مرجع سابق، ص 64.

مدى تطبيق لكل منهما مقررات هاذين المؤتمرين؟ وما موقف يوسف باشا الطرابلسي من حملة إكسماوث على الجزائر؟

أ- مؤتمر فيينا: 1815 م :

يعتبر مؤتمر فيينا الذي عقدته الدول المنتصرة على نابليون بونابرت في الساحة الأوروبية من أهم المؤتمرات التي عقدت على الإطلاق في القرن التاسع عشر¹، إذ راح المؤتمرون يخطون خريطة جديدة لأوروبا²، في نهاية سنة 1814م، وكان جدول أعمال المؤتمر يشتمل على العديد من المسائل الهامة، والتي من بينها مسألة أمن البحر المتوسط، حيث الدول الصغرى التي عانت من نشاط السفن الجزائرية والطرابلسية والتونسية في حوض البحر المتوسط³، إذ نجح وزير خارجية سردينيا البارون فاليز « Vaieza » في وضع مسألة أمن البحر المتوسط في جدول أعمال المؤتمر⁴، ولم يستطع هذا المؤتمر الذي كان قد اهتم ببناء على طلب بريطانيا بمسألة إلغاء تجارة الرقيق أن يهمل العبودية التي كان يرزح تحتها المسيحيون الذين يأسرهم عرب إفريقيا، بالإضافة إلى أن الدول الكبرى قد تلقت في سنة 1814م مذكرة من الأدميرال الإنجليزي سيدني سميث « Sidney Smith » يطلب فيها تأليف أسطول دولي يقتصر نشاطه على وضع حد للغزو في البحر الأبيض المتوسط، ذكر فيها أنه ليس من المعقول في الوقت الذي تبحث فيه مسألة تحريم الرقيق على سواحل إفريقيا ألا يهتم العالم بأعمال السطو التي سيقوم بها المغامرون في الموانئ الشمالية⁵.

أصدر المؤتمر قراراً بإلغاء الأعمال العدوانية في البحر المتوسط واسترقاق المسيحيين، غير أن هذا القرار لم يكن له أثر، إذ لم يكن هناك دولة من الدول الكبرى تريد تنفيذه ما عدا فرنسا، في حين أن بريطانيا رأت أنه لم يكن في مصلحتها تنفيذ هذا القرار، لأنها لو تمسكت به يعني هذا القضاء على دول شمال إفريقيا، وبالتالي تحل فرنسا محلها، ويؤدي هذا إلى إضعاف نفوذها في البحر المتوسط و بروز الهيمنة الإنجليزية⁶. هذه الأخيرة التي التفتت إلى قوة الأسطول الجزائري الذي عرف انتعاشا نسبيا خلال فترة الحروب النابوليونية فحاولت القضاء عليه حتى لا يعرقل نشاطها التجاري في البحر المتوسط⁷.

مع بداية سنة 1816م ظهر الأسطول الإنجليزي أمام الجزائر بقيادة اللورد إكسماوث الذي شرح للداي بأن مؤتمر فيينا قد قرر إلغاء الرق والقرصنة، وطلب بأن يقبل الجزائريون هذا القرار وان يحرروا ارتقاءه م المسيحيين، وقد

¹ - أمال السبكي، أوروبا في القرن التاسع عشر، عالم المعرفة، ط1، حدة، السعودية، 1985، ص155.

² ممدوح نصار. أحمد وهبان، التاريخ الدبلوماسي العلاقات السياسية بين القوى الكبرى، قسم العلوم السياسية كلية التجارة، جامعة الإسكندرية، ب.ت، ص33.

³ - محمد الهادي أبو عبد الله ابوعجيلة، مرجع سابق، ص241.

⁴ - ميكافي رودولفو، مرجع سابق، ص171.

⁵ - نفسه- ص171.

⁶ - محمد الهادي أبو عبد الله ابوعجيلة، مرجع سابق، ص242.

⁷ - ارزقي شويتام، مرجع سابق، ص92.

كان الداوي والديوان مستغربين وغاضبين من هذا الموقف. كيف يمكن للدول الأوروبية أن تعطي لنفسها حق التدخل في نظام قائم منذ أمد طويل على عادات وقوانين بلادهم، وهو النظام الذي أقره القرآن نفسه؟¹، وقد قامت إنجلترا بإعداد مجموعة من التبريرات لحملتها ضد الجزائر، ومن بين تلك التبريرات التي تذرعت بها، أنّ الجزائريين قد استولوا على سفينة في عنابة تحمل علم إنجلترا، كما أنهم أسروا رعايا سردينيا و نابولي²، وقد جاء في تقرير مبعوث الداوي عمر إلى الباب العالي أنه عندما إقترب اللورد إكسماوث من ميناء الجزائر، أرسل مبعوثاً إلى الباشا ليخبره بأنه يريد افتداء أسرى يعتبرون من رعايا إنجلترا، لكون سردينيا كانت تحت إدارتها، وإذا وافق والي الجزائر على ذلك فإنه مستعد أن يدفع مقابل كل رأس من هؤلاء الأسرى البالغ عددهم 50 ألف أسير ألف ريال، وقد وافق الباشا على الاقتراح الذي عرضه عليه إكسماوث، إلا أن القائد الإنجليزي لم يقف عند هذا الحد فقط، بل طلب من الباشا أن يطلق سراح الأسرى النابوليتانيين البالغ عددهم 1200 أسير، والذين كانوا قد أسروا منذ مدة طويلة، فقد عرض القائد الإنجليزي على الباشا ألف ريال مقابل كل رأس. إلا أن الباشا لم يستجب لهذا الطلب³، بعد ذلك شدّ الأسطول الإنجليزي رحاله إلى تونس وطرابلس، حيث أبرم مع حكامها معاهدة سلم، وحرر بموجبها أسرى سردينيا و نابولي، دون أن يدفع لهما فدية⁴.

وصل أسطول إكسماوث إلى طرابلس يوم 27 أفريل 1816م، ولا شك فإن نجاح مهمة إكسماوث في الجزائر وتونس قد ساعده في الوصول إلى اتفاق مشابه مع يوسف باشا، وكانت مهمة هذا الأسطول تنحصر في ناحيتين: الأولى إطلاق سراح الأسرى النصارى والبالغ عددهم خمسمائة وتسعين أسيراً⁵، فقد تعهد يوسف باشا بوضع حد للقرصنة وإلغاء الرق، وأجبر اللورد الباشا على إبرام معاهدة مع إنجلترا تنص على أن معاهدة الصداقة والملاحة بين إنجلترا وطرابلس الغرب تسري على جزر البحر الايوني المأهولة باليونانيين والتابعة للتاج البريطاني، وفضلاً عن ذلك قام إكسماوث بتفويض من مملكتي سردينيا والصقليتين بإلزام يوسف باشا بمعاهدات صداقة وتجارة مع هاذين البلدين⁶، وبعد أن صفى إكسماوث حساباته مع تونس وطرابلس، عاد إلى الجزائر في شهر مايو 1816م كما يذكر شالر القنصل الأمريكي بالجزائر في مذكراته⁷.

تمكن اللورد إكسماوث الإنجليزي من إيجاد تسوية لمشكل الأسرى الأوروبيين في الجزائر مؤقّتا ووافق الأميرال الإنجليزي منح الداوي مهلة للتشاور مع الباب العالي، كما اعترف الداوي من جهته بمملكة هانوفر الجديدة⁸، وسمح لها بالتمتع بالامتيازات التي نصت عليها المعاهدة الإنجليزية الجزائرية باعتبار تلك المملكة تابعة للإمبراطورية

¹ جون ولف، الجزائر وأوروبا، 1500-1830م، تر، أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص445.

² وليام شالر، مصدر سابق، ص150.

³ - ارزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انخياره، 1800-1830م، دار الكتاب العربي، ط1، 2011، ص151.

⁴ -H.Garrot, Histoire Général de L'Algérie-impreur. Crescenze Voutes, Alger, 1910, p632.

⁵ - Ch.Veraud, Op.Cit,p306.

⁶ - ميكاكي رودولفو، مرجع سابق، ص 176. واليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 217.

⁷ - وليام شالر، مصدر سابق، ص 152.

⁸ - هانوفر إحدى المدن الألمانية الحرة قبل الوحدة والتي اشتهرت بنشاطها التجاري الواسع مع إيالات المغرب.

البريطانية، على أن يتلقى الهدايا التقليدية¹، وقد أثار الصلح الذي أبرمه إكسماوث مع الداى عمر سحق الدول الأوروبية التي اتهمت إنجلترا بأنها لا تعمل إلا من أجل مصالحها ولا تهتم بالأضرار التي قد تلحق بالآخرين في سياستهم مع الجزائر²، كما أن الحكومة الإنجليزية كانت غير راضية عن النتائج التي حققها قائد أسطولها. قررت إنجلترا تجهيز حملة ثانية ضد الجزائر، وتنفيذا لهذا القرار غادر الأسطول الإنجليزي ميناء "بورتسموث" بقيادة إكسماوث يوم 28 جويلية 1816م، ولما وصل إلى جبل طارق انضم إليه الأسطول الهولندي بقيادة الأميرال "فان كابلان" « Van Cappellen » ووصل إلى الجزائر في صباح 17 أغسطس من نفس الشهر، فبعث الأميرال إكسماوث بإنذار إلى الداى، وفي ذلك علق شارل على هذه الأحداث قائلا: " وبهذه المناسبة تصرف الداى تصرفا يتسم بقلّة التصميم والحزم ولا يليق بشخصيته، فإنه لم يكتف بأن يعيد رسول القائد البريطاني بدون جواب على إنذاره، بل انه سمح في نفس الوقت أيضا للأسطول المشترك بأن يختار المواقع الملائمة لقصف المدينة، دون أن يخطر في باله مقاومته"³، ويضيف شارل قائلا أنه " بعد معركة دامية دامت تسع ساعات خضعت الجزائر وراحت تستجدي الرحمة أمام عدوها المنتصر، واثّر ذلك صرح اللورد إكسماوث بأنه لم يعلن الحرب لتدمير المدينة وطلب في مقابل الصلح إطلاق سراح جميع العبيد المسيحيين، وإعادة مبلغ 350.000 دولار، كان ملك نابولي وسردينيا قد دفعاه فدية لرعايهم الذين أطلق سراحهم في شهر أفريل من سنة 1816م، كما طالب بتنازل الإيالة في المستقبل عن حقها في استرقاق رعايا الدول المسيحية⁴.

ومهما كانت أسباب الهزيمة التي منيت بها القوات الجزائرية، فإن شروط المعاهدة التي فرضها المنتصرون على الداى عمر كانت قاسية ومجحفة، إذ نصت على إلغاء الرق نهائيا، وتسليم جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في الجزائر مهما كانت جنسيتهم، وإعادة جميع أموال الفدية التي أخذها الداى على الأسرى السردانيين والنابولتانيين منذ بداية العام.

ب- موقف طرابلس من حملة اللورد اكسموت على الجزائر 1816م :

أشرنا إلى أن يوسف باشا القرمانيلى عندما علم بقدوم الأسطول الإنجليزي بقيادة اللورد اكسماوث إلى مدينة الجزائر في ربيع سنة 1816م وتقدم تهديداته إلى الداى عمر تنفيذًا لمقررات مؤتمر فيينا، سارع إلى عقد اتفاقية مع اللورد إكسماوث ما إن وصل إلى طرابلس في 27 أفريل 1816م شملت اليونانيين من سكان جزر أيونيا (الخاضعين بصفة مؤقتة إلى إنجلترا) بالضمانات المتفق عليها، كما ألزمه بالتوقيع على تصريح خاص بإلغاء استرقاق المسيحيين، وتم إطلاق سراح خمسمائة وثمانين أسيرا، منهم أربعمائة وإثنان وعشرون من نابولي وصقلية ومائة وأربعون من سردينيا وجنوا وعشرة من روما، وأربعة من هامبورغ⁵.

¹ - وليام شارل، مصدر سابق، ص 154.155.

² - C.Arnaud, Attaque Des Batteries Algeriennes Par L.Exmouth 1816, IN.R.A, N°: 19, 1875, p462.

³ - وليام شارل، مصدر سابق، ص 156.

⁴ - نفسه، ص 157.

⁵ - اتوري روسي، مرجع سابق، ص 390.

أما عن موقف يوسف باشا من تهديدات إكسماوث فإنه يمكن القول بأن الاتفاق الذي عقده مع الإنجليز لم يكن إلا إجراء شكلياً، فالأسرى تحصل على مبالغ مالية لافتدائهم والاستيلاء على المراكب التي ترتبط بلدانها بمعاهدات مع الباشا أو التي تماطل في تجديد معاهداتها في السابق هو نفس المبدأ الذي لم يشجبه اللورد إكسماوث، بل حبذه وتوسط في عقد إتفاقيات ومعاهدات مع بعض الدول الصغرى سردينيا والصقليتين وتوسكانا وتحصل على هدايا بلغت قيمتها ما يزيد عن 4000 قرش عند مجيء كل قنصل جديد لهذه الدول¹، واستطاع يوسف باشا بذلك مجاراة الأحداث ولم يقع فيما وقع فيه داي الجزائر عند عودة الأسطول الإنجليزي في أوت من نفس العام وتدمير الأسطول الجزائري.

بعد تحطم الأسطول الجزائري على إثر حملة اللورد إكسماوث، قام أترك الجزائر بشراء بعض البواخر وبناء البعض الآخر، كما تلقوا عدداً آخر من البواخر على شكل هدايا من الباب العالي والمغرب وطرابلس الغرب²، وفي شأن الهدية التي بعث بها يوسف القرماني إلى الجزائر يقول الشريف الزهار في مذكراته: "أما يوسف باشا فقد بعث بلاكرة إعانة للجزائر"³، ويقول حسن الفقيه حسن في يومياته عن تلك المساعدات "في يوم الاثنين 09 رجب 1232 هـ سافر الرايس عمر الشلي في القريطة"⁴، ورفع معاه على الوصيف متاعنا، وهدية إلى الجزائر"⁵، وبتلك المساعدات تمكنت الجزائر من استعادة قوتها البحرية وأصبح أسطولها أكثر قوة من ذي قبل⁶.

ج- مؤتمر أكس لاشابيل 1818م:

يبدو أن مسألة أمن البحر المتوسط بقيت تتأرجح بين المؤتمرات الدولية إلى غاية 1818م، عندما إنعقد مؤتمر أكس لاشابيل⁷، والذي قدمت إليه كل من روسيا وفرنسا والنمسا مشروعاً يختلف عن مشروع إنجلترا وإسبانيا⁸، فاتفقت الدول الأولى على تفتيت الإمبراطورية العثمانية الإسلامية⁹، وخلال المؤتمر اتفقت آراء جميع الدول الأوروبية على ضرورة توجيه إنذار شديد اللهجة إلى دول الشمال الإفريقي بأن أي اعتداء على تجارة الدول

¹ ميكافي رودولفو، مرجع سابق، ص 176.

² كانت طرابلس الغرب تقدم بعض الهدايا إلى الجزائر، فبتاريخ 30 جوان 1815م أرسل باشا طرابلس يوسف القرماني عدداً من السفن إلى الجزائر، ثم بتاريخ 28 ماي 1817م علم أن هدية طرابلس الغرب قد وصلت إلى ميناء الجزائر، كما قام السلطان العثماني سنة 1817م ببعث هدية إلى الجزائر مكونة من بارحة حربية وباخرتين صغيرتين، وذلك مساهمة منه في إعادة بناء أسطول الجزائر البحري. ينظر: عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، مرجع سابق، ص 241.

³ الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 127.

⁴ القريطة: محرفة عن الفرنسية Corvette سفينة حربية صغيرة (غراب، حراقة).

⁵ حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، تج. محمد الأسطى عمار جحيدر، ج1، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط2، بنغازي. ليبيا، 2001، ص 252.

⁶ عبد الجليل التميمي، مرجع سابق، ص 241.

⁷ تقع في جنوب ألمانيا حالياً.

⁸ ميكافي رودولفو، مرجع سابق، ص 183.

⁹ أحمد سعيد الطويل، الوفاق الأوروبي وانعكاساته على إيالة طرابلس الغرب، المجلة التاريخية المغاربية، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات، عدادان 90، 89، 90، ماي 1998، ص 140.

الأوروبية سيقابل بأشد العقوبات، وكلفت فرنسا وانجلترا بمهمة إطلاع إيالات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب على ذلك الإنذار¹. على أن إنشاء عصابة عامة من الدول الأوروبية كان نتيجة لاستمرار النيابات الثلاث في أعمالها ضد التجارة السلمية، وأنه يجب عليها أن تفكر في نتيجة أعمال هذه العصابة في الوقت المناسب لأن مجرد وجودها قد يصيبها بالضرر.

وصل في شهر سبتمبر 1819م أسطول بريطاني تحت قيادة الكومودور سير توماس فريمانتل وفرنسي بقيادة الأميرال جوريا دي لا جرافيير إلى الجزائر²، فأعلن قائد الأسطول لداي الجزائر أن مؤتمر أكس لاشايل قد قرر أنه يجب على إيالات الشمال الإفريقي الثلاث أن تمتنع عن ممارسة القرصنة في المستقبل، وإعلان الحرب على أية دولة مسيحية أوروبية، وبعد بضعة أيام من التفكير والتروي، رفض الداوي هذا الإنذار محتجا بالحقوق التي تعترف بها الجزائر معاهدات دولية لاسمية اقراها العالم كله خلال قرون متوالية³، هذا وكان الداوي حسين باشا (1818-1830م) قد رد على مبعوثي دول مؤتمر أكس لاشايل يوم 5 سبتمبر 1819م بأن الجزائر هي في حالة سلم مع الدول الأوروبية، وأنه منذ أن وصل إلى الحكم، لم يتم الاعتداء على سفن الدول الأوروبية⁴، وبعد محادثات طويلة مع الداوي لم تؤد إلى نتيجة تذكر، كما أكد ذلك حمدان خوجة في مذكراته حيث قال: "...وفي اليوم الخامس من شهر سبتمبر 1819م/7 ذو الحجة 1235هـ ألقع الأسطولان من شواطئ الجزائر ورجعا بدون نتيجة مجدية"⁵، ثم انتقل الأسطول الأوروبي إلى تونس التي وافقت على احترام كل المعاهدات المعقودة مع الدول الأوروبية والإجماع الأوروبي على إنهاء الحملات البحرية.

أما فيما يتعلق بطرابلس الغرب فإن الأسطول المشترك وصل إلى المياه الطرابلسية بتاريخ 18 أكتوبر 1819م لإبلاغه بمقررات مؤتمر أكس لاشايل فكان رد الباشا الطرابلسي أن سفن القرصنة قد توقفت منذ زمن بعيد عن الخروج من موانئ إيالة، وعلى أن السلطات تبذل قصارى جهودها لتلبية رغبات إنجلترا وفرنسا وان حاكم طرابلس الغرب يتفق كليا وفي كل شيء مع الدول الأوروبية وفي نيته أن يفى بالتزاماته بشرف وصدق⁶. على الرغم من أن الجزائر هي التي تعرضت للقصف والتدمير من حملة اللورد إكسماوث في شهر أوت من سنة 1816م، إلا أن موقفها كان قويا وفيه تحد واضح للقوى الأوروبية مجتمعة على عكس تونس وطرابلس، هذه الأخيرة التي صرح أميرها يوسف باشا قائلا: "...وصاحب السمو باشا طرابلس نشعر... بكل مشاعر الاحترام والصدقة لأصحاب الجلالة ملكا إنجلترا وفرنسا والى ملوك القوى الأوروبية الذين اجتمعوا السنة الماضية في أكس لاشايل

¹ - اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 218.

² - ميكايي رودولفو، مرجع سابق، ص 185.

³ - وليام شالر، مصدر سابق، ص 178.

⁴ - جمال قنان، نصوص ووثائق تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2010، ص 329.330.

⁵ - حمدان بن عثمان. خوجة، مصدر سابق، ص 114.

⁶ - اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 219.

فإننا... لندين من هذا اليوم والى الأبد كل مظاهر القرصنة والنهب سواء بالبحر أم الأرض، وأيضاً بعدم السماح لأي من سفننا التجارية بأن تدنو لتهاجم في البحر أي سفينة أو مركب تابعة للقوى المشار إليها أعلى¹.

وعلى أية حال يعتبر مؤتمر أكس لاشابيل بداية المرحلة الأولى لتقويض الإمبراطورية العثمانية الإسلامية وتقسيم الوطن العربي بين القوى الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية، وأنّ هذا المؤتمر لم يؤدي إلى تدني النشاط البحري المغربي فحسب، بل أدى في النهاية إلى احتلال الجزائر سنة 1830م حيث كانت البداية الفعلية لهذا المخطط الاستعماري الزاحف تحت ستار القضاء على ما يعرف بالقرصنة، وحرصاً من هذه الدول الاستعمارية على إنجاح مخططاتها، لجأت إلى إضعاف إيالات المغرب، وذلك بعدم تزويدها بالمواد الإستراتيجية كالذخائر والأسلحة والمراكب بعد هذا المؤتمر، وهي المواد التي كانت تقدم في السابق كهدايا من عدة دول أوروبية، وحتى الجزية السنوية التي كانت تدفعها الدول الصغرى أصبحت في تراجع مستمر نتيجة لحصول بعض الدول على حماية إنجلترا وفرنسا، وبالتالي ازداد تحديدها لإيالات المغرب التي لم يعد أمام حكامها إلا الاستدانة وبفوائد مرتفعة من المؤسسات الأجنبية.

رابعاً: العلاقات بين الإيالتين من 1820-1830

1- المشاركة والتعاون الجزائري الطرابلسي في حرب اليونان 1821م:

تعتبر الحرب اليونانية العثمانية إحدى حلقات الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وفي إطار الرغبة الجارحة للدول الأوروبية الراغبة في تصفية ممتلكات الدولة العثمانية في شرق أوروبا، وفي إطار استعداداتها لخوض غمار هذه الحرب البحرية أرسلت الدولة العثمانية طلباتها لأوجاق الغرب للمشاركة فيها. فما مدى مشاركة البحريتين الجزائرية والطرابلسية في هذه الحرب؟

أ- المشاركة الجزائرية:

نظراً لطبيعة العلاقات بين الجزائر والباب العالي باعتبارها ولاية عثمانية، فإن الولاة الجزائريين كانوا يدركون الخطر الذي يشكله اليونانيون على مستقبل الدولة العثمانية، ولأجل ذلك لم يتردد حسين باشا (1818-1830م) في الاستجابة لأمر السلطان العثماني محمود الثاني في آوت 1821م بإرسال السفن الجزائرية إلى بحر إيجه للمشاركة إلى جانب السلطان العثماني في إخماد الحرب التي فجرها اليونانيون في بداية السنة المذكورة²، على أن المصادر وان أجمعت على أن الجزائر قد أرسلت سفنها إلى المياه الشرقية مثلما أمر الباب العالي، فإنها لا تتفق

¹ - محمد الهادي أبو عبد الله ابوعجيلة، مرجع سابق، ص249.

² - يذكر أن حسين باشا أمر إثر وصول المبعوث العثماني بإجراء الإصلاحات لإحدى عشرة سفينة، وما إن حلّ شهر سبتمبر حتى تم إعداد عشر سفن لإرسالها إلى بحر إيجه، وتلك السفن هي: سفينة من نوع فرقاطة ذات 46 مدفعا، وثلاث سفن من نوع كرفت اثنتان منهما ذات 32 مدفعا، والثالثة ذات 22 مدفعا، وأربع سفن من نوع بريق: ثلاث منها ذات 18 مدفعا والرابعة ذات 14 مدفعا. وسفينة من نوع بلادره ذات 14 مدفعا

حول عدد السفن التي أرسلت فعلاً¹، غير أن ما يمكن إثباته هو أن الجزائريين كان يغمرهم حماس قوي للمشاركة في تلك الحرب.

وصلت السفن الجزائرية إلى ميناء نافرين في 14 مارس 1823م، وكانت تلك السفن كلها من نوع فرقاطة، تعرف إحداها باسم "مفتاح الجهاد"، وتحمل على متنها أربع مائة بحار، وتعرف الثانية باسم "أبو الهوس" وتحمل على متنها ثلاثمائة وخمسين بحاراً، وتعرف الثالثة باسم "غولان جيلان" وتحمل على متنها مائة بحار، وعندما انتصف فصل الخريف من عام 1239هـ/1823م حيث يتغير الجو تمهيداً لقدوم فصل الشتاء، عادت السفن الجزائرية بإذن من القبودان محمد خسرو²، ودخلت ميناء الجزائر في 27 أكتوبر 1823م وكان عددها ثمان سفن، وقد قضت تلك السفن إلى جانب الأسطول العثماني مدة 26 شهراً، وذلك منذ أن غادرت الجزائر في شهر سبتمبر 1821م، وكلفت الإيالة خلال تلك المدة مبلغ 123867 قرشاً، وغطى ذلك المبلغ نفقات الجنود في الطعام واللباس والمرتبات، وإصلاح السفن وشراء التجهيزات لها، والهدايا التي كان البحارة الجزائريون يقدمونها لوزراء الباب العالي ومساعدتهم عند استقبالهم، وكذلك مصاريف تجنيد المتطوعين لجيش الجزائر الانكشاري، وكانت تعليمات القبودان دريا لقائد السفن الجزائرية بان تعيد الإيالة سفنها إلى بحر إيجه في بداية فصل الربيع لعام 1239هـ/1824م³.

بعد أن عقدت الجزائر الصلح مع إنجلترا في أواخر جويلية 1824م، أرسلت الدولة العثمانية إلى الإيالات المغربية الثلاث (الجزائر وتونس وطرابلس) ثلاث فرمانات، طلب فيها منها أن ترسل سفنها إلى بحر إيجه، حيث تقرر جلب 500 من أوجاق الجزائر و 500 من أوجاق تونس و 250 من أوجاق طرابلس الغرب بحيث يكون المجموع 1250 بحاراً، وذلك لاستخدام هؤلاء البحارة في الأسطول الهمايوني الذي تقرر خروجه في أول الربيع⁴، وقد استجاب الداي حسين لأمر الباب العالي وعين للمهمة السفن التي شاركت في المرحلة الأولى من الحرب ما عدا سفينة واحدة من نوع كرفت، وكان قائد تلك السفن هو مصطفى رايس، أما مساعده فكان صاري عسكر الحاج عبد الله صهر مصطفى باشا، وسلّمه قيادة المراكب والجنود وأعطاه مالاً من أجل المصاريف⁵، وفي منتصف شعبان 1239هـ (4 أبريل 1825) غادرت السفن الجزائرية ميناء الجزائر في اتجاه الشرق، وبعد أن سارت تلك السفن نحو تسعين ميلاً إصطدمت بعاصفة هوجاء منعتها من مواصلة الطريق وأجبرتها العودة إلى الميناء حيث

¹ - يذكر أحمد الشريف الزهار أن عدد السفن التي بعث بها حسين باشا كان ستة، وحدد تاريخ سفرها بشهر سفر 1236هـ (نوفمبر 1820م). ينظر: الزهار، مصدر سابق، ص 148 في حين أن شالر يذكر أن عدد السفن كان ثمانية وحدد تاريخ سفرها بشهر سبتمبر 1821م. ينظر وليام شالر، مصدر سابق، ص 181.

² - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 148.149.

³ - خليفة حماش، الجزائر والحرب اليونانية العثمانية 1821-1827م، المجلة التاريخية المغربية، عدد 65، 66، زغوان، أوت 1992م، ص 177.178. غير أن النزاع الذي نشب بين الجزائر وإنجلترا، أرغم الداي حسين على أن يحتفظ بالسفن الجزائرية للدفاع عن الإيالة ضد أي هجوم يقوم به الأسطول الإنجليزي على مدينة الجزائر.

⁴ - أ.و.ج، دفتر خط همايون، عدد 40066، تاريخ 1240هـ، علة 11.

⁵ - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 156.

أصلح ما أصابها من عطب، وفي 5 رمضان / 23 أفريل من السنة نفسها أبحرت مرة أخرى ووصلت إلى ميناء نافرين بعد إثني عشر يوماً، وهناك انضمت إلى الأسطولين العثماني والمصري، وشاركت في حصار المدينة، وبعد معركة عنيفة بين العثمانيين واليونانيين إستمرت إلى 25 ماي/7شوال من سنة 1825م. إنهمز اليونانيون وانسحبوا من المدينة تاركين وراءهم أسلحتهم وذخائرهم¹.

بعد أن سقطت نافرين بأيدي العثمانيين أرسل إبراهيم باشا قائد الأسطول المصري جزءاً من الأسطول إلى الإسكندرية وجزءاً آخر إلى جزيرة كريت، وكانت السفن الجزائرية ضمن هذا القسم الثاني، وبعدها وصلت سفن هذا القسم الأخير إلى ميناء سوده في الجزيرة المذكورة، إلتحق بها القبودان دريا محمد خسرو باشا على رأس بعض من السفن العثمانية يبلغ عددها ثمان وخمسين سفينة، وهناك قام العثمانيون بتجنيد أربعة آلاف وسبعمائة رجل، ونقلوهم في 26 جوان 1825م (10 ذي القعدة 1240هـ) إلى نافرين، وبعد ثلاثة أيام من ذلك أرسل محمد خسرو باشا بعض السفن العثمانية بقيادة بطرونة باي حسين إلى الإسكندرية، وبقي هو على رأس باقي السفن، وكان عددها إحدى وخمسين من ضمنها السفن الجزائرية، يجوب بها مياه بحر ابيجة بحثاً عن المتمردين².

لقد استمرّ الجزائريون بعد ذلك يعملون ضمن الأسطول العثماني إلى شهر شوال 1241هـ/ ماي 1826م حيث قرر محمد خسرو باشا أن يتوجه إلى ميناء بادره بشبه جزيرة القرم، ولما أبحر على رأس السفن من ميناء سالونيك، إتصل به قائد السفن الجزائرية مصطفى رايس، وأخبره بوصول رسالة إليه من حسين باشا والي الجزائر أمره فيها بالعودة على رأس السفن إلى الجزائر نظراً لوجود خطر خارجي يهدد إيالة، غير أن القبودان دريا لم يأخذ قول مصطفى رايس بجدية ورفض أن يعطيه الإذن بالعودة إلى الجزائر كما أمر حسين باشا، ولكنه وعده بالسماح له بذلك عندما يحل فصل الشتاء، وأعطاه في الوقت نفسه حرية الاختيار بين مواصلة الطريق برفقته إلى ميناء بادره وبين التوجه إلى الإسكندرية، إلا أن مصطفى رايس لم يختار أياً من الاقتراحين وأصرّ في قرارة نفسه على تنفيذ الأمر الذي وصله من الجزائر، وعندما وصل الأسطول عند جزيرة زنطة انفصل تحت جنح الليل بالسفن الجزائرية متوجهاً نحو الغرب، أي صوب مدينة الجزائر التي وصلها في شهر جوان 1856م / ذي القعدة 1241هـ³، وعندما طلع النهار وتفقدتهم وتفقدتهم قبطان باشا فلم يجدهم ولم يعثر لهم على أثر فتحقق عنده أنهم توجهوا باتجاه ميناء الجزائر⁴.

إن الطريقة التي انفصلت بها السفن الجزائرية عن الأسطول العثماني، لم ترض القبودان دريا محمد خسرو باشا باعتباره قائداً عاماً للبحرية العثمانية التي يعد الأسطول الجزائري جزءاً منها، فغضب لذلك السلوك وعده عصياناً يجب أن يعاقب الجزائريون عليه، فكتب في 12 شوال 1241هـ 20 ماي 1826م تقريراً إلى السلطان محمود

¹ - خليفة حماش، مقال سابق، ص 180.

² - نفسه، ص 180.181.

³ - خليفة حماش، مقال سابق، ص 181.

⁴ - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 156.

الثاني شرح له فيه الظروف التي انفصلت فيها السفن الجزائرية عن الأسطول العثماني وعودتها إلى الجزائر دون إذن منه¹، فاغتاز السلطان العثماني لذلك²، وكان دريا محمد قد اقترح عليه معاقبتهم بمنع وصول الجنديين إليهم من أقاليم الدولة العثمانية، إلا أن السلطان رأى عكس ذلك تماما، فرأى بأنه في غير صالح الإيالة، وقال بأنه لن يزيد لها إلا ضعفا، خصوصا أنها كانت آنذاك عرضة لتحرشات الدول الأوروبية وفي مقدمتها إنجلترا، وعلاوة على ذلك رأى السلطان العثماني أن ذلك الأسلوب للعقاب لا يتناسب مع مستوى الخدمات الجليلة التي سبق للجزائريين أن قدموها عبر السنين للدولة العثمانية، ومن ثمة اكتفى السلطان محمود الثاني بإعطاء الأمر بكتابة فرمان إلى حسين باشا يوضح له فيه أن انفصال السفن الجزائرية عن الأسطول العثماني دون أمر من الباب العالي ليس من الأدب في شيء، وأن السلطان يتمنى ألا يصله في المستقبل خبر تكرار ذلك السلوك³.

ب- المشاركة الطرابلسية:

لقد كانت البحرية الطرابلسية لا تتأخر في تلبية نداء السلطان العثماني كلما دعاها إلى خوض غمار حرب إسلامية ضد أعدائه⁴، ففي عهد يوسف باشا قامت الثورة في جنوب اليونان (المورة كريت) وتزايد خطرهما واتسع نطاقهما، بحيث أصبحت تهدد الوجود العثماني في هذه الربوع مما جعل السلطان العثماني محمود الثاني (1808-1839م) يطلب العون من الإيالات المغربية - تونس وطرابلس الغرب والجزائر، واستجابة لذلك أرسلت البحرية الطرابلسية حملتين بحريتين، انطلقت الأولى يوم الخميس 18 محرم سنة 1237هـ/ 8 أكتوبر 1821م وهي مكونة من ستة مراكب مجهزة بالسلاح والرجال تحت قيادة الرايس محمد أبو شيبه، أما الحملة الثانية وهي الأهم فقد قادها الرايس عمر الشلي، قائد الأسطول الطرابلسي، حيث نشرت هي الأخرى قلاعها صبيحة يوم السبت 5 ذي القعدة 1239هـ/ 10 جويلية 1824م في اتجاه الشرق.

ج- المقارنة بين المشاركة:

مهما كانت أسباب هزيمة العثمانيين أمام الأساطيل الأوروبية في موقعة نافارين البحرية، فإن ذلك يؤكد حقيقة واحدة وهي التأمر على الدولة العثمانية ومحاولة إضعافها والقضاء عليها تطبيقا للسياسة الأوروبية الجديدة التي أقرتها في مؤتمر أكس لاشايل سنة 1818م.

وعلى أية حال يمكن معرفة أهمية مشاركة الإيالات المغاربية الثلاث (الجزائر وتونس وطرابلس) في هذه الحرب من خلال إجراء مقارنة بينهما، فالجزائر على حسب ما جاء في المصادر المعاصرة لتلك الحرب فقد شاركت ما بين ستة إلى ثمانية مراكب في سنة 1821م، ورجعت إلى الجزائر في سنة 1823م، ثم أرسلت أسطولا آخر مكونا من ستة مراكب سنة 1825م⁵، في حين أن تونس وعلى حسب ما جاء في المصادر التونسية مثل صفوة الاعتبار

¹ - خليفة حماش، مقال سابق، ص 181.

² - أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 156.

³ خليفة حماش، مقال سابق، ص 181.

⁴ - أحمد سعيد الطويل، مرجع سابق، ص 309.

⁵ - ينظر أحمد الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 149، ووليام شالر، مصدر سابق، ص 149.

لبيرم الخامس والإتحاف لابن أبي الضياف فقد شاركت بعدد ستة مراكب في البداية (1821م)، ثم أضافت أسطولا آخر في سنة 1826م، ولم تحدد هذه المصادر عدد مراكب الأسطول الثاني، في حين أن طرابلس أرسلت حملتين إلى اليونان الأولى في شهر أكتوبر 1821م والثانية في شهر جويلية 1824م، ومن خلال إجراء عملية مقارنة بين مشاركة الإيالات الثلاث في حرب اليونان توصلنا إلى الإستخلاصات التالية :

* تؤكد هذه الإعانات التي شاركت بها الإيالات الثلاث حرص كل من يوسف باشا القرماني والداي حسين والباي التونسي، ولاءهم للدولة العثمانية في هذا الموقف بالذات نتيجة لتزايد الضغوط الأوروبية عليها بعد مؤتمر أكس لاشابيل، وحتى تظهر هذه الإيالات بالمظهر القوي أمام السلطان العثماني من خلال المشاركة بأكبر عدد من المراكب.

* تأتي البحرية الطرابلسية في الترتيب الأول من حيث عدد القطع ثم تأتي بعد ذلك الجزائر وتونس .

* إختلاف المصادر والمراجع حول المشاركة الفعلية للبحرية الجزائرية من عدمها في الحلقة الأخيرة من الصراع العثماني اليوناني أي في معركة نافارين.

2- موقف طرابلس الغرب من الاحتلال الفرنسي للجزائر :

أ-الموقف الرسمي :

لقد وقف يوسف القرماني باشا طرابلس الغرب إلى جانب الداوي حسين منذ أن اشتدت الأزمة بين فرنسا والجزائر ، وقد تبادل الرجلان عدة رسائل للاستفسار حول المشروع الذي اقترحه فرنسا على محمد علي والقاضي باحتلال إيالات الشمال الإفريقي الثلاث (طرابلس وتونس والجزائر) ، ففي وثيقة في الأرشيف الوطني الجزائري رسالة بعث بها يوسف باشا القرماني يعلم فيه الداوي حسين بخبر تعيين إبراهيم باشا نجل محمد علي واليا على الإيالات الثلاث قائلا: "...ولتعلم أن الذي في مسموعنا من جهة والي طرابلس أعطي لابنه إبراهيم باشا الأوجاقات الثلاث الغربية الجزائر وتونس وطرابلس (كذا)، فلم يتبين من طرفنا نسبة تدييره، وإن كان حقا لا تخف إن الله معنا...¹. هذا وقد تضامن الباشا الطرابلسي مع داي الجزائر وأرسل إليه في مايو 1830م خطابا مطولا يعتذر فيه عن عدم مقدرته على إرسال مساعدات، ووعده بأن يعمل بكافة الوسائل على منع الحملة² ، ورد باي طرابلس على إحدى الرسائل التي وجهها له الداوي حسين، يستفسر فيها عن حملة محمد علي المرتقبة بالعبارات التالية : "... شرعنا على تجهيز الأمحال وتحضير ما يلزمنا من آلة الحرب والقتال لكافة أهل أوطاننا بأن يقضوا لوازم السفر، ويكونوا على بصيرة وحذر فإذا قدر الله بقدمه علينا نعارضوه (كذا) بعساكرنا في حدود العمالة ونضيقوه (كذا) وبال أمره ويرجع خايبا (كذا) إن شاء الله لا محاله ونجاوزوه (كذا) بحوا الله وقوته بفعله، وعلى كل حال فلا يحق المكر السيء إلا بأهله

¹ - المكتبة الوطنية الجزائرية، قسم المخطوطات، المجموعة 3190، الملف 1، رقم الرسالة 127.

إنتشرت الإشاعات الأولى عن استعداد محمد علي للقيام بحملة على طرابلس في أواخر سنة 1827م، وبدأت تتحقق عندما وصلت في يناير 1829م أنباء عن وقوع إغارات مصرية على إقليم درنة ، وعندما قامت في شهر سبتمبر سفينة من بنغازي تحمل إلى طرابلس أخبارا عن استعدادات عسكرية مصرية على حدود برقة. ينظر: ميكاكي رودولفو، مرجع سابق، ص 220.

² - ميكاكي رودولفو، مصدر سابق، ص 221.

، وان هو اكتفى بمملكته وتأخر عن الجدل فهو المراد وكفى الله المؤمنين القتال، ولا نسعى والله إلا في حقن دماء المسلمين، ولا مرادنا أن يكون بين الإسلام سيفين مختلفين...¹، وشجع يوسف باشا القرماني الداي حسين على الصمود والتصدي للغزاة الفرنسيين في الرسالة التي بعثها له في شهر ماي 1830م قائلا: " إن قواتكم الجرارة لم تهن في ملاقات الأعداء، ومحاربتكم يحملون الأسلحة ذات الضربات الرهيبة، وهي الأسلحة المشهورة في أصقاع الغرب قاطبة، وفي نفس الوقت، فإن قضيتكم عادلة ومقدسة، فانتم لا تجاهدون من اجل ربح أو مكاسب دنيوية تجنونها، ولكنكم تجاهدون من اجل إعلاء كلمة الله وإرادته²."

أما إذا أردنا معرفة إن كانت طرابلس الغرب قد ساعدت الجزائر عسكرياً أثناء الحملة الفرنسية عليها فإننا نستخلص ذلك من خطاب يوسف باشا إلى الداي حسين معتذراً له عن عدم قدرة إيالته على مساعدة الجزائر في حربها ضد فرنسا، مبرراً ذلك بأن طرابلس ليس لها من الإمكانيات لمساعدة الجزائر، حيث صرح له قائلاً: " أما فيما يخصنا نحن، فإننا لسنا على ذلك القدر من القوة الذي يمكننا أن نرسل لكم النجادات، ولا نستطيع مساعدتكم إلا بتضرعاتنا الخالصة إلى الله في المساجد أن ينصركم"³.

وهناك من أرجع عدم قدرة طرابلس الغرب على تقديم المساعدات إلى الجزائر إلى الأزمة الاقتصادية والمالية التي حلت بها، والأضرار التي ألحقت بها، نتيجة التنافس الفرنسي الانجليزي، وبالرغم من كل ذلك، فإن الطرابلسيين كانوا يتتبعون أخبار الجزائر عن كثب، فقد أقدم يوسف باشا على إرسال الرئيس محمد الزريق إلى تونس ليتأكد من صحة خبر سقوط الجزائر في يد الفرنسيين، وقد عبر القنصل الانجليزي بطرابلس السيد وارنجتون في 26 جويلية 1830م بهذه الكلمات " كانت الأنباء باحتلال الجنيرال دي بورمون لمدينة الجزائر قد وصلت إلى طرابلس يوم 26 جويلية 1830م، فأحدثت قلقاً وهيجاناً بين سكانها المسلمين⁴، وورد في اليوميات الليبية لحسن الفقيه حسن ما يدل على أن الطرابلسيين كانوا يتتبعون أخبار الاحتلال الفرنسي للجزائر ويحاولون التأكد من صحة ذلك من عدمه: " ففي يوم السبت 1 ربيع الأول 1246هـ قدموا علينا جوز مراكب من القورنة و أخبرونا: بأن الجزائر صحيح خذاها الفرنسيين، وصار فيها الفمي⁵ ثلاثة أيام، والباشا متاعها ظهر منها ورفع معاه من ناسه وأحبابه وحرابه وغيره جملة أنفار عدد 49، ومشى إلى بورت ماهون، وبعده توجه إلى نابل⁶."

إن موقف طرابلس الغرب المعادي لاحتلال الجزائر، قد اتخذته فرنسا ذريعة لكي تتدخل في شؤونها، فكلفت احد ضباطها بأن يتوجه إلى طرابلس بغرض معاينة يوسف باشا، وإرغامه على تقديم اعتذارات هلفرنسا، وتنفيذاً

¹ - أرجمن كوران، مرجع سابق، ص 54.

² - خطاب يوسف القرماني إلى الداي حسين بتاريخ شهر مايو 1830م نقل عن أحمد سعيد الطويل، العلاقات السياسية والتجارية بين ليبيا ودول غرب أوروبا المتوسطة، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، 2007م، ص 263.

³ - نفسه.

⁴ - ارزقي شويتام، دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي، مرجع سابق، ص 133.

⁵ - ما غنم بدون مشقة وقتال معنى السلب والنهب وإباحة البلاد.

⁶ - معناها نابولي بإيطاليا.

لأوامر فرنسا، حل أسطولها بطرابلس يوم 9 أوت 1830م، ولم يكن في وسع يوسف باشا أمام تهديد الأسطول الفرنسي إلا قبول توقيع معاهدة والتي كانت بنودها مجحفة.

ب- موقف النخبة:

إذا كان الموقف الرسمي لإيالة طرابلس الغرب مسانداً للإيالة الجزائرية في أزمتها مع فرنسا سنة 1830م، ذلك الموقف الذي ترجمه شخص يوسف باشا المتعاون والمتعاطف مع الداوي حسين، فكذلك الموقف النخبوي في طرابلس كان متعاطفاً مع الداوي حسين والشعب الجزائري، ذلك الموقف الذي ترجمه حسن الفقيه حسن في يومياته مبدياً سخطه على الإنزال العسكري الفرنسي في الجزائر قائلاً: "قدم علينا الحاج محمد الزريق من تونس لأجل أخبار الجزائر، وخبرنا: بأنها ملكوها النصارى الفرنسيين.."¹، وهاجم حكامها على السهولة التي سلموها بها للفرنسيين قائلاً: "باعوها عسكر البلاد إلى الفرنسيين، وهذا خبر لن نزيد عليه، لأنه خبر معفون، والسلام"²، كما تابع الفقيه حسن أخبار الاحتلال الفرنسي للعاصمة الجزائرية، وهو مؤثر على أن المنتور الطرابلسي كان يراقب الأحداث في شمال إفريقيا عن كثب.

إلى جانب موقف حسن الفقيه حسن لعبت الصحافة الشعبية التي صدرت في طرابلس بعد انقلاب الاتحاديين في العاصمة العثمانية في جويلية 1908م بدءاً من صحيفة "الترقي"، "وأبي قشة"، "والكشاف"، "والعصر الجديد"، "والمرصاد"، "والرقيب"، دوراً هاماً في التعريف بالأخطار المحدقة بإيالات الشمال الإفريقي، فاحتلال الجزائر سنة 1830 وتونس 1881م لم يغيبا عن أعمدة تلك الصحف، فقد وصف ما حصل في الجزائر وتونس بالقول إن هذه البلاد تم احتلالها قهراً، وفي ذلك رسالة ذكية للمواطنين الطرابلسيين ودق ناقوس الخطر كي لا يغفلوا عن وطنهم، وفي الإطار نفسه ربطت جريدة العصر الجديد عودة الجزائر وتونس إلى حظيرة الدولة العثمانية بإصلاح هذه الدولة وتعزيز كيانها³.

ورفضت صحيفة الرقيب ومن منطلق ديني آية امة تحكمها امة أخرى تختلف عنها في اللغة والدين، ووصفت ما حصل في الجزائر وتونس بـ "الزخرف الكاذب والطلاء الوهمي" وكانت ناقمة على المستعمر الفرنسي الذي لم يشيد في هذين البلدين إلا على جماجم أبناء البلاد، وما طليت جدرانها إلا بدمائهم ولا رصفت شوارعها إلا بأكبادهم"، ورأت جريدة الكشاف في استيلاء فرنسا على الجزائر وتونس انه لم يكن إلا لغرض معلوم ومقصد غير مجهول... لأنها من منابع ثروتها، أما صحيفة المرصاد فنبهت الأذهان وحركت المشاعر ضد الاستعمار الفرنسي لأنه أعظم شأنا وأشد خطراً، فعندما خيم الفرنسيون على الجزائر غيروا بعض مساجدها إلى كنائس، وهي إشارة لها مغزى عميق، ثم ما لبثت الصحيفة أن ألهمت مشاعر السخط لدى قرائها على المستعمرين الفرنسيين الذين

¹ - حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ص 484.

² - نفسه.

³ - عبد الرزاق احمد النصيري، موقف صحافة طرابلس الغرب في العهد العثماني من التغلغل الاستعماري في المغرب العربي، المجلة التاريخية المغربية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات العدد 129، مارس 2008، ص 91.90.

فعلوا ما فعل تيمور لنك وجنكيز خان وهولاكو خان بالمسلمين وبلادهم، مما سطر في بطون التاريخ عنوانا للهمجية والتوحش والفظاعة¹.

ومهما قيل عن موقف طرابلس الغرب عن الاحتلال الفرنسي للجزائر فإنه يمكننا القول أن الموقف الذي اتخذته يوسف باشا من الحملة الفرنسية على الجزائر من تتبعه لأخبار الحملة الفرنسية على الجزائر موقفه الراض لغزو الأوجاقات الثالث من قبل محمد علي يمكن وصفه بالموقف الشجاع، بالرغم من أنه لا يتجاوز التأييد المعنوي إلى المساهمة الفعلية في تقديم العون والمساعدة، ولعل اكتفاء حاكم طرابلس الغرب بإبداء عواطف الأخوة دون تقديم المعونات المادية التي كانت الجزائر في حاجة إليها بعد حصار بحري دام ثلاث سنوات وبعد عزم فرنسا غزو البلاد واحتلالها، تكمن في تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بها إيالة الطرابلسية، والتي تمثلت خاصة في الثورات العديدة بمختلف الأقاليم 1806-1830م، وإعلان سكان الساحل والمنشية المجاورة لمدينة طرابلس العصيان ومبايعة ابنه احمد واليا عليهم، في وقت تكررت فيه تهديدات الأساطيل الأوروبية التي تمكنت من إطلاق أسرى القرصنة عام 1819م تحت التهديد والتظاهر بالقوة، ثم ما أعقب ذلك من خلاف حاد بين مملكتي سردينيا و نابوليتانيا 1825-1826م، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن موقف طرابلس الغرب كان أحسن من موقف الباي التونسي والذي أيد الحملة الفرنسية على الجزائر .

¹ - عبد الرزاق أحمد النصيري ، مقال سابق ، ص 91.

الفصل الرابع

العلاقات الاقتصادية والثقافية والترابط الاجتماعي بين الجزائر وإيالاتي تونس وطرابلس 1750-1830م.

أولاً: العلاقات الاقتصادية

- 1 - التبادل التجاري بين الجزائر وتونس :
- 2 - نماذج من التبادل التجاري بين الجزائر وتونس :
 - أ - تواتر القوافل التجارية بين تونس وقسنطينة :
 - ب - بقر الجزائر- ظاهرة قديمة للتصدير نحو تونس.
- 3 - الطرق التجارية بين الجزائر وتونس :
- 4 - الطرق الرئيسية بين الشرق الجزائري وتونس :
- 5 - صادرات وواردات الجزائر نحو تونس :
 - أ - الصادرات :
 - ب - الواردات :
- 6 - مساهمة تقاييد التجار في المبادلات البيئية :
 - أ - علي بن سعيد البحار الجزائري :
 - ب - نشاطه مع تونس :
- 7 - التبادل التجاري بين الجزائر وطرابلس الغرب :
 - أ - الطرق الرئيسية بين الجزائر وطرابلس :
 - ب - التجار الجزائريون بإيالة طرابلس :
- 8 - العملة والمكاييل والأوزان المستعملة في الإيالات الثلاث
 - أ - النقود "العملة" :
 - في الجزائر
 - في تونس
 - في طرابلس الغرب
 - ب - المكاييل والأوزان :

9 - دور اليهود في المبادلات التجارية بين الإيالات الثلاث.

ثانيا: العلاقات الثقافية

1 - التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس.

أ - المراكز العلمية في الجزائر وتونس:

• في الجزائر.

- مدينة الجزائر.

- مدينة قسنطينة.

- مدينة مازونة.

• في تونس.

- جامع الزيتونة.

- مدينة القيروان.

ب- دوافع التبادل الثقافي بين الجزائر وتونس

- طلب العلم

- أداء فريضة الحج

- الهجرة الإجبارية

2- مظاهر العلاقات الثقافية الجزائرية التونسية

3- أشهر الرحلات الجزائرية إلى تونس

أ - رحلة ابن حمادوش

ب - زيارة الورتيلاني لتونس

ج - زيارة أبو راس الناصري إلى تونس

د - زيارة أحمد بن عمار

هـ - زيارة ابن العنابي إلى تونس

4- المجالس والمناظرات بين علماء الجزائر وعلماء تونس

5- الإجازات المتبادلة بين علماء الإيالات

6- التواصل الثقافي الجزائري الطرابلسي

7- الصلات بين الطرق الصوفية في الإيالات الثلاث

أ - الطريقة القادرية

ب - الطريقة التيجانية

ج - الطريقة الشاذلية

د- الطريقة الرحمانية

ه- الطريقة الشاذلية

و- الطريقة السنوسية

ثالثا: الروابط الاجتماعية بين الإيالات الثلاث.

1 للمجال التحومي بين الجزائر وتونس.

2 قبيلة الحنانشة الجزائرية بين بايات تونس وبايات قسنطينة

أ - علاقتهم ببايات قسنطينة

ب - المصاهرة بين بايات قسنطينة وأحرار الحنانشة

ج - علاقات بايات تونس بأسرة أحرار الحنانشة

د - المصاهرة بين بايات تونس وأحرار الحنانشة

3 قبيلة دريد التونسية

4 -شيوخ وطن المعزولة

5 المتشابه في الكوارث الطبيعية والأوبئة في الإيالات الثلاث.

أ -في الجزائر

ب - في تونس

ج- في طرابلس الغرب

الفصل الرابع العلاقات الاقتصادية والثقافية والترابط الاجتماعي بين الجزائر وإبالتونس وطرابلس 1750-1830م.

إنّ العلاقات بين الدول لا تكمن فقط في العلاقات السياسية والمتمثلة في تبادل الرسائل والمراسلات التي تتم بين حكام الدول والعلاقات العسكرية والمتمثلة في فترات من الحروب وأخرى من السلم، وإنما تتعداها إلى العلاقات الاقتصادية وهذا ما ينطبق على العلاقات بين الإيالة الجزائرية والإيالتين المتجاورتين تونس وطرابلس الغرب، حيث أنه وبحكم الجوار بين هذه الإيالات الثلاث، كانت هناك علاقات اقتصادية ترجمت إلى تبادل تجاري بيني نشط بين الإيالات الثلاث، فبالرغم من طابع الحروب والصراعات التي جرت بين الجزائر وتونس فإنّ ذلك لم يمنع من إقامة تبادل إقتصادي بين حكومتي الإيالتين، بالإضافة للممارسات التجارية الفردية التي كان يقوم بها تجار الإيالتين. وإلى جانب وجود علاقات اقتصادية بين أوجاقات الغرب في الفترة قيد الدراسة كان هناك تبادل ثقافي وترابط إجتماعي وذلك بحكم الانتماء إلى الحضارة العربية الإسلامية.

أولا : العلاقات الاقتصادية

1 - التبادل التجاري بين الجزائر وتونس:

قبل أن نتطرق إلى أنواع المبادلات التجارية التي كانت تتم بين تونس والجزائر في الفترة قيد الدراسة لابد من الإشارة إلى أنواع المنتجات التي كانت تنتجها كل إيالة .
لقد كان الإقتصاد الجزائري يعتمد أساسا على الزراعة نظراً لاتساع الأراضي الزراعية وخصوبة التربة واعتدال المناخ، وقد كانت كل منطقة مختصة في إنتاج أنواع معينة من المحاصيل، فكانت كمية كبيرة من القمح تنتجها بجاية وسهل متيجة الخصب ، إلا أن أجوده كان يأتي من تلمسان، وكان القمح الجزائري ممتازا ينافس محاصيل الدول الأخرى في الأسواق العالمية آنذاك¹، أما الخضر والفواكه فكانت تزرع في البساتين الواقعة بضواحي المدن، بينما إختصت المناطق الجبلية الواقعة في شمال البلاد بزراعة الأشجار المثمرة كالتين والزيتون وغيرها²، كما أن مراعيها تزخر بأنواع الحيوانات المختلفة مثل الأبقار والأغنام والماعز والبعال، والحمير الممتازة³، وكان عدد الأغنام يصل أحيانا إلى ثمانية ملايين رأس⁴، كما كانت تنتج كميات هائلة من الصوف والجلود والشموع⁵، وبناءً على ذلك كانت الجزائر تصدر مختلف المنتجات الزراعية والحيوانية كالقمح، والشعير، والشموع، والحمور، والزيت، والتبغ والملح، والعنب، والجوز، والحيوانات، كالبقر، والغنم، والإبل⁶.

¹ - وليام شارل، مصدر سابق، ص 106.105.

² - أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر، مرجع سابق، ص 58.

³ - محمد العربي الزبيدي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 57.

⁴ - Ch. A. Julien, Histoire de L'Algérie contemporaine La conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871, P.U.F, paris, 1964, p8.

⁵ - محمد العربي الزبيدي، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي، مرجع سابق، ص 106.

⁶ - أرزقي شويتام، مرجع سابق، ص 60.59.

وقد كانت تونس أيضا تشتمل على مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة، فكان الإنتاج الفلاحي في تونس يزيد دائما عن حاجيات السكان، فمن المزروعات التونسية هي حسب الأهمية: القمح، والشعير، والذرة والفاصولياء، والحمص، والقطن، وقصب السكر، والكتان، والنخيل، والزيتون، والحوامض، وفيما يخص الحبوب فإن المرودية في المكنتار الواحد تتراوح ما بين الثلاثين والأربعين قنطارا، في حين أن الثروة الحيوانية فقد كانت مزدهرة ازدهارا كبيرا على الرغم من الحروب الأهلية والكوارث الطبيعية، حتى أن فرسان مالطة كانوا يلجئون دائما إلى حكام تونس لتزويدهم بالغنم والبقر، وتذكر المصادر أن أغنام تونس كانت من أحسن الأغنام إلى درجة أن بعضها يزيد وزنها عن القنطار، كما تشتمل تونس أيضا على كثير من البغال والحمير التي يستعملها الأهالي للنقل ولحراثة الأرض¹.

2- نماذج من التبادل التجاري بين الجزائر وتونس:

لقد كان هناك تبادل تجاري بين الجزائر وتونس نشط بحكم قرب بايلك الشرق من حدود الإيالة التونسية، وهذا ما وقفنا عنده لدى تصفحنا لبعض الدفاتر الإدارية والجبائية في الأرشيف الوطني التونسي، حيث تحتفظ تلك السجلات ببيانات لأنواع المبادلات التجارية بين الإيالتين، لاسيما ما تعلق منها بأهم الحيوانات التي كانت تصدرها الجزائر إلى تونس، وهو ما وقفنا عنده لدى تصفحنا للدفتري 2984 والخاص بحسابات متعلقة بالبقر الذي ذهب به تجار جزائريون وباعوه في تونس ومن ذلك نذكر:

فقد أحضر الحاج علي التركي من بلد العناب سنة 1171هـ / 1756-1757م ما مجموعه 1475 بقرة وسعر الواحدة 12 ريالاً، وفي السنة نفسها قام الحاج محمد الصفاقصي (من صفاقص) بإحضار 1129 بقرة بسعر 9 ريالات للبقرة الواحدة، كما أحضر المدعو السمار التركي في السنة نفسها ما مجموعه 463 بقرة بسعر 12.5 ريال للبقرة الواحدة².

وفي سنة 1178هـ / 1764-1765م أحضر علي فريكح ما مجموعه 1469 بقرة ووزعها على مجموعة من الأشخاص لبيعها في منطقة الساحل، كما أحضر في السنة التي بعدها أي سنة 1179هـ / 1765-1766م ما مجموعه 1969 بقرة بيعت في جهات مختلفة من البلاد التونسية، فنقرأ مثلاً في الدفتري انه كان نصيب أولاد عون 300 بقرة في حين كان نصيب أولاد عمار 301 بقرة، كما أحضر علي فريكح في سنة 1178هـ ما مجموعه 1600 بقرة بمبلغ إجمالي قدر ب 20.000 ريال أي بسعر 12.5 ريال للبقرة الواحدة وزعت على جهات مختلفة فمثلاً كان نصيب وطن القليبية 300 بقرة على يد أحمد الساحلي، تبرسق 200 بقرة على يد الحاج بالنور، بني زرت 170 بقرة على يد عثمان بن ساسي³، وغيرها من الجهات الأخرى من البلاد التونسية.

¹ - محمد العربي الزبيدي، مرجع سابق، ص 104.105.

² - أ. و. ت. ، الدفتري 2984، بدون ترقيم، الأوراق الإحدى عشر الأخيرة .

³ - أ. و. ت. ، الدفتري 2984، بدون ترقيم، الأوراق الإحدى عشر الأخيرة

أ- تواتر القوافل التجارية بين تونس وقسنطينة :

كانت هناك قافلة للتجارة تذهب من قسنطينة إلى تونس مرة في كل شهر، مصحوبة بقطعان الغنم والبقر والإبل ومحملة بموارد التجارة الصحراوية كالعبيد والخدم، التي تجمعها محلة بايلك الشرق من الأهالي وتبيعه في أسواق الإيالة التونسية، ويقع تحويل مداخل هذه المواد إلى مقتنيات من المصنوعات المحلية مثل: المواد المنسوجة كالبرنس والكسوة والسفساري التي تجلبها المحلة التونسية من جهة الجريد في مقابل مطالب مخزنية موظفة على الأهالي هنالك، وإلى مواد قطنية ومعدينية مجلوبة من المتوسط إلى ميناء تونس عن طريق مؤسسة دار الجلد، وقد بلغ التبادل بين المخزنين أوجه في عهد الباي حمودة باشا الحسيني (1782-1814م) وباي قسنطينة صالح باي (1771-1792م) المتزامنين، ويذكر النقاد أن سيرة صالح باي مع سلطان تونس كانت حسنة، بينهما الهدايا العظيمة والمواد الكبيرة، وأن تجار قسنطينة يمشون إلى تونس بالسلع والحيوان¹.

ب- بقر الجزائر ظاهرة قديمة للتصدير نحو تونس:

تحتفظ خزينة الأرشيف الوطني التونسي بدفاتر محاسبات تعود إلى سنوات متفرقة من عهد حمودة باشا باي تونس، تحتوي على حسابات أعداد رؤوس البقر التي يجلبها من قسنطينة نائب البايك المذكور في تونس وتتقبله الدولة التونسية بسعر محدد، وتقوم بطبعها حتى تعرف أنها تابعة للبايلك، ثم تبيعه بسعر مضاعف إلى قواد الأوطان يتصرفون فيها لفائدتهم في الأسواق المحلية، وذلك ببيعه بطريقة البيع المؤجل الذي يسمى "الطلوق" وبأسعار مضاعفة من جديد، أو يوزعونها في شكل عوائد للمشايخ والأعيان، وتذكر المصادر أن رجب بونمة قائد محلة الأعراس التي تمتد في الهضاب العليا بمناطق الكاف والقصرين قد أخذ سنة 1211هـ/1796-1797م² 1495 رأس بقر من القطيع الذي أتى به الحاج محمد البرادعي وكيل الغرب (قسنطينة)، وذلك بسعر ثمانية ريالات للرأس الواحد، ويقوم القايد المذكور بالمتاجرة في هذه الجليلية الكبرى من بقر الجزائر وبيعه بين المناطق التابعة لسלטته عن طريق منظوريه من المشايخ والأعيان بها، وكثيراً ما يتم الإتفاق سراً بين القايد رجب بونمة أحد أقطاب دولة الباي حمودة باشا والكتابة المكلفين بتسجيل الحسابات على الدفاتر لتسجيل فاتورة وهمية غير مطابقة

¹ - محمد الطاهر بن أحمد النقاد، مخطوط سابق، ص17.

للمزيد ينظر كذلك : أ.و.ت ، السلسلة التاريخية ك الدفتر رقم 139 وتاريخه 1177هـ/1764م، والدفتر رقم 100 وتاريخه 1173هـ/1758م والدفتر 129 وتاريخه 1177هـ/1764م والدفتر 182 وتاريخه 1187هـ/1766م والدفتر 206 وتاريخه 1191هـ/1771م والدفتر 291 وتاريخه 1211 غ/1796م إذ تحتوي هذه الدفاتر على تسجيلات مفصلة عن قطعان الغنم والبقر والإبل وكميات الصوف التي تجمع في شكل ضرائب من دواخل بايلك الشرق ثم ترسل للبيع في تونس وهي مواد وحيوان يوزعها باي تونس على أهل محله في مقابل رواتبهم أو يوزعها على قواد الأوطان ليتكفلوا ببيعها داخل أسواق أوطانهم، كما نجد أن الباي يقتني الثيران المعدة للحراثة المرسله من قسنطينة ويوزعها على القبائل المخزنية المستقرة في أراضي البايلك . ففي الدفتر رقم 139 ص1 أن مسعود بن زكري وكيل باي الشرق قبض من باي تونس سنة 1197هـ/1783م ما قيمته 13304 ريالاً وذلك حق 2700 شاة و100 ثور بعثت للحرث في هناشر الباي بالقيروان و 1500 بقرة و4 جمال . ينظر: محمد الحبيب عزيزي، شبكة العلاقات البيئية : تونس وقسنطينة في العهد العثماني، المحلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 46.45، ديسمبر 2012، ص 219.

² - محمد الحبيب عزيزي، مقال سابق ، ص 219.

للحقيقة مثل: تسجيل 455 رأساً من البقر الذي تحصل عليها في باب بقر ميت وأنه قد دفع جلودها لدار الجلد، أو هو يعترف بضياح قرابة مايتين من الجلود بعد ذبح الأبقار ولم يقع دفعها لدار الجلد¹.

وتذكر المصادر أن سعر البقر المجلوب من قسنطينة قد ارتفع سنة 1212هـ/1797-1798م إلى سعر 16 ريالاً تقريباً بعد كان نصف ذلك في السنة السابقة، ولا يعلم لهذه المضاعفة سبباً ولعله لا يعني نفس نوعية الحيوان، فالثيران المعدة للحراثة هي عادة باهظة الثمن سعرها ضعف سعر الأبقار العادية، وقد تخصص رجب بومرة لسنوات طويلة في المتجرة وتصريف البقر المجلوب من الجزائر، وأسس من ذلك ثروة معروفة عليه في عهد ولي نعمته حمودة باشا، وتتراوح الأعداد السنوية للبقر المجلوب من قسنطينة بين ألف ونصف الألف كل سنة يتقاسمها أعيان ووجهاء الدولة التونسية، يتاجرون فيها داخل الأوطان والجهات التي يتصرفون فيها.

بيان البقر الذي ذهب به علي فريكح وكيل باي من قسنطينة محرم 1173هـ/سبتمبر 1759م ووزع على جهات البلاد التونسية²:

سعر 12 ريالاً	149 رأس بقر	وطن سوسة على يد منصور بن علي
"	149	قائد وطن المنستير على يد بن عبد الصمد
"	149	وطن قليبية على يد احمد العلاف
"	149	وطن صفاقص على يد محمد الاصرم
"	149	وطن تهرسق على يد بن ساسي
"	149	على يد قايد بنزرت وقايد رأس الجبل
"	149	على يد قايد وطن باجة صالح بن ساسي
"	149	على يد قايد وطن رياح الحاج بنور
"	149	وطن ماطر على يد عيسى دغدوف
"	149	أمناء جزارة وجلابة تونس العاصمة
"	22 رأس	على يد أشخاص عاديين
"	1488 رأس بقر .	الجملة

وتذكر المصادر أن مسعود بن زكري وكييل باي قسنطينة قد جلب إلى تونس سنة 1179هـ/1765-1766م: 2700 شاة و100 ثور للحراثة و1500 رأس بقر وأربعة من الإبل وزعت كلها على الأوطان عن طريق وجهاء الدولة، وتحصل على 36 محبوب من العملة الذهبية التي يعود بها نقداً إلى الجزائر وعلى 133 ألف ريالاً من العملة المحلية التونسية يصرفها في شراء مواد متنوعة من السوق التونسية، ويعود بها لقسنطينة عند عودة القافلة التجارية ويبيعها بفائدة مهمة عند وصولها.

¹ - محمد الحبيب عزيزي، مقال سابق، ص 220.

² - أ.و.ت.، الدفتر 2984، الأوراق الإحدى عشر الأخيرة.

لقد دأب بايات الأسرة الحسينية على إرسال كميات كبيرة من الزيت لأجل إنارة مساجد وأضرحة المرابطين في العاصمة الجزائرية، بالإضافة إلى إرسال جزية سنوية وفي الجهة المقابلة كان الدايات في الجزائر يرسلون عدد كبير من الماشية لأجل بيعها في الأسواق التونسية، ومن ذلك الماشية التي أرسلت سنة 1212هـ/1797-98م، وتم تمرير هذه الماشية على النحو التالي:¹

عدد المواشي	نوع التمير
1600	البيع للفلاحين المحليين
180	التبرع للباي
203	التبرعات للأوضاع الرئيسية
03	الماشية المفقودة
1986	الجمع

من خلال هذا الجدول يتضح لنا أن 80.56% من الماشية الموجهة للسوق التونسية تباع للفلاحين الأصليين، بحيث يتكفل بتوزيعها وكلاء ووسطاء كالحاج محمد البرادعي ومساعدته رجب بونمة².

3- الطرق التجارية بين الجزائر وتونس:

لقد كانت تونس هي أقرب الأسواق الخارجية إلى الشرق الجزائري، وكانت الطرق التي تربطها بها تختلف كل الاختلاف عن مثيلاتها في القارة الأوروبية وهي تنقسم إلى سلطانية وجهوية، فالسلطانية هي الطرق التجارية الكبرى ويوجد منها في الجزائر تسع تربط البلاد بكل من تونس والمغرب وليبيا والسودان ونذكر منها الطرق الخمس التي تربط الجزائر بتونس³:

* الطريق العرضاني الشمالي والذي يربط تونس بفاس مروراً بمدن الكاف وقسنطينة، وسطيف، وحمزة "البويرة"، والجزائر، ووهران، وتلمسان، ووعدة.

* الطريق العرضاني الأوسط ويربط قفصة⁴ بمدينة فكيك، مروراً بمدن بسكرة والأغواط والأبيض سيدي الشيخ.

* الطريق العرضاني الجنوبي ويربط نفطة بتافيلالت، مروراً بأهم واحات الجزائر.

* الطريق القطري الغربي ويربط وادي سوف بالعاصمة، ويمر بمدنتي بسكرة وبوسعادة.

* الطريق القطري الشرقي ويربط وادي ميزاب بتونس، مروراً بمدن الأغواط وبوسعادة وقسنطينة والكاف.

¹ -B.Lamjed,Pouvoir Et Esclavage Dans La Regence De Tunis, Centre De Publication Universitaire, Tunisie,2005,p80.

² - B.Lamjed, Op.Cit, p80.81.

³ - محمد العربي الزبيدي، مرجع سابق، ص 67.

⁴ - تقع في أبواب الجنوب التونسي، وقد كانت مركزاً تجارياً هاماً وتوجد بها آثار رومانية كثيرة.

4- الطرق الرئيسية بين الشرق الجزائري وتونس :

لما كان الشرق الجزائري يقع على الحدود الجزائرية التونسية، فقد كان تجار قسنطينة من تليين و صحراويين، يفضلون التوجه إليها، ينقلون إليها منتوجاتهم ويتزودون منها بما يحتاجه السكان من مختلف المواد الكمالية خاصة، وللقيام بهذه العمليات التجارية التي تعتبر أهم من النشاط الذي كان يتم عن طريق الموانئ، هناك مراكز أساسية تنطلق منها القوافل وتعود إليها وأهمها : قسنطينة، والوادي، وتوقرت وورقلة، وكانت المواصلات بين هذه الأسواق الرئيسية والأسواق المقابلة لها في تونس منظمة تنظيماً دقيقاً، بحيث أن التاجر يجد يومياً قافلة يسافر معها ذهاباً وإياباً، في حين أن الطرقات الرئيسية بين الشرق الجزائري والإيالة التونسية نجد أربعة هي كالأتي:

* طريق تونس والذي يبدأ من مدينة قسنطينة، ويسير نحو الجنوب قليلاً ليمر بالخراب ثم يرتفع نحو الشمال الشرقي ويشق كثيراً من القرى أهمها: وادي الزناتي ومجاز عمر، وسوق أهراس قبل أن يصل إلى مدينة الكاف التونسية ومنها إلى تونس العاصمة، ولقطع هذا الطريق يستغرق السير مدة خمسة وعشرين يوماً عادياً، وعلى الرغم من أن المدة طويلة، فإن الرحلة إلى تونس ممتعة، لأن القافلة تجد دائماً وبدون عناء كبير كل ما تحتاج إليه من مرافق السير، ولذلك كان كراء البغال من قسنطينة إلى تونس معتدلاً للغاية يتراوح ما بين 15 و 35 فرنكا للبغل الواحد في الذهاب، وما بين 30 و 40 فرنكا في الإياب، وبديهي أن سعر الإياب أغلى لأن التاجر يجلب معه سلعا تعود عليه بأرباح أوفر.

ولقد كانت قسنطينة هي عاصمة بايلك الشرق وأكبر مدنه، ولذلك كانت تعتبر أكبر أسواق المنطقة في ذلك الحين يؤمها التجار من جميع النواحي يجلبون إليها كثيراً من منتوجاتهم الضرورية، ويحملون منها مصنوعاتهم يبيعونها في مدنها، أو يصدرونها إلى البلاد المجاورة ليستوردوا مكانها صناعات أخرى تدر عليهم فائدة أكبر وربحاً أوفر، فكانت قسنطينة توجه شهرياً قافلة من حوالي ثلاثمائة بغل إلى مدينة تونس، تحمل إليها الصوف والجلود المفتوحة أو المدبوغة والتمور المجلوبة من الواحات، والشواشي، وتستورد منها المصنوعات الأوروبية والعطور وبعض المنتجات المحلية والأجنبية مثل التوابل والقهوة، والأقمشة الحريرية.

* طريق قفصة ونفطة¹، والذي يبدأ من مدينة الوادي ثم يسير شمالاً نحو محطة قمار حيث ينقسم فيخرج منه فرع يتجه مباشرة إلى مدينة نفطة ويواصل الأصل نحو الشمال الشرقي إلى قرية فرن²، حيث ينظم تجار الزيبان إلى القافلة، وبعد ذلك يميل أكثر إلى الشرق ليتوقف في مدينة قفصة، وإذا كانت المسافة ما بين الوادي ونفطة لا تتطلب سير أكثر من ثلاثة أيام عادية، فإن الذهاب إلى قفصة يستلزم أكثر من خمسة أيام، وعلى العموم فإن الطريق سهل، فيه كثير من المياه، ولا تتعرض فيه القوافل إلا لبعض الكمائن التي ينصبها من حين لآخر سكان واحة غدامس لنهبها تنكيلاً بأبناء سوف الذين كثيراً ما كانوا يغيرون عليهم لنفس الغرض.

¹ - وهي عاصمة بلاد الجريد والتي تشتمل على المدن التالية : توزر، الوديان والحامة.

² - تقع على الطريق الرابط بين الوادي ومدينة تبسة.

ومدينة الوادي هي عاصمة منطقة سوف¹، وأكبر مدنها عرفت في ذلك الحين كأكبر سوق يؤمها التجار من مختلف الواحات، وتشتمل على أكثر من ثلاثمائة حانوت، أهم مواردها من التمور التي تنتج من أنواعها الجيدة كميات هائلة والتبغ بنوعيه الرطب والقوي، وكذلك صناعة المظلات من سعف النخيل والأقمشة الصوفية العادية، أما سكانها فقد اشتهروا بالمهارة في التجارة وفي تسيير القوافل عبر كتبان الرمل المتنقلة. وعلى الرغم من أنّ الوادي كانت تمثل همزة وصل بين الشمال والجنوب، فإن إتصالها بقسنطينة لم تكن متعددة، وإنما كان تجارها يكتفون بالذهاب إلى بسكرة أو توقرت لاستيراد ما يمكن أن يصدر إلى الخارج من المنتجات الجزائرية، والسبب في هذا الإحجام عن عاصمة البايك الشرقي ليس هو التخوف من الضرائب التي يفرضها عليهم البايك، وإنما كان أبناء سوف يفضلون الذهاب إلى المدن التونسية لأنها أقرب إليهم ولأنها تقدم إليهم جميع المواد الأوروبية بأسعار لا تنافس.

* طريق نفطة وغدامس الذي ينطلق من توقرت ثم يتجه نحو الشمال ليمر بمحطة الفيض² حيث ينظم تجار بسكرة إلى القافلة، وبعد ذلك يعود نحو الجنوب الشرقي ليصل إلى كوينين³، ومنها يأخذ إتجاهين أساسيين أحدهما شمالا نحو مدينة نفطة، وثانيهما نحو الجنوب إلى سوق غدامس مروراً بمحلة البئر الجديد⁴، وإذا كان الطريق إلى نفطة يقطع في أقل من خمسة أيام، لا تتعرض فيها القافلة لأخطار الطبيعة نظراً لانتشار الآبار والعمران، فإن كتبان الرمل المتنقلة لا تساعد إطلاقاً على القيام بالرحلة من توقرت إلى غدامس لأنها تذهب المعالم وتطمس الآبار، وتوقرت هي مدينة الثروة والرخاء وأهم عواصمها وادي ريغ⁵، وتشتمل دائرتها على ثمان وثلاثين قرية أهمها كوينين التي تلتقي فيها كثير من قوافل الناحية المتوجهة إلى بلاد الجريد، وتعتبر سوق توقرت ثالث أسواق الواحات بعد الوادي وورقلة، وبما أن وادي ريغ ينتج التمور بكثرة ويصنع الأقمشة الصوفية العادية، فإن تجار توقرت يحملون إلى الجنوب التونسي بعضاً من هذه المنتجات والمصنوعات ويجلبون منها كثيراً من الأقمشة القطنية، والعطريات المستوردة من أوروبا فيوزعونها على الأسواق المحلية.

* طريق غدامس الذي يخرج من ورقلة ويتجه مباشرة نحو الشرق عبر الفيافي إلى أن يصل مدينة غدامس⁶، وهو طريق صعب للغاية، مغطى بكتبان الرمل المتنقلة، ويتطلب قطعه عشرة أيام من السير السريع تطوي القافلة أثناءها مائة وستين ميلاً لا تجد فيها المياه سوى مرة واحدة على بعد ثلاثة أيام من المنطلق، ومع ذلك فإن تجار ورقلة

¹ - مجموعة من المدن والقرى تقع وسط كتبان الرمل في الجنوب الشرقي من باييك قسنطينة، أهم موارده من التمور والتبغ والنجارة ينظر: العربي الزيري، مرجع سابق، ص 154.

² - مدينة صغيرة وسط سهول خصبة واسعة، تبعد على بسكرة بعشرين ميلاً ويذهب إليها عن طريق سيدي عقبة وعين النافعة.

³ - قرية صغيرة تبعد عن مدينة الوادي بحوالي ميلين ونصف، تقع في منتصف الطريق بين قمار والوادي.

⁴ - قرية صغيرة على الحدود التونسية تلتقي فيها قوافل نفطة وتوقرت المتوجهة إلى غدامس.

⁵ - مجموعة من الواحات يجدها شمالاً الزاب وعاصمته بسكرة، وشرقاً سوف وعاصمته الوادي، وغرباً وادي ميزاب وعاصمته غرداية، يشتمل على توقرت وتماسين نفوسة.

⁶ - لقد أعطى هذا الطريق أهمية خاصة لمدينة ورقلة، فكان يعرف بطريق الواحات والقصور، وكان في الأصل ينطلق من تافيلات نحو غدامس مروراً بأهم واحات الجزائر. ينظر: ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 254.

يسافرون باستمرار إلى هذه السوق التي تلتقي فيها قوافل تونس، وطرابلس، والسودان، والجزائر تتبادل ما عندها من السلع وتعود إلى منطلقاتها، وقد كان هناك عامل ساعد على تطوير العلاقات بين ورقلة وغدامس يتمثل في التنافس الذي لا ينقطع بين واحة الوادي وسكان غدامس، هذا وقد كانت القافلة تخرج من ورقلة محملة بالأقمشة الحريرية والقطنية، وبالتمور، والحبوب، والزيت، والأسلحة، وفي أثناء عودتها تجلب معها التبر والعيبد، وجثث النعام والعاج والبخور، وغير ذلك من المنتجات الإفريقية.

5- صادرات وواردات الجزائر نحو تونس:

أ- الصادرات :

على الرغم من المشاحنات بين الجزائر وتونس والحروب التي قامت بينهما وعلى وجه الخصوص خلال القرن الثامن عشر، إلا أن حكام الإيالتين شجعا التبادل التجاري بينهما، ومن ذلك كميات الماشية الهائلة التي كانت ترسلها الجزائر إلى تونس خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر بمختلف أنواعها بقر وغنم وإبل، كما شهد التبادل التجاري بين الإيالتين نشاطا في عهد حمودة باشا 1782-1814م والذي شجع حركة التبادل التجاري البيني.

من بين المواد التي كانت تصدرها الجزائر إلى تونس التبغ كأحد المحاصيل الزراعية التي كانت تنتج في الإيالة الجزائرية، فكان الكثير منه يصدر إلى العاصمة تونس خاصة منه تبغ عنابة الذي كان أكثر جودة من التبغ المزروع في أراضي مقاطعة الجزائر العاصمة¹، فكان ثمنه يقدر بموزونتين²، وبثلاث موزونات للنوعية الجيدة منه، ومن المواد التي كانت تخرج من قسنطينة إلى تونس الصوف والجلود المفتوحة أو المدبوغة³، والشواشي⁴، التي كان ثمنها في تونس قبل وباء الطاعون لسنة 1783م يقدر بما بين 24 إلى 25 ليرة للمجموعة الواحدة المكونة من 12 شاشية، كما كان تجار وادي سوف يحملون إلى الأسواق التونسية أقمشتهم الصوفية، وأنواع التمور الممتازة، والمظلات، والفوة والتبغ، ونفس هذه المنتجات كان يذهب بها تجار توقرت، ومن المنتجات المصدرة أيضا من ورقلة: الأقمشة الحريرية والقطنية والتمور والحبوب والزيت والأسلحة، هذا بالإضافة إلى الشمع وجلود الحيوانات والحيوانات الوحشية⁵.

¹- V.De Paradis, Alger Au 18^{em} Siecle, Imprimeur.Libraire.Editeur,Alger,1898,p24.

²- بمعنى الليرة والمقدرة بستة عشر أوقية بالتمام.

³ لقد كان الشرق الجزائري يدفع إلى تونس حوالي 82 ألف جلد مدبوغ سنويا، وكانت الشركات الفرنسية تحتج دائما على ذلك.

⁴ - شواشي الجزائر كانت اقل جودة من شواشي تونس ولكنها ارحص ثمنا، ولأجل ذلك كانت مطلوبة للاستعمال اليومي خاصة. هـ ذا وقد أجرى الرحالة فونتيرو دو بارادي مقارنة ما بين الشاشية التونسية والشاشية الجزائرية حيث قال أن الشاشية التونسية أحسن بكثير من الشاشية الجزائرية، فكان سعر الشاشية التونسية في الجزائر يفوق سعر الشاشية الجزائرية حيث كان سعرها يتراوح ما بين 24 إلى 25 ريال للذينة 12 Douzaine شاشية " وذلك قبل وباء 1783م، أما بعد ذلك أصبح سعرها يتراوح ما بين 33 و36 ريال، في حين أن نظيرتها المصنوعة في قسنطينة لم تبلغ إلا قيمة نصف الشاشية المصنوعة في تونس، ويضيف دو بارادي قائلا: لأجل ذلك حاولنا إدخال القبعات التي صنعت في مرسيليا إلا أنها غير متقنة مثل تلك المصنوعة في تونس، مما أدى بنا إلى بيعها بثمان شراؤها للمزيد ينظر: V.De Paradis,Alger Au 18^{em} Siecle,Op.Cit,p33.

⁵ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 300.

شجع حمودة باشا إزدياد تجارة تونس مع الجزائر بالرغم من الصراعات والمشاحنات التي كانت بين حكام الجزائر وتونس قبل فترة حكمه، فبعد أن كانت تونس تستقبل بين الثماني والعشر قوافل تجارية سنويا عن قسنطينة، أصبحت في سنة 1809م تستقبل ما يقارب ذلك العدد من القوافل شهريا لا سنويا.

ب-الواردات :

كانت الجزائر تستورد من تونس الشالات، والأدوات المعدنية، والأقمشة والحلي ومواد البقالة والشواشي¹، ونفس تلك القوافل التي كانت تخرج من قسنطينة نحو تونس كانت تعود بالمنتجات الأوروبية والعود، والتوابل كالقهوة والأقمشة الحريرية²، كما كانت قافلة سوف تعود من الأسواق التونسية محملة بالمصنوعات الأوروبية والمحلية أهمها : البزازة، والمواد العطرية، والأقمشة الحريرية، والأسلحة والكبريت، كما أن تجار الوادي كانوا يوجهون مائة وخمسين منهم من حين إلى آخر إلى مدينة غدامس، فيجلبون منها المنتجات الإفريقية كالعبيد والتبر والعاج، وريش النعام والبحور والترون وغيرها مما تستورده غدامس من السودان³، كما كان يشتري تجار الجزائر من تونس الأجوخ والكتان والموسلين Mousseline والحرير سواء منه المنسوج أو الخام والأدوية والعقاقير، بالإضافة إلى كميات هائلة من الحبوب، وكان الكثير من مبيعات تونس للجزائر يتألف مما يستورده تجار تونس من الخارج⁴. لقد أدى ذلك التبادل التجاري النشط بين الإيالتين المتجاورتين الجزائر وتونس بكل تاجر من تونس، يلعب تلك الحروب التي كانت تندلع من فترة إلى أخرى، ويتمنى توقفها حالا، بسبب ما أحدثته من أضرار نتيجة توقف النشاط التجاري لمدة محدودة .

6- مساهمة تقاييد التجار في المبادلات البيئية:

تعتبر تقاييد التجار وهي عبارة عن دفاتر أو كراسات حسابات من أنواع الأرشيف الذي يتعلق بالأنشطة الحياتية للأشخاص، وهي بذلك من المصادر الهامة التي لا يمكن التغاضي عنها حين كتابة التاريخ الاقتصادي لأي بلد أو مدينة من المدن، وهذا ما ينطبق على التبادل التجاري بين الجزائر وتونس، إذ هناك العديد من تقاييد التجار الذين أسهموا في التبادل التجاري بين الإيالتين، ومن ذلك نذكر تقييد أو دفتر حسابات التاجر علي بن سعيد الجزائري البحار والذي يعتبر تقييده مؤشرا حيا على طبيعة المبادلات التجارية بين مدينة الجزائر وموانئ مشرقية ومغربية خلال العهد العثماني.

¹ - يقول بيسونال حول صناعة الشاشية التونسية بأنه لأجل تشغيل ورشاتها، تستورد تونس من أوروبا قرابة ثمانمائة بالة من صوف سيقوفيا

”Segovie“ الاسبانية، ويقومون بتسويتها، وقرابة عشرة صناديق من دودة القرمز وأربعمائة قطار من الزنجفر من البرتغال ومن جنوب فرنسا واسبانيا وستمائة قطار من حجر الشب، ومثلها كمخة حمراء، ويستعمل كل هـ ذا لصناعة الشاشية التي تصنع منها قرابة الأربعين ألف دزينة والتي تشغل أكثر من عشرة آلاف شخص. ينظر: Centre, ”1724” J.A, Peyssonne, Voyage dans la Regence de Tunis, de publication Universitaire, Tunis, 2003, p63.64.

² - M.Carette, Du Commerce De L’algerie Avec L’afrique Centrale Et Les Etats Barbaresques, imp.Du Roi,Paris, 1844- p22.

³ - محمد العربي الزبيدي، مرجع سابق، ص 155.

⁴ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 300.

أ-علي بن سعيد البحار الجزائري:

تعود الفترة التي نشط فيها علي بن سعيد البحار¹ إلى بداية القرن التاسع عشر أي ما بين سنة 1803 و1817م، وفي دفاتره ما يشير إلى شرائه بضائع متنوعة بالجملة وبيعها بالتقسيط في مدينة الجزائر، كأنواع الأثواب، والكساء، والأرز وغير ذلك، بالإضافة إلى استيراده أنواع متعددة من الأثواب من مصر ومن أزمير بتركيا في إطار شراكة مع تجار آخرين، واستيراد محارم، وأثواب، وورق جنوي، وجوزة الطيب، من مالطة وليفورنة بإيطاليا، فضلا عن شراء زيوت وشواشي تونسية، بالإضافة إلى تصديره بعض منتجات الصناعة التقليدية الجزائرية كالأحزمة الحريرية والصوفية وتصديره بعض البضائع المستوردة من الخارج مثل القهوة والأثواب إلى موانئ بالشرق العربي مثل: طرابلس الشام وبيروت، وهذا وكان لعلي بن سعيد علاقات مع وسطاء وممارسة مسلمين ويهود مقيمين بتونس ومالطة وليفورنة².

ب- نشاطه مع تونس:

قام علي بن سعيد البحار الجزائري بعدة معاملات تجارية بين الجزائر وتونس بواسطة مينائي مدينة الجزائر وتونس العاصمة، فقد ورد في الصفحة 7 من تقييده أن الحاج سعيد بولحسن القسنطيني بعث إليه من تونس ما مقداره 34"قبة" من ملح البارود باعها شخصيا بمدينة الجزائر بثمن 10 ريال دورو للقنطار، كما جاء في الصفحة 18 أنه أثناء عودته من طرابلس الشام سنة 1810م، توقف بمدينة تونس لشراء كمية من الزيت كلفته 94074 ريال تونسي، وبأنه بنفس المناسبة تم شحن 12 بالة من الورق و 16 صندوق من الثوب من نوع "دكير" على متن القارب الذي يملكه الرايس محسن بن دار من طرابلس في رحلة باتجاه مدينة الجزائر، وفي الصفحة 57 ذكر علي بن سعيد أنه إشتري لصالح الشيخ أحمد العكوي 23 دزينة من الشواشي "الشاشيات" التونسية بثمن 14 بوجو للذينة، أي ما مجموعه 121 ريال دورو. ويؤكد بيان السلع الذي أورده التاجر حسن بن احمد البربري في تقييده أهمية المبادلات التجارية بين مينائي مدينة الجزائر وتونس، فقد بعث إليه الحاج احمد الصنادلي من تونس سلعا لأجل بيعها بمدينة الجزائر من بينها: 22 برنوس سوستي و 17 شملي³، و 23 شال⁴.

فهذه النماذج من التبادلات التجارية تعتبر مؤشرا على وجود نشاط مؤكد وعلاقات تبادل بينية لا تخلو من أهمية لكنها محصورة مع تونس فقط دون غيرها من الإيالة الطرابلسية المجاورة⁵.

¹ - لا تتوفر معلومات شخصية عن هذا التاجر الجزائري، غير كونه ترك عند وفاته بنتا وريثة له.

² - محمد أمين، من مؤشرات واليات التبادل التجاري البيئي من خلال تقييد التاجر علي بن سعيد البحار الجزائري خلال مطلع القرن 19م، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، عدد 64.45، ديسمبر 2012، تونس ص 19.18.

³ - نوع من الثوب يشبه الإزار الذي يغطي البدن.

⁴ - محمد أمين، مقال سابق، ص 22.

⁵ - فقد كان لعلي بن سعيد البحار الجزائري أنشطة تجارية مع موانئ مشرقية تابعة للخلافة العثمانية، فعلى سبيل المثال اشترى من مصر سنة 1803م كمية من الأثواب بلغ تعدادها 214 قطعة، وقد بيعت بمدينة الجزائر بما قدره 9 ريال للقطعة الواحدة، كما اشترى من مدينة ضمياط المصرية سنة 1812م 56 قنطارا من البشمط "خبز ميبس يحتفظ به طويلا لأجل التغذية في التنقلات والأسفار البحرية الطويلة" بسعر 22 قرشا للقنطار الواحد، وكمية من الملح بثلاث قروش، وكمية من الأرز بقيمة 142 قرشا. كما باع نفس التاجر بميناء طرابلس الشام سنة 1812م عدة أنواع من السلع من

7- التبادل التجاري بين الجزائر وطرابلس الغرب:

إذا ما أردنا أن نلقي نظرة على العلاقات الاقتصادية والتبادل التجاري بين الإيالة الجزائرية والتونسية فإننا نجد أنه نشط وأوفر إذا ما قارناه بالتبادل التجاري مع الإيالة الطرابلسية، بل الأكثر من ذلك إذا ما رتبنا العلاقات التجارية بين إيالة الجزائر ومختلف البلدان الإفريقية التي كانت ترتبط معها بتبادل تجاري، وجدنا أن تلك التي تتم مع طرابلس الغرب هي التي تحتل المرتبة الأخيرة ذلك لأن أهم سوق في الإيالة الطرابلسية يوجد في مدينة غات¹، ولا ينعقد إلا مرة في السنة²، ليجتمع فيه التجار من مصر وشمال إفريقيا والسودان، وقد كانت القوافل التجارية الجزائرية ترحل إليه من توقرت والوادي وورقلة، ثم تنضم إلى القوافل التونسية في مدينة غدامس³.

أ- الطرق الرئيسية بين الجزائر وطرابلس :

كانت مدينتا غدامس وفزان تمثلان مركزين تجاريين هامين، فكانت تربط مدينة غدامس مدينة طرابلس تجاريا بتمبكتو عن طريق توات⁴ وبلاد الهاوسا عن طريق غات، وبيورنو عن طريق مرزق⁵، وكانت أيضا الملتقى لجميع القوافل من الجزائر وتونس، ونفس الشيء ينطبق على مدينة فزان التي تستمد وجودها من تجارة الصحراء فهي تربط طرابلس ببيورنو وبلاد الهاوسا، وترتبط أيضا الصحراء والسودان بمصر عن طريق زويلة وتونس والجزائر عن طريق غدامس وغات، والمغرب عبر غات وعين صالح⁶.

هذا وكانت تتم المبادلات بين الجزائر وإيالة طرابلس بواسطة طريقين رئيسيين الطريق الساحلي أو الطريق

الجنوبي :

الطريق الساحلي : وهو الطريق الذي إرتبطت به إيالة طرابلس الغرب بكل من تونس والجزائر والمغرب، ويمر هذا الطريق بالقيروان ثم قابس ثم صفاقص ثم تونس.

بينها كمية من القهوة والسكر والأثواب، وقد كلفته هذه الصفقة من تكاليف النقل : 450 قرشا، ورسوم الجمرک وأجرة الإفراف والحمالين والسماسة ما قدره 1249 قرشا. كما للتاجر نشاط تجاري مع ميناء أزمير فقد اشترى سنة 1802م ما مقداره 4 حزمات من الأثواب أرسلها إلى الجزائر على متن إحدى السفن إلى أحد وكلائه بما يدعى كربولي، أما بقية الحمولة فهو شريك فيها مع احد التجار يدعى احمد بن هندي.

¹ - تعتبر مدينة غات سوق التوارق، وهي تقع في أقصى الجنوب الطرابلسي على بعد عشرين يوما من غدامس وأربعين يوما من عين صالح، وهي مركز تجاري هام في ذلك الوقت إذ يقصدها التجار من مختلف أنحاء إفريقيا. ينظر : العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 179.

² - M.Carette, Op.Cit, p26.

³ - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 179.

⁴ - واحة كبيرة تشتمل على عدد من القرى والمدن، تعتبر حدا فاصلا بين شمال إفريقيا وبلاد السودان، لعبت دورا حيويا في الاتصال بأعماق إفريقيا، وتعد أكبر مركز تجتمع فيه القوافل من الجزائر وتونس وطرابلس والمغرب والسودان. ينظر : العربي الزبيري، مرجع سابق، ص 163.

⁵ - مدينة تابعة لإيالة طرابلس الغرب تقع شمال شرق غات، وتفصلها عن غدامس مسافة تقطع في عشرين يوما، هذا وكانت مدينة مرزق مشهورة بصناعة الرماح والسيوف من مختلف الأحجام.

⁶ - كولافو لايان، مرجع سابق، ص 72.

كانت الرحلة تستغرق من غدامس إلى عين صالح مدة 22 يوما وإلى ورقلة خلال 13 يوما.

كانت إيالة طرابلس الغرب تنتج العديد من المنتجات التحلية كالتوابل والأقمشة الحريرية والقطنية والإبر والمرايا والسيوف الطويلة، والبرانس المصنوعة من الأقمشة الحريرية والقطنية. للمزيد ينظر: البيتش بروتشين، مرجع سابق، ص 153.

الطريق الصحراوي: يمتد هذا الطريق محاذيا للطريق الساحلي ويختلف عنه في طبيعته، وينطلق من غدامس ثم قفصة فتونس، أو غدامس - سكيكدة - قسنطينة - سطيف - الجزائر - ومنها إلى المغرب مارا بسجلماسة - أوداغست - بسكرة - عين صالح - فاس وغيرها من المدن المغربية التي ذاع صيتها آنذاك¹.

إشتهرت إيالة طرابلس الغرب بموانئها ومراسيها كزواره وطرابلس وزليتن ومصراتة وسرت وبنغازي، كما إشمطت على محطات تجارية داخلية على الطرق البرية التي تسلكها القوافل التجارية كواحات غدامس وغات ومرزق والكفرة والجغبوب، ومن خلال هذه الموانئ والمعابر والمحطات البرية كانت تنقل إلى عدد من الموانئ الأوروبية والإسلامية المنتجات والسلع الطرابلسية والسودانية ومن أهمها: العاج، ريش النعام، التبر، الجلود، الاسفنج، الصوف، السجاد، الملح، القمح، الشعير، الحمضيات، التمور، الزيتون، الحلفاء، الحيوانات الحية-الأبقار والماعز والأغنام والخيل والإبل والبغال والحمير والطيور والدواجن - ، البيض، العسل، الشمع، والصمغ، كما كانت أرفصة هذه الموانئ تشهد تدفق البضائع المستوردة من أوروبا وغيرها، ومن أهمها: المنسوجات والملابس والخيوط القطنية والصوفية والحريرية والكتانية، والخردوات، الفحم، أخشاب البناء، المصنوعات الزجاجية والمعدنية، الأرز، الدقيق، السكر، الشاي، القهوة، الخمر، الكحول، التبغ، السلاح والبارود².

أما إذا عدنا إلى المبادلات التجارية ما بين التجار الجزائريين والطرابلسيين فيمكننا أن نحصرها فقط في تلك القوافل التجارية التي كانت تنطلق من توقرت والوادي وورقلة نحو سوق مدينة غات بعدما كانت تنضم إلى القوافل التونسية في مدينة غدامس، غير أنه خلافا لذلك كان هناك عشرة تجار من من الوادي يتحدثون جميع الأخطار ويذهبون مباشرة إلى سوق غات هروبا من الضرائب التي تفرضها الإدارة العثمانية عند الدخول إلى غدامس والخروج منها، ومن جهة ثانية تجنبا للاضطدام مع أهل غدامس الذين كانت بينهم وبين تجار الوادي منافسات. ومما تجدر الإشارة إليه أن التوارق³ كانوا يأخذون جميع استعداداتهم، بحيث تصل جميع القوافل في شهر واحد هو شهر أكتوبر، حيث كان تجار جنوب شرق إيالة الجزائرية يحملون إلى هذه السوق الشبه قارية منتجاتهم

¹ - مهدي البستاني، القوافل التجارية في ولاية طرابلس الغرب خلال القرن 19م، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 24، ديسمبر 2001، ص 142.

² - مهدي البستاني، مقال سابق، ص 137.

³ - هم سكان الصحراء الكبرى وسادتها من ذ أيام القرطاجيين على وجه الاحتمال، وطوارق جمع طارقي في اللغة العربية، ويسمي الطوارق أنفسهم إيموهاغ Imohag، ولغتهم تيمهاغ Temahag، وحروف كتابتهم تسمى تيليناغ، وهي واحدة من أبجديات الشمال الإفريقي، إذ تعود على الأقل إلى عهد القرطاجيين، وربما كانت مأخوذة من الأبجدية الفينيقية، وينقسم الطوارق إلى قسمين: الطوارق الشماليين وهم ازغر Azger ويسكنوا جنوب غدامس في منطقة تاسيلي بين غات ومرزق ومركزهم مدينة غات وسيطرون على طريق غدامس - غات، وطوارق هقار Hoggar في توات وسيطرون على طريق غات - عين صالح، والطوارق اتحادات فدرالية، ورئيس الاتحاد يسمى امونوكال Amonokal باللغة الطوارقية، أو سلطان باللغة العربية، وهو نظريا رئيس الاتحاد، ولكنه لا يحكم إلا قبيلته، وكل قبيلة تتشكل من النبلاء اهاغار Ahagar والعبيد أمغار Amgar، ويعود النسب عند الطوارق إلى المرأة، ولذلك يخلف الرئيس أو السلطان ابن أخته الكبرى وليس ولده، ولذا كان للمرأة مكانة عالية في مجتمع الطوارق الذي يمنع تعدد الزوجات، ويغطي الرجال وجوههم ما عدا عيونهم ويحتفظون بالقناع، لذا يطلق عليهم لقب المثلثين، وملابسهم بسيطة، أما أسلحتهم فهي تتألف من الرماح والسيوف ذات الحدين، ويستعملون الأسلحة النارية على نطاق محدود لصعوبة الحصول عليها وعلى الذخيرة بسبب عدم إتقانهم استعمالها، ويتألف غذائهم من لبن الجمال والماعز والتمر، ويأكلون لحوم الجمال في المناسبات فقط، ويحتقرون العمل بالزراعة والسكن بالمنازل المشيدة

ومصنوعاتهم المحلية، وكذلك بعض المواد العطرية والجواهر والحرائر والكاغط والتوابل وغيرها من المنتوجات والمصنوعات الأوروبية المستوردة، وفي أثناء عودتهم يجلبون معهم الحمير المصرية والعييد¹ والتبر والعاج والأقمشة القطنية والكورو²، والزبد³، والحشيش⁴، وسائر المنتوجات الإفريقية، ومن غات كان بعض التجار الجزائريين يتقدمون إلى مدينة مرزق، حيث يبيعون بضائعهم بأسعار أعلى، ثم يواصلون السير إلى مدينة طرابلس حيث يشترون الجمال والغرائر⁵، ويعودون إلى البلاد عبر سوق غدامس⁶. كما كانت طرابلس تستورد من الجزائر المواد الغذائية " قمح وشعير " وذلك عند نقص إنتاجها المحلي⁷.

وعلى الرغم من أن السلع التي كانت تعرض في غات هي نفسها التي تباع في غدامس، فإن التجار كانوا يفضلون أخذها من أصحابها الأولين بأسعار موافقة تحقق لهم أرباحا طائلة، وقد كان الواديون والتوقرتيون يقصدون مدينة غات لشراء العبيد خاصة لأن جلب هؤلاء من الأسواق الإفريقية ذاتها يعرضهم لكثير من الأخطار القاتلة كالجوع والعطش وعدم احتمال المسافات الطويلة⁸.

ب- التجار الجزائريون بإيالة طرابلس:

لما كان لإيالة طرابلس الغرب موقع إستراتيجي هام، إذ تربط بين الإيالات العربية في الشرق والإيالات العربية في الغرب، وبين دول شمال حوض البحر المتوسط ووسط إفريقيا، هذا الموقع الممتاز جعلها محط أنظار العديد من التجار العرب والأجانب، الذين ترددوا على الإيالة الطرابلسية ذهابا وإيابا ببضائعهم، فوجد إلى جانب التجار المحليين العديد من التجار العرب، ففي سجلات محكمة طرابلس الغرب⁹، وجد العديد من التجار منهم

، ويشكل الغزو جزء من حياتهم الاجتماعية التي من أهم مظاهرها التمسك بالحرية، والطوارق مسلمون تنتشر بينهم الطريقتان: السنوسية والتيجانية وهما من الطرق الدينية التي تدعو إلى العودة بالإسلام إلى سابق عهده وقوته وجهاده ضد الكفار.

¹ - وهنا يشير شالر في مذكراته من أن الجزائر كانت تتلقى سنويا عددا من العبيد الذين تدفع ثمنهم بمنتجات البلد. ينظر وليام شال ر، مصدر سابق، ص104.

² - فاكهة مالحة وزن الواحدة حوالي عشر غرامات، يستعملها الأفارقة بمثابة القهوة، وتباع بأسعار تتراوح ما بين فرنك واحد وفرنكين للكيلوغرام الواحد، بينما يشتريها أعيان قسنطينة بعشرة فرنكات. ينظر: محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص169.

³ - يستخرج من القطن البرية التي تعيش في السودان وتتغذى اللحم باستمرار، وعندما يراد زبدها تضايق وتحمج فتخرج المادة في شكل عرق يجمع في إناء ثم يباع تجار الواحات بتسعة عشر فرنكا للوزنة الواحدة، ويشتره سكان الشرق الجزائري بثمانين فرنكا.

⁴ - نوع من المخدرات كان يتعاطها الأغنياء.

⁵ - نوع من الأكياس الكبيرة، يصنع من الوبر أو شعر الماعز ويحمل عادة على الجمال.

⁶ - محمد العربي الزبيري، مرجع سابق، ص180.

⁷ - إتمام محمد سالم شرف الدين، مدخل إلى تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي 1711-1835م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط1- طرابلس، 1998م، ص105.

⁸ - نفسه.

⁹ - نبطي سجلات محكمة طرابلس الغرب مرحلة زمنية طويلة تبدأ من مجيء العثمانيين لطرابلس سنة 1551م وحتى خروجهم منها سنة 1912م، وقد شملت المراسلات والقوانين وأوامر الصادرة من مركز الخلافة بالأستانة إلى الوالي بطرابلس الغرب، كما شملت التنظيمات الإدارية والقضائية ومراسلات الولاية مع الباب العالي. وما كتبه الكتاب العثمانيون عن فترة الحكم العثماني، وتعتبر سجلات محكمة طرابلس مصدر ذا أهمية كبيرة نظرا لاتساع الفترة الزمنية التي تغطيها، وقد قام الأستاذ محمد عمر مروان بتحقيق ودراسة هذه السجلات في الفترة الممتدة من سنة 1760 إلى سنة

الإسكندراني والمصري من القاهرة، والدمياطي والدمهوري، والتونسي والجري والصفاقصي، والتلمساني¹ والجزائري والمستغامي².

ومن خلال ما توفر من معلومات في سجلات محكمة طرابلس الغرب عن نشاط التجار الجزائريين في طرابلس من أن نشاطهم لم يبرز أي تعامل لهم مع المناطق التي ينتمون إليها وتركز نشاطهم في أغلبه داخل مدينة طرابلس نفسها، أما خارجها فلم تذكر المصادر أي نشاط من هذا النوع للجزائريين في حين ذكرت تعامل بعض المغاربة مع الإسكندرية، وتعامل بعضهم مع مناطق الإيالة الأخرى مثل بنغازي وفزان، هذا وقد بلغ عدد التجار الجزائريين المقيمين بطرابلس ستة تجار لم يتعاملوا بسلع معينة تميزهم عن التجار المحليين، كما انه من غير المستبعد وجود تجار آخرين ممن أقاموا إقامة مؤقتة وعدوا من الجاليات، وان لم يذكر في المصادر ولم تتوفر معلومات واضحة عنهم وعن نشاطهم، ولعل ما يؤكد ذلك ما ذكر عن وجود وكلاء وممثلين لرعايا بعض المناطق العربية من التجار أمام سلطات الإيالة في مدينة طرابلس، حيث ترد إشارات إلى وجود وكيل للجزائر، ووكيل للمغرب الأقصى³.

ومهما يمكن القول عن التبادل التجاري بين الجزائر وطرابلس في هذه الفترة المدروسة، فإنه يمكننا القول بأن تبادل تجاري بين الإيالتين فعلا كان موجودا، وكان من الممكن تطويره لو وجدت هيئات منظمة تعتني به، غير أن الإدارة العثمانية في تلك الفترة، لم تكن تعطي للنشاط التجاري حقه كما ينبغي، ولذلك أهملته وتركته رهن المبادرات الفردية، الأمر الذي لم يساعد على ازدهاره وتحقيق النتائج المرجوة منه.

8- العملة والمكاييل والأوزان المستعملة في الإيالات الثلاث

لعبت العملات والمكاييل والأوزان دورا هاما في حركة التبادل التجاري بين الإيالات المغاربية الثلاث في شمال إفريقيا خلال العهد العثماني، لذلك سوف نتطرق إلى أهم هذه العملات السائدة في كل من إيالة الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، ثم نتطرق إلى أنواع المكاييل والأوزان المستعملة في الإيالات الثلاث.

أ- النقود "العملة":

*في الجزائر:

كانت العملة الجزائرية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والثلاثين سنة الأولى من القرن التاسع عشر تضرب بدار النقود، والتي تعرف عادة بدار السكة⁴ والواقعة بالقرب من قصر الداوي، قبل أن يختار لها الداوي علي

1854م. للمزيد ينظر: محمد عمر مروان، سجلات محكمة طرابلس الشرعية 1174-1337هـ/1760-1918م كمصدر للمؤرخ، المجلة التاريخية المغاربية، العددان 103.102، زغوان، مارس 2001م، ص331.

¹ محمد عمر مروان، سجلات محكمة طرابلس الشرعية 1760-1854م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط1، طرابلس، 2003، ص321.

² - إنعام محمد سالم شرف الدين، مرجع سابق، ص141.

³ - إنعام محمد سالم شرف الدين، مرجع سابق، ص143.142.

⁴ وهي بمثابة دار تصنع بها النقود الذهبية والفضية والنحاسية، وكان لها ناظر يسمى أمين السكة، وكان من ينفش الكتابة وغيرها على العملة يسمى صاحب الطابع. ينظر: نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، دار الحضارة، الجزائر، 2006، ص277.

خوجة سنة 1817م مقراً جديداً بالقصبة ملحقاً بالخزينة العامة، وفيما يتعلق بشكلها فإن عملة الجزائر كباقي عملات البلاد الإسلامية آنذاك لم تخل من صور الحكام والشعارات والرموز الشكلية، فهي مزينة بحروف عربية من الجانبين، فعلى سبيل المثال نجد على وجه رyal بوجو هذه العبارة: سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان محمود خان عز نصره، وعلى الوجه الأخر عبارة ضرب في الجزائر 1241هـ، وتمتاز عملة الجزائر عن غيرها من نقود إيالات شمال إفريقيا أنها كانت ذات شكل مستدير، عكس نقود الأقطار المجاورة التي كانت مربعة الشكل، لا سيما في عهد الدولة الموحدية، والدول التي إنقسمت إليها من حفصيين وزيانيين ومرينيين¹.

هذا وكانت النقود الجزائرية مصنوعة من معادن مختلفة، فوجدت العملات الذهبية والفضية والنحاسية، فالعملات الذهبية كانت تتكون من السكة أو السلطاني، ونصف السلطاني وربع السلطاني، أما العملات الفضية فكانت تشمل رyal بوجو أو بدقة قوردة، وزوج بوجو أو دورو الجزائر، والصائمة، وربع بوجو، وثن بوجو، وموزونة، وزوج موزونة، والأسبر الفضي. في حين أن العملات النحاسية البرونزية كانت تنفرع إلى الخروبة وريال درهم الصغير، وزوج دراهم صغار، والاسبر النحاسي، والفلس².

تعرضت العملة الجزائرية إلى العديد من التغييرات والإهتزاز في قيمتها بسبب عدم إستقرار الوضع الاقتصادي وما إنجر عنه من تذبذب في أسعار التبادل التجاري، بالإضافة إلى سياسة الحكام الذين كان لهم دخل وصلاحيات في أن يقرروا قيمة العملة ويحددوا كمية المعادن الداخلة في تكوينها، كما كانوا يصدرن الأوامر لإضافة بعض المعادن الثمينة للقطع النقدية، كما أن بعض الأوامر كانت تتعلق بتخفيض قيمة العملة، مثل الأمر الذي أصدره الداى الحاج علي باشا في 23 جويلية 1811م، والقاضي بتخفيض قيمة العملة الجزائرية المستعملة، بالإضافة إلى الأمر الذي أصدره الداى حسين باشا 1818-1830م في 9 اوت 1823م لنفس الغرض³.

تميزت العملة الجزائرية ببعض الصفات التي صبغت عليها نوعاً من الإستقرار والثبات، مثل محافظتها على ما كان متعارفاً وجارياً به العمل منذ القديم، فلم تصبح تابعة للمسكوكات التركية في قيمتها ومكانتها وأسمائها، أما الصفة الثانية التي إكتسبتها في مجال التقييم كون الأجانب لم يأخذوا بعين الإعتبار واقع النقود الجزائرية، بل كانوا يحددون أسعار عمالتهم، وكذلك العملات الجزائرية حسب قيمة نقودهم الخاصة.

ومن المشاكل التي عانتها العملة الجزائرية في أواخر العهد العثماني تعرضها لمنافسة النقود المزيفة لا سيما بعد أن انتشرت هذه النقود المزيفة، وتضخمت كميتها في أسواق التبادل التجاري، وأصبحت تشكل خطراً على العملة الجزائرية والأجنبية على السواء⁴.

¹ - ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830م، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1985، صص 189.191.

² - نفسه، ص 206. و نور الدين عبد القادر، مرجع سابق، ص 277.

³ - نفسه، ص 212.213.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 218.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العديد من العملات التونسية كانت متداولة بالإيالة الجزائرية ، وقد احتلت المرتبة الثانية بعد النقود الأجنبية¹ ، وذلك بحكم روابط الجوار وتشابه نظام الحكم التركي ، كما يعود ذلك أيضا إلى أهمية التبادل التجاري بين الإيالتين ، فقد كانت هناك قوافل تجارية هامة تربط بين مدينتي قسنطينة وتونس ، ومن أهمها القافلة الشهرية التي تنطلق من مدينة قسنطينة متكونة من 200 إلى 300 بغل ، محملة ببضائع تبلغ قيمتها مليون فرنك ، وتباع بمدينة تونس بمليون ونصف مليون فرنك² .

ومن أهم العملات التونسية التي كانت مستعملة بالإيالة الجزائرية نجد الدرهم الناصري ثم النصري الحيدري ، لكن الريال التونسي الفضي أزال الدراهم الناصرية والحيدرية من أسواق التبادل النقدي ، وأصبح هو العملة التونسية الرائجة ببايلك الشرق الجزائري³ ، وقد ظهر الريال التونسي في أسواق العملة منذ الربع الأول من القرن السابع عشر ، وظل مقتبسا من الريال الاسباني أكثر من قرن ، ولم يتخلص من تبعيته إلا بعدما تمكنت تونس من صك ربع ريال سنة 1725م بنسبة من الفضة تقدر 65% من وزنه⁴ ، وكانت الإتفاقيات التي عقدتها الجزائر مع تونس ما بين 1730-1735م من الأسباب المساعدة على توفر الريال التونسي ببايلك الشرق ، لأن مفعول هذه الإتفاقيات إنعكس على قيمة الريال التونسي ، فانخفضت قيمته إلى خمس قيمة السلطاني الجزائري⁵ ، لكن هذا الوضع النقدي الذي كان في صالح الجزائر لم يدم طويلا بعد أن ارتفعت العملة التونسية في أواخر الحكم العثماني بالجزائر ببايلك الشرق الجزائري ، إذ بلغت قوتها الشرائية بقسنطينة في السنوات الأولى من الإحتلال الفرنسي للجزائر 85% ، بينما قيمتها الحقيقية لم تكن تتجاوز 60%⁶ .

والجدول التالي يبين أهم النقود التونسية المستعملة في الجزائر⁷ .

نوع النقود	قيمة النقود او وزنها
السلطان التونسي	3.5 غ ذهب
الريال التونسي	16 خ

¹ - كانت النقود الإسبانية تحتل المرتبة الأولى من بين النقود الأجنبية بالإيالة الجزائرية من حيث إنتشارها بالمناطق الجزائرية ، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى العلاقة القديمة التي كانت تربط الجزائر بإسبانيا منذ مطلع العصور الحديثة، وقد تأكدت ه ذه العلاقة منذ استيلاء الإسبان على أغلب المراسي الجزائرية، ومكوّتهم مدة طويلة بوهران والمرسى الكبير 1509-1792م. ومن العملات الإسبانية التي كانت مستعملة آنذاك نجد : الدبلون Dablan - الدوكة Ducat - الكرونة La Corona - الدورو الاسباني Douro - الدرهم أو الريال الاسباني Rial. ينظر : ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 196.197.

² - ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 197.198.

³ - نفسه، ص 198.

⁴ - Cherif .M.H, Introduction De La Piastre espagnole "Ryal" Dans La Regence De Tunis Au Debut de 17em siecle , C.T- 1968 P54.

⁵ - Hugon. H., Les Emblemes des Beys de Tunis- Ernest Leroux, Paris,1913,p20.

⁶ -Nouschi .A., Enquete sur Le niveau de vie des population rurales Constantinois de la conquete jusqu en 1919 essai d histoire economique et sociale, P.U.F, paris,1961, p121.

⁷ - ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 203.

3.4 ب ش 0.75 نصري	
2فل	الدرهم الناصري
نصف نصري	الفلس أو الاسبر القفصي
0.12 قفصي	فلس رقيق
0.5 قفصي	فلس

*في تونس :

وفيما يتعلق بإيالة تونس، وبخصوص تاريخ صك الريال التونسي فقد أجمع عدد من المؤرخين أن ضرب أول نقود من فئة الريال في تونس، تم في منتصف القرن الثامن عشر، فيرى محمد الهادي الشريف أن العملية تمت في عهد علي باشا 1735-1756م¹، في حين يرجع فروجيا دي كانديا ضرب الريال التونسي إلى عهد علي باي 1759-1782 وبالتحديد إلى سنة 1766م²، ومن النقود المتداولة في تلك الفترة : الناصري وهي عملة فضية مربعة الشكل يتراوح وزنها بين 0.35 و 0.55 غ ، وكانت صورة لعملة قديمة تعرف باسم الناصري الحيدري³، كما جرت العادة في تونس على إطلاق إسم ناصري مومنى على الدراهم المربعة الشكل، وذلك نسبة إلى عبد المومن بن علي مؤسس الدولة الموحدية، الذي ضرب لأول مرة نقوداً مربعة الشكل، أما العملة النحاسية فترتكز على الفلس⁴، الذي لم يتخذ مع بداية القرن الثامن عشر شكل قطعة نقدية، بل كان مجرد عملة حسابية، والعملة والعملة البرونزية في تلك الفترة هي القفصي، وتعود تسميتها إلى العهد الحفصي الذي شهد ضرب هذه النقود لأول مرة في مدينة قفصة، وكان القفصي يزن في فترة حسين بن علي 1.80 غرام وانخفض وزنه تدريجياً ليصل إلى 0.05 غ في عهد علي باين وكان يساوي 1 من 12 ناصري " 12 قفصي تساوي ناصري ". وقد سعى الباي حسين بن علي 1705-1735م إلى وضع حد لتداول الريال الاسباني عندما قرر سنة 1714م إحلال العملة التونسية محل العملة الأجنبية وأمر بسحب كل الريالات وإبدالها بالناصرية⁵.

كانت العملة التي تصك في تونس تحمل إسم السلطان العثماني في إستانبول، ومن ذلك أن ربع الريال القفصي الذي أصدره حسين بن علي كان يحمل الجملة التالية : " سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان أحمد

¹-Cherif .M.H, Introduction De La Piastre espagnole Dans La Regence De Tunis Au Debut de 17em siecle in Cahiers de tunisienne, N 61.62, 1968, p45.

²- Farrugia De Candia, Monnaies Husseinittes, in Revue Tunisienne , N° 22 , 1936, P16.

³- نسبة إلى حيدر باشا أول وال عثماني على القيروان ضري العملة باسم السلطان العثماني سنة 1574م.

⁴- تعود تسمية الفلس إلى اللفظة الإسبانية Follis وهو إسم قطعة نقدية نحاسية بيزنطية ضربها المسلمون الأوائل .

⁵- محمود فروة ، النظام النقدي في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر 1740-1891م، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 1 و 2 ، زغوان، جانفي 1990، ص 217.218.

بن محمد خان عز نصره ضرب في تونس 1140هـ/1727م، وكانت دار السكة توجد بقلعة القصبة، ويمكن تمييز العملة التونسية لوجود جملة "ضرب في تونس"، وتكون غالباً مشفوعة بتاريخ الضرب، وفي عهد علي باشا إكتمل النظام النقدي بعد أن أمر هذا الباي بضرب نقود ذهبية من فئة نصف سلطاني وفضية من فئة ثمن ريال، وفي سنة 1748م صك قطعة نقدية جديدة من فئة نصف خروبة¹، وهي أصغر نقود فضية في عهده، ونظراً لانخفاض قيمة العملة الفضية بعد تعويض علي باشا لجزء كبير منها بالعملة النحاسية وأمره بضرب ثمن الريال والخروبة، فإنه من المرجح أن تداول الناصري المربع الشكل الذي صكه حسين بن علي توقف في عهد علي باشا. بقي النظام النقدي في تونس على حاله خلال فترة حكم محمد باي 1756-1759م ولم يشهد عهده إلا صك الفلوس النحاسي، وشهد عهد علي باي 1759-1782م أكبر حجم للعملة المتداولة وعرفت دار السكة خلال فترة حكمه نشاطاً حثيثاً، فقد ضربت النقود الذهبية من فئة سلطاني في عدة مناسبات، ولم يطرأ تغيير على العملة الفضية إلى حدود سنة 1766م التي شهدت صك قطع نقدية من فئة الريال الفضي الذي أصبح عملة ملموسة بعد أن كان وحدة حسابية، وستكرر عملية ضرب الريال عشر مرات من سنة 1766م إلى 1780م، كما وقع صك نقود فضية من فئة نصف ريال من 1773 إلى 1780م ونقود نحاسية ومنها الفلوس والقفاصي، وتميزت فترة حكم حمودة باشا 1782-1814م، بالرغم من طولها بانعدام صك العملة الذهبية، وقد يعود ذلك إلى فقدان المعدن الثمين من خزائن الدولة في تلك الفترة. وتواصل تداول الريالات الفضية التي زاد وزنها إلى جانب الخروبة والفلوس القديمة التي ضربت في عهد علي باي، ونقلت دار السكة خلال فترة حكمه من قلعة القصبة إلى نهج الحفصية، وكان يشرف على ضرب العملة مقابل تحت سلطة أمين مال الحكومة وأمين السكة. وفي عهد عثمان باي لم يشهد النظام النقدي في تونس أي تغيير نظراً لقصر فترة حكمه التي لم تتجاوز ثلاثة أشهر². وشهدت قيمة العملة تدهوراً خلال حكم محمود باي 1814-1824م لسوء الأحوال الاقتصادية وتفشي وباء الطاعون في الفترة ما بين 1818-1820م مما أودى بحياة 50 ألف شخص، ومن أسباب ركود الحياة الاقتصادية الانعكاسات السلبية للقرار الذي إتخذته الدول الأوروبية في مؤتمر فيينا، والقاضي بمنع نشاط القرصنة على إيالات شمال إفريقيا وحظر أسر المسيحيين، ففقدت بذلك حكومة الباي أحد مواردها المالية الرئيسية ولمواجهة تردي الأوضاع الاقتصادية لجأ محمود باي إلى التخفيض من عيار العملات الفضية مما شجع تهريب العملة المدلسة التي ضربت في الخارج لترويجها في أسواق البلاد التونسية، كما عرفت البلاد في عهد حسين باي 1824-1835م صعوبات مالية خطيرة بسبب تفشي الفساد وحياة البذخ والإسراف التي انتهجها الباي، ولوضع حد للأزمة الاقتصادية أمر حسين باي بحظر التعامل بالريالات المتداولة وتعويضها بريالات أقل عياراً ووزناً وبالتالي أقل قيمة، كما شهدت فترة حكمه ضرب نقود فضية من فئة ثمن ريال وريالين³.

¹ - 16 خروبة تساوي واحد ريال .

² - محمود فودة، مقال سابق، ص 219.

³ - نفسه، ص 219.220.

*في طرابلس الغرب :

عرفت إيالة طرابلس الغرب في الفترة قيد الدراسة عملات كثيرة ومتنوعة تم تداولها بالإيالة، وقد تكون عملات حوض البحر الأبيض المتوسط كلها، فوجدنا في الدراسة التي قام بها محمد عمر مروان حول سجلات محكمة طرابلس الشرعية صفقات تمت بالعديد من العملات التالية : الذهبية، والفضية، والريال أبي دور، والمحبوب الإسلامبولي، والمحبوب المصري، والريال سييلية، والبشليك، والقنيدلي، والقرنقلي، والقرش الطرابلسي، والقرش الإسكندراني، والقرش الإسلامبولي، والريال الفرنسي¹، وكان يوجد مكان بالإيالة لسك النقود يعرف بدار السكة، وقد كان لها أمين عرف بأمين السكة، كما أكد حسن الفقيه حسن في يومياته بأن دار السكة من ضمن اللزم التي كانت تعطى للمتزمين²، كما كان يتم التنبيه في السجلات من حين إلى آخر على إصدار عملة جديدة، أو تعديلها أو معادلتها بعملة أخرى، والوثيقة التالية التي أصدرها يوسف باشا القرماني والمؤرخة في سنة 1235هـ/1819م تبين أمرا يوضح صرف الريال الدور بالريال الطرابلسي، كما نبه عن إصدار عملة جديدة وصرفها: " الحمد لله وقع التنبيه من السيد الأمير العلم الشهير سيدي يوسف باشا صاحب كرسي محروسة طرابلس غرب في التاريخ على أن الريال الأبي دور بعشر ريات سكت³ "كذا" الوقت في الرابع والعشرين من صفر الخير سنة 1235هـ/1819م يوم الأربعاء وفي اليوم المذكور خرج أبو ستة مائة⁴ "كذا" وهو فلس من النحاس أحمر به خبشة وفي الوجه الآخر ضرب في طرابلس صرفه أربعة فلوس نحاسا أيضا. رزق الله خير ذلك ووقانا شره بجاه سيدنا محمد واله وأصحابه..."⁵.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه مع بداية القرن التاسع عشر، كانت العملة الأكثر شيوعا هي "الخمسين" الفضية وكانت كل 26 خمسين تعادل في ذلك الوقت قرشا إسبانيا، أما العملة الذهبية فكانت "الشريفية" الذي كان يساوي 48 خمسينا . والنصف "شريفية" والمحبوب الطرابلسي الذي كان يعادل 28 خمسينا، أما العملة الفضية فيما عدا الخمسين فكانت اليوزليح Yuzlih الذي كان يعادل 10 خمسينات، وتزكاوت الخمسين Tescout الذي كان يعادل 9 خمسينات ونصف والبارا التي كانت كل 12 ونصف منها تعادل خمسينا، ويضاف إلى هذه العملات القرش الملكي أو القرش الذي يعادل 40 بارة، وهناك عملات أخرى سكت في عهد يوسف باشا، مثل العملة التي يطلق عليها اسم البييناسك الذي يعادل 24 خمسينا والعملية التي سكت في أواخر الفترة القرمانية المسماة "عادية" و"الاسليح" Isliah وهذه الأخيرة ليست من فضة ولكنها من نحاس مفضض، أما العملة الخفيفة التي كان لها اعتبارها فهي "القرش" وهو خلاف القرش الملكي، وكانت تقدر العملة الأجنبية في طرابلس على أساسه، وبعد سنة 1820م كان القرش الملكي يساوي 9.000 قرش عادي، ولما كانت قيمة القرش الملكي

¹ - محمد عمر مروان، مصدر سابق، ص 364.363.

² - حسن الفقيه حسن، اليوميات، مصدر سابق، ص 426-473.

³ - معناها السكة .

⁴ - ستمائة.

⁵ - حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ص 364.

تعبط بالنسبة للعملة الأجنبية، فإن هذه العملات كانت تزداد قيمتها إلى عدد كبير جدا من القروش العادية. ولذلك فإن عملة البزو الإسبانية Pezzo التي كانت تعادل في سنة 1821م سبعة قروش ملكية ونصف أي ما يعادل 40.000 قرش عادي، أصبحت تعادل في شهر جويلية 1825م ستين قرشا ملكيا أي 500.00 قرش عادي، وبعد سنة كانت تساوي 225 قرش ملكي¹.

والجدول التالي يوضح قيمة العملات المتداولة في إيالة طرابلس الغرب وما يقابلها بالقرش الطرابلسي الذي صدر على عهد يوسف باشا القرمانلي واستمر إلى ما بعد مجيء العثمانيين مرة ثانية سنة 1835م².

الرقم	نوع العملة	ما يقابله بالقرش الطرابلسي
1	قرش طرابلسي ضرب يوسف باشا	100 بارة فضة أو 100 بارة نحاس
2	بارة فضة تساوي	بارة نحاس
3	ريال نجيب باشا	11/4 قرش يساوي 120 بارة
4	البشليك	200 بارة
5	المحبوب	8 قروش
6	المحبوب الخيري	8 قروش و 20 بارة
7	الدورو ابو طيرة	8 قروش
8	الدورو ابو مدفع	8 قروش و 20 بارة
09	المحار	18 قرشا طرابلسيا
10	البندقي	18 قرشا و 20 بارة
11	شريفني قديم	11.47 قرشا طرابلسيا تقريبا
12	دبلوني ذهب	124 قرش طرابلسي
13	محبوب مصري	8 قروش طرابلسيا
14	المحبوب الإسلامبولي	20 قرشا تركيا
15	المحبوب الإسلامبولي	8 قروش طرابلسي
16	القرش التركي	40 بارة
17	ريال دور فرنسي	9.2 قروش طرابلسي
18	ريال دور فرنسي	23 قرشا تركيا
19	ريال دور	22 1/2 قرشا اسكندريا

¹ - ميكاكي رودولفو، مرجع سابق، الهامش، ص 203.204.

² - محمد عمر مروان، مصدر سابق، ص 367.

ب- المكييل والأوزان :

إلى جانب النقود التي وجدت في الإيالات العثمانية الثلاث، والتي لعبت دورا هاما في المبادلات التجارية داخل الإيالات وخارجها، هناك المكييل والأوزان ، فمثلا في تونس أهم المعايير التي اعتمد عليها هي القنطار¹ ، القفيز، والمطر، والرطل² ، والتي كانت تختلف في المقادير التي كانت ترمز لها من فترة تاريخية لأخرى، فبالنسبة لقفيز القمح تطور وزنه في القرن السابع عشر، إذ كان في أواخر القرن السادس عشر يساوي 129.6 كلف، وصار في بداية القرن السابع عشر يزن 195 كلف، ثم أصبح يساوي 300 كلف ، ووقع الاحتفاظ بهذه القيمة إلى أواخر القرن السابع عشر ، حيث يلاحظ بعد سنة 1698م أن القفيز المعمول به في المبادلات كان يزن 320 كلف ، غير انه يجهل أسباب هذا الارتفاع المطرد في وزن القفيز، أما بالنسبة للمطر وعلى غرار كل المكييل يوجد إختلاف في قيمة المطر من جهة إلى أخرى حسب قريها أو بعدها من جهة الإنتاج الرئيسية للمادة الموزونة أو المكيلة، فمطر الزيت الذي يزن 40 رطلا "20كلف" بسوسة يتراوح بين 18 و18.5 كلف في المنستير و صفاقص، في حين انه في منطقة الوطن القبلي وبنزرت وتونس العاصمة يتراوح وزنه بين 16 و17.5 كلف³.

أما بالنسبة لإيالة طرابلس فقد كان لكل منطقة وحدة كيل خاصة بها، إذ تنسب وحدة الكيل إلى البلد، فعلى سبيل المثال كأن يذكر بكيل الزاوية، أو بالكيل التاجوري، أو بكيل مسلاتة، أو بكيل بني الوليد، ومن بين مكييل الحبوب التي كانت شائعة في الإيالة : الكيلة أو ما يعرف بالمرطة، والتي هي أكثر تداولاً وشيوعاً بين الناس، فكانت الكيلة تساوي 11.538 كيلوغراما تقريبا أو تسع أواق هذا للشعير بينما للحنطة "البشنة" تزن حوالي 16 كيلوغرام، كما نجد الويبة والتي كانت تساوي 14 مرطة "كيلة" ، بالإضافة إلى القفيز والذي استعمل في بعض المناطق كطرابلس لكييل الحبوب خاصة الفول، بينما استعمل في منطقة مسلاتة لكييل السوائل، كما وجد الحمل كوحدة من الوحدات المستعملة في الحبوب وقد اختلفت حجومه من منطقة إلى أخرى ، ففي بني الوليد 12 مرطة، وفي طرابلس 20 مرطة⁴.

إلى جانب وحدات كيل الحبوب، وجدت في الإيالة الطرابلسية العديد من وحدات كيل السوائل، فقد كان هناك الغراف⁵ ، والجرة¹ ، والقفيز² ، والربيعة³ ، وقد انفردت بعض المناطق بوحدات كيل خاصة بها، فعلى سبيل

¹ - القنطار يشتمل على مائة رطل، وكل رطل يزن خمسمائة غرام. الرطل الذي كان مستعملا في تونس في ذلك العهد لوزن البضائع الثقيلة وفي التجارة بالجملة كان يطلق عليه الرطل العطارى وهو يزن 504 غرامات، أما القنطار العطارى فقد كان يزن مائة رطل أو ما يعادل خمسين كيلوغراما تقريبا . ينظر: الإمام رشاد، مرجع سابق، ص260.

² - تعددت الأرتال في إيالة تونس واختلفت الموازين، فمثلا استعمل الرطل العطارى لوزن العقاقير والمعادن بصفة عامة والتوابل ومقداره 504 غرام للمزيد ينظر : إبراهيم السعداوي، نظام الالتزام بإيالة تونس أثناء فترة 1574-1705م ، المجلة التاريخية المغاربية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد117، تونس، جانفي 2004، ص89.

³ - الصادق بوبكر، إيالة تونس في القرن السابع عشر وعلاقتها التجارية مع موانئ البحر الأبيض المتوسط مرسيليا وليفورن، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والاندرلسية، الموريسكية، زغوان، 1987، ص7.6.

⁴ - محمد عمر مروان، مصدر سابق، ص251.250.

⁵ - الغراف يساوي 2 كيلوغرام ويساوي 2.307 لتر تقريبا.

المثال الغراف والجرة استعملتها منطقتا طرابلس وغريان، بينما انفردت منطقة مسلاته بوحدة الكيل الخاصة بما وهي القفيز⁴.

أما فيما يتعلق بالموازين في إيالة طرابلس الغرب فإنه وجدت العديد من وحدات الوزن التي استعملت في طرابلس الغرب، فوجد القنطار⁵، والرطل⁶، والأوقية⁷، والوقية⁸، والمثقال⁹، فقد أستعمل القنطار لوزن الأشياء الكثيرة والثقيلة ومما ورد في سجلات محكمة طرابلس الشرعية على سبيل المثال لا الحصر ما يلي: "...مع بتية فوة بها أحد عشر قنطارا من وباع صيخ زعفرانا به خمسة عشرة رطل "كذا" مع ثمانية قناطر مصيرة مع نصف قنطار قزديرا... أوآخر شوال 1175هـ/1761م...".¹⁰ كما ارتبط وزن المعادن الثمينة "ذهب، فضة، جوهر" بالمثقال والخروبة، فكان المثقال يستعمل لوزن خيوط الفضة، أما الخروبة فكانت تستعمل للحرير¹¹.

وفيما يتعلق بالجزائر فقد وجدت الموازين وأدوات الكيل فقد كانت محصورة في الرطل بمختلف أنواعه والصاع ومشتقاته والذراع، وفي وسائل أخرى مصطلح عليها مثل الربع لوزن الزبدة، واللوحه التالية تشتمل على أهم وحدات الوزن والكيل المستعملة في ذلك الحين¹².

اسم الوحدة	مقابلها بالكيلوغرام	مقابلها بالграм
الصاع " للحبوب"	130	
القلبة "للحبوب"	16.25	
الربعي "للحبوب"	4.06	
الرطل الكبير		921.5
الرطل الخضاري		614.3
الرطل العطارى		546.08

¹ - الجرة وتساوي 12.180 كيلوغرام وتساوي 14.128 لتر تقريبا .

² - القفيز ويساوي 7 لترات .

³ - لم توضح المصادر مدى حجمها، وإنما أكدت أنها وحدة من وحدات الحجم الجاري التعامل بها في إيالة . ينظر: محمد عمر مروان، مصدر سابق، ص 253.254. في حين يعتقد إنعام محمد سالم شرف الدين أنها كانت تمثل ربع مرطلة. ينظر: إنعام محمد سالم شرف الدين، مرجع سابق، ص 53.

⁴ - محمد عمر مروان، مصدر سابق، ص 253.

⁵ - القنطار ويساوي 51.28 كيلو غرام تقريبا .

⁶ - الرطل ويساوي 16 أوقية .

⁷ - الأوقية 32.05 غراما.

⁸ - الوقية وتساوي 1.28 كيلوغرام تقريبا .

⁹ - المثقال ويساوي 24 خروبة ويساوي 4.6 غرامات تقريبا.

¹⁰ - محمد عمر مروان، مصدر سابق، ص 361.

¹¹ - إنعام محمد سالم شرف الدين، مرجع سابق، ص 49.

¹² - محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي، مرجع سابق، ص 134.

497.43		الرطل الفضى
4.67		المتقال
	3.63	الربع " للزبدة"
		الذراع - نصف متر

9- دور اليهود في المبادلات التجارية بين الإيالات الثلاث:

لعب اليهود دورا هاما في الإيالات العثمانية الثلاث في شمال إفريقيا، فقد كان دورهم بارزا في كل من الجزائر وتونس وطرابلس من خلال السماح لهم بالعيش إلى جانب السكان المحليين، وذلك بعدما ادر السلطان العثماني بايزيد الثاني بن محمد الفاتح 1481-1512م- فرمانا يسمح فيه لليهود بالإقامة في الأراضي التابعة لسلطنته، فبالجزائر صنفت الدراسات التاريخية الحالية اليهودية التي عاشت في الجزائر إلى مجموعتين: المجموعة الأولى وكان يمثلها اليهود القدماء الذين ظهروا في إفريقيا بصفة عادية منذ أقدم العصور، هؤلاء اندمجوا منذ وقت مبكر بأهالي البلاد، أما المجموعة الثانية فهي تلك التي هجرت من جزر الباليار وإيطاليا وأوروبا الشمالية وفرنسا وإنجلترا وذلك ابتداء من القرن الثالث عشر، وقد عرف عدد هذه المجموعة ارتفاعا ملحوظا منذ سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس سنة 1492م وهجرة يهود اسبانيا إلى الجزائر بعد ذلك¹.

مارس اليهود في الجزائر نشاطا تجاريا متنوعا كالمهن المختلفة مثل صناعة الجواهرات والحلي الذهبية والفضية، وسك النقود، ومنهم من مارس التجارة، وقد بدأ اليهود عملهم التجاري بالتوسط في عمليات افتداء الأسرى المسيحيين، وشراء غنائم رياس البحر بأثمان بخسة، وبيعها بعد ذلك بأثمان باهضة للأوروبيين بالجزائر، وإرسالها إلى مدينة ليفورنو الإيطالية حيث كان يوجد أكبر مخزن لليهود²، وتمكنوا مع مرور الوقت من السيطرة على مختلف المبادلات التجارية³، هذا وكانت التجارة الداخلية خاضعة لهم، فكانوا يرسلون القوافل التجارية من مدينة الجزائر إلى قسنطينة ووهران وعنابة وتلمسان، محملة بالأقمشة والحريير والخردوات الأوروبية، كما امتد نشاطهم في أواخر القرن السابع عشر إلى المدن التونسية والمغربية وحتى إلى مدن إيالة طرابلس الغرب، مما ساعدهم على كسب أرباح طائلة وصلت إلى 400% أحيانا، ويعود سر نجاح اليهود إلى ذكائهم وأساليبهم المتعددة، وإلى تلك الرعاية والحماية التي وجدوها لدى بعض حكام الجزائر، إذ كان الحكام يتدخلون في عدة مناسبات لحل قضايا اليهود وحماية مصالحهم⁴، ومما هو ملاحظ أن اليهود وجدوا في الجزائر كل العناية والرعاية الضرورية التي ساعدتهم على ممارسة نشاطهم، والسيطرة على جل المبادلات التجارية منذ وقت مبكر، ويمكن القول أن ظروف بعضهم كانت أحسن بكثير من وضعية أهالي الجزائر، كما لا يمكن إغفال دور اليهود في التحكم في قيمة العملة، فالتعامل

¹-Ch. A. Julien, Op.Cit,p11.

²- ارزقي شويتام، تحاية الحكم العثماني في الجزائر، مرجع سابق، ص118.119.

³-Ch. A- Julien, Op.Cit,p12.

⁴- ارزقي شويتام، مرجع سابق، ص119.

التجاري وما يتطلبه من مبادلات نقدية، كان خاضعا لنفوذ اليهود، إما بطريقة مباشرة وذلك في مجال المبادلات المالية المترتبة عن النشاط التجاري، أو بطريقة غير مباشرة عندما يتحتم الرجوع إلى الصرافين اليهود المنتشرين عند كل زاوية شارع¹.

وقد عرف نشاط اليهود التجاري إزدهاراً واسعاً بداية من القرن الثامن عشر، وبالتحديد لما وصلت إلى الجزائر أسرتان يهوديتان من مدينة ليفورنة الإيطالية، وقد لعبت الأسرتان دوراً مهماً وخطيراً في المجال السياسي والإقتصادي، فالأسرة الأولى هي أسرة بوشناق أو بوجناح² التي استقرت بالجزائر سنة 1723م. وكان أفرادها يمتنون التجارة في الخارج، وكان نشاطها في البداية متواضعاً، لكن سرعان ما حققت نجاحاً باهراً، ويعود الفضل في ذلك إلى احد أفرادها البارزين وهو نفتالي بوشناق الذي عرف بدهائه كيف يستغل ظروف البلاد المضطربة ليكسب ثقة الحكام والموظفين الكبار والذين من بينهم مصطفى الوزناجي³، أما الأسرة الثانية فهي أسرة بكري⁴، والمعروف بابن زاهوت فكانت أيضاً صاحبة نشاط في الخارج، وقد استهل بكري عمله في الجزائر بفتح مكتب تجاري في عام 1770م، إذ وبعد فترة قصيرة عرف نجاحاً كبيراً، وذلك عندما اتحد ابنه الأكبر يوسف في عام 1780م مع إخوانه مردوشي وسليمان ويعقوب وابنه داود، وتفادياً للمنافسة التجارية بين أسرتي بكري وبوجناح وحدت الأسرتان جهودهما في المجال التجاري⁵.

وقد تمكن اليهود بفضل علاقاتهم الوطيدة التي تربطهم بالحكام من احتكار المواد الأساسية التي كانت تنتجها البلاد كالحبوب، والشموع، والجلود، والأصواف، وقد سمح لهم هذا الاحتكار بمنافسة الوكالة الوطنية الفرنسية التي كانت تتولى مهمة شراء وتصدير تلك المواد إلى فرنسا، ولكن في أواخر القرن الثامن عشر أصبح اليهود يتولون بمفردهم تصدير البضائع إلى ليفورنة ومرسيليا وجنوة وغيرها من موانئ البحر المتوسط، وامتد نفوذهم التجاري فيما بعد إلى هولندا والولايات المتحدة الأمريكية⁶.

ولم يكتف بوجناح بالتجارة مع أوروبا، ومنافسة المؤسسات الفرنسية، بل انه حاول أن يستحوذ كذلك على العلاقات مع تونس، فقد استطاع أن يسير عدداً من القوافل إلى الأسواق التونسية، كما انه صار يقدم الأموال

¹-L.De Tassy, histoire des royaume d'Alger, un diplomate français a Alger ,edition Loysse, Normandie,1992,p76.77.

²- وصلت هذه الأسرة إلى مدينة الجزائر سنة 1723م قادمة من مدينة ليفورنة الإيطالية، وكانت معدمة لا تملك قوت يومها، ثم ذاب أفرادها في الجالية اليهودية المحلية حتى جاءت سنة 1782م عندما بدأ نجم احد أبنائها - نفتالي - يلمع في عالم التجارة ويفرض نفسه في الأوساط الحاكمة آنذاك. ينظر: محمد العربي الزيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، مرجع سابق، ص 257.

³- باي التيطري ما بين 1775-1794م، عرف بالوزناجي لأنه كان يتقن صناعة البارود حكم بايلك التيطري مدة عشرين سنة ثم بايلك قسنطينة 1789-1795م.

⁴- إسمه الكامل ميشيل كوهن بكري والمعروف بان زاهوت قدم إلى الإيالة الجزائرية سنة 1770م يبيع الحردوات في حانوت صغير ، وكان له أربعة إخوة هم : يوسف ومردوشي ويعقوب وسليمان .

⁵- أرزقي شويتام، مرجع سابق، ص 120.121.

⁶- نفسه، ص122.

لبعض سكان المنطقة يتاجرون لحسابه مقابل نسبة يتفق عليها من الأرباح الصافية، وعندما أحس تجار قسنطينة بأن نشاط اليهودي أصبح يشكل خطرا على مصير تجارتهم صاروا يعرقلون قوافله ويضايقونها كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولما رأى بوجناح أنهم مصممون على محاربتهم، وألا فائدة في منافستهم انسحب من الميدان دون أن يحقق ما كان يصبوا إليه، ولو سكت الأهالي وتركوه يعمل لاستطاع في نهاية الأمر أن يحتكر التجارة بين شرق الإيالة الجزائرية والأسواق التونسية¹، ولعل ذلك الاحتكار كتن يصده عن الاهتمام بالتجارة مع أوروبا وبالتالي عن فكرة الشركة مع أبناء بكري.

أما فيما يتعلق بطرابلس الغرب فإن الوجود التاريخي بها يعود القرن الأول للميلاد، أما في العصر الحديث فإن الجالية اليهودية في مدينة طرابلس وإن قضى عليها إبان الاحتلال الإسباني للمدينة سنة 1510م، إلا أنها استطاعت أن تعيد بناء كيانها في النصف الثاني من القرن 16م، أما في ما يتعلق بالفترة قيد الدراسة وبالأخص فترة حكم يوسف باشا القرماني والي حطاي اليهود خلالها بحمايته، استقطبت مدينة طرابلس أعداد أخرى منهم، قدموا من الإيالات المجاورة، ومن ذلك اليهود الذين قدموا من تونس في سنة 1802م، واليهود الذين هاجروا من الجزائر إلى الإيالة الطرابلسية في سنة 1805م وذلك فرارا من الاضطرابات التي عرفت الجزائر².

إن الحديث عن الجالية اليهودية كثيرا ما ارتبط بدورها البارز في الميادين التجارية والمال، إلا أنه لا يوجد عدد معتبر من اليهود في طرابلس إذا ما قورنوا بالتجار الأجانب العاملين بالمدينة، فمن مجموع التجار العاملين بمدينة طرابلس لم يبرز سوى 53 تاجرا يهوديا مشكلين نسبة 5.96%، وكانت تعاملاتهم تتم بالدرجة الأولى مع ميناء ليفورنو وأوروبا بصفة عامة، وخلال حكم الأسرة القرمانية استطاع بعض التجار اليهود الحصول بالشراء على إمتياز إحتكار المتاجرة ببعض أنواع السلع، ففي سنة 1767م كان علي باشا القرماني يمنح التجار والشركات اليهودية إمتياز إحتكار تجارة الجلود مقابل مبلغ سنوي كانوا يدفعونه له، ومن خلال هذا الاحتكار كانوا ينضمون الرحلات إلى دواخل الإيالة للحصول على هذه المادة، ثم يقومون بتصديرها إلى البلدان الأوروبية خاصة إلى البندقية وليفورنو ومالطا، وفي فترة حكم يوسف باشا القرماني، يبدو أن احتكارات التجار اليهود التي كانوا يشترونها من السلطة، شهدت اتساعا فشملت أنواعا أخرى من السلع، فمن ذلك ما ذكر عن احتكارهم لتجارة البارود والتبغ والملح والفحم والجلد والصابون³.

أما فيما يتعلق بدورهم في العلاقات التجارية بين طرابلس الغرب والجزائر فإنه لم تكن لهم أية وساطة في ذلك، إذ أن دورهم بدا بارزا في علاقاتهم بالإيالة التونسية وبالذات في مدينة جربة.

¹ - محمد العربي الزيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، مرجع سابق، ص 261.262.

² - إنعام محمد سالم شرف الدين، مرجع سابق، ص 133.

³ - إنعام محمد سالم شرف الدين، مرجع سابق، ص 133.134.137.

ثانيا: العلاقات الثقافية:

1-التواصل الثقافي .

بالرغم من الصراعات السياسية التي عرفتھا الفترة قيد الدراسة بين الإيالة الجزائرية والإيالة التونسية، إلا أن العلاقات الثقافية لم تنقطع بين البلدين والتي تجسدت في شكل الرحلات العلمية بين علماء الإيالتين والإجازات المتبادلة بينهما.

أ- المراكز العلمية في الجزائر وتونس:

* في الجزائر:

- مدينة الجزائر :

إحتوت مدينة الجزائر خلال العهد العثماني على العديد من مراكز العلم والثقافة تجسدت على وجه الخصوص بالمساجد والزوايا التي كانت منتشرة بها، ومن بين المساجد التي لعبن دورا هاما في حركة التعليم نجد: **الجامع الأعظم**: والذي يسمى بالجامع الكبير والذي كان يعتبر من بين أكبر وأعظم المساجد في الجزائر آنذاك، ويقال أن يوسف ابن تاشفين اللمتوني من دولة المرابطين أو الملمثمين هو الذي بنى الجامع الأعظم¹، ويصفه البكري سنة 460هـ قائلا: "أن الجزائر لها مسجد جامع"²، لقي الجامع الأعظم اهتماما كبيرا من طرف الحكام العثمانيين، حيث كان له دور رائد خلال كل الفترة العثمانية في شتى الميادين القضائية والدينية والتعليمية وحتى الاجتماعية والسياسية، فقد احتضن المجلس العلمي وغطى على أنشطة كل الجوامع الأخرى، حتى التي أنشأها الأتراك أنفسهم³، وكثيرا ما كانت فيه الأولوية للمفتي المالكي على المفتي الحنفي في مختلف القضايا. **مسجد كتشاوة**: ويعتبر من أشهر المساجد التاريخية بالعاصمة الجزائرية بني خلال العهد العثماني سنة 1021هـ/1612م⁴، وهو مسجد حنفي أعاد بناءه الداى بابا حسن وزاد في توسيعه سنة 1209هـ/1795م⁵ وسمي هذا الجامع باسم كتشاوة نسبة إلى السوق التي كانت تقام في الساحة المجاورة، وكان الأتراك يطلقون عليها اسم: سوق الماعز ، حيث أن كلمة كتشاوة تعني بالتركية : عنزة / keçi / كيت بمعنى ساحة وشاوة بمعنى عنزة⁶، فعد من أجمل مساجد مدينة الجزائر من حيث النقوش وطرز العمارة، حولته السلطات الاستعمارية الفرنسية بعد الاحتلال إلى كنيسة⁷.

¹ - نور الدين عبد القادر، مرجع سابق، ص 156.155.

² - نفسه، ص 159.

³ - عبد الجليل التميمي، وثيقة عن الأملاك المحيسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، المجلة التاريخية المغربية ، العدد05، زغوان، 1980، ص10.

⁴ - www.wikipedia.org تاريخ الدخول 01/09/2015م . سا 17.00.

⁵ - نور الدين عبد القادر، مرجع سابق، ص 164.

⁶ - www.wikipedia.org - موقع سابق.

⁷ - A.Devoulx, Les édifices religieux de L'ancien Alger, in . R.A, N°12, 1868, PP107.108.

مسجد عبدي باشا: مسجد حنفي، يقع بالقرب من دار الانكشارية، شيد من طرف الداى عبدي باشا سنة 1138هـ/1725-1726م وهو يحمل إسم مؤسسه، وفي سنة 1162هـ/1748-1749م قام الداى محمد ياشا بن بكير (1748-1754م) ببناء مدرسة ألحقت بهذا المسجد الجامع¹.

الجامع الجديد: يعد المسجد الرئيسي لأتباع المذهب الحنفي بمدينة الجزائر، ومقر المفتي الحنفي، حيث يتولى به الإفتاء والإمامة، أسس من طرف جماعة من الجيش الانكشاري على موقع المدرسة العنانية عام 1070هـ/1660م، يقع مكانه أعلى باب الجزيرة على بعد أمتار فقط، وحسب ما تذكره المصادر أن تسميته بالجامع الجديد تميزا له عن المساجد الحنفية التي كانت موجودة بمدينة الجزائر قبل تاريخ تشييده² كما احتوت مدينة الجزائر خلا الفترة قيد الدراسة على مساجد أخرى كمسجد المصلى، ومسجد سيدي رمضان، وجامع القصبية البرآني، ومسجد شعبان خوجة، وغيره من المساجد التي لعبت دورا هاما في مجال العبادة والتعليم، أما بالنسبة للزوايا فنجد زاوية الأندلس، وزاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي³.

-مدينة قسنطينة:

لمدينة قسنطينة عدة تسميات عبر تاريخها فقد أطلق عليها اسم سيرتا ، الحصن الإفريقي، قرطة، بلد الهواء، مستعمرة ستيوس، قسنطينة ، كما ينسبها البعض إلى الملك قسطنطين، غير أن الأرجح في تسمية مدينة قسنطينة انه مركب من كلمتين قصر - طينة فامتزجت الكلمتان وصارت بحكم النطق المتغير والتطور الزمني قسنطينة بتبديل الصاد سينا والزاء نونا⁴. هذا عن أصل التسمية أما إذا تحدثنا عن مكانة قسنطينة الثقافية خلال العهد العثماني والمراكز العلمية التي بها فنجد أنها لعبت الدور البارز في هذا المجال وكانت من الحواضر العلمية التي ذاع صيتها من خلال تواجد مدارسها العلمية بالإضافة إلى المساجد التي بها :

-مدرسة جامع سوق الغزل: أمر بنائه الباى حسين وكان ذلك سنة 1730م⁵، ومن الشخصيات البارزة التي درست بهذا المسجد نجد العلامة المحقق والمدقق الشيخ فتح الله⁶ الذي كان يدرس العلم بهذه المدرسة .

¹ - يوسف أمير ، إسهام الدايات في وقف المساجد بمدينة الجزائر (1671-1830م) ، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد 14، الجزائر ، 2012، ص168.

² - نفسه، ص 170.

³ - للمزيد عن المساجد والزوايا المنتشرة بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني . ينظر نور الدين عبد القادر، مرجع سابق، صص 155-173.

⁴ - سليمان الصبيد، نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، ط2007، ص 7.

⁵ - صورية حسام ، العلاقات بين إبالتى الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر ، مذكرة ماجيستر ، إشراف عبد المجيد بن نعمة ، جامعة وهران 2012/2013، ص110.

⁶ - هو الشيخ العلامة الدارك فتح الله ولد بالشام ثم انتقل إلى مصر هو وإخوته وولده وعمه. كان حنفي المذهب ، انتقل من مصر إلى الجزائر ومكث

جامع سيدي الأخضر: أمر بنائه الباي حسين الملقب ببوحنك في سنة 1157هـ/1743م كما يدل عليه النقش الكتابي المثبت على لوح من الرخام فوق باب المدخل، وتوجد بباب المسجد مقبرة تضم عدة قبور من بينها قبر الباي حسن.

جامع سيدي الكتاني: يوجد بساحة سوق العصر أمر صالح باي بن مصطفى بنائه في سنة 1190هـ/1776م والى جانبه توجد مقبرة عائلة صالح باي.

-مدينة مازونة:

تبوأ مدينة مازونة مكانة سياسية وعلمية هامة في العهد العثماني، حيث كانت المقر الأول لبلايك الغرب الجزائري، وحظيت هذه المنطقة بأهم مركز علمي وهو مدرسة مازونة والتي تعبر عن النظرة الإجمالية للتعليم في مازونة بصفة خاصة، وفي بعض بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة، وتعتبر هذه المدرسة من أهم المدارس التي أسست في العهد العثماني، ويرجع الفضل في تأسيسها إلى الشيخ محمد بن الشارف المازوني¹ سنة 1619م فدرس بها نحو أربع وستين سنة 1029هـ/1619م، وقد توارث أبناؤه المدرسة، ونالت هذه المدرسة شهرة كبيرة لعدة أسباب أهمها:

* إلتزامها بنظام وتقاليد راسخة مستمدة من التعليم القديم في تلمسان والأندلس والمغرب الأقصى. فكان أسلوب التدريس المتبع في إلقاء مختصر خليل مثلا أربعين يوما حيث يجزا إلى أربعين جزءا.

* إزدهرت حلقات الدروس وتنوعت المواد المدروسة فيها من تفسير للقرآن وشرح مختصر خليل للشيخ الخرشبي²، والألفية، وأصول الفقه المالكي.

* حضيت مازونة بأكبر المدرسين والشيخوخ وتنوعهم في الفقه والحديث، مما جعلها مقصد طلاب النواحي الغربية لاسيما ندرومة، ومستغانم، وتنس، وتلمسان، ووهران.

إشتهرت مازونة بمدريستها الدينية المتخصصة في الدراسات الفقهية، كما أنها عرفت بكثرة مجالسها ونجابتها طلبتها وقريحة أشياخها، وكان من أبرز شيوخها محمد أبو طالب بن عبد الرحمن المعروف بإبن الشارف المازوني ومنهم من حاضر فيها ودرّس بها أمثال الشيخ القطب المشهور سيدي محمد الميسوم، والشيخ الكتاني مدرس بمدينة فاس المغربية، والشيخ بلغيث والشيخ بسودة المغربي، وغيرهم كثيرون. ولقد عمدت هذه المدرسة بمسجدها

¹ - هو شيخ المدرسة والمعروف باسم الشارف المازوني وهو من أشهر شيوخ المنطقة على انه الوريث الشرعي للمدرسة يتصل نسبه بالأسرة الشريفة. ولد سنة 1103هـ وتوفي سنة 1233هـ. تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم على يد والده علي محمد بن عبد الرحمن، وذلك بمدرسة مازونة، وهي المدرسة التي أسسها جده الأعلى محمد بن الشارف سنة 1029هـ. هذه المدرسة المتكونة من مسجد جامع للصلاة إضافة إلى بعض المواقف التابعة له، والتي كانت تستعمل لإيواء الطلبة.

² - هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشبي (1010-1101م) المالكي المذهب، كان شيخ المالكية بمصر، وعمل مقرئا بالأزهر، وهو معروف بتأليفه شرح على مختصر خليل الكبير والصغير.

على أنه جزء منه سنة 1029هـ على يد سيدي محمد بن الشارف ثم خلفه بعد وفاته سنة 1164هـ ابنه محمد أبو طالب عبد الرحمن وابنه سيدي هني¹.

هذا وكان بمازونة العديد من العلماء والقضاة والفقهاء على المذهب المالكي أمثال الحسن بن محمد بن محمد المازوني² والصادق بن علي المغيلي³ ويحيى بن موسى أبو زكريا المغيلي المازوني⁴.

*في تونس:

- جامع الزيتونة:

يعد جامع الزيتونة المسجد الثاني في إفريقية بعد مسجد عقبة بن نافع في القيروان، وأمر القائد المسلم حسان بن الريحان بنائه في سنة 76هـ، واكمل بناء الجامع في عهد القائد عبيد الله بن الحبحاب، وتروى العديد من الروايات حول أصل التسمية إلا أن الراجح أنها أطلقت لوجود شجرة زيتون مكان الجامعة، فأصبح اسمه استثناسا بهذه الشجرة ومثلما اختلف المؤرخون حول باني المسجد الجامع، فقد اختلف الرواة حول جذر تسميته، فمنهم من ذكر أن الفاتحين وجدوا في مكان الجامع شجرة زيتون منفردة فاستأنسوا بها وقالوا: إنها لتؤنس هذه الخضراء وأطلقوا على الجامع الذي بنوه هناك اسم جامع الزيتونة⁵.

لم يكن المعمار وجمالته الاستثناء الوحيد الذي تمتع به جامع الزيتونة، بل شكّل دوره الحضاري والعلمي الريادة في العالم العربي والإسلامي إذ اتخذ مفهوم الجامعة الإسلامية منذ تأسيسه وتثبيت مكانته كمركز للتدريس وقد لعب الجامع دورا طليعيا في نشر الثقافة العربية الإسلامية في بلاد المغرب وفي رحابه تأسست أول مدرسة فكرية بإفريقية أشاعت روحا علمية صارمة ومنهجيا حديثا في تتبع المسائل نقدا وتمحيصا ومن أبرز رموز هذه المدرسة علي ابن زياد مؤسسها وأسد بن الفرات والإمام سحنون صاحب المدونة التي رتبت المذهب المالكي وقتنته.

عندما تأسست دولة الأغالبة في تونس لقي الجامع المزيد من العناية والاهتمام، ليصبح أول مدرسة فكرية ومعهد علمي نموذجي في الإسلام وفي العال، وليس مستغربا أن يعد الزيتونة أول جامعة في العالم حيث توسعت العملية التعليمية ونظمت، وظهرت العديد من الأسماء الكبيرة في التاريخ الإسلامي في جامع الزيتونة ومنهم أسد بن الفرات الفقيه المالكي المعروف، وأيضا المفسر الفقيه محمد ابن عرفة ومؤسس علم الاجتماع ابن خلدون.

¹ - طاهر حنان، مازونة عاصمة الظهرة ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، مكتبة الرشاد للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص93.

² - ويعرف بابن منزل، من كبار علماء مازونة في وقته فقيه حنفي تركي الأصل، من أهل مازونة بما نشأ وتعلم. من أثاره "تحفة الملوك في حصر أصول الإرث المتروك". ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط2، بيروت، 1980، ص280.

³ - عالم وقاض من فقهاء المالكية من أهل مازونة تعلم بها وبمعسكر، ثم رحل إلى المشرق، فتعلم بالأزهر الشريف. ثم عاد فولي قضاء مازونة ثم وهران. توفي سنة 1838م. ينظر: عادل نويهض، مرجع سابق، ص280.281.

⁴ - فقيه وقاض من أعيان المالكية. نشأ في مازونة وولي قضاءها ومات بتلمسان سنة 1478م. له "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" وهو كتاب حافل بغتاوى المتأخرين من علماء الجزائر وتونس والمغرب الأقصى. ينظر. عادل نويهض، مرجع سابق، ص281.

⁵ - تاريخ نشأة وتطور جامع الزيتونة من الموقع: www.turess.com. تاريخ الدخول: 03 سبتمبر 2015.

مثل الجامع أيضا همزة الوصل بين المشرق العربي ودول المغرب، فكان يمثل مدخلا طبيعيا للثقافة المغربية المتميزة، وأثنى العديد من أعلام المشرق على دور الجامع الديني والعلمي ومنهم الأمير شكيب أرسلان الذي يراه بجانب الجامع الأزهر والمسجد الأموي من الحصون للدفاع عن اللغة العربية والشريعة الإسلامية، وهذا مثال واضح على الدور المثالي الذي يتحمله المسجد في الحياة الإسلامية، فلا يقتصر دوره على أداء العبادات ولكن يتخطى ذلك إلى دور إجتماعي وتنموي فاعل. بقي الجامع طيلة القرون الماضية يخرج العلماء والفقهاء الذين استطاعوا أن يثبتوا الوجود الإسلامي في إفريقيا، ومنه تخرج رجالات الدولة فلا تقتصر قائمة من تلقوا علومهم في الجامع على إبراهيم الرياحي ومحمد النخلي ومحمد الطاهر بن عاشور، ومحمد الخضر حسين الذي أصبح شيخا للأزهر.

-مدينة القيروان:

لعبت مدينة القيروان¹ منذ تأسيسها على يد عقبة بن نافع الفهري سنة 51هـ دورا ثقافيا هاما في منطقة المغرب الإسلامي، فحولت المدينة مع مرور الوقت إلى مركز إشعاع ثقافي يؤمه الطلبة والعلماء من كل أقطار المغرب لاستكمال تعليمهم ومعارفهم ومن ثمة يواصلون رحلتهم إلى الحواضر المشرقية، وقد ساهمت القيروان في تنشيط الحياة الثقافية في المغرب الإسلامي إلى غاية 443هـ، تاريخ تعرضها لحملة بني هلال، الذين خربوا معالمها الحضارية وجامعها الأعظم².

تراجع الدور الثقافي والفكري للقيروان منذ خرابها سنة 449هـ/1055م، فكانت أقرب منها إلى الصحراء القاحلة التي تبدو بعيدة عن معالم العمران، وروح الحضارة، وقد استمر حالها على ذلك وبقيت تلتصق بطريقها وتسترجع أنفاسها شيئا فشيئا بداية من القرن السابع للهجرة وما بعده، وفي العهد العثماني عرفت القيروان أحداثا خطيرة تدل على أهميتها وحضورها على الساحتين السياسية والاجتماعية نظرا لمحوريتها الدينية، رغم انحصار إشعاعها العلمي وتراجعها الحضاري وضعفها الاقتصادي بالمقارنة ما عرفته من أدوار مختلفة منذ الفتح الإسلامي إلى حدود منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي، حيث بقيت القيروان مؤثرة في مجرى الأحداث على مر التاريخ.

تعرضت مدينة القيروان للهدم زمن مراد باي 1668-1700م، ولم تنهض من جديد إلا على عهد حسين بن علي تركي 1705-1740م الذي قام بتعميرها وإحياء معالمها، ولقي من أهلها النصر في خضم الفتنة الباشية الحسينية، لكن المدينة لم تتعرض للتدمير والتفتيل والتكحيل، وبقيت القيروان على ذلك الحال إلى أن تولى امر البلاد أبو عبد الله محمد باي بن حسين بن علي تركي، فأصلح أمور المدينة وأقام سورها ورمم ما إندرس من

¹ - القيروان لفظ فارسي معناه المعسكر، وهو من الدخيل اللغوي الذي استعمله العرب الفاتحون لإفريقية ن والذي يعني أيضا محط الجيش ومناخ القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب. ينظر: أحمد الحمروني، مرجع سابق- ص146. وحسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص45.

² - خلال حكم الدولة الأغلبية والفاطمية أقيمت حول وقرية منها ثلاث مدن كانت مقرا للحكام وأعوامهم، وقد ازدهرت هذه المدن ازدهارا عظيما وهذه المدن هي القصر القديم وقيادة وصيرة. للمزيد ينظر: محمد محمد زيتون، تاريخ القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، دار المنار للطبع والنشر، القاهرة، 1988، ص99.98.

معالمها، ثم عاودتها المحنة من جديد سنة 1833م حين ابتليت بالخطية التي اضطرت أهل القيروان إلى بيع نفائس أمتعتهم وأملاكهم بأبخس الأثمان.

ب- دوافع التبادل الثقافي بين الجزائر وتونس:

لقد تنوعت دوافع وأوجه التبادل الثقافي بين علماء ومثقفي إيالة الجزائر وتونس، والتي يمكن أن نحصيها في النقاط الآتية :

* طلب العلم :

تميز علماء ومثقفو الجزائر والمغاربة بكثرة تنقلاتهم لإثراء معارفهم وتنويع مصادرهم، فكان المثقفون والطلبة المغاربة يتنقلون بيم أرجاء الدول العربية والإسلامية مشرقا ومغربا، لتوسيع آفاقهم العلمية والمعرفية فكانوا يلازمون مشاهير العلماء والشيوخ في النوادي والمراكز الثقافية المنتشرة في العالم الإسلامي.

* أداء فريضة الحج:

كان علماء وطلبة الجزائر لدى قيامهم بزيارة البقاع المقدسة لأداء مناسك الحج، يجعلون تلك الرحلة مناسبة للاحتكاك بالعلماء المسلمين المتوافدين، فيحدث هناك تبادل ثقافي وعلمي فيما بينهم وكان علماء الجزائر والمغاربة بصفة عامة يتوقفون بالعواصم العربية لأخذ العلم أو إعطائه : مثل الزيتونة بتونس، والإسكندرية، والقاهرة، والقد، ودمشق، وبغداد، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة، وكان أصحاب تلك الرحلات غالبا ما يسجلون ملاحظاتهم في مؤلفات تعرف بالرحلات الحجازية والتي كانت تحتوي على المسالك والمحطات التي مر بها صاحبها، والعلماء والصالحين الذين التقى بهم أو زار أضرحتهم أو زواياهم .

* الهجرة الإجبارية:

لقد اضطر بعض العلماء والمثقفين الجزائريين والمغاربة الى ترك بلدانهم ليستقروا في إحدى الدول العربية أو الإسلامية، وقد تعود أسباب هجرتهم إلى معارضتهم للنظم السائدة في بلدانهم، مما كان يعرضهم للمضايقات والاضطهاد، فكلما ضاقت بهم السبل في بلدانهم، إنتقلوا إلى إحدى الدول التي توفر لهم الأمن والاستقرار¹.

2- مظاهر العلاقات الثقافية الجزائرية التونسية :

يعتبر القطر التونسي أول قبلة للعلماء الجزائريين وذلك منذ أن أسس عقبة ابن نافع الفهري مدينة القيروان في عام 51هـ. وقد لعبت القيروان وجامعها الأعظم دورا ثقافيا في منطقة المغرب، فتحوّلت المدينة مع مرور الوقت إلى مركز إشعاع ثقافي يؤمه الطلبة والعلماء من كل أقطار المغرب، لاستكمال تعليمهم ومعرفتهم، ومن ثمة يواصلون رحلتهم إلى الحواضر الشرقية، وقد ساهمت القيروان في تنشيط الحياة الثقافية في المغرب الإسلامي إلى غاية سنة 443هـ، تاريخ تعرضها لحملة بني هلال، الذين خربوا معالمها الحضارية وجامعها الأعظم، وهكذا غير العلماء المغاربة وجهتهم نحو فاس في المغرب الأقصى، التي أخذ نجمها يسطع منذ أن أسسها إدريس الثاني في عام

¹ - أرزقي شويتام، العلاقات الثقافية الجزائرية المغربية(الفترة العثمانية)، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 13، الجزائر، 2011، ص 82.83.

192هـ. كما كان لمراكش دور هام في نشر الثقافة ابتداءً من القرن 5هـ، أما في الجزائر فكانت طنبنة تعيش عصرها الذهبي 154-293هـ، فكانت تنافس القيروان في المجال الثقافي، إذ تخرج منها علماء الفقه والعلوم الإنسانية والفنية والأدب.

وخلال الفترة قيد الدراسة 1750-1830م ما لبثت أن تحسنت أحوال تونس في عهد الحسينيين وبالأخص الفترة ما بين 1705-1814م، فعرفت إستقراراً نسبياً مما انعكس على الحياة الثقافية فاسترجعت المعاهد والمدارس التونسية مكانتها المعهودة، وهذا بالرغم من أنّ العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس خلال هذه المرحلة عرفت تدهوراً كبيراً، إذ تعددت الحملات العسكرية من كلا الطرفين، فإن العلاقات الثقافية إتسمت بالإستقرار والتواصل، ولم تتأثر بالأوضاع السائدة، فاستمرار توافد العلماء الجزائريين على تونس لدليل على التقارب الثقافي الجزائري التونسي، فقد استقرّ العلماء الجزائريين في العديد من المدن التونسية، فاستقرّ مصطفى ابن عزوز المتوفى سنة 1768م بنفطة : والافضلي يحيى (1708-1808م) بجزيرة، ومحمد الصالح الرحومني (1729-1808م) درس في تونس، ثم عاد إلى مسقط رأسه ببلاد القبائل حيث مارس التدريس ، وأحمد بن عمار الذي ولي التدريس والإفتاء بتونس، ومن تلامذته إبراهيم السيالة وأحمد الغزال الجزائري¹.

ومكث أحمد التيجاني صاحب الطريقة التيجانية 1737-1815م بعض الوقت بتونس قبل أن يغادرها إلى الحجاز، وكانت لمحمد أبو راس الناصري المعسكري المتوفى عام 1823م، إتصالات بالعديد من علماء تونس أمثال محمد المحجوب، وصالح الكواش، وإبراهيم الرياحي، وأحمد بيرم التونسي، وقد قيل أن إبراهيم الرياحي قام بنقل الطريقة التيجانية إلى تونس مباشرة من مؤسسها أحمد التيجاني بفاس²، بالإضافة إلى حمودة المقائسي الذي يعتبر من اعلم علماء العاصمة، ارتحل إلى مصر وجاور بالأزهر، ولازم العلامة محمد الدسوقي حتى أجازته ورحل إلى بلاده ومزّ في طريقه بتونس وأقرأ بها، وأحمد الشريف الزهار صاحب المذكرات الذي إنتقل إلى تونس في عام 1832م وحضر دروس العلامة إبراهيم الرياحي، والشيوخ الطيب بن عيسى الجزائري وغيرهم³.

3- أشهر الرحلات الجزائرية إلى تونس:

أ- رحلة ابن حمادوش:

عاش ابن حمادوش "عبد الرزاق بن محمد المعروف بإبن حمادوش الجزائري خلال القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر ميلادي، فقد ولد في مدينة الجزائر سنة 1107هـ/1695م، وتوفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان وتاريخ مجهولين⁴، ولذلك سمي بالجزائري، وكانت أسرته من طبقة الحرفيين التي كانت تمارس التجارة ولا تهتم

¹ - أرزقي شويتام، مقال سابق، ص 97.

² - عمار هلال، العلماء الجزائريون في فاس فيما بين القرنين العاشر والعشرين الميلاديين، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد9، الجزائر، 1995، ص 36.

³ - محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخراسان، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2007، ص 258.

⁴ - عبد الرزاق ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال ، تح. أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1983، ص 9.

بالسياسة والرياسة إلا قليلاً¹، ولقبت أسرته بأسرة الدباغ لأن والده وعمه كانا يشتغلان بالدباغة². غير أن ابن حمادوش عاش فقيراً لأنه إمتهن العلم لا الدباغة، وخلال عمره الطويل عاصر ابن حمادوش أحداثاً هامة في الجزائر وفي العالم، فقد استقلت الجزائر أو كادت عن الدولة العثمانية في عهد حكم الدايات، كما عاصر ابن حمادوش تسلط اليهود الاقتصادي، وبالأخص اليهود المهاجرين من أوروبا ومن ليفورنة بالذات، وإنحسار موجة غنائم البحر وبعض الغارات الإسبانية على الجزائر مثل غارة أوريلي سنة 1775م. أما على المستوى الإسلامي فقد شهد بنفسه الحرب الأهلية بالمغرب الأقصى، حتى كاد يذهب هو ضحية لها، ولا شك أنه شهد أيضاً بعض الحروب التي جرت بين حكام الجزائر وحكام تونس، وكانت أخبار تدهور الدولة العثمانية تصل إلى أذنيه وإن لم يكن قد شاهد ذلك بعينه.

ب- زيارة الورثيلائي لتونس :

ولد الحسين بن محمد السعيد الورثيلائي "نسبة إلى بني ورثلان بالجزائر" سنة 1125هـ/1713م*1، وتوفي بها أيضاً سنة 1197، تلقى مبادئ الفقه واللغة على يد أبيه وأشياخ موطنه، ثم اختلف إلى بعض الزوايا ومعاهد العلم بناحية القرقور وجهات جرجرة ودلس والجزائر³، وقد ارتبط الشيخ الورثيلائي بالطريقة الشاذلية وعد من الشيوخ المرابطين وظل ملتزماً بحياة الزهد والتقشف ومتصفاً بالجد والعمل والرغبة في الإستزادة من العلوم الفقهية واللغوية⁴.

أدى الورثيلائي فريضة الحج ثلاث مرات، الأولى صحبة أبيه وهو ابن الثامنة عشرة 1153هـ/1740م والثانية عندما بلغ الواحدة والأربعين 1166هـ/1752م والثالثة إستغرقت ثلاث سنوات 1179-1181هـ/1765-1767م أتمها في الرابعة والخمسين من عمره، وقد حرص على أن يوسع معارفه وينمي معلوماته أثناء حجه وإقامته بالحجاز ومصر، حيث درس بالقاهرة وأخذ على شيوخ الأزهر⁵، واشتهر الورثيلائي برحلته التي إنتهى من إملائها عام 1182هـ ووضع لها عنواناً إستوحاه من مضمونها وهو "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، وضمنها مشاهداته وملاحظاته وتعليقاته أثناء سفره لأداء فريضة الحج⁶، ولم يكتب الورثيلائي رحلته بيده ولكنه أملاها إملاءً على تلاميذه كما جرت عادة المشائخ، وتعود أهمية رحلة الورثيلائي إلى ما اشتملت عليه من معلومات في غاية الأهمية تتصل بالحياة اليومية والحالة الاقتصادية والمعاشية، وأسلوب الحكم، ومستوى الثقافة وطبيعة العادات ونوعية اهتمامات العامة في البلدان التي تعرف عليها في سفره، أو أثناء إقامته بالحجاز وهي حسب خط رحلته ذهاباً: مجانة، زمورة، قصر الطير، أولاد موسى، وطن ريغة، أولاد دراج، بريكة، بسكرة، سيدي

¹ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1- دار البصائر، الجزائر، 2007، ص 223.

² - عبد الرحمن بن محمد الجليلي، مرجع سابق، ج2، ص578.

³ - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1999، ص 418.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج1، ص 187.

⁵ - ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 418.

⁶ - نفسه، ص 419.

عقبة، الخنقة سيدي ناجي، نفطة، الحامة، توزر، زوارة، طرابلس، تاجوراء، لبدّة، زيتن، مصراتة، بلاد سرت، ثم إقليم برقة، والإسكندرية، والقاهرة، ومكة، والمدينة، أما في طريق عودته فقد مرّ بالقاهرة، والإسكندرية، وطرابلس، وتونس، والكاف، وقسنطينة، وزمورة، قبل أن يحل ببلدته بني ورثيلان.

زار حسين الورثيلاني تونس وهو في طريق عودته من الحج، وقد أكرم بها واستقبل بحفاوة بالغة، وقد بين الورثيلاني كرم أهل تونس وسخائهم وحسن إستقبالهم للضيوف فقال: "حاصله أقبال الناس من كل ناحية بالإطعام والإكرام ما دما نازلين بتونس، ثم أن أكثر العلماء والصلحاء ومن فيه رائحة خير يأتون بالطعام إلى دارنا ثم يذهبون بنا إلى بيوتهم قصد نزول البركة في محالهم من جميع من فيها حرسها الله أمين" ونوه الورثيلاني بسلاطين تونس وأمرائها ورجال الدولة فيها قائلاً عنهم: "إنهم صرفوا همتهم إلى العلم، وأقاموها منائر عزة فبنوا المدارس وأوقفوا الأحباس وأعزّوا العلماء وأغنوا بالدرس الجلاص"¹.

وقد ضمن الورثيلاني رحلته إلى تونس مشاعره نحوها، وقد مكث فيها نحو خمسة أشهر ونيف فيقول في شأن ذلك: "إن تونس قاعدة من قواعد العلم، ومدينة من مدن الفهم، ثم يحوصل رأيه فيها من نواح عدة فيبين مزاياها وفضائلها فيقول: "وبالجملة فإن تونس خيرها عظيم، وحالها كريم، ووصفها نعيم، وطبعها نسيم، حلوة المذاق، عزيزة الفراق، كثيرة الإشتياق، قوية الأشواق، ممدودة الأرفاق، واسعة الإنفاق، جالبة الأرزاق، كثيرة الفواكه، في جميع الأوقات بلا كلفة ولا مشاق، جامعة لأجناس الخلائق، فيها جميع الأصناف من أهل الحقائق، روضة للمطيع والعاصي، والرحيم والعاصي، والمتيقظ والناسي، لكل أحد جلسه، ولكل محب أنيسه، فما تشتهي بين يديك"².

ومما يلاحظ في رحلة الورثيلاني الرابطة المتينة التي شدّت الرحالة إلى علماء تونس وأدائها، يظهر ذلك في تنويهه بهم خاصة عندما خرج من تونس قصد رجوعه إلى مقام الجزائر، إذ ودعه كثير من علمائها وطلبتها ومن لا يحصى عددا إلى سيدي عبد الله الشريف الواقع بالقصبة قبالة الجامع الحفصي، فيقول الورثيلاني في ذلك: "ولما خرجت من تونس ودعني أكثر علمائها وجم فضلائها وعامة طلبتها، ومن لا يحصى عددا إلى سيدي عبد الله الشريف فاجتمعوا هناك، فما أصعبه من فراق، وأضرّه من احتراق، فقد فقدت السلوى، ولم أبت الشكوى، لم أجد طبيبا بالدواء إلا الصبر لذي القدرة والقوى... لم أستطع فراقهم غير أنه لا بد من فراق، وإن كان في الفؤاد نار واحتراق"³، وسجل الحسين الورثيلاني لحظة الوداع بقريّة سيدي علي الخطاب حيث شيعه عدد من العلماء، وأقاموا له وليمة عظيمة وصفها بقوله: "فكثر أنواع الطعام وأنواع الطباخ بل ذبح سبعة أكباش وثور"⁴.

هذا وكان الورثيلاني لدى زيارته إلى تونس قد تعرّف على عدد من علمائها ودرس على البعض منهم، وأخذ عنه عدد من الطلبة في صفاقص وقابس وتجاوز مع فقهاء وعلماء وطلبة تونس.

¹ - الحسين الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد ابن شنب، مطبعة بيار فنتان، الجزائر، 1908، ص 662.

² - نفسه، ص 669.

³ - نفسه، ص 679.

⁴ - نفسه.

ج- زيارة أبو راس الناصري إلى تونس:

هو العلامة محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن ناصر الراشدي، ولد بنواحي جبل كرسوط بمدينة معسكر سنة 1165هـ من عائلة فقيرة، إشتغل أبوه بتعليم القرآن، ثم رحل به إلى نواحي متيجة قرب مدينة الجزائر حيث عرف عن كذب الحكم العثماني، وهناك فقد والدته، ثم رحل به والده إلى نواحي مجاجة حيث كان يعلم القرآن للصبيان، وبعد وفاة والده توجه مع أخيه عبد القادر إلى المغرب، وهناك حفظ القرآن وشب، ثم عاد إلى معسكر بالفقر أيضا وبشيء من العلم، فوجد عالما قد طبقت شهرته أفاق الناحية وهو عبد القادر المشرفي الذي إشتهر بالإضافة إلى العلم التقليدي بالأخبار والتاريخ، فتتلمذ عليه أبو راس وتأثر به كثيرا ولازمه مدة¹، ثم أحس أبو راس بشيء من الاستقلال العلمي فخرج إلى الريف فتزوج وبدأ ينشر علمه، كما تولى القضاء مدة سنتين، ثم عاد إلى معسكر لأنه أحس بمعلوماته تضعف في الريف، فاستقر في معسكر ستة وثلاثين سنة. ففيها بلغت شهرته أقصاها وفيها إنتصب للتدريس والفتوى وعرف بالحفظ، وكان مجلسه العلمي كبيرا حتى بلغ سبعمائة وثمانين مستمعا أحيانا، وكان شيخه عبد القادر المشرفي هو الذي رشحه ليكون خليفة له في التدريس.

وبالإضافة إلى المشرفي الذي كان له المرابي والموجه والمشجع على شق حياته، درس أبو راس على مشائخ آخرين كثيرين، وقد انتقل أبي راس الناصري إلى العديد من الأقطار وتعرف على أوضاعها واتصل بعلمائها، وقد حج مرتين الأولى سنة 1204هـ/1790م، والثانية سنة 1226هـ/1812م، وانتقل إلى الجهات الشرقية من الجزائر وزار تونس ومصر والشام وفلسطين²، كما توجه إلى المغرب الأقصى وقصد السلطان العلوي مولاي سليمان ومكث مدة بتطوان وفاس 1216هـ، ولم يخف إهتمامه وتأثره بالأحداث والتطورات التي عرفها العالم الإسلامي مثل هجوم الانجليز على الجزائر "حملة اللورد اكسموث" وفتح وهران الثاني 1791م وتمرد درقاوة بالغرب الجزائري، وظهور الحركة الوهايبية بالجزيرة العربية، والحملة الفرنسية على مصر والشام، وتولي محمد علي أمر مصر وإدخال الإصلاحات إلى الدولة العثمانية³.

يعد أبو راس الناصري من العلماء المحققين والمؤرخين الإثبات المدققين خلال العهد العثماني، وبرهن على أنه من الحفاظ المتفوقين والباحثين المجتهدين البارعين في تلك الفترة، فقد شكل بتعدّد مؤهلاته شخصية علمية مرموقة في ذلك العصر جعلت معاصريه يشهدون له بالنبوغ والتفوق العلمي، وقد لقي من ناظرهم من العلماء مشرقا ومغربا.

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998م، ص 377.378.

² - أبي راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص24.

³ - ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 461.

أما فيما يتعلق برحلة أبي راس إلى تونس فإنه توقف بها أثناء توجهه إلى الأراضي المقدسة لتأدية فريضة الحج سنة 1790م ، ومما يمكن أن نقف عنده هي زيارته إلى مدينة القيروان أين توقف بها، وكانت زيارته لها في بداية القرن 13هـ/أواخر القرن 18 م حيث يقول في ذلك : "وإني قصدتها للزيارة سنة أربعة عشر ومائتين وألف 1214هـ/1799م من المغرب الأوسط لأنها درة الصدف وواسطة السفط فدخلتها في سابع عشر شعبان" ¹ ، وقد دون ما شاهده بالقيروان وما زاره في أربعة أيام على الأقل، حيث ذكر أنه دخلها في سابع عشر شعبان وأنهى زيارته للأضرحة يوم الجمعة في عشرين من شعبان، فكان حلوله بالقيروان يوم الثلاثاء سابع عشر من نفس الشهر وفي ذلك يقول: " وقد زرت ضريحه ضحوة الجمعة في اليوم الموفى عشرين من شعبان وزرت في ذلك اليوم المبارك سائر الأولياء الذين بداخل السور نفعنا الله بهم" ².

هذا وقد زار أبو راس في الأربعة أيام التي قضاها بالقيروان الجامع الأعظم، وفي شأنه يقول : "ودخلت بجامعها الأعظم وأنا ظمآن وتعبان، فوجدت من عجائب الدنيا مرفوعا على سواري من رخام ومرمر على عدد أيام العام غير ما في الصحن والصومعة. وقد قدمت في الأول خمسة وعشرين قدما بقدمي، ثم دخلت المقصورة التي كانت أمراء إفريقية تصلي فيها الجمعة عمل خلفاء العباسيين ببغداد. وهي عن يمين المحراب أنشئت من أعواد الساج ³ في غاية الإتقان والنقش، ووجدت فيها آلة حرب من بقية سلاح الصحابة رضي الله عنهم ، كما زار القبور المحيطة به كالمقبرة البلوية ومقبرة باب تونس ومقبرة باب سلم ومقبرة باب أبي الربيع ومقبرة باب نافع ، ووقف عند أضرحة صلحاء القيروان وأوليائها كالشيخ أبي عمران الفاسي ⁴ ، ومحمد بن عبدالله بن خليل التونسي.

هذا وقد ألف أبو راس كتابا عن مدينة القيروان بعد تلك الزيارة لها سماه "نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان"، وفي شأن ذلك يقول : "فهذا كتاب نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان التي أسست من أول يوم على التقوى والرضوان، ففضائلها لا تحصى ولا تستقصى، وكيف لا وهي فتح باب المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، ومتبوا الصحابة وأمانهم وأمانهم، وكرسي مملكتهم وسلطانهم التي وقت اختطاطها سنة خمسين من الهجرة، لا يوحد الله في بلاد المغرب سوى أهلها، وانتفض منها كفر الإفرنج ومجوس البربر حتى أنهم يساؤون لخصبها ويسرون لمحلها ⁵ لكونها أنشئت بين ظهرانهم وفي بحبوحة أوطانهم، وأشرق عليها نور الإيمان وأملى

¹ - أبو راس الناصري، نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان ، تقديم وتعليق. محمد الحبيب العلائي وسهيل الحبيب ، منشورات مركز الدراسات الإسلامية ، القيروان، 2012م، ص 82.

² - نفسه، ص 141.

³ - الساج: خشب يجلب من الهند وله رائحة طيبة. ينظر: أبو راس الناصري، مصدر سابق، الهامش. ص 83 .

⁴ - هو أبو عمران موسى بن عيسى ابن أبي حاج الفاسي نزيل القيروان (368-430هـ/978-1038م) أصله من فاس، إستوطن القيروان فيها وأخذ عن أبي الحسن الفايدي ورحل إلى قرطبة وإلى المشرق وحج ودخل العراق سنة 396هـ/1005م ودرس الأصول على أبي بكر الباقلاني، من تلاميذه ابن محرز وعتيق السوسي، عرف بكونه فقيها حافظا وعالما وإماما ومحدثا عارفا بالرجال وقرأ القرآن بالسبع . ينظر : أبو راس الناصري، مصدر سابق، الهامش ص 88.89.

⁵ - الحَّل : الجوع الشديد، وأرض محل وقحط ، لم يصبها المطر في حينه.

لها حتى أنه إذا أطلق اسم افريقية لا ينصرف إلا لها، وأتى قصدتها للزيارة سنة أربعة عشر ومائتين وألف للهجرة، من المغرب الأوسط لأنها درة الصدف وواسطة السفط فدخلتها في سابع عشر رمضان¹.

د- زيارة أحمد بن عمار:

من علماء العهد العثماني، هو من مدينة الجزائر، من أسرة اشتهرت بالعلم عن طريق والده العالم، وخاله أيضاً، ولد بالجزائر سنة 1119هـ²، وقد اكتفى بعض معاصريه وتلاميذه بوصفه بأوصاف التحلة والإحترام، كما فعل الورثيلايني وابن حمادوش وأبو راس، وتلميذاه إبراهيم السيالة التونسي وأحمد الغزال المغربي، ويصفه ابن حمادوش بأنه من العلماء المنصفين الذين لا يحملون حسداً ولا ضغينة، كما يقول عنه الورثيلايني "الفاضل بالاتفاق والعلامة على الإطلاق"، كما رفع أبو راس من قيمة ابن عمار كثيراً فوصفه بأنه شيخنا "الذي إرتدى بالنزاهة يافعا وكهلا، وكان للتلقب بشيخ الإسلام أهلاً"، ومدحه أيضاً بتخريج "الأساتيد من التلاميذ والفقهاء النحارير والعلماء الجماهير"، كما مدحه بالنبوغ في علوم الفقه والحديث والسند والأصول والبيان، بالإضافة إلى الزهد والنزاهة، وقد درس عليه أبو راس بعض العلوم من بينها فقه الإمام أبي حنيفة، وكان ابن عمار حريصاً على الترجمة لغيره من سواء في كتابه المفقود "لواء النصر في فضلاء العصر" الذي قيل إنه ترجم فيه لعلماء قرنين، أو في رحلته "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب". أدى ابن عمار فريضة الحج سنة 1166هـ، كما تولى وظيفة الفتوى على المذهب المالكي سنة 1180هـ وظل بها إلى غاية سنة 1184هـ، إلا أن ابن عمار لم يطب به المقام في الجزائر، فقد جاء في كتاب لتلميذه إبراهيم السيالة³ أن شيخه ابن عمار قد جاء إلى تونس من الجزائر سنة 1195هـ، بقصد الاستيطان بها، وأن ابن عمار كان عندئذ كبير السن، ومع ذلك ناظر علماء تونس، وألف عملين في تونس الأول رسالة في التفسير والأدب، والثاني تاريخ في سيرة وأثار باي تونس علي باشا ابن الحسين، إلا أنه غادر تونس بالرغم من مجيئه بقصد الإستيطان، ولعل منافسة العلماء له وموت الباي علي ووفاة صديقه حمودة ابن عبد العزيز سنة 1202هـ/، قد حمله على الهجرة من جديد إلى المشرق ومجاورة الحرم.

وكان ابن عمار يكتب للخاصة لا للعامة بل للخاصة الخاصة، فأسلوبه راق، ومعانيه بعيدة، فقد جاء في وصف رسالته في التفسير قوله يخاطب الباي علي باشا التونسي "نظمت في سلك دولة هذا الملك السعيد... عقد لبة وتاج مفرق، مما فتح الفتاح العليم، من هذه الرسالة الغربية المبنى الوثيقة المعنى البعيدة المرمى القريبة المعنى.. فليظرها المولى، بعين القبول والرضى، وليعرضها على الخواص من أدباء دولته الميمونة وعلمائها وفقهائها وزعمائها، وأما العوام فكالهوام، وليس هم المقصودون بهذه الرسالة"⁴.

¹ - أبو راس الناصري، نبأ الايوان، مصدر سابق، ص 82.

² - عثمان سعدي، مرجع سابق، ص 428.

³ - إسم الكتاب مباسم أو مباهج الأزهار .

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج5، ص 234.

هـ- زيارة ابن العنابي إلى تونس:

هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري وشهرته العنابي أو ابن العنابي، وكان على مذهب الحنفية، ولد سنة 1189هـ/1775م حسبما أكده بنفسه في إجازته للشيخ محمد بيرم التونسي سنة 1245هـ/1830م وتوفي بالإسكندرية سنة 1267هـ/1851م، وقد عاصر ابن العنابي بداية عهد التنظيمات في الدولة العثمانية وأخذ محمد علي والي مصر عندئذ بمبادئ التمدن الغربية، وقد عاصر ابن العنابي علماء كثر في مدينة الجزائر أمثال المفتي الشاعر محمد ابن الشاهد¹، والمفتي مصطفى ابن الكبابي²، والعالم محمد ابن مالك³، والكاتب السياسي حمدان خوجعة، وقد تولى ابن العنابي وظائف متنوعة في الجزائر، وأول من ولي ابن العنابي وظيفة القضاء الحنفي هو الذي أحمد باشا 1805-1808م⁴، والوظيفة الثانية هي الكتابة إلى باي تونس حمودة باشا بتكليف من الداي أحمد، فقد ورد في مذكرات الشريف الزهار أن الأمير قد أمر الفقيه محمد ابن العنابي قاضي الحنفية أن يكتب كتابا إلى حمودة باشا فكتب الكتاب وبعثوا به⁵، كما أن ابن العنابي كان ضمن العلماء في المنازعة التي وقعت بينهم وجعلت الباشا يتدخل لفض هذه المناقشة الحادة التي جرت بينهم في المجلس الشرعي الذي كان يجتمع كل يوم خميس بحضور الباشا أو ممثله، ولما علم الباشا بما حدث قرر عزل المفتي الحنفي وهو محمد ابن العنابي وتعويضه بالشيخ أحمد ابن إبراهيم بن احمد، كما قرر عزل المفتي المالكي وهو علي بن الأمين وتعويضه بالشيخ محمد بن الحفاف.

هذا وكان ابن العنابي قد حلّ بتونس في أواخر سنة 1244هـ/1859م، وظل بها فترة من الوقت ثم غادرها إلى الجزائر في بداية سنة 1245هـ/1830م، وكان حلوله بتونس أثناء عودته من الحج الثاني له، وقد أقام ابن العنابي في تونس مكرما معززا، فقد أحاط به العلماء، ولا سيما أسرة بيرم، وكلهم قد أشادوا به واستحازوه ونوهوا بعمله ومدحوه بالنثر والشعر، كما أن باي تونس آنذاك أحاطه بالتبجيل والتعظيم وكان ابن العنابي جديرا بذلك الإعتبار والحظوة ومما قيل في شأن ذلك: "فتلقاه أمير الوقت بمزيد من الإجلال، وهو بذلك حري، إذ مقامه في العلم

¹ - عاش ابن الشاهد في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م والنصف الأول من القرن 13هـ، وقد كان حيا إلى غاية سنة 1839م، وكان بالإضافة إلى الشعر ينظم الموشحات ويلحنها لاسيما في المولد النبوي الشريف، تولى ابن الشاهد عدة وظائف دينية وعلمية في مدينة الجزائر، شأن علماء وقته وأهمها وظيفة الفتوى على مذهب الإمام مالك مرتين الأولى من سنة 1192-1206هـ، والثانية من سنة 1206-1207هـ، تتقف ابن الشاهد بثقافة عصره فكان عالما بأصول الدين والفقه والتفسير والحديث والقراءات والفرائض. للمزيد ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، صص 107، 114.

² - تولى الإفتاء زمن الفرنسيين وفي سنة 1843م حكم عليه بالنفي من الجزائر لمعارضته ضم الأوقاف الإسلامية إلى أملاك الدولة الفرنسية، وقد استوطن الإسكندرية التي قضى فيها بقية عمره إلى أن وافاه الأجل سنة 1277هـ/1860م وقد تجاوز التسعين، كان المفتي ابن الكبابي عالما بالحديث وبالفقه المالكي، كما كان أديبا وشاعرا رقيقا، كما له شعر في الحنين إلى الوطن. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، مرجع سابق، صص 171، 172.

³ - كان ابن مالك مدرسا وقاضيا للمالكية وله تدخل في الأمور السياسية.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي ابن العنابي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1990، ص33.

⁵ - الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 97.

كبير"، ويدل هذا النص على مقام ابن العنابي لدى أهل تونس من علماء وأمرء، كما أن وثائق تونس لا تذكر إسم ابن العنابي مقرونا بكلمة مفتي رغم أنها تصفه بالحافظ والمحقق والعالم ونحو ذلك¹.

4- المجالس والمناظرات بين علماء الجزائر وعلماء تونس .

تعتبر المجالس والمناظرات من أهم المظاهر الايجابية التي ساهمت في إثراء الحركة الثقافية وساعدت على إمتزاج عناصر المجتمع باحتكاك الفقهاء وأدباء العصر. وامتد تأثيرها إلى معالم الحياة كلها، بما فيها الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لتنوع موضوعاتها واتساع دائرة المناقشات حول مسائل الأمة .

لقد تمكن كل من الورثيلايني وأبي راس الناصري من خلال إقامتهما في تونس من إعداد مادة الجزء الخاص بتونس من رحلتيهما . فحفلت شهادتهما بشتى الأخبار وأنواع الثقافة عن معظم المدن التي توقف عندها الرحالة، سواء في الذهاب أو الإياب، ولا شك أن جهودهما كان لها تأثيرها الكبير في إبداء ملاحظات هامة عن هذا الميدان، كما أنها مثال للتعاون الثقافي المشترك بين الجزائر وتونس، والذي كان يتم بشكل عفوي بين الرحالة الجزائري والعالم التونسي².

أما فيما يتعلق بالأجواء العلمية التي عاشها الرحالة بتونس، والتي أثمرت رصيذاً فكرياً هاماً، فقد اتفق الرحلان للتطرق لأهم مركز علمي بها جامع الزيتونة الذي ظلّ على مر العصور يلعب دوراً كبيراً في تقوية العلاقات الثقافية بين أهل المغرب الإسلامي كافة، وفي شأنه يقول الورثيلايني : "...وكذا المجتمعون في جامع الزيتونة للإقراء والتدريس فتقصر العبارة عنهم عن عدهم ... " ³ ، أما أبو راس فقال : "... واجتمعت مع العلماء بجامعها الأعظم، فتذاكرنا وتناظرنا وترافعنا وتشاجرنا وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة والمسائل المخفية..." ⁴ ، ومما يمكن إستخلاصه من كلامهما ما يلي :

* إمتاز المجلس الزيتوني بقوة الحاضرين من أهل العلم والسلطة، حيث ذكر أبو راس حضور حاكم البلاد حمودة باشا.

* إتساع دائرة النقاش بين العلماء في جميع العلوم والفنون ومسائل العصر، كما اهتم المتناظرون بدقائق المسائل الخفية، وفي شأن ذلك يذكر أبو راس مثالا حيا عن المواضيع التي تدخل حيز المجلس الزيتوني قائلاً : "...وسئلت بتونس عمن انتقل من مذهب إلى مذهب، ومن انتقل للاجتهاد، ومن كان يفتي بالمذاهب الأربعة، وعمن قلد غير الأربعة..."⁵.

* بقي جامع الزيتونة يثبت فاعليته واستمراره في النشاط العلمي حتى في مرحلة عرفت بالركود الثقافي.

¹ - أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق، ص 38.37.

² - ليلي غويي ، التواصل الثقافي للرحالة الجزائريين مع العلماء المغاربة في العصر الحديث ، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد 14، الجزائر ، 2012، ص 213.

³ - الحسين الورثيلايني، مصدر سابق، ص 661.

⁴ - أبو راس الناصري، فتح الإله، ص 115.

⁵ - نفسه، ص 155.157.

ومما يلاحظ أن الوريثياني تطرق إلى واقع الثقافة بتونس والعوامل التي ساعدت على إنتعاشها، ويتبين من شهادته أن الازدهار العلمي الذي عرفته الدولة التونسية في هذه الفترة يرجع إلى عدة عوامل أهمها تشجيع حكامها للحركة الفكرية وذلك عن طريق تقربهم من الفقهاء والعلماء والاهتمام بإقامة المنشآت الثقافية في مختلف المدن كبناء المدارس والمساجد، كما أن انشغال الحكام بأحوال الثقافة والحركة العلمية كان دافعا مؤثرا في إبراز مؤثر هام، وهو ارتفاع عدد العلماء والمؤسسات التعليمية بالحواضر التونسية التي أصبحت قبلة لعلماء المغرب الإسلامي، خاصة منهم المتوجهين لأداء فريضة الحج¹.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن الوريثياني زار العديد من المدن التونسية، وتوقف بمؤسساتها العلمية، وتفاعل مع أهلها وتحدث عن مدرسيها وفقهائها وعلمائها، وما وقع له من مناظرات ومجالس معهم، كما تطرق أيضا إلى ذكر أهم الأضرحة المعروفة بتونس ومن المدن التي زارها الوريثياني. توزر، وقابس، و صفاقص، وسوسة، وتونس العاصمة، ففي مدينة توزر التي افتتح بها الحديث عن الحركة الثقافية بذكره لعلمائها ومدرسيها، فتعرف بالشيخ عبد القادر الفاسي، وهو مدرس في مادة التفسير، حيث قال عنه: "...الكامل عبد القادر الفاسي يقرأ في مسجد توزر في التفسير... حافظا للروايات، ناقلا مذاهب العلماء، فصيح اللسان حلو الكلام"²، كما ذكر السيد إبراهيم خليل وهو من أولاد السيد الغوث، والشيخ احمد بوطبة الذي انتقل إلى قفصة واستقر بها، أما مدينة صفاقص فقد تحدث الوريثياني عن مجالسها العلمية الكثيرة، وقد أبدي الوريثياني عدم رضاه عن المستوى المدرسي لعلم الكلام والفقهاء والنحو³، أما عن مدينة تونس التي قضى فيها نحو خمسة أشهر ونيف وهو في تعمير الأوقات بتدريس الفنون وضبط القواعد من العلوم، فقد أكد الوريثياني عدم قدرته على استقصاء ما فيها من النجباء والفضلاء والصلحاء، لأنها قاعدة من قواعد العلم ومدينة من مدن الفهم⁴.

أما أبو راس فقد دخل تونس عازما على حضور مجالسها ومناظرة علمائها، فأبلى البلاء الحسن في جميع مجالسها ومناظراتها، وكانت كثيرة ومتنوعة المواضيع، لم يقتصر حديثه على ذكر المجالس العلمية المنعقدة بجامع الزيتونة فحسب، بل عمل على الإفادة والاستفادة بحضوره المجالس الخاصة، وقد ذكر في رحلته عدة نماذج من هذه المجالس كحضوره مجلس حاكم البلاد الذي دعاه إلى مجلسه الخاص وأكرمه وطلب منه تفسيرات عن أصل تسمية قسنطينة ومدينة القيروان وعن مسائل أخرى⁵، وقد استحسّن حمودة باشا إجابات أبي راس كثيرا وأكرمه، الأمر الذي أثار حسد بعض أقرانه، وقد أشار إلى ذلك بقوله: "...ثم إن بعض العلماء لما سمعوا بإكرامه لي اعتراهم

¹ - ليلي غويبي، مقال سابق، ص 221.

² - الحسين الوريثياني، مصدر سابق، ص 124.

³ - نفسه ص 656.

⁴ - احمد الطويلي، تونس في الرحلات والعالم في عيون رحالين تونسيين الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، ط1، تونس، 2006، ص 30.

⁵ - سأل حمودة باشا أبو راس عن قصر الجمل فأجابته بما يلي: هو من بناء هنداسة الإفرنج والروم حتى انه كانت تطلع الشمس كل يوم في كوة من كواه على عدد تنقلها ذهابا وإيابا، فهو من عجائب الدنيا. كما سأله عن القيروان فقال: "احتطه عقبة بن نافع الفهري وسط القرن الأول. ينظر: احمد الطويلين مرجع سابق ص 38.

الحسد والكمد والمكر، وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر...¹، كما تحدث عن حضوره مجلس القضاء للقاضي محمد بن المحبوب²، وأسفر هذا عن مشاركته في حل بعض القضايا، منها قضية "الخصمان في حضانة"، ولما أثبت الرحالة قدرته في حلها، صار القاضي ابن المحبوب يشاوره في النوازل المرفوعة إلى منزله، كما حضر مجلس صالح الكواش³ والذي يعد من أشهر المدرسين، وقد عرف به أبو راس قائلاً: "...العلامة الفهامة الذي كل المعقول والأصول والبيان على ظاهر قلبه..."، وكان أبو راس قد حضر درسه حول الأئمة كابن خلدون والبرزلي وابن ناجي.

ومن الشخصيات التونسية العلمية التي يذكرها أبو راس وينوه بها ويمجدها الشيخ إبراهيم الرياحي⁴ فقد حلاه بهذه الأوصاف: " وقد اجتمعت بعالم الدنيا على الإطلاق، وأديبها بالاتفاق، الزاهد الناسك، الحافظ الدارك، الشاعر الناثر، الناظم الكاظم، الخاشي الخاشع، المنفع النافع، الأمضى، الأحظى، الأرقى... "، ثم يقول عنه: "فريد العصر، وتحفة الدهر، وفخر ذلك القطر، ذو الاطلاع والإستطلاع، ...علم يبهر منه شعاع. ومواعظ يحق لها حثيث وإسراع..."⁵.

ويفيدنا أبو راس عن إبراهيم الرياحي أيضاً أنه ألف مقامات عارض بها مقامات الحريري فيقول عنه: "ولما رأى تأليفها وطالعتها استحسنتها غاية الاستحسان وأنشد عليها قصائد حسان "، وضمن أبو راس كتابه قصيدة لإبراهيم الرياحي في مدحه يقول فيها:

وسلم الأمر تسليم الورى لأبي
راس وذن مثل ما دانوا فيزدان
حبر، تفيض بعرفان جوانبه
إن لم تقل فهو للتحقيق عرفان
أنفاسه بضروب العلم ساحة

¹ - أبو راس الناصري، مصدر سابق، ص 115.

² - هو عمر ابن الشيخ قاسم المحجوب الشريف المساكني ثم التونسي الفقيه الأديب برع في المعقول والمنقول والأدب وتصدر للتدريس، كما تقدم للفتوى مع أبيه على أيام الباشا علي ابن حسن باي، يعتبر من أهم قضاة عصره توفي سنة 1222هـ/1807م. ينظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، ج4، ط2، بيروت، 1994، ص 251.250.

³ - محمد ابن الشيخ صالح بن حسين الكواش، اعتنى والده بتربيته فقرأ عليه وعلى غيره، وكان والده يحبه ولا يذكر اسمه إلا مقرونا بالسيادة، ولذا كان تلامذته لا يذكرونه إلا كما يذكره والده، ولما بلغ سن الرشد أتم دراسته بجامع الزيتونة، وأصبح من أهم أعلام تونس، توفي صالح الكواش بمرض الطاعون سنة 1232هـ/1818م. ينظر: محمد محفوظ، مرجع سابق، ج4، ص 186.

⁴ - إبراهيم بن عبد القادر بن احمد بن إبراهيم الرياحي العلامة الفقيه، الأديب الشاعر، الصوفي، الرحالة، السياسي، ولد بتستور سنة 118هـ/1767م وبها حفظ القرآن، ثم انتقل إلى تونس لطلب العلم في أواخر القرن 15هـ، فأخذ بجامع الزيتونة عن أعلام عصره كصالح الكواش، وكان على صلة بالشيخ مصطفى بن عزوز البرجي الجزائري نزيل نفطة، زاول التدريس بجامع الزيتونة، انتخبه حمودة باشا سنة 1803م سفيرا للسلطنة الشريفة بالمغرب الأقصى لغرض طلب الميرة لوجود مجاعة بتونس، توفي إبراهيم الرياحي بمرض الكوليرا الذي اجتاح تونس سنة 1266هـ/1850م.

⁵ - أحمد الطويلي، مرجع سابق، ص 40.

وكل عضو له درس وتبيان¹.

كما لزم محمد بيرم الرابع مفتي الحنفية بتونس قرأ عليه مختصر الكنز وغيره. كان يذهب إليه في داره ويأخذ عنه، يصفه بقوله: "هو العلامة المحقق.. الناظم النائر، الصالح البركة المتعبد، ذو خصوصية ولطافة، حسن المفاكهة، كثير البشر والتودد، نظيف البزة، خير المنبت، طلق الوجه، طيب الحديث، عارف بالأبواب... يمزج الدعابة بالوقار، والفكاهة بالنسك، والحشمة باليسط، عظيم المشاركة، بارع الخطاب، عذب التلاوة، متسع الرواية، مشارك في أصول وفروع وتفسير، شيخ الشيوخ، وبقية أهل الرسوخ، حسن الشكل، جليل القدر، عظيم الشأن والأمر، من الذاكرين الله كثيرا، حسن الإقراء والتقرير، ميمون النقيبة، مليح الشببة، قائم ناسك صائم، لا تأخذه في الله لومة لائم، له القدم الراسخ، والمجد الشامخ، والمنصب الباذخ، الإمام في الآداب والبيان والإعراب، والتاريخ واللغة والأنساب، والفرائض والحساب، أربى على الفحول في المعقول والمنقول، وفاق في كل مقول...".

ولم يقتصر الرحالة على ذكر مجالسه واجتماعاته العلمية فقط، بل قدم في رحلته أمثلة حية للقائه الودية مع بعض علماء تونس الذين استضافوه في بيوتهم ومنهم الشيخ أبو سعيد الباجي الذي دعاه إلى بستانه في قرية الغوث².

5- الإجازات المتبادلة بين علماء الإبالتين :

تعتبر الإجازة في ذلك الوقت شهادة يمنحها الشيخ للطالب يأذن له من خلالها أن يروي عنه كتبه ومروياته، ونظرا لأهميتها، اهتم أهل العلم بالحصول عليها من العلماء ذوي الشهرة الكبيرة والعلم الوافر، فقد ذكر أبو راس الناصري إجازات علماء تونس لمن فكانت أول إجازة منحت له من طرف أحمد بن عبد الله السنونسي المغربي النجار التونسي الدار. وقد أذن له بالرواية في جميع ما يتعلق بالدين وأصوله وفروعه والمسائل الفقهية بنص إجازة نثرية أقر أبو راس أنها كانت مكتوبة بيد المجيز حيث قال: وكتب لي بخط يده... "إلا أنه لم يورد نص الإجازة كاملة، واكتفى بذكر طلبه هو للإجازة³، أما إجازته الثانية فكانت على يد محمد بيرم الأول⁴ وقد قرأ عليه فقه أبي حنيفة ب"مختصر الكنز"، والجدير بالذكر أن أبا راس كان يذهب إلى داره ومقره⁵.

أما فيما يتعلق برائد التجديد الإسلامي إبن العنابي كما يصفه أبو القاسم سعد الله، فقد منح في أثناء تواجده بتونس إجازة لعدد من العلماء الذين لجئوا إليه وطلبوا منه ذلك نثرا وشعرا. وقد جاء في إجازته للشيخ محمد بيرم الرابع أنه يجيزه "بكل ما أجازني به مشايخي جميع من أدرك حياتي" قدوة بشيخه علي بن عبد القادر بن

¹ - أحمد الطويلي، مرجع سابق، ص 40.

² - أبو راس الناصري، فتح الإله، ص 109.

³ - نفسه ص 51.50.

⁴ - هو محمد بن حسين بن احمد بن محمد بن حسين بيرام 1718-1800م، وأصل اللفظة من التركية ومعناها العيد، شيخ الإسلام المعروف ببيرم الأول

، قدم جده بيرام إلى تونس صحبة جند سنان باشا لإنقاذ البلاد من الاحتلال الإسباني، وطاب له المقام بتونس، وتزوج من أهلها، أخذ الفقه المالكي

عن حسن البارودي، وتلمذ عليه جماعة كحمودة بن محمود ومحمد المحجوب والوزير الكاتب حمودة ابن عبد العزيز صاحب الكتاب الباشي والذي

ترجم له فيه. للمزيد ينظر. محمد محفوظ، مرجع سابق، ج 1، ص 131.130.

⁵ - أبو راس، مصدر سابق، ص 53.52.

الأمين الذي قال عنه أنه "أجاز جميع من أدرك حياته"، وقد أجاز ابن العنابي الشيخ محمد بيرم بهذه العبارة، بعد أن عدد طرق تلقيه لكتب الحديث والفقه "وقد أجزت بهذا وبكل ما أجازني به مشايخي الشباب الفاضل الكامل أبا عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن محمد الشهير بيرم حفظه الله إجازة عامة بشرطها المعلوم لأهله.

وهناك إجازة أخرى لابن العنابي أجاز بها أيضا محمد بيرم الرابع، وهي تتعلق بأحزاب الشاذلي. فقد جاء في وثيقة تونسية عن بيرم الرابع أنه كتب أن شيخه العنابي قد أجازته بتلك الأحزاب "شيخنا العلامة المحقق حامل لواء المذهب الحنفي بقطر الجزائر محمد بن محمد العنابي" وقد أضاف بيرم أن هذه الإجازة قد وقعت له منه مشافهة وأنه كتب سندها، كما أن مصطفى بيرم عم محمد بيرم المذكور قد استجاز أيضا ابن العنابي بقصيدة، وهي قصيدة هامة تصور مدى إحترام علماء تونس لابن العنابي وتذكر بعض أعماله العلمية ومما جاء فيها ما يلي:

واطلب من عليك نيل إجازة
بفضلك لا إني لذلك صالح.

6- التواصل الثقافي الجزائري الطرابلسي:

لم تعرف طرابلس الغرب تطورا ونشاطا فكريا مزدهرا خلال العهد العثماني، إلا أنه خلال فترة حكم الأسرة القرمانلية بداية من سنة 1711م، وعلى الرغم من حالة الركود الثقافي العامة للإيالة الطرابلسية، فقد ظهرت العديد من الشواهد العلمية، تمثلت في نمو عدد من المدارس والزوايا والمساجد، فعرفت البلاد إنتاجا علميا طيبا¹. وما يمكن أن نتوقف عنده فيما يتعلق بالتواصل الثقافي بين الجزائر وطرابلس هي الزيارة التي قام بها الورثيلائي لطرابلس الغرب، فمعلوم أن الورثيلائي أدى مناسك الحج ثلاث مرات، فقد كانت حجته الأولى عام 1159هـ وهو ابن الثامنة عشرة، بينما الحجة الثانية أداها عندما بلغ الواحدة والأربعين من عمره سنة 1166هـ، بينما أتم الحجة الثالثة سنة 1181هـ، والتي إستمرت ثلاث سنوات، تعرف أثناءها على كل من تونس وطرابلس ومصر.

إنّ الرحالة الورثيلائي الذي توقف في طرابلس الغرب قدم لنا وصفا لأوضاع طرابلس الغرب وأحوالها الإقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرائية، كما كان معاصرا لمؤرخها ابن غلبون صاحب كتاب تاريخ طرابلس الغرب المسمى "التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار"، إلا أنه لا يمكننا أن نجزم بأن الورثيلائي كان قد تعرف على ابن غلبون أو سمع عنه، وهذا ما يرجح لكون الورثيلائي لم يشير إلى ذلك في رحلته بالرغم من أن ابن غلبون كان له معرفة بأقاليم طرابلس وعلى اتصال بحكامها من أسرة آل قرمانلي: أحمد باشا 1711-1745م، ومحمد باشا 1745-1754م، و علي باشا 1754-1793م²، وقد ذكر الورثيلائي في رحلته ما يؤكد تعرفه على هؤلاء الحكام قائلا: "...ومن أقبل إلينا ووفق لمحبتنا... السيد علي باشا نجل الوالي محمد باشا نجل الوالي أحمد باشا، وفي الحجة الأولى أدركت جده وفي الثالثة أدركت أباه، وفي الطلعة والرجعة أدركته هو جعل الله عافيته خيرا من أوله".

¹ - ليلي غويبي، التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية الجزائرية، مذكرة ماجستير، إشراف. عائشة غطاس، جامعة الجزائر2، 2010/2011، ص 117.

² - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج2، ص103.104.

كان التعليم في طرابلس الغرب خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي يسير لما ألفه الناس في العهد العثماني الأول، حيث كانت المساجد تقوم بدور المدارس، فكانت تؤدي أكثر من وظيفة، فهي المكان الذي يقصده الناس لأداء صلواتهم، وهي المكان الذي يجتمعون فيه لمناقشة أمور دينهم وديانهم، كما أنها المكان الذي يجتمع فيه القضاة لحل المنازعات التي تقوم بين الأهالي، كما هي المكان الذي يقصده طلبة العلم للتعليم والهداية¹.

كان حكام الأسرة القرمانلية يولون التعليم إهتماما كبيرا فكانوا يشجعون العلماء ويحترمونها ويستمعون إلى نصيحهم في كثير من الأحيان، حتى أن المؤرخ الطرابلسي ابن غلبون وهو أحد المتخرجين من الأزهر الشريف يحدثنا عن أحمد باشا القرمانلي وحبه للعلم والعلماء قائلا: "ومن مراعاته لجناب العلم الذي به حفظ مباني الشريعة جمعه العلماء بين يديه لفصل الخصومة، وتصريحه لهم بالمجلس: أحكموا بحكم الله ولو علي، وقبول شفاعتهم فيما شفّعوا فيه في غالب الأمر²، وكان لتشجيع حكام الأسرة القرمانلية للعلم والعلماء أثره في زيادة الإقبال على التعليم فأدى ذلك إلى إحياء اللغة العربية وازدهارها ازدهارا كبيرا، حتى أصبحت وثائق الجدولة الرسمية يجر أغلبها باللغة العربية بعد أن كانت اللغة التركية هي الغالبة، غير أنه ما يؤخذ على يوسف باشا عدم محاولته إدخال أي تغيير على نظم التعليم، بل لم يحاول مجاراة مصر في نهضة التعليم في ذلك الوقت فلم ينشئ المدارس الحديثة ولم يرسل البعثات في مختلف فروع العلم مثل ما فعل محمد علي باشا آنذاك³.

تطرق الورثيلايني في خضم حديثه عن إيالة طرابلس الغرب العثمانية عن جوانب عدة كنعوية الإدارة العثمانية وجوانب الحكم، ووضعية المجتمع وطبيعة العمران، بالإضافة إلى حالة الزراعة وتطور التبادل التجاري والمسالك ومحطات القوافل ونقاط الماء، دون أن يهمل التطرق إلى الجوانب الثقافية في الإيالة، ومعلوم أن طرابلس الغرب عرفت خلال فترة حكم القرمانليين ظهور عدد من المدارس، غير أن البرامج المقدمة لم تعرف تطورا، ولم تخرج عن إطارها التقليدي المنحصر في تدريس العلوم الشرعية، في حين أن الزوايا احتلت مكانة كبيرة في المجتمع الطرابلسي حيث كانت تقوم بتلقين الطلبة العلوم الشرعية، ولم يقتصر دورها على التعليم فقط، بل كانت مكانا لالتقاء العلماء يتبادلون فيها الأفكار والآراء، كما تعتبر الزوايا مؤسسة فكرية وملجأ للطرق الصوفية.

غير أن ما لاحظته الورثيلايني وهو ينتقل من مدينة إلى أخرى فقر المواد المدرسة في مراكز التعليم، وقلة انشغال حكام طرابلس بالعلم والعلماء قائلا: "...أما طرابلس وعمالتها، فقد ضاقت على أهلها المعيشة، وما هي إلا بالكد والجد والسعي الكثير، ومع ذلك فلا يستقرون على طائل، فقد انعدم التدريس للعلم في طرابلس، وقل الإنشغال بالعلم، فلا تجد مجلسا فيه، وكيف يتصور العلم فيها مع أن علماءها أفضل علماء الأوطان، غير أنهم لما إنعدم التدريس منهم

¹ - عمر علي ابن إسماعيل، مرجع سابق، ص 172.

² - ابن غلبون، مصدر سابق، ص 206.

³ - عمر علي ابن إسماعيل، مرجع سابق، ص 173.

صاروا قاصرين لعدم إنفاق العلم، فإن العلم يزيد بالإنفاق وينقص بعدمه، فلما ضعف أمر البلاد قصر العلم فيها، بل كاد أن يعدم العلم، ومن أراد العلم فليذهب إلى مصر وإلى تونس...¹.

حاول الرحالة الورثيلايني أن يتدخل لإصلاح أحوال التعليم في طرابلس ما جعله يخاطب حاكمها علي باشا محاولا نصحه ومحذرا إيّاه من هذا التقصير في حق العلم والعلماء قائلا : "... فلا بد أن تجعل محلا يصل إليك جميع الناس يثون إليك شكواهم... فلا تشتغل بشهوات النفس وتترك الناس على الإهمال... وقلت له أيضا أنك أهملت العلم وأهله، وقصرت في حقهم ما استطعت، وقد فقدت تدرّس العلم من مدينة طرابلس بحيث لا ترى مجلسا من العلم إلا والهمة إليه من الطلبة أن يدرس من غير أمر منك ولا معونة تكون لهم من بيت المال... فرضيت أن يكون بيت المال تتفع به وحدك ويأكله اليهود والنصارى... وأوصيه أيضا بأنك لا بد أن تبني مدرسة للعلم وتحبس عليها أحباسا معلومة للعلم والمتعلم كل بحسبه، فرضي...².

كما تطرق الورثيلايني في رحلته هذه إلى ذكر أضرحة الأولياء الصالحين قائلا : "... فاعلم أن مدينة طرابلس خصها الله بالصالحين، ومحبة أهل الخير، حتى أنهم لا يصبرون عليهم، فإذا شموا رائحة المعرفة في أحد سعوا إليه بالإحسان... وذلك عام في عمالة طرابلس، لاسيما الزاوية القرنية فإن فيها من الصالحين الموتى ما لا يستطيع أحد أن يعدهم، أما الأحياء بحسب زماننا هم أكثر من غيرهم... " ، ومن أشهر الأضرحة التي ذكرها الرحالة ضريح الشيخ محمد بن مساهل بمدينة طرابلس، وذكر أيضا الولي الصالح سيدي النحاس من تاجوراء³.

هذا وقد أسهب الورثيلايني في ذكر الأعلام سواء من الذين إلتقى بهم أو من الصلحاء والأولياء، فمن أهم أعلام مدينة طرابلس الشيخ عبد الكريم الزواوي الذي إستدل الورثيلايني بكلامه، ومن الذين إجتمع بهم الورثيلايني الشيخ عبد العزيز الصكلايني، وعمر السوداني ومحمد العربي الافرجاني وهما عضوان في المجلس الإستشاري في بلاط الباشا ومحمد بن عثمان والشيخ محمد بن عبد الخالق ومصطفى الخطيب، ومحمد بن عزوز، والشيخ عبد الرحمن، وفي مدينة تاجوراء ذكر الورثيلايني في الحجة الأولى لقاءه مع الشيخ محمد العربي ومحمد بن سعيد، أما في مدينة زليتن تطرق إلى الحديث عن عائلة محمد بن سالم الزليتي المدرس بالمدرسة في النحو والفقه مع ابنه إبراهيم، كما تحدث عن وجود عدة مدارس للقرآن والعلم⁴.

7- الصلات بين الطرق الصوفية في الإيالات الثلاث :

إنتشرت الطرق الصوفية في بلاد المغرب الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري نتيجة الإتصال بالمشرق عن طريق الرحلات العلمية والحج، والتتلمذ على أعلام التصوف، وانتشار المؤلفات الصوفية كالرسالة القشيرية، وإحياء علوم الدين للغزالي، فظهرت في بلاد المغرب عدة طرق صوفية، إنبثقت عن طريقتين رئيسيتين هما الطريقة القادرية

¹ - الحسين الورثيلايني، مصدر سابق، ص 621.

² - الحسين الورثيلايني، مصدر سابق، ص 634.635.

³ - ليلي غويي، مذكرة ماجيستر، ص 161.

⁴ - نفسها.

والطريقة الشاذلية¹، وقد تنوع نشاط هذه الطرق فقامت بأدوار متنوعة من خلال نشاط شيوخها وزواياها المتواجدة في مختلف المناطق، حيث ساهمت بدور فاعل في التواصل بين الإيالات الثلاث الجزائر وتونس وطرابلس وبخاصة بين الجزائر وتونس في الفترة الحديثة والمعاصرة، وسوف نتطرق إلى أهم الطرق الصوفية التي انتشرت في الإيالات الثلاث.

أ - الطريقة القادرية:

هي أقدم الطرق الصوفية على الإطلاق تأسيسا، وأولها ظهورا على مستوى العالم الإسلامي، وهي أقدمها وجودا في الجزائر حيث وجدت أرضا خصبة إستطاعت أن تنمو فيها وتزدهر خصوصا أثناء الحكم العثماني²، وتنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة 561هـ/1166م، وقد عاش في بغداد وتصدى للتدريس والإفتاء على المذهب الحنفي، واشتهر بالزهد والتقوى³، وفي ذلك يقول شيخها الجيلاني: "ويجب على المبتدئ في هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح، الذي هو الأساس فيكون على عقيدة السلف الصالح"⁴، ولعلها أول طريقة من حيث عدد المنتسبين إليها، وتتميز بالإصلاح والتوجيه الحسن والتسامح ونشر العلم والمعرفة، وأحيطت الطريقة القادرية بتقديس كبير وصل إلى درجة الخرافية وما فتئت تنتشر خلال فترة التواجد العثماني بالجزائر فانتسب إليها الكثير من المريدين مثل محمد بن عبد الكريم المغيلي في منطقة التوات، وأولاد سيدي الشيخ في جنوب غرب الجزائر، ومرابطون من مدن الجزائر وقسنطينة وبجاية⁵، أما في تونس فقد ظلت هذه الطريقة بدون زاوية إلى غاية ظهور الشيخ محمد الإمام المنزلي الذي أتم أول زاوية لها بمنزل بوزلفة بمعونة حمودة باشا الحسيني الذي اعتبر من أوائل أتباعها، وقد انتشرت بعد ذلك بشكل سريع بكامل الإيالة التونسية وكانت على علاقة بدعاة الطريقة في الإيالة الجزائرية كما كان أتباع الطريقة والمريدون يتحصلون على الدعم من طرف حمودة باشا حاكم الإيالة التونسية⁶.

¹ - يوسف بن حيدة، التواصل الطريقي بين الجنوب الشرقي الجزائري ومنطقة الجريد خلال القرن 19م، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس يومي 11/10 نوفمبر 2013 بقسم التاريخ جامعة الوادي. من موقع www.univ-eloued. تاريخ الدخول 02 سبتمبر 2015م.

² - صلاح مؤيد العقي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، 2001، ص 143.

³ - صالح بوسليم، حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات وإفريقيا الغربية خلال القرنين 12-13هـ/18-19م، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 5، جامعة سيدي بلعباس، مارس 2013، ص 36.

⁴ - عبدالله بن دحين السهلي، الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وأثارها، دار كنوز اشبيليا، ط1، الرياض، 2005، ص 84.

⁵ - عبد القادر صحراوي، الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 3-4، مارس 2011-2012، ص 26.

⁶ - حسام صورية، العلاقات بين إبالتى الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر، مذكرة ماجيستر، إشراف د عبد المجيد بن نعمة، جامعة وهران، 2012/2013م، ص 134.

ب- الطريقة التيجانية :

أسسها الشيخ أبو العباس أحمد بن المختار بن أحمد التيجاني، والتيجاني نسبة إلى قبيلة بني توجين التي استقرت قديماً بعين ماضي، ومنها تنحدر السيدة والدته عائشة بنت أبي عبد الله محمد بن السنوسي التيجانية. ولد الشيخ التيجاني مؤسس هذه الطريقة في عين ماضي الواقعة بالقرب من مدينة الأغواط¹ سنة 1150هـ/1737م ونشأ بها وحفظ القرآن، وتلقى على شيوخها علوم العربية والفقهاء المالكي، وبعد وفاة والديه غادر مسقط رأسه متنقلاً بين بوسمغول وتوات والأبيض سيدي الشيخ وتلمسان، وكان خلال تنقلاته هذه يتصل بالعلماء ويأخذ عنهم ويستفيد منهم، وبعد إقامته في تلمسان شد الرحال إلى المغرب الأقصى حيث حل بمدينة فاس، وفيها التقى بأعلام التصوف فتتلمذ عليهم وأخذ منهم كالشيخ الطيب الوزاني شيخ الطريقة الطيبية وشيوخ الطريقة القادرية والصديقية التي استقر بزوايتها مدة طويلة²، ثم عاد الشيخ التيجاني من جديد إلى تلمسان ومنها توجه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج وفي طريقه إتصل بالصوفي الكبير والعالم الشهير الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري فأخذ عنه من فنون الحكمة ما كان بحاجة إليه، ثم واصل طريقه حيث حل بتونس فاتصل بشيوخها وأخذ عنهم وتابع طريقه إلى القاهرة، ومنها إلى مكة المكرمة مؤدياً فريضة الحج، وبعد عودته إلى الجزائر استقرّ بتلمسان وأسس الطريقة التيجانية بقصر بوسمغول جنوب البيض ووضع لها أسسها، إلا أن التيجاني لم يكن على وئام مع السلطنة العثمانية فقد اضطهده باي وهران الجديد محمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي الملقب بمحمد الكبير وبعث له يهدده هو وسكان الواحة سنة 1213هـ/1798م، فقرر الهجرة مع أهله إلى مدينة فاس³، حيث لازم جامع القرويين لتدريس علوم الشريعة، وممن أخذ عنه الطريقة بفاس يومئذ العلامة التونسي إبراهيم الرياحي والذي كان يومئذ في سفارة للدولة التونسية لدى البلاط المغربي سنة 1803م، وقد ألف الشيخ إبراهيم الرياحي رسالة دافع فيها عن الشيخ أحمد التيجاني سماها "مبرد الصوارم والأسنة في الرد على من أخرج الشيخ التيجاني عن دائرة أهل السنة" رد بها على الشيخ علي بن محمد الملي المصري التي إعترض فيها التيجاني في مسألة تتعلق بصفة الكلام القديم وهي من مسائل علم الكلام⁴.

انتشرت الطريقة التيجانية بسرعة كبيرة في الجزائر بداية من سنة 1783م، وأصبح سيدي أحمد التيجاني يشكل خطراً كبيراً على الوجود العثماني⁵، أما فيما يتعلق بانتشار الطريقة التيجانية بتونس فإنّ التيجاني لدى

¹ - صلاح مؤيد العقبي، مرجع سابق، ص 175.

² - نفسه.

³ - محمد مكحلي، الطريقة في الجزائر خلال العهد العثماني 1707-1827م، المجلة التاريخية المغاربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 114، تونس، جانفي 2004، ص 94.

⁴ - صلاح مؤيد العقبي، مرجع سابق، ص 178.

⁵ - محمد مكحلي، مقال سابق، ص 94.

زيارته إلى تونس سنة 1186هـ/1772-1773م فقد أخذ عن العالم التونسي عبد الصمد البحوري¹، وعمل على نشرها بحاضرة تونس في مرحلة أولى لتعم بعد ذلك أهم أنحاء الإيالة التونسية.

ج- الطريقة الشاذلية :

مؤسس هذه الطريقة هو الشيخ أبو الحسن علي ابن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المولود بالمغرب الأقصى في بلدة غمارة القريبة من بلدة سبتة سنة 593هـ، وفي مسقط رأسه إنكب على حفظ القرآن الكريم ودراسة العلوم الدينية واللغوية التي برع فيها براعة كبيرة، وكان من أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم علوم الظاهر والباطن الصوفي الكبير الشيخ عبد السلام ابن مشيش الذي يعد من أكابر المتصوفة بالمغرب الأقصى، وبتوجيه منه غادر أبو الحسن المغرب إلى تونس حيث تتلمذ على كبار علمائها فازداد بذلك علما وفقها وتصوفا، ثم إنتقل منها ليستقر ببلدة شاذلة التي نسب إليها وعرف بها فيما بعد وهي من مدن تونس المعروفة، وبعد مضايقات تعرض لها من بعض منافسيه غادرها نهائيا ليحط الرحال بمدينة الإسكندرية إلى أن توفي بها سنة 656هـ وهو في طريقه إلى بيت الله الحرام².

إنتشرت الطريقة الشاذلية إنتشارا واسعا في الجزائر، واستطاعت بمرونة تعاليمها، واعتدال نهجها أن تؤثر تأثيرا ملحوظا في أكثر الطرق الصوفية التي ظهرت بعد القرن السابع عشر الميلادي، وتفرعت عنها عدة طرق كالدرقاوية والطيبية، واليوسفية، والزبانية، والزروقية، والشيخية، كما استطاعت أن تستقطب إليها الكثير من كبار العلماء الذين أصبحوا ينتسبون إليها أمثال الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، وأحمد بن يوسف الملياني، وإبراهيم التازي وغيرهم ممن كتبوا عنها وخصوها بالتأليف والترجمة لأعلامها³، إلا أن أتباع الشاذلية في الجزائر وغيرها لا ينكرون التمتع بنعم الحياة الدنيا، إتباعا لطريق شيخهم الذي دعا إلى تدريب النفس على فعل الخير، وإعادها تدريجيا إلى الشريعة الإسلامية بواسطة الذكر الجماعي والفردى، فالشاذلية لم تسع إلى المال ولم ترفضه، ذلك أن الإحساس بالفقر أهم من الفقر، حيث تركز الشاذلية على التقوى وإتباع السنة قولاً وفعلاً والرضى بالقسمة الربانية والرجوع إلى الله في السراء والضراء⁴.

د- الطريقة الرحمانية :

تنسب إلى العالم الجزائري الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشوطي الإدريسي الحسن الأزهري الذي ولد على الأرجح سنة 1715م في جبال جرجرة وتوفي سنة 1793م⁵ والذي جاء بها من المشرق حيث كان يدرس، وقد ظهرت هذه الطريقة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري.

¹- Louis Rinn, Marabouts et Khouans, étude Sur L'islam En Algérie- Adolphe Jourdan, Libraire éditeur- Alger -1884-p418.

²- عبدالله بن دحين السهلي، مرجع سابق، ص 86. و صلاح مؤيد العقبي، مرجع سابق، ص 149.

³- صلاح مؤيد العقبي، مرجع سابق، ص 150.

⁴- عبد القادر صحراوي، مقال سابق، ص 26.

⁵- Louis Rin,-Op.Cit, p452.

غادر شيخ الطريقة الرحمانية الجزائر إلى البقاع المقدسة قصد أداء مناسك الحج، وبعد أدائه المناسك قفل راجعا وفي طريق عودته توقف بالقاهرة ليستقر بجامع الأزهر الشريف مجاورا برواق المغاربة، مدة ربع قرن، تتلمذ فيها على يد كبار أعلام مصر من الفقهاء والمحدثين كعلي بن أحمد الصعيدي، وعمر الطحلاوي، وحسن الجداوي ومحمد بن سالم الحفناوي، وعن هذا الأخير تلقى محمد ابن عبد الرحمن الطريقة الخلوتية، وبعد عودته إلى الجزائر سنة 1182هـ/1769م قام بتأسيس زاويته بمسقط رأسه بأيت إسماعيل والتي إنطلق منها في نشر تعاليم الطريقة الخلوتية التي عاد بها إلى الجزائر فعرفت باسمه فيما بعد - الرحمانية- والخلوتية تنسب إلى عدد من الشيوخ كالشيخ عمر الخلوتي المتوفى سنة 986هـ/1578م، والشيخ محمد البالسي الخلوتي، وقطب الدين أحمد الأجهري¹.

لقيت تعاليم الطريقة الخلوتية إقبالا كبيرا من طرف مواطني المنطقة، الأمر الذي لم يعجب بعض مرابطي الجهة الذين أشاروا عليه فقرر الشيخ الانتقال إلى العاصمة، والإستقرار بالمكان المعروف بالحامة إلى يومنا هذا، وفي هذا الحي من العاصمة أسس شيخ الرحمانية زاوية وأخذ يثت تعاليمه فيها، فليقت دعوته نجاحا كبيرا، ومن المناطق التي انتشرت فيها الطريقة الرحمانية إنتشارا كبيرا هي وسط وشرق وجنوب الجزائر، وفي منطقة الجريد بالقطر التونسي، ويعود الفضل في ذلك إلى زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز البرجي الرحمانية²، هذا وقد أحصى لوي رين في كتابه عدد الزوايا للطريقة الرحمانية ب 220 زاوية وعدد أتباعها ب 96.161 خونيا³.

هـ- الطريقة الشايبية:

عرفت هذه الطريقة باسم مؤسسها الشيخ أحمد بن مخلوف الشايبى نسبة لقرية الشابة القريبة من مدينة المهديّة بتونس، والتي ولد بها عام 803هـ⁴، ثم خلفه ابنه محمد المتوفى سنة 900هـ/1495م، ثم ابنه سيدي عرفة المتوفى في 949هـ/1542م وهو مؤسس الدولة الشايبية في سنة 942هـ/1535م في القيروان في النصف الأول من القرن 10هـ/16م، وقد عرف عرب دريد بتلاميذ الشايبية، وتضم القبيلة التي تحمل نفس الاسم مجموعة من الزهاد، أسسوا فيها دولة صوفية عاصمتها القيروان، وتقوم الطريقة الشايبية على ثلاثة أسس هي علم الشريعة أي التصوف المقيد بالكتاب والسنة، والأخلاق الصوفية، وعلم التوحيد الذي يقتضي معرفة العبد لربه وتوحيده من أجل معرفة الآخرة، وانتشرت الطريقة خلال القرن السادس عشر ميلادي في الشرق الجزائري وانضوى تحت رايته قبائل الحنانشة والنمامشة الذين سيطر بفضلهم سيدي عرفة على مدينتي قسنطينة وتبسة، ومنطقتي الأوراس والزيان، ويمكن القول أنها انتشرت بين البربر المقيمين بين سهل مجردة ومدينة قسنطينة في الشمال، ومدينة توزر التونسية والأوراس في الجنوب. واعتبرت من أغنى الحركات الصوفية نظرا لملكيتها الواحات والقرى والعقارات⁵.

¹ - صلاح مؤيد العقي، مرجع سابق، ص 156.155.

² - نفسه، ص 157.

³ - Louis Rin, Op.Cit, p480.

⁴ - صلاح مؤيد العقي، مرجع سابق، ص 250.

⁵ - عبد القادر صحراوي، مقال سابق، ص 28.

و- الطريقة السنوسية:

تنتسب هذه الطريقة لمؤسسها الإمام الصالح محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي المجاهري¹، ولد في 12 ربيع الأول 1202هـ/22 ديسمبر 1787م ببلدة يبل، القريبة من غليزان والمعروفة بنواحي مستغانم، وسبب إشتهار هذا البيت الكريم بالسنوسي يعود إلى جدهم الذي لقب نفسه بذلك تبركا بالشيخ الإمام محمد بن يوسف السنوسي صاحب التأليف المعروفة وعالم تلمسان المشهور، حفظ الشيخ السنوسي القرآن الكريم وتلقى دراسته الأولى في معسكر ومازونة وتلمسان، ثم رحل إلى مدينة فاس التي كان بها جامع القرويين يعجج بكبار العلماء، فدرس به علوم الشريعة، واللغة العربية، والمذاهب الإسلامية، والفلسفة، والمنطق والفلك، وغيرها من العلوم والفنون وبقي بها سبع سنوات من 1822 إلى 1829م، وبعدها غادر الإمام السنوسي مدينة فاس عائدا إلى الجزائر، حيث شرع في التجوال في أنحاء الصحراء متوقفا في العديد من المدن كالأغواط، والجلفة، ومسعد، وعين ماضي، وبوسعادة²، ثم إتجه إلى الحجاز مرورا بتونس فالقروان وطرابلس فبرقة والقاهرة³، وبمكة أسس الشيخ السنوسي أول زاوية في جبل أبي قبيس سنة 1837م، ثم جاء ليستقر بالجبل الأخضر بطرابلس والذي أنشأ به زاوية عرفت بالزاوية البيضاء، وبفعل مضايقات الدول الأوروبية للطريقة السنوسية اضطرّ شيخ الطريقة إلى أن ينقل مقر زاويته إلى واحة الجغبوب التي انشأ بها أكبر الزوايا سنة 1856م بعد أن انتشرت دعوته وعمت كامل أرجاء إيالة طرابلس الغرب⁴.

منذ أن أسس الشيخ السنوسي زاوية الجغبوب أسس بها أيضا مسجدا وبيوتا لإقامة الطلبة، ولكنها أخذت فيما بعد تكبر وتتسع حتى أصبحت كالمدينة، وكان يقيم بالزاوية خلال تلك الفترة مشايخ وعلماء وطلاب العلم مع أسرهم وأولادهم، ويزور الجغبوب العديد من الزوار القادمين من أماكن بعيدة، كما يوجد المئات من أبناء القبائل بصورة دائمة يدرسون الصرف والنحو والفقه، وغيره من العلوم العربية، وليكتسبوا معرفة وعلمًا حسب قابليتهم وذكائهم، والطلبة الفقراء تؤمن لهم الزاوية عيشا وسكنا مجانيا، كما يتولى بعض الفلاحين زراعة بساتين حول المدينة وتستفيد الزاوية من ريع تلك الأحباس، وهكذا أصبحت واحة الجغبوب بفضل هذه الزاوية عاصمة للسنوسية في بادئ الأمر، ومن ثم معهدا اسلاميا على غرار الاوهر بمصر والقرويين بفاس والزيتونة بتونس⁵، هذا وتعد السنوسية الطريقة الوحيدة التي تدعو إلى العودة للمبادئ السمحة للقرآن والحديث الشريف، وعرفت بتشدها في مقاومة المنكرات والانحراف عن الدين، فكانت مثلا تمنع الرقص والموسيقى والغناء وتحرم المخدرات

¹- Louis Rinn, Op.Cit. p 481.

²- صلاح مؤيد العقبي، مرجع سابق، ص 183.

³- صالح بوسليم، مقال سابق، ص 42.

⁴- صلاح مؤيد العقبي، مرجع سابق، ص 186.

⁵- صالح بوسليم، مقال سابق، ص 43.

وغير ذلك من أسباب اللهو والفساد¹، وقد عرفت الزوايا السنوسية إنتشاراً في العديد من الأقطار العربية والإسلامية بدأ من الجزائر وتونس وفاس وبرقة ومصر والحجاز واليمن والسودان وتوات وتركيا والهند².

ثالثاً : الروابط الاجتماعية بين الإيالات الثلاث.

1. المجال التخومي بين الجزائر وتونس :

منذ أن رسمت الحدود لأول مرة بين الإيالتين العثمانيتين الجزائر وتونس إبي غاية سنة 1830م، كانت الإيالتان تعيشان على وقع وتيرة مستمرة من شبكة المواصلات والطرق والروابط الاجتماعية ، هذه الأخيرة التي جسدتها مختلف الروابط وشبكة العلاقات بين قبائل الحدود، روابط لم تكن خاضعة لمقاييس الظروف ولا لملايسات العلاقات السياسية المتأرجحة تؤمنها قبائل تخومية عديدة ومحاربة تتصرف في مجال ترابطي ممتد الأطراف، هذا المجال لا يخضع باستمرار إلى مراقبة الإيالتين المتجاورتين.

2- قبيلة الحنانشة الجزائرية بين بايات تونس وبايات قسنطينة:

الحنانشة قبيلة عربية عتيقة تقطن نواحي الأوراس وتبسة وسوق أهراس وشمال غرب تونس، وكانت ذات نفوذ كبير على قبائل أخرى ويسمي شارل فيرو الحنانشة بالحرار وهي عائلة كانت إلى حوالي 1830م، هي صاحبة النفوذ الواسع على مدى الحدود التونسية بمنطقة الحنانشة ومن أبرز العائلات أولاد خليفة، وأولاد ناصر، أولاد سلطان، أولاد بوعزيز، وأولاد ابراهيم³، كما توصل مؤرخ أسرة الحنانشة فيرو بأن قبيلة الحنانشة تتكون من عدة قبائل مختلفة الأصول منها ثلاثة قبائل رئيسية هي: الشاوية "الحراكتة والناماشة" بالأوراس، وقبيلة هواة وإخوانهم عداسة، والعرب الهلاليين وبني سليم⁴، كما أن إستعمال عبارة أحرار الحنانشة دليل على إندماج العديد من القبائل في قبيلة الحنانشة، وهم الذين عرفوا بالموالي في حين أضيفت صفة "أحرار" للقبيلة الأصلية التي إحتكرت الزعامة بالمنطقة طوال العهدين الحفصي والعثماني، ومن مقومات هذه الأسرة الصفة العسكرية من خلال توفرها على قوة عسكرية تصل إلى 5000 فارس، منها فرقة المزارقية التي تتألف من أفراد أسرة الحنانشة نفسها ومجموعة من الفرسان من مختلف القبائل الخاضعة للأسرة، وهي 16 قبيلة، بالإضافة إلى فرقة المشاة التي تصل إلى 6000 رجل، كما اتصفت قبيلة الحنانشة بحياة البداوة، وكان حيز إنجاعها، في نهاية العهد الحفصي وبداية العهد العثماني، يضم كل القبائل الواقعة بين تبسة وسوق أهراس وقالمة وشرق الأوراس وحتى الزاب جنوباً، وعنابة والقالة شمالاً، وكثيراً ما كانت تتوغل بالأراضي الحدودية لتونس، حيث كانت تضم عدداً من القبائل الحدودية⁵.

1- نفسه.

2- صلاح مؤيد العقبي، مرجع سابق، ص 193.

3- محمد الأمين بلغيث، النسق الثقافي للسلطة في الجزائر وتونس من خلال تاريخ محمد بن عمر العدواني، المجلة التاريخية المغربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 117، تونس جانفي 2004، ص 34.

4-Ch. Feraud, Les Harars Seigneure des Hanancha, in. R.A, 1874,p25.

5 Ibid. p26.

أ-علاقتهم ببايات قسنطينة:

كان أحرار الحنانشة مند دخول العثمانيين مقاطعة قسنطينة، تحت زعامة قبيلة الشايبية الذين كونوا حلفا قويا ضم معظم قبائل شرق المقاطعة، وكان هدف الحلف تكوين دولة محلية قوية تخلف دولة بني حفص المنهارة من جهة وتقف في وجه كل من الإسبان والعثمانيين من جهة أخرى، وقد استطاع هذا الحلف أن يكون شبه دولة أطلق عليه فيروا اسم « République Pastorale »، وببداية ظهور الضعف على حلف الشايبية، خاصة بعد سقوط دولتهم بالقيروان سنة 965هـ/1557م، عمل خالد بن نصر (خالد الكبير)، أول زعيم لأسرة أحرار الحنانشة في الفترة العثمانية، على تكوين أسرة حاكمة، مستقلة عن الحلف الشايب، وتوسيع نفوذها على حساب بقية القبائل، ومنها قبيلة الذواودة حكام الصحراء الشرقية للجزائر، هذا وبعد الاعتراف الرسمي من قبيلة الحنانشة بالعثمانيين، تحولت إلى أسرة مخزنية قدمت خدماتها إلى الحكم المركزي بقسنطينة طوال فترة الحكم العثماني بالجزائر، مقابل احترام هؤلاء للسيادة الإقليمية لشييوخها الذين كانت ولايتهم كولاية باي قسنطينة، إذ نال شيخ الحنانشة العديد من الامتيازات، جعلته قريبا من مرتبة الباي أو مساويا له رسميا أمام باشا الجزائر¹، ومن أهم الخدمات التي كان شيوخ الحنانشة يقدمونها لبايات قسنطينة مقابل هذه الامتيازات، حفظ الأمن بمناطق نفوذهم وجباية الضرائب من أتباعهم، وبالتالي وضع جميع قواهم في خدمة البايلك، وبما أن شيخ الحنانشة كان يجمع الضرائب باسم العثمانيين، فإن باي قسنطينة كان يدعمه بقوات خاصة للمشاركة في جمع الضرائب، كما منحه وفرسانه العديد من الامتيازات المادية أهمها الإعفاء من الضرائب أو تخفيفها، بالإضافة إلى استفادة شيوخ الأسرة من عشر الضرائب المحببة، وبالإضافة إلى الولاء السياسي والاقتصادي كان شيوخ الحنانشة يشاركون بايات قسنطينة في الحملات العسكرية على القبائل المستعصية².

ومن هنا يمكن القول أن علاقة أحرار الحنانشة ببايات قسنطينة كانت علاقة تملئها المصلحة المشتركة، فهي علاقة تعاون وتحالف أكثر منها علاقة تبعية وخضوع، ولم تكن الضريبة التي يلتزم شيوخ الحنانشة بدفعها سنويا لباي قسنطينة، والمقدرة ب 1000 بوجو سوى رمزا للولاء الرسمي للبايلك، والملاحظ أن هؤلاء الشيوخ كانوا يدفعون الضريبة أحيانا إلى بايات قسنطينة، وأخرى إلى بايات تونس وأحيانا يمتنعون عن دفعها لأي طرف من الطرفين، ويبدو أن الحنانشة عانوا من الولاء المزدوج بين بايات تونس وبايات قسنطينة، خاصة أن الجارين كانا في حروب مستمرة ساهم فيها شيوخ الحنانشة، تارة إلى جانب حكام تونس وأخرى إلى جانب حكام الجزائر، وكثيرا ما ثاروا على الطرفين، ويعود ذلك إلى شخصية الشيخ ومصالحه.

¹ - جميلة معاشي، أسرة أحرار الحنانشة بين بايات قسنطينة وبايات تونس، المجلة التاريخية المغربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 128، تونس، جوان 2007، ص 150.

² - مثل الحملة التي قادها باي قسنطينة أحمد المملوك سنة 1223هـ/1818م وبمشاركة شيوخ الحنانشة ضد القبائل الحدودية بشرق البايلك.

ب- المصاهرة بين بايات قسنطينة وأحرار الحنانشة:

كانت المصاهرة بين الحكام العثمانيين والأسر ذات النفوذ ببايلك قسنطينة من أبرز الروابط التي تمتت العلاقة بين الطرفين، وإذا كانت هذه السياسة قد نجحت في الربط بين بايات قسنطينة وعدة أسر حاكمة بالبايلك، مثل: أسرة بوعكاز الذواودة حكام الصحراء، وأسرة المقراني حراس الحدود الغربية للبايلك، وأسرة ابن قانة شيوخ العرب وحكام بسكرة، فإنّ هذه السياسة لم تنجح مع أسرة أحرار الحنانشة، ولعلّ ذلك يعود لوجودها بين قوتين متحاربتين، بايات تونس من الشرق وبايات قسنطينة من الغرب، وميل شيوخها إلى بايات تونس، الأمر الذي جعل علاقة شيوخ الأسرة ببايات قسنطينة يشوبها الكثير من الحذر، حتى أن شيخ الحنانشة لم يكن ينتقل بنفسه إلى قسنطينة لتسليم الضريبة السنوية، بل يرسل كاتبه للقيام بهذه المهمة خوفاً من الغدر به¹.

ولعل هذا ما يفسر عدم حصول مصاهرة بين بايات قسنطينة وأسرة الحنانشة، فقد ذكر مؤرخ الأسرة "فيرو" أن صالح باي سعى إلى مصاهرة الشيخ "إبراهيم بن بوعزيز بن نصر"، إلا أنّ طلبه قوبل بالرفض، مما أغضب البايع فهاجم الشيخ ونزع منه المشيخة، وأجبره على الفرار من قبيلته، وبعد فترة من التشرّد طلب الأمان من البايع إلا أنّ صالح باي قام بسجنه بمجرد وصوله إلى قسنطينة، وبقي في السجن إلى أن توفي سنة 1186هـ/1773م²، إلا أن الحاج أحمد باي بيدو الوحيد الذي صاهر أسرة الحنانشة، فمن بين زوجاته واحدة تدعى الحنانشية، وهي أم ابنه محمد الذي كان يبلغ من العمر عند احتلال مدينة قسنطينة، 15 سنة³.

ج- علاقات بايات تونس بأسرة أحرار الحنانشة:

كانت أسرة أحرار الحنانشة بحكم قوتها العسكرية وتبعيتها رسمياً لبايلك قسنطينة، مع قربها من الإيالة التونسية، تشكل خطراً حقيقياً على بايات تونس، إذ كثيراً ما كانت قواتها الدعامة الأساسية لبايات قسنطينة لإرهاب حكام تونس، مما جعل هؤلاء يتملقون لشيوخ الأسرة لانتقاء شرهم، ولهذا إتسمت علاقة بايات تونس بأسرة الأحرار بالحذر وتخوف كل طرف من الآخر، خاصة أيام تحالف الحنانشة مع الشابية، حيث ظلوا يقاتلون في صفوف الشابية ضد العثمانيين حتى سنة 1592م/1001هـ، تاريخ انفصالهم النهائي عن الشابية، وبعد الاستيلاء على مناطق نفوذ الشابية إنشغلت أسرة أحرار الحنانشة بتكوين قوة عسكرية بغرض السيطرة على المناطق الحدودية على حساب أسرة ابن شنوف حكام الكاف، ولتحقيق ذلك خاضت أسرة أحرار الحنانشة حروباً طويلة، تارة ضد الحكام العثمانيين، وأخرى ضد القبائل العربية المنافسة لها، ولم يستقر الوضع للأسرة في علاقاتها مع بايات تونس إلا في منتصف القرن 11هـ/17م.

¹ - جميلة معاشي، مقال سابق، ص 154.

² - Ch. Feraud, Les Harars...Op.Cit,p357.

³ - Abdeljelil Temimi , Le Beylik de constantine et Hadj Ahmed Bey 1830-1837, Tunis, 1978, p61.

د- المصاهرة بين بايات تونس وأحرار الحنانشة:

على خلاف بايات قسنطينة، أقدم بايات تونس وبقوة على مصاهرة شيوخ أسرة أحرار الحنانشة، وذلك طلباً للحماية من بايات قسنطينة والمنافسين من العرش من أبناء الأسرة الحاكمة في تونس، وقد بدأت سياسة المصاهرة بين شيوخ الحنانشة وبايات تونس ببداية حكم علي باي 1085هـ/1675م الذي عمل على التقرب من الشيخ "سلطان بن محمد بن منصر" لكسب ولائه ودعمه ضد تهديدات بايات قسنطينة من جهة، والمنافسين له على الحكم من جهة أخرى، فتزوج ابنته، وبذلك ضمن مساندته في حروبه ضد أخيه محمد الذي إستولى على عرش والده مراد بالقوة، ولم تنقطع صلة أحرار الحنانشة ببايات تونس بعد مقتل صهرهم "علي باي"، وبعد إستيلاء أخيه رمضان باي على الحكم، لم يجد مراد بن علي غير أخواله لنصرته وإعادته إلى عرش والده، فقد جهز له الشيخ "سلطان بن منصر" جيشاً قوياً تمكن به مراد من الوصول إلى حكم تونس، وبذلك تبوأ أحرار الحنانشة من جديد مكانة سامية بتونس، إذ بالإضافة إلى ما غنموا من أموال إثر استيلاء حفيدها على العرش، ارتفعت مكانتهم بين القبائل بسبب القرابة التي كانت تربطهم بحاكم تونس، وبالمقابل أخلص شيوخ الأسرة لمراد باي، الذي إغترّ بقوة أحواله فقرر الهجوم على مدينة قسنطينة، وكان ذلك في سنة 1112هـ/1700م.

بوفاة علي باي إنتهى عهد الأسرة المرادية وبدأ عهد الأسرة الحسينية سنة 1705م، وفي فترة حكم حسين باي انطلق الصراع المعروف بين الباى وإبن أخيه علي باشا، وكعادة بايات تونس إلتجأ كل طرف إلى فرع من فرعي أسرة أحرار الحنانشة للاستعانة بجيوشها لكسب المعركة ضد خصمه، فاعتمد حسين باي على فرع نصر وعلى رأسه "بوعزيز بن نصر"، واعتمد علي باشا على فرع "منصر" بقيادة الشيخ "الشيخ سلطان بن منصر، ولضمان إخلاص الشيخ له عمد علي باشا إلى مصاهرته، ونفس السياسة إلتجأ إليها خصمه "حسين باي" لربط مصيره بمصير حليفه "بوعزيز"، إلا أن هذا الأخير رفض طلبه، الأمر الذي اغضب الباى حسين، وقد عبر عن ذلك حمودة ابن عبد العزيز قائلاً: "إجتمع حسين باي بأبي عزيز في محلته فوقعت بينهما مغاضبة سخط بسببها حسين باي على ابي عزيز حتى شتمه وسبه، ونهض من حينه راجعاً إلى محلته، وظفر بابنه إبراهيم فارتحل أبو عزيز من يومه نافضاً يده من حسين باي ونازعا إلى علي باشا"¹.

3- قبيلة دريد التونسية

إستخدم البايات التونسيون في مواجهة القبائل الجزائرية وفي ضبط كامل سياستهم اتجاه الجزائر قبيلة دريد التونسية التخومية، وقد إنتشرت فروع من هـ ذه القبيلة في بايلك الشرق الجزائري من ذ عهد الدولة الشايبية في النصف الأول من القرن السادس عشر، وتطلق الوثائق على هـ ذه الفروع تسمية دريد الغرابية مثل فروع أولاد مناع وأولاد رزق، وقد اعتمد المراديون والحسينيون من بعدهم على هذه القبيلة لمواجهة التوسع الحناشي في الإيالة ومن أبرز علامات السياسة التخومية لبايات تونس هي تركيزهم القيادة حول مدينة الكاف خاصة بقبيلة دريد، وسماحهم لها بالمحافظة على إستقلالها الذاتي وعلى أطرها الذاتية مثل ديوان دريد الموروث عن العهد الحفصي

¹ - حمودة ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ج1، ص280.

والذي يعتبر بمثابة مجلس مشايخها أو برلمان القبيلة، إلا أن النظام الإداري الذي تخضع له قبيلة دريد كان مختلفاً عن نظام المشيخة عند قبيلة الحنانشة، وهو متقارب مع نظام العواسي بالنسبة لقبيلة الحراكنة ببابيلك الشرق الجزائري، أو مع نظام قيادة أولاد مختار بالنسبة إلى بابيلك دار السلطان أو نظام قبيلة فليطة بالنسبة إلى بابيلك الغرب¹.

4- شيوخ وطن المعزولة:

يعتبر وطن المعزولة وطناً معنياً بالمعاهدات التي تمت بين دايات الجزائر ونواب الشركات الأوروبية المتعاطية للتجارة في مينائي القالة والرأس الأشقر المحاذي لها، ففي نص الاتفاق المؤرخ في 10 سبتمبر 1628م، أن الشركة الملكية الإفريقية كانت تختص بالتعامل مع القبائل الجبلية المحيطة بالحصن وتسهل عبور القوافل المحملة بالحبوب إلى الحصن عبر مواطنها و قد أطلقت إدارة البابيلك على مواطن هذه القبائل تسمية وطن المعزولة لأنها كانت من الناحية التجارية مرتبطة بالحصن ولا يمكنها حسب الاتفاق التعامل بالبيع أو بالشراء إلا معه ، و أما إدارياً فهي تابعة لبابيلك قسنطينة ولها روابط متواصلة مع بابيلك تونس لقربها منه و سهولة إتصالها به براً كان أو بحراً .

يمتد وطن المعزولة في التحويم الجبلية بين الإيالة التونسية و الإيالة الجزائرية، وتسكن هذا الإقليم الحدودي قبائل أولاد عطية وأولاد المراسن وأولاد حريز وأولاد عمران وأولاد الميهوب، وهم 22 مجموعة متحكمة في طريق الحبوب المتجهة نحو القالة والجبال للحبوب من سهول بلد الرقبة التابعة لبابيلك تونس، ويكون وطن المعزولة وحدة إدارية ذات وضع خاص ولا نعلم شيئاً عن الطريقة التي كان شيخ المعزولة يؤدي بها الضرائب والمطالب المخزنية إلى بابيلك قسنطينة، وأغلب الظن أنه كان يدفعها مباشرة للجزائر، كما نعتقد أنه كان يسددها في غالب الأحيان عن طريق وكيل حصن القالة الذي يخصم مقادير المطالب لفائدة الباي أو لفائدة الداى من مستحقات الشيخ لدى الشركة الملكية الإفريقية و المتأتية له من موارد الحبوب، و الجلود، و العسل، و الشمع، و الخيول، التي كان شيخ المعزولة يجمعها من منظوريه و يبيعها لوكيل الحصن².

5- التشابه في الكوارث الطبيعية والأوبئة في الإيالات الثلاث (المجاعات والأوبئة):

عرفت الإيالات المغاربية الثلاث الجزائر وتونس وطرابلس خلال الفترة المدروسة 1750-1830م العديد من المجاعات تحكمت فيها عوامل طبيعية وأخرى بشرية بالإضافة إلى الأوبئة الفتاكة التي أحدثت خللاً في النسيج والتركيبة الاجتماعية للإيالات الثلاث، فبحكم التقارب التضاريسي وطبيعة مناخ المنطقة فقد كان هناك تشابه في هذه المجاعات والأوبئة التي حلت بالإيالات الثلاث:

أ- الجزائر :

شهدت الجزائر في أواخر العهد العثماني أوضاعاً اقتصادية وإجتماعية صعبة للغاية، وقد تميزت بظهور المجاعات المهلكة بين الفينة والأخرى، وساعد ذلك بدوره على تردي الأوضاع الصحية فانتشرت الأوبئة الفتاكة.

¹ محمد الحبيب عزيزي، مقال سابق، ص 215.

² نفسه، ص 216.217.

كانت مدينة الجزائر العاصمة والبلدية والمدية عاصمة بايلك التيطري أكثر المدن الجزائرية تضرراً من المجاعات التي أصابت الإيالة، كما تعرضت الناحية الغربية من البلاد إلى مجاعة رهيبية، إذ وصفها الإخباري مسلم بن عبد القادر إلى أن شدة المجاعة أدت بالناس إلى: "...أكل الميتة والدم ولحم الإنس والخنزير والعياد بالله من ذلك..."¹، كما أن الباى محمد الكبير لجأ إلى استيراد القمح من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، وأشرف بنفسه على عملية توزيعه على السكان²، ومع أوائل القرن التاسع عشر تعرضت البلاد إلى مجاعة أخرى قام الداى على إثرها باستيراد الحبوب من موانئ البحر المتوسط، وكان مرد هذه المجاعة القحط الشديد الذي أصاب البلاد وغزو الجراد الذي إكتسح بايلك الغرب في عهد عثمان باى، وكان لسوء الحالة الصحية أثره الواضح على الحياة الاقتصادية إذ حال وباء عام 1799م دون حصاد الحبوب وجني المحصولات الزراعية³.

عرفت البلاد الجزائرية سنة 1815م مجاعة إشتدت وطأتها على السكان في مختلف أنحاء البلاد ولاسيما في الجهة الشرقية، حيث عانى منها السكان أزيد من ثلاث سنوات متتالية، وتتلخص أسبابها في عاملين أساسيين يتمثل العامل الأول في غزو الجراد، أما العامل الثاني فيتمثل في الاضطرابات الناجمة عن ثورتي الشريف ابن الأحرش بالشرق والشريف الدرقاوي بالغرب، وفي ذلك يقول صالح العنتري: "...إن سبب القحط مركب من أمرين أحدهما الجائحة في السنة الأولى وبقية مستمرة في السنين بعدها، والثاني أعظمها ترادف الإفئتان والأهوال التي لا تطمئن نفوس الناس فيها للحراثة..."⁴، والحاصل بعد ذلك أن ارتفعت أسعار الحبوب إرتفاعاً فاحشاً، إذ بيع صاع القمح الواحد وقتئذ بخمسة عشر ريال، بينما لم يتجاوز سعره قبل ظهور المجاعة ريال ونصف الريال⁵، وكان من شدة وطأة هذه المجاعة أن هلك عدد كبير من الناس⁶.

لقد أفرزت هذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية العصبية، من ندرة في المواد الغذائية وغلاء فاحش في الأسعار سخطاً اجتماعياً عاماً⁷، واتهمت حكومة مصطفى باشا بالعجز والقصور في التخفيف من معاناة الأهالي من جهة، وبالتواطىء مع التجار اليهود الليفورنيين من جهة ثانية، فاستهدفت الإمتيازات والإحتكارات التي نالها هؤلاء في ظل بعض الحكام، فكانت بداية الثورة حينما عزم أحد الأتراك يدعى يحيى على التخلص من أبرز

¹ - مسلم بن عبد القادر الوهراني، خاتمة أنيس الغرب والمساfer، تحقيق وتقديم رايح بونار، الجزائر، 1974، ص64.

² - (H.L) Fey- Histoire D'oran Avant, Pendant et Après La Domination Espagnole- Oran- 1858, p270.

³ - عائشة غطاس ، أوضاع الجزائر المعاشية والصحية أواخر العهد العثماني: المجاعات والابوة 1787-1830م، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد18/17- زغوان، سبتمبر1998م، ص362.

⁴ - صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، مصدر سابق، ص32.

⁵ - نفسه، ص34.

⁶ - (L).Valensi-Le Maghreb avant la prise d'alger 1790-1830, Paris, 1969, p24.

⁷ - فمثلاً خلال المسغبة التي أصابت مدينة قسنطينة ما بين 1793 و1794م تسببت في غلاء أسعار الحبوب، حتى بلغ صاع القمح 15 فرنكا بينما كان لا يتجاوز فرنكا واحداً أو إثنان قبل المسغبة. ينظر: Fella Moussaoui.El Kechai, Situatione Demographique Et Sanitaire Du Beylik De Constantine (1771—1837), Arab historical Review For Ottoman Studies, N° 17.18, Zaghua, sep 1998, p 65.

شخصية يهودية وقتئذ وهو "بوشناق"، وليس من شك في أن قرار الانكشاري يحيى لم يكن قراراً فردياً ولا معزولاً، بل كان معبراً عن سحق واستياء ومعارضة الجيش الانكشاري لسياسة مصطفى باشا، وقد لقي هذا العمل مساندة وتأييد شرائح عديدة، ولا سيما من الناقمين على السلطة المتواطئة مع اليهود¹.

تعرضت الإيالة الجزائرية لغزو الجراد سنة 1813م، إذ استوطن الجراد البلاد لسنوات عديدة متسبباً في إتلاف المنتجات وارتفاع الأسعار، وأشرف الداوي عمر على توزيع القمح على الخبازين لتوفير الخبز لجميع السكان، كما أمرهم بالإبقاء على الأسعار القديمة، وقد عبر الشريف الزهار عن ذلك بقوله: "...وأعطى الأمير القمح لجميع الخبازين، وجعل له سعراً على سعر أيام الرخاء وأمر الخبازين أن يقوموا بعمل ما يلزم للبلاد لكن صار الناس يقتتلون"²، وفي سنة 1816م اجتاحت الجراد منطقة التل فأتلّف الإنتاج الفلاحي، فكانت أولى الإجراءات للحد من حدة الأزمة إصدار الداوي لقرار يقضي بمنع تصدير الحبوب في كل من قسنطينة ووهران، كما إستوردت كميات من الحبوب لتموين مدينة الجزائر، ولم يمنع ذلك من وقوع اضطرابات أيضاً³. وفي سنة 1819م عرفت البلاد مجاعة اشتدت وطأتها لاسيما على سكان مدينة الجزائر، فقامت الحكومة على إثرها باستيراد خمسين ألف صاع من القمح لسد حاجيات السكان، واجتاحت الجفاف البلاد عامي 1826 و1827م، وعرفت هذه السنوات بعام خبز الباشا، وقد أسهمت هذه الأوضاع المعاشية الصعبة في تردي الأحوال الصحية، حيث يرى بعض العلماء أن هناك علاقة وطيدة بين ظهور المجاعات وانتشار الطاعون.

عرفت الجزائر إبّان الحقبة العثمانية وبالأخص مع نهاية القرن 18م وبداية القرن التاسع عشر إنتشار أمراض مختلفة، ولعل أخطرها وباء الطاعون الذي كان يظهر مرة واحدة كل خمس عشرة سنة أو خمس وعشرين سنة، ولعل أبرزه طاعون 1787م الذي جاء به سفينة قدمت من أحد الموانئ العثمانية، وقد جاء الوباء الذي أطلق عليه إسم الوباء الكبير من بر الترك مع رجل يدعى ابن سماية⁴، وقد دام هذا الوباء إستناداً إلى الشريف الزهار عشر سنوات كاملة 1201-1211هـ/1787-1797م⁵، خلّف في مدينة الجزائر وحدها 21.716 ضحية، وفي سنة 1792م تعرضت البلاد لموجة جديدة من وباء الطاعون، حيث إنتشر الداء في مدينة الجزائر مع نزول جماعة من رياس البحر قدمت من إستانبول، واشتدت وطأته في فبراير من سنة 1793، مما جعل الأوروبيين يغادرون المدينة ويلتجئون إلى البادية، وتعطلت على إثره كل الأشغال⁶، وكانت تنقلات الفارين سبيلاً لانتشاره في المناطق الداخلية، فبالإضافة إلى مدينة الجزائر إنتقل الوباء في تلك السنة إلى مدن البليدة وبسكرة وقسنطينة⁷.

¹ - عائشة غطاس، مقال سابق، ص 364.

² - الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 117.

³ - (L).Valensi, Op.cit, p24.

⁴ - الشريف الزهار، مصدر سابق ص 51.

⁵ - نفسه.

⁶ - عائشة غطاس، مقال سابق، ص 366.

⁷ -Sadok Boubaker, La Peste Dans Les Pays Du Maghreb. Attitudes Fac au Fleau et Impacts Sur Les Activites Commerciales, Revue D'histoire maghrébine, N° 79.80, Mai 1995, p321.

ففي هذه الأخيرة كان يحصد يوميا ما بين ثمانين ومائة شخص في صائفة سنة 1793م، وقد كتب الرحالة المغربي الزباني (1743-1833) الذي زار الجزائر في هذه الفترة قائلاً عن هذا الوباء: "وكان عاما في العمائر التي بينها (تلمسان) وبين الجزائر فما نزلنا منزلا إلا وجدنا أهله يدفنون موتاهم"¹.

عرفت الجزائر خلال نهاية العهد العثماني آخر وباء ضرب البلاد وهو الوباء الذي إستمرّ سبع سنوات 1816-1822م²، ويبدو أنه ظهر بمدينة عنابة بدخول إحدى السفن التي قدمت من الإسكندرية، وبمدينة الجزائر ظهر الداء في شهر جوان من السنة نفسها نتيجة وصول سفن أهداها السلطان العثماني للجزائر، وكان أول ضحاياه من البسكرة الذين يشتغلون بالحماله بالميناء، وما إن شاع خبر ظهور الوباء حتى هاجرت أعداد هائلة من المدينة نحو المناطق الداخلية. وكادت المدينة أن تصبح خالية، وشل النشاط التجاري بل أن بعضهم أصبح يتوقع أن استيلاء المسيحيين على المدينة، وهلك على إثره خلال شهري أوت وسبتمبر إثنان وخمسون ومائة وثلاثة آلاف شخص وأسهمت تنقلات المصابين في تسربه وفي انتشاره في المناطق الداخلية، فقد تفاقم الداء في عام 1818م حيث شمل في هذه السنة مدن الجزائر العاصمة، قسنطينة، وهران، البليدة وبجاية³، ففي مدينة وهران وهران مثلا كان الناس يموتون في الشوارع، ولم يبدأ المرض في التلاشي إلا مع حلول شهر أكتوبر. وتفاقم الداء في ربيع عام 1818م، حيث أفضى إلى إخلاء ثلثي المنازل في مدينة عنابية، وبمدينتي بجاية وجيجل إحتفى السكان بالجبال، أما بمدينة وهران فقد أهلك ما يربو من سبعة آلاف شخص⁴، كما عرفت سنة 1819م انتشار المرض بمدن أخرى من البلاد كبسكرة وتلمسان مع بداية سنة 1821م⁵. وظل السكان يعانون من اشتداد الوباء إلى أواخر سنة 1822م.

ب- في تونس:

عرفت الإيالة التونسية خلال الفترة قيد الدراسة العديد من المجاعات والأوبئة التي هزت البلاد وأحدثت تغييراً في البنية الاقتصادية للإيالة والتركيبية الاجتماعية للمجتمع التونسي لعلّ أبرزها مجاعة العشرية الثامنة من القرن الثامن عشر ووباء سنتي 1784 و 1785م.

حلّ بالإيالة التونسية مجاعة رهيبه بين سنوات 1776 و 1778م، والتي شكلت منعرجا في التاريخ الإقتصادي والاجتماعي للإيالة التونسية في العصر الحديث⁶، وقد حدث هناك تباين واضح بين المؤرخين التونسيين حول سنوات الأزمة، فنجد أنّ ابن أبي الضياف يشير في الإتحاف إلى أنّ المسبغة وقعت في سنة إحدى

¹ - مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979، ص 40.39.

² - Ismet Touati, La Peste et le Commerce Extérieur De l'Algerie A L'époque Ottomane, Revue D'histoire Maghrébine, N° 154.155, Février 2014, p113.

³ - Sadok Boubaker- art.cit.322.

⁴ - عائشة غطاس، مقال سابق، ص 367.

⁵ - Sadok Boubaker, art.cit.p322.

⁶ - Ibid ,p337.

وتسعين ومائة وألف 1191هـ 1777-1778م والتي بعدها¹، في حين أنّ صاحب الكتاب الباشي حمودة ابن عبد العزيز، يشير إلى أنّ حدوث الجفاف سنة 1776م أفضى إلى ارتفاع الأسعار وحدث المجاعة خلال سنتي 1777-1778م²، ونفس الأمر يؤكدّه محمد الهادي الشريف الذي أكد أنّ جفاف سنة 1776م جاء غداة عشرية من الرخاء الاقتصادي تمتعت بها الإيالة من سنة 1765 إلى سنة 1775م، وقد أثر هذا الوباء على المبادلات التجارية بين تونس ومرسيليا بحيث تدهورت تفهقراً ملحوظاً إنطلاقاً من سنة 1775 إلى سنة 1778م³.

وفي سنة 1803م حصلت مجاعة كبيرة بتونس كان سببها كما يذكر صاحب الإنحاف: "إحتباس الغيث، ووقوع القحط الشديد وتعسر الإتيان بالميرة لوقوع الحروب يومئذ"⁴، وقد بعث حمودة باشا بأحد كبار علماء تونس وهو إبراهيم الرياحي كسفير له لدى سلطان المغرب الأقصى لطلب الميرة من هناك، ونجح ذلك السفير في مسعاه. وعند وصول تلك المؤن باعها حمودة باشا بأقل من ثمنها، وأعطى بعضها للعاجزين دون ثمن، ولم يكتف بتلك الميرة من المغرب الأقصى بل بعث بسفن عديدة إلى البحر الأسود لاستجلاب الحبوب، ومنع صنع الكماليات من المأكّل مثل المقرونة وما شابهها، أما الميرة للجالية الفرنسية بتونس فقد أرسلت من فرنسا وقدرها ثلاثمائة قنطار من الدقيق، وخلال هذه المجاعة كان الناس يموتون جوعاً وكذلك المواشي، ومن النتائج السيئة التي ترتبت عن ذلك القحط فقد كانت كبيرة خاصة فيما يتعلق بالإنتاج الزراعي والصناعي، بالإضافة إلى التأثير في تجارة تونس الخارجية في تلك السنة، نتيجة القيود الجديدة التي أصبحت تفرض بصرامة على الإتجار في الحبوب بين تونس وأوروبا⁵.

ظهرت الأوبئة والجوائح في البلاد التونسية خلال الفترة قيد الدراسة مع تولي حمودة باشا لعرش تونس في سنة 1782م، فكان وباء سنة 1783م الذي يقول عنه الفونسو روسو بأن هذا الوباء كان منتشرًا في البلاد المصرية، ولم يلبث هذا الوباء أن تفشى على متن السفينة البندقية المستأجرة، وعند وصولها إلى مياه صفاقص، أكتشف أن عدداً من المسافرين على متنها، وبعض أفراد طاقمها قد ماتوا نتيجة إصابتهم بالطاعون⁶، ويذكر المؤرخ الصفاقصي الصفاقصي ابن مقديش أن "في مدينته وحدها مات حوالي خمسة عشر ألفاً... وفي النساء أكثر منه... وفي الرجال... الزنج لم يبق منهم إلا النادر الذي لا يعد"⁷.

¹ - ابن أبي الضياف، مصدر سابق ج2، ص 174.

² - حمودة ابن عبد العزيز، مصدر سابق، ص 303.

³ - بوزيد الأجدد، الغبراء والجوع: دراسة حول 761 غربيا ماتوا في مدينة تونس بين سنتي 1773 و1779م، المجلة التاريخية المغربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 131، تونس، مارس 2008، ص 30.

⁴ - ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج3، ص 39.

⁵ - الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 260.

⁶ - A.Rosseau-Op.Cit p197.

⁷ - ابن مقديش، مصدر سابق، ج2، ص 80.

يشير الباحث التونسي الصادق بوبكر بأنّ هناك ثلاث موجات من الطاعون ضربت الإيالة التونسية، وبدا واضحا تأثيرها على النمو السكاني، كان أشدها وباء 1784 و 1785م بالإضافة إلى وباء سنة 1787م¹، فأما بالنسبة لوباء سنة 1784م فقد بدأ في شهر جوان من نفس السنة وقتل العديد من السكان خاصة في مدينة الكاف، ولم يبق في بعض القرى احد من الأحياء، وقد بلغ عدد ضحايا هذا الطاعون في هذه السنة مائة وخمسة وثمانون ألف فرد أي ما يقارب ثلث سكان البلاد التونسية ماتوا في هذه السنة²، في حين أنه في سنة 1785م انتشر الطاعون في الإيالة عن طريق سفينة قادمة من اسطنبول ورسّت في ميناء مدينة سوسة، وكانت حاملة أناسا مصابين بالطاعون، ومن تلك البلاد إنتشر الطاعون في كامل البلاد التونسية، وهذا ما دفع بجميع القناصل الأوروبيين وجالياتهم بأن اقفلوا مكاتبهم ومراكز شركائهم التجارية ومنعوا أي اتصال بهم على الإطلاق، وقد تألم الرحالة بوارى في تلك السنة ورأى أنه كان يشاهد من النعوش والقبور أكثر مما كان يراه من الأحياء أثناء ذلك الوباء، وأن مدينة طبرقة أقامت مقبرتين جديدتين لموتى طاعون تلك السنة³. ومن المدن التونسية التي كان تأثير وباء الطاعون فيها واضحا خلال سنتي 1784 و 1785م نجد مدن تونس العاصمة، القيروان، سوسة، صفاقص وجربة⁴.

وقد شهدت البلاد التونسية عودة الطاعون إليها وهو ما حدث سنة 1790م ومات بسببه العديد من أهم رجال البلاد العاملين النشطين، وبعد أن عم البلاد بسرعة مذهلة خلف وراءه مئات الآلاف من الموتى، كما عاد الوباء من جديد سنة 1792م إلا أنه كان خفيفا، وفي سنة 1794م علم بتونس بأن الوباء ظهر بالجزائر منذ شهر أوت سنة 1793م، ويتوقع حلوله بتونس إذا وصل إلى مدينة قسنطينة، وقد وصل هذا الوباء تونس في شهر مارس من سنة 1794م، وقد خلف موتى كثيرين، وفي سنة 1797م عمّ وباء آخر الإيالة بسرعة وبقوة مذهلة، حتى أنه مات أربعة آلاف شخص في مدة أربعة أيام في مدينة تونس وحدها، وقد خلف هذا الوباء الذي دام ثلاثة أشهر: عشرون ألف تونسي، سبعمائة يهودي، ومائة وخمسون مسيحي⁵.

ج- في طرابلس الغرب:

شهدت ولاية طرابلس الغرب خلال العهد القرمانلي إنتشار العديد من الأوبئة الفتاكة، وقد كان لتلك الأمراض تأثيرات سلبية على السكان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية⁶.

¹-Sadok Boubaker , art.cit.p313.

²- الإمام رشاد ، مرجع سابق، ص 257.

³- نفسه، ص 257.258.

⁴- Sadok Boubaker , art.cit,P 321.

⁵- الإمام رشاد، مرجع سابق، ص 258.259.

⁶- محمد عمر مروان، الأوضاع الصحية والإجراءات الوقائية في ولاية طرابلس الغرب خلال العهدين القرمانلي والعثماني الثاني 1711-1912، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 25، زغوان تونس، 2002، ص 301.

لقد ظهرت في طرابلس الغرب برمتها مجاعة رهيبية بسبب قلة الأمطار طيلة سنة 1767م ، فهاجر إلى مصر أو تونس أكثر من أربعين ألفا من الأهالي، واستمرت حالة الجذب والبؤس في السنة التالية، مما أدى إلى تفشي الكوليرا الذي إنتشر في الدواخل، فأفنى الكثير من أهلها وأودى إلى هلاك أكثر من خمسمائة نفس في مدينة طرابلس وحدها¹، هذا بالإضافة إلى مجاعة سنة 1784م والتي كانت أشد فتكا، فأصبحت المدينة تمر بحالة مرعبة من المجاعة حتى أن المرور بشوارعها، على الأقدام أو فوق ظهور الخيل، أصبح شيئا مخيفا مفرعا بسبب الجوعى الذين يموتون كل يوم على الطرقات².

وكما يحدث في العادة، فقد كانت المجاعة تجر خلفها الطاعون الذي ظهر في ربيع سنة 1785م، وكان القبول الأعمى بفكرة القدر دون حذر ولا احتياط والجهل وقلة الأطباء (ثمة طبيب من جنوا وحيد في خدمة الباشا)، قد مكنت هذا الوباء من حصد كثير من الأرواح³، ومن أعراض هذا المرض أن يصاب المريض بنوع من الخبل الذي سرعان ما يتحول إلى جنون، ويرافق ذلك تورّمات كبيرة مشوهة تصحبها ألام شديدة تنتهي بالوفاة⁴، بالوفاة⁴، هذا وقد قضى الطاعون على ربع سكان الإيالة البالغ عددهم أربعة عشر ألف نسمة، وكثيرا ما كانوا يعجزون عن نقل الموتى إلى المقبرة، وكان الجنود القولوجية يطوفون بالمدينة ويزيحون الجثث، وقد انقطع الوباء في أوائل سنة 1786م⁵، ولشدة الوباء وكثرة الموتى، فإنّ من عفي من المرض، عجز عن نقل الموتى إلى المقابر، إذ قدرت توللي ممن ينقل إلى المقبرة يوميا عبر بوابة المدينة ب 200 متوفى⁶، ولكثرة الوفيات أصبحت الجثث تنقل على الحمير إلى المقبرة، لفقدان المشيعين لها، ومن كثرتها فقد أمر الجنود بالسير في الشوارع لتفريغها من الجثث المملوءة بها⁷، هذا وقد عبرت توللي ريتشارد عن هول ما يصيب الناس لدى مفارقة أحدهم الحياة بقولها: "إن صراخ صراخ الناس على ما يفقدون من أعزائهم عال على الدوام، فلا تكاد تمضي ربع ساعة دون أن يرتفع عويل نادب جديد على ميت جديد، ولقد كثرت الوفيات حتى لم تعد تقام صلاة الجنازة على أصحابها، وإنما تجمع التوابيت ليجري إخراجها من البوابة قبيل الزوال من كل يوم ويسار بها إلى الجبانة، حيث توضع جميعها في مسجد هناك فيصلى عليها وقت الظهر دفعة واحدة.."⁸.

لقد كان هذا الوباء الذي أصاب طرابلس الغرب في هذه الفترة شديداً، حيث أصاب كافة المجتمع الطرابلسي، فقد سحق خمس سكان المدينة من العرب المسلمين ونصف اليهود، وتسعة أعشار المسيحيين⁹، وكان

¹- Ch. Feraud , Annales Tripolitaines...Op.Cit,p249.

²- اتوري روسي، مرجع سابق، ص 362.

³- نفسه .

⁴- ريتشارد توللي، مصدر سابق، 189.

⁵- إتوري روسي، مرجع سابق، ص 362.

⁶- ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص 194.

⁷- نفسه، ص 207.

⁸- نفسه، ص 197.

⁹- نفسه، ص 208.

وكان سببا رئيسيا من أسباب الإنهيار الاقتصادي الذي حل بمركز الولاية نتيجة ما سببه من أضرار اقتصادية وبشرية، وقد قال عنه أحد الكتاب الفرنسيين أنه كان له أوحم العواقب على الوضع الاقتصادي والنظام الاجتماعي الآخذين من قبل في الضعف والهزال¹، أما لوحة الإنهيار في إيالة الطرابلسية بعد الطاعون فيقدمها فاليري نائب القنصل الفرنسي في جرده لعام 1786م، فقد ذكر أن علي باشا القرماني لم يعد قادرا على إدارة البلاد، وكانت إيالة طرابلس الغرب توج بالاضطرابات، وقد تحولت بعض المناطق إلى صحراء وهجر الناس ديارهم، وطرابلس حسب قول فاليري تضم الكثير من الخرائب حتى أن قصر الحاكم ينهار من جوانبه، أما أسوار المدينة فتهدمت في كثير من جوانبها، أما بالنسبة للحصون التي جهزت بالمدافع التي لا يمكن إصلاحها فإنها كانت في حالة تجعلها معرضة للانهايار في أية لحظة: ويختم نائب القنصل قوله بأن سبعا أو ثمان من سنوات القحط قد ضاعفت أعداد الموتى والمهاجرين، وزاد تفشي الطاعون من تدهور الوضع الذي كان وبدون ذلك في آخر درجات التدهور في طرابلس الغرب².

هذا وقد بقي آثار طاعون 1785م إلى غاية بداية القرن التاسع عشر، حيث يصف لنا الرحالة الاسباني "باديا لبليك" (المعروف باسم علي بك العباسي) الذي زار طرابلس في نوفمبر 1805م، ضمن رحلته الكبيرة إلى بعض البلدان الإفريقية والآسيوية، مسجلا الأثر الذي خلفه الطاعون إلى غاية سنة 1805م قائلا: "لقد أنقص الطاعون كثيرا من عدد السكان بالمدينة إذ قضى في الغالب على أسر بكاملها، وما يزال يشاهد المرء حتى الآن بعض المنازل المهجورة أو المنهارة بسبب الوباء. ويبلغ السكان في هذا الوقت عددا يتراوح بين الثلاثة عشر ألفا والخمسة عشر ألفا"³.

¹ - إتوري روسي، مرجع سابق، ص 362.363.

² - اليتش بروتشين، مرجع سابق، ص 131.132.

³ - خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس الغرب لدى الرحالة العرب والأجانب، ط3، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1997، ص 149. والمدني سعيد عمر، الأوضاع الصحية في ليبيا في ضوء كتابات بعض من الرحالة العرب والأجانب خلال القرن التاسع عشر، المجلة التاريخية المغاربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العددان 154.155، تونس، فيفري 2014، ص 66.

خاتمة

خاتمة البحث

من خلال دراستنا المتواضعة هذه حول العلاقات بين إيالة الجزائر وإيالاتي تونس وطرابلس الغرب خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، واعتمادا على ما ورد في الفصول الأربعة من هذا البحث، خرجنا بالاستنتاجات التالية:

أولا:

أنّ العلاقات حين مالت إلى العداء والحرب لم تكن تعبر دائما عن إرادة السكان في البلدين ، وإنما تعبر بالخصوص عن إرادة الحكام القابضين على السلطة، ومن دلائل ذلك أن السكان الذين كانوا لا يتبنون سياسة حكاهم ، وكانت لهم مواقفهم الخاصة من حركات الحكام التي لا توافقهم ، قد تصل أحيانا إلى التحلي عنهم والعصيان لأوامرهم والميل حتى إلى خصمهم، فالتونسيون على سبيل المثال تخلى كثير منهم عن الباي إبراهيم الشريف في سنة 1705م لأمر نعموها عليه ومالوا إلى صف الجزائريين، مما أدى به إلى الهزيمة، والجزائريون الذين لم يستحبوا استمرار الحرب بين الجزائر وتونس كانوا السبب في انهزام الحملة الجزائرية على الكاف في سنة 1813م وفي دفع حكام الجزائر بعد ذلك إلى الميل إلى السلام مع تونس ، والاتفاق معها عليه في سنة 1817م ثم في سنة 1821م.

ثانيا :

أنّ الخلافات بين حكام تونس والجزائر لم تؤثر في العلاقات التي كانت قائمة منذ القديم بين سكان البلدين ، إذ ظلت العلاقات بينهم تجري في حالي السلم والحرب، لم تنقطع بالحمالات التي أمر بها على وجه الخصوص دايات الجزائر وبايات تونس، أو بقراراتهم منع الهجرة من بلد إلى آخر ، ومنع التجارة بين البلدين أحيانا ، وفرض الكارانتينة أحيانا أخرى على القادمين من الجزائر إلى تونس تجارا كانوا أم حجاجا ، لأن السكان ولاسيما في المناطق الحدودية كانوا يتجاوزون تلك القرارات، ولا يتقيدون بها ، ولو أدى ذلك إلى توتر العلاقات من جديد بين الحكام، ولأن مصلحتهم لم تكن في الصراع بين البلدين، ولكن في السلم بينهما، وفي التعاون لا في القطيعة ، بحيث يمكن الحديث على نوعين من العلاقات ، علاقات بين السكان وهي اثبت وأقدم وارسخ ، وعلاقات بين الحكام وهي متذبذبة ومتقلبة تبعا لمصالحهم ، وأهدافهم ونزواتهم.

ثالثا:

أنّ العلاقات بين الإيالة الجزائرية والطرابلسية لم تكن ذات حيوية بالمقارنة بينها وبين العلاقات بين الجزائر وتونس، إذا ما استثنينا مواقف حكام الإيالتين الطرابلسية والجزائرية من الأحداث الدائرة في كل بلد، ومن ذلك المواقف غير الايجابية من داي الجزائر بعد استيلاء علي برغل على طرابلس ، وكذا الدور الجزائري في إبرام الصلح بين طرابلس والولايات المتحدة الأمريكية ، وكذا موقف طرابلس الغرب من الاحتلال الفرنسي للجزائر وهو الموقف نفسه لمسنه عند الشعب الطرابلسي والرافض للاحتلال الفرنسي للجزائر .

رابعاً:

أنّ العلاقات بين إيالة الجزائر من جهة وإيالة تونس وطرابلس من جهة ثانية ، وإن اتسمت بطابع السلم في الفترة التي هي قيد الدراسة، إلاّ أنّها لم ترقى إلى التعاون الفعال النزيه من الأطماع ، خاصة في الفترة التي كانت موضوع البحث في الرسالة . سواء على الصعيد الداخلي للإيالات الثلاث أو على صعيد التعاون مع الخلافة العثمانية .

خامساً :

أنّ العلاقات المتذبذبة بين الجزائر وتونس، كانت عاملاً مساعداً على إلتفات كل منهما إلى تقوية العلاقات السياسية والاقتصادية أيضاً مع الدول الأوروبية، لما قد يعود عليهما من دعم لقوتها السياسية والعسكرية.

سادساً :

إنّ الفترات التي شهدت فيها العلاقات بين الإيالات الثلاث توترات ونزاعات، وعلى وجه الخصوص بين الجزائر وتونس كانت فرصة مناسبة للدول الأوروبية كي تتدخل في شؤون الإيالات، مثل ما حدث للجزائر أثناء حربها مع تونس بتعرضها لحملة اللورد إكسماوث سنة 1816م.

سابعاً :

بالرغم من الحروب الطويلة التي كانت قائمة بين الجزائر وتونس، سواء في الفترة التي قيد الدراسة أو التي قبلها، إلاّ أنّ تونس كانت تعتبر الجزائر بمثابة الإيالة الوصية في المنطقة لا بد من العودة إليها وإستشارتها، ومن أمثلة ذلك توسط الجزائر في إبرام معاهدة بين إيالة تونس والولايات المتحدة الأمريكية سنة 1795م، ونفس الشيء مع طرابلس الغرب سنة 1796م .

ثامناً:

أنّ الصراعات والنزعات التي قامت بين الجزائر وتونس في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، إلى غاية الصلح الذي أبرم بينهما سنة 1821م، أثرت بشكل كبير على توازن المنطقة خاصة في ظل التنافس الدولي على شمال إفريقيا بعد مؤتمر فيينا سنة 1815م، والرغبة الجامحة للقوى الأوروبية الكبرى آنذاك في الحد من نشاط الإيالات الثلاث فيما يتعلق بعمليات الجهاد البحري.

تاسعاً:

حيوية ونشاط العلاقات بين الإيالة الجزائرية مع تونس سواء في فترات السلم أو الحرب بالمقارنة مع الإيالة الطرابلسية التي لم تكن بنفس المكانة التي احتلتها الجزائر وتونس سواء فيما تعلق بعلاقاتها مع الخلافة العثمانية أو فيما تعلق بعلاقاتها مع القوى الأوروبية.

عاشرا:

علاقات إقتصادية وتبادل تجاري نشط وحيوي بين الجزائر وتونس، بالمقارنة مع طرابلس الغرب، والتي كانت المبادلات التجارية معها ضعيفة، إن لم نقل منعدمة، باستثناء المبادرات الفردية التي كان يقوم بها التجار الجزائريين والطرابلسيين من حين لآخر، والسبب في ذلك يعود لعدم إهتمام الدولة العثمانية وحكام الإيالتين بدعم التبادل التجاري البيني وتشجيعه.

إحدى عشر:

أن حكام طرابلس الغرب، كانوا ينظرون إلى الجزائر على أنها الوصية في المنطقة، وخير مثال على ذلك توسط الجزائر بين طرابلس والولايات المتحدة من أجل إبرام معاهدة الصلح سنة 1796م.

إثنى عشر:

إختلاف مواقف كل من تونس وطرابلس الغرب حول الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830، فبينما وقف بايات تونس مؤيدين للحملة، وقف حاكم طرابلس موقف المتضامن مع الجزائر وشعبها في محنتها، هذا على المستوى الرسمي، بينما نجد شعبي الإيالتين تونس وطرابلس رافضين للهيمنة الفرنسية ووقوع أقوى إيالة في المنطقة تحت نير الاستعمار.

ثلاثة عشر:

علاقات ثقافية حيوية ونشطة بين الجزائر وتونس، تجسدت في الزيارات المتبادلة لعلماء الإيالتين، بينما التعاون الجزائري الطرابلسي في الميدان الثقافي لم يرقى إلى المستوى المطلوب.

وفي الأخير يمكن القول بأن الدراسة التي قمنا بها فيما يتعلق بالعلاقات بين إيالة الجزائر وإيالتى تونس وطرابلس الغرب ما هي إلى جمع ما استطعنا عليه من مصادر أرشيفية في الجزائر وتونس ومراجع بالعربية والأجنبية، ويبقى البحث في هذا الموضوع من المواضيع التي تستوجب الدراسة خاصة إذا ما علمنا قيمة الوثائق المتوفرة فيما أرشيف ماوراء البحار.

ملاحق

الملاحق

الملحق رقم 01 : نص معاهدة 1628م بين الجزائر وتونس والتي تعتبر أول معاهدة بين الإيالتين فيما يتعلق بالحدود الفاصلة بينهما

الملحق رقم 02 : رسالة من يوسف باشا القرماني إلى ابن حسن باشا داي الجزائر يرجوه فيها عدم التدخل في النزاع الذي بين يوسف باشا والحكومة الأمريكية.

الملحق رقم 03 : رسالة إلى أمير محلة سراط : بتاريخ 1808م .

الملحق رقم 04 : رسالة من سلطان المغرب الأقصى مولاي سليمان إلى حمودة باشا في تونس .

الملحق رقم 05 : رسالة معربة من الأدميرال الإنجليزي بنروسي إلى محمود باشا باي في تونس والتي يخبرها فيها بأن الأسطول الإنجليزي هاجم مدينة الجزائر ودمر أسطولها ، /31 اوت 1816م.

الملحق رقم 06 : نص الصلح بين الجزائر وتونس لسنة 1821م بوساطة الباب العالي .

الملحق رقم 07 : رسالتان متبادلتان بين السلطات التونسية والشركة الفرنسية المستفيدة من امتياز صيد المرجان .

الملحق رقم 08 : رسالة من حسين باشا في الجزائر إلى محمود باشا باي تونس يطلب منه إعفاء الحجاج الجزائريين من الكارانتينة .

الملحق رقم 09 : رسالة من حسين باشا في الجزائر إلى محمود باشا باي في تونس يخبره بوقوع الحرب بين الجزائر وأنجلترا .

الملحق رقم 10 ص 1 : مكتوب من الصدر الأعظم إلى المولى حسين باشا وذلك في الحث على مواخات القلوب واتحاد الكلمة بين الوجقات الثلاث .

الملحق رقم 11 : الطرق الرابطة بين الشرق الجزائري وتونس (خريطة)

الملحق رقم 12 : الطرق الرابطة بين الشرق الجزائري والسواك السودانية والليبية (خريطة)

الملحق رقم 13 : رسالة من الحاج احمد باي قسنطينة إلى حسين باشا باي في تونس 20 أبريل 1827.

الملحق رقم 14: حول فرار الجنود الجزائريين نحو تونس والسماح لهم بالتوجه نحو الشرق 10 جانفي 1828م.

الملحق رقم 15 : رسالة من باي تونس إلى باي قسنطينة تتضمن وقوع نزاع بين الجانبين 04 فيفري 1828م .

الملحق رقم 16: ملخص بالعربية لرسالة بالفرنسية من القنصل الفرنسي بتونس ماتيو دو لسبس إلى السيد شاكير الوزير الأكبر بتونس .

الملحق رقم 17: تكريم الأسطولين الجزائري والتونسي من قبل قايخ قام باشا سنة 1205هـ.

الملحق رقم 18: فرمان من السلطان العثماني حول تعيين مهمة السفن الجزائرية مع السفن التونسية في ميادين القتال في بحر السفيد سنة 1212هـ.

الملحق رقم 19: محمود الثاني . الحاج علي - توسط القبطان باشا في إصلاح ذات البين بين تونس والجزائر وطرابلس سنة 1227هـ.

الملحق رقم 20: الجزائر ترغب في إبرام الصلح مع تونس . سنة 1230هـ.

الملحق رقم 21: الملحق رقم : من أعيان مدينة تبسة إلى إبراهيم باشا باي تونس .

الملحق رقم 22: من إبراهيم وكيل الخرج باب الجهاد في الجزائر إلى حسين باشا باي تونس . حول تعيين محمود بن محمد أمين السكة وكيلا للجزائر بتونس.

الملحق رقم 23: محمود الثاني إلى حسين باشا. طلب 1250 مجاهد من أوجاقات الغرب سنة 1825م /1240هـ.

الملحق رقم 24: فرمان أرسله محمود الثاني إلى باي تونس في 1 ربيع الثاني سنة 1242هـ .

الملحق رقم 25: الملحق رقم : رسالة يوسف باشا القرماني إلى حسين باشا في الجزائر سنة 1245هـ.

الملحق رقم 26: المؤونة المخصصة لوكيل باي قسنطينة في تونس كل شهر.

الملحق رقم 02 : رسالة من يوسف باشا القرماني إلى ابن حسن باشا داي الجزائر يرجوه فيها عدم التدخل في النزاع الذي بين يوسف باشا والحكومة الأمريكية.

حسب الخبر الذي أخذته من استانبول أن البالسان خرجت من إدارة النمسا وأنها كانت جمهورية مستقلة وقررت الإتاوات السنوية التي تدفعا للدولة العلية ، غير انه لم يتقرر إعطاء أي ش لإيالات تونس والجزائر وطرابلس ولم نأخذ معلومات صحيحة عما إذا كانوا ينوون إعطائنا بعض الشيء لان شغل النصارى حيلة ، لابنا تعالى ينصرننا عليهم جملة لان عصرنا هذا آخر زمان ، النصارى ما عاد يبقوا في كلمتهم حتى أن حسب المعاهدة التي عملتها مع السويد كم مرة يطلبوا مني تأجيل الدفع فبالرغم من الأجل الذي أخذوه فإنهم إلى الآن لم يدفعوا شيئا وعلمت بواسطة سفيرهم في استانبول أنهم يحاولون أن يجرموا الإيالة من الإتاوة لكن قبل أن يتمكنوا من تحقيق أملهم هذا بإذن الله نضربهم ضربة تشفي ما في صدري . ومثل هذا الأمريكان أيضا حسب الجواب الذي أعطيته لقنصلهم قريبا حتى هم نهلكهم، كل الملل عرفت قدرة قوتنا وحيثيتنا، ما زالوا الأمريكان يجب أن يفهموا قوتنا ونوقفهم عند حدهم وقد اليت على ذلك .

وأسباب تأخري والمانع لأملي هذا هو تدخلكم أرجو باسم الأخوة الصحيحة صرف النظر عن هذه القضية وكما معلوم أدى معالي المرحوم والدكم حسن باشا كان الأمريكان بواسطة قنصل الفلامنك " الهولنديون" طلبوا الصلح على أن يدفعوا مائتين وخمسين ألف فرنك سنويا ولكن لم ارض بذلك ، وبتدخل والدكم قبلت ذلك ولكن إلى اليوم والأمريكان ما عطوا ولا باره ويتعللون بأسباب كثيرة أرجوك ألا يخذعوك ويطلبوا تدخلك في تخفيض المبلغ فالظاهر أن الأمريكان سيلتحنون أخيرا إلى قنصل الانجليز ليكون لهم واسطة في عقد الصلح ولكن أنا لا اعترف أبدا بالانكليز إلا إذا كانت الواسطة من جنابكم العالي . أرجوا أن يكون جوابكم لما عرضناه سرا والسلام .

المصدر: من كتاب عمر علي ابن إسماعيل ، إنهاء حكم الأسرة القرمانية في ليبيا، ص401.402

الملحق رقم 04 : رسالة من سلطان المغرب الأقصى مولاي سليمان إلى حمودة باشا في تونس، وفيها يحرض باي تونس على مهاجمة الجزائر من الناحية الشرقية والإستيلاء على قسنطينة سنة 1813م.

عز وجل على ما أؤكلكم من جزيل انعامه وبضابل و الا لله هذا وتعلم وقفا الله
 انه منقذ وقع هذه الحرب بينكم وبين اهل الجزائر وانا في حاله الله اعلم بهذا تجب على المسلم
 الذي يملك ما فيه المسلم ما يحبه لنفسه ويعلم عليه ثمانية اللاميرين واعني على مسير من
 احرارنا للصلح بينكم الذي امر الله به واتخذ له المال الجزيل فيما يصلح بينكم كما اهل الجزائر عنكم
 بما ترضونه فيكم وانكم تهتمون في المال المحض وما المسلمين من مصاريف مال الله
قوله الجزيرين بمنزلة كما تتكلمون ان يلقاكم من تنجروا سمعوا وتحقق ان الملكان
 الاعظم والاعزى الامم الملكان العظام وجه اليكم ونذا بكم الى الصلح باضغع الجزيرين
قوله منه روجه رسول الملكان بالاجور واسا بالخطاب وانه خرج بالحق عن اليدين احكامه
 وفي القام عن جماعة منكم انما كان في ذلك الموضع منكم من كان
 طمب وهم ان الجوار لنا في ناله وعلفناه ونبتاله كما يجب عليه وطرح عليه من التعمير الى
 مسبقه ما المسلمين وان كالحا عتة لخلو في معصية الخالق واذا اتفق المسلمان **بشيء**
 بالقتال والمقتول في النار وفي كل ان امره بلا شئ الجزيرين بالنهوض لوجهه في الامم الى
 مبارتكم والاهم الله في شدة عيبه في رده اعرضه ابيه طاميد من العلاك
 العاجل والاجل رده انصبه بلع واخرته بعد نيل عيمه في نفاذ انك طاعة طامبه وتعلق
 بما نبهنا والاعلين في عهده انه هو مقلوب ان قوتل على عيني قتالكم وجزيرين صاحب
 ما افسر والذاب عن ما المسلمين واعراضهم واجب باضغعنا ان الماوعر بلكم بحاله
 لتضروا ايضا انتم وتبوا عنه فيلجيب على امتناكم لعا الهتم من الامتعا في الخبي
 وتوهنون معه الباسونج وجه عنه في هذا الوقت بلا ضغعد عنه من ناهيتكم بفتوح الله
 لكم باب الفتح والفتح بفضله بينه ان شاء الله اعاننا الله وايكم على صحر الجزيرين وفتح
 الكلام بين المتمردين وهذا الجزيرين لثانبة كلك الملكان في حق واجب لم تقبلوا حرمته
 وكلمه على من خرج عليه وانه ارجوا ان يوجفت وايكم للعادل والاحسان امين
 والمسئول في الامم الاولى على 228

الملحق رقم 05: رسالة معربة من الأدميرال الإنجليزي بنروسي إلى محمود باشا باي في تونس والتي يخبرها فيها بأن الأسطول الإنجليزي هاجم مدينة الجزائر ودمر أسطولها 31 أوت 1816م.

كتابه في تاريخ روابي بتأليف العماد رجب بن محمد
في مائة الف جزء سنة ١٨١٢

113

1816

ذمنا العلي واذا رغبتنا فنصل جنرالنا العلي بتونس لمعلم
جنايتنا العلي بالنصر الكبير الذي تنصرت به داخلة الخليلين الذي
ميتت حتى المرم الرودا كسموتت في خراب المراكب وقلع
الجناب العلي داوي الجناب العلي بعرا النصر ورفع به الصلح والاتفاق
كما يبين لكم المقتضى

وتنظير في التاريخ ما فوجوه كورنا كسموتت من تونس ورفع لنا المرح
العلي لتعلمه وخلا ايضا الدولة العظمى في تونس والتمتوا
والمراد في التاريخ رفعت بينكم والشعرا بغيرها على حاشيتنا
غير تبريل ولا حطاب (ان شاء الله) تنصير العلي بن
داوي الجناب العلي وصلح في منزله وانما كسموتت
والمراد حيث كانت محنتنا كسموتت عنده وفتنتنا كسموتت العلي بن
منذ لتبين لري الخليلين وان اشتياقنا لمرادفة مكلوبه وتنصير
بعر منرا اشتياقنا لري في تلك المكلوبا

18

والمراد فنكلم معك جبارا رضا. نجعلك وطاعة بينك لتبين كسموتت وعظمتنا
جبية ما عرفت من انصارى النصارى الذين اخترفاهم من كملنا عصا
وامر مقلنا جبارا جيتنا عنه زيادة المحبة جيتنا وميز دولتنا الخليلين ومن غيرنا
وان المرم يتبع لعم من يعرف كسموتت جيتنا بكم العلي وجميع احل وكنتنا
وارسلنا لكم منرا على منر فنصلنا بتونس وبعرا بايع فليلتنا من كملنا كسموتت
لتعلم به الجوارح الذي اقتضاه كملنا ونكلم من المرم ان يوفق جميع عبادنا
ويكون في عمن ورجعة لتكون خبر المرم من الغلة ارم الرادفة من منزل
بن روبي

المصدر : الأرشيف الوطني التونسي - الصندوق 223 - ملف 384 - الوثيقة 99.

الملحق رقم 08 : رسالة من حسين باشا في الجزائر إلى محمود باشا باي تونس يطلب منه إعفاء الحجاج الجزائريين من الكارانتينة (الحجز الصحي) مارس - أفريل 1823م).



المصدر : الأرشيف الوطني التونسي - الصندوق 223 - ملف 384 - الوثيقة 88

الملحق رقم 10 ص 1 : مكتوب من الصدر الأعظم إلى المولى حسين باشا وذلك في الحث على مواخات القلوب واتحاد الكلمة بين الوجقات الثلاث الجزائر وتونس

(المطون انه الصدر الأعظم)

شهر شعبان سنة ١٢٤٠ هجرية م

جواب من محمد سليم باشا إلى حضرة باي تونس مؤرخ في ٢٣
(وهذا ترجمته حرفيا)

ذو الرفعة عزيزي الباشا

من المعلوم عند الجميع ان من شعار اهل التوحيد الخصوصية ان يكون دائما
الاتفاق الكامل سائيا بينهم والاتحاد الثابت حاصل لديهم حتى انه
اذا وجبت الاعانة يوما ما من جهة الى اخرى يقع الاعناء في ارجائها
وان ذلك من الامور المسئلة عند الخاص والعام وبناء على ما اشتهرت
به الوجقات في ممالك السلطنة المشرقية الغربية واهاليها
من العزة والديانة والصلابة فكان (القطب العالم من القديم
هو بذل السعي الدؤوب للاختصاص على الاسباب التي منها ان تبعد
تطرق الخلل على نظام كل وجق حيث كان نظامه من قديم وان يكون
جميع افراده متفقين ومحمدين ببعضهم بعضا واتخاذ ما يلزم زيادة
تقوية غيرتهم الدينية وطمأنينة اتحاد قلوبهم باضفاف الاضعاف
والاعتناء باستكمال الاسباب الحسنة لاظهار الاخوة الدينية
والسوية الاسلامية الى الأعداء حتى تكون جميع الوجقات
المضوية في الممالك الشاهانية الموروثة على قلب واحد وكلمة
واحدة ويكون بعضهم لبعض سندا قويا وحصنا متينا وان
الهدى على هذا المقصود الجليل بموجب المواخاة الدينية

حلوان
مكتوب من الصدر الأعظم إلى المولى حسين
باشا في الحث على مواخاة الوجقات الثلاث
جزائر وتونس وطرابلس والقطر
التي تقوم بالشركة والرحمة فيما بينهم
خوفا من تسلطهم والتخالف في العفة لئلا
يكونوا لا يتفقون فيقول من بعض اهل
همم الوجود فلو انى واخر بل العار
وطاعة الى من حكومتهم

(الوثيقة بتاريخ 23 شعبان 1240هـ) ص 1. الأرشيف الوطني التونسي .

يكون بعد الوفاق بين المجاهدين وترتيب القاضد غير ان المروحي
 والسوع الان. هذا الطرف ان الانفار الهاربين من وجع الجزائر
 وقع قبول البعض منهم وأبقي بطركم والبعض يذهبون الى ساير
 الجزائر وكذلك الهاربين الى طرابلس وقع قبولهم وتحريرهم من طرف والي
 تلك الجهة مع ان وجودهم هذه الكيفية وجران الخلل فيما
 تريد وتعمله السلطة السنية من الحذر والصلاح بين الثلاثة وجمال
 المذكورة ينبغي منها ظهور الامور القبيحة التي لا تليق بنا موسى الاخرة
 الاسلاميه ولا يشرف الخلافة الاسلامية ايضا لانه لا فرق بين الثلاثة
 وهاقات المذكورة لكونهم من المالك الشاهانية المروثة وان
 جميعهم من المشوكه والكذبة حصة السلطان العظيم مشرفين
 بين الاسلام ايدى محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيام ومن الامور
 التي يلزمكم ان تمنعوا الاهالي المأمورين منهم والمجاهدين
 وتحذروهم من الانحراف التي تورد الخلل لنظامات الوجع الضيق
 وحيث كنتم من خدمة الدولة العلية حتى اهل البراية وبتدبير الامة
 حقق صلتم على رتبة المزمين الجليله وقلتم بولاية تونس
 وتمام ادارة امور الوجع المنصور من طرف حصة السلطان العظيم
 فلا يجوز بصورة واضحة وقوع مثل هذه الاخبار حيث ان مقتضيات
 رياتكم ووطنيتكم والامر والارادة السنية ان تتوافقوا
 مع بعضكم بعضا في اجراء الترويض المرغوبة كما ينبغي ولما بلغنا
 لكيفية هذه المرة فدأرسلت الخبرات اللازمة من طرفنا خصوصا
 من والي طرابلس ووالي الجزائر بانه عند ظهور الانفار

تونس واليه
 1750
 1833

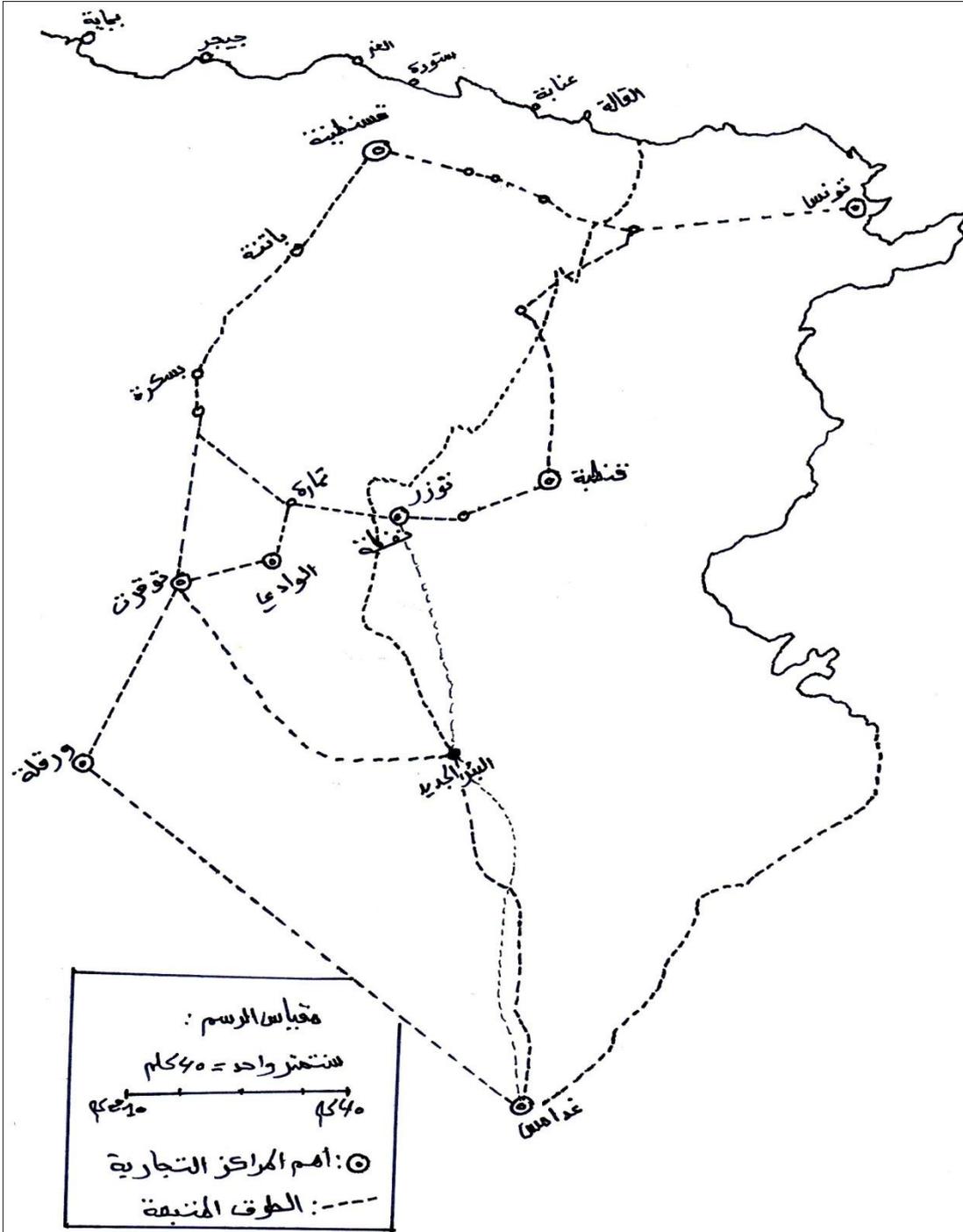
1

الجهات الهاربة منها ويرسلون الى محلاتهم وان يعتنوا في
امر الفتن والمخاض وكذلك جنابكم ايضا اذا ظهرت انفار
هاربة لا يقع اليها بطرفكم بل انتم رجبونهم ورجعونهم
الى محلاتهم بغير فتن وطلائع وتندلون الهمة في كل امكن منافية لوجه
للاتحاد والتوافق وهذا قد حزن هذه القافية وارسلكم ان
شار الله تعالى عند وصولنا ببادون بالحركة والعمل على

حلوان محمد
ايالة الجهاد
تونس
بين
1830-1750
محمد سليم
الحرارة
1830

الاربعين
الاربعين
الاربعين

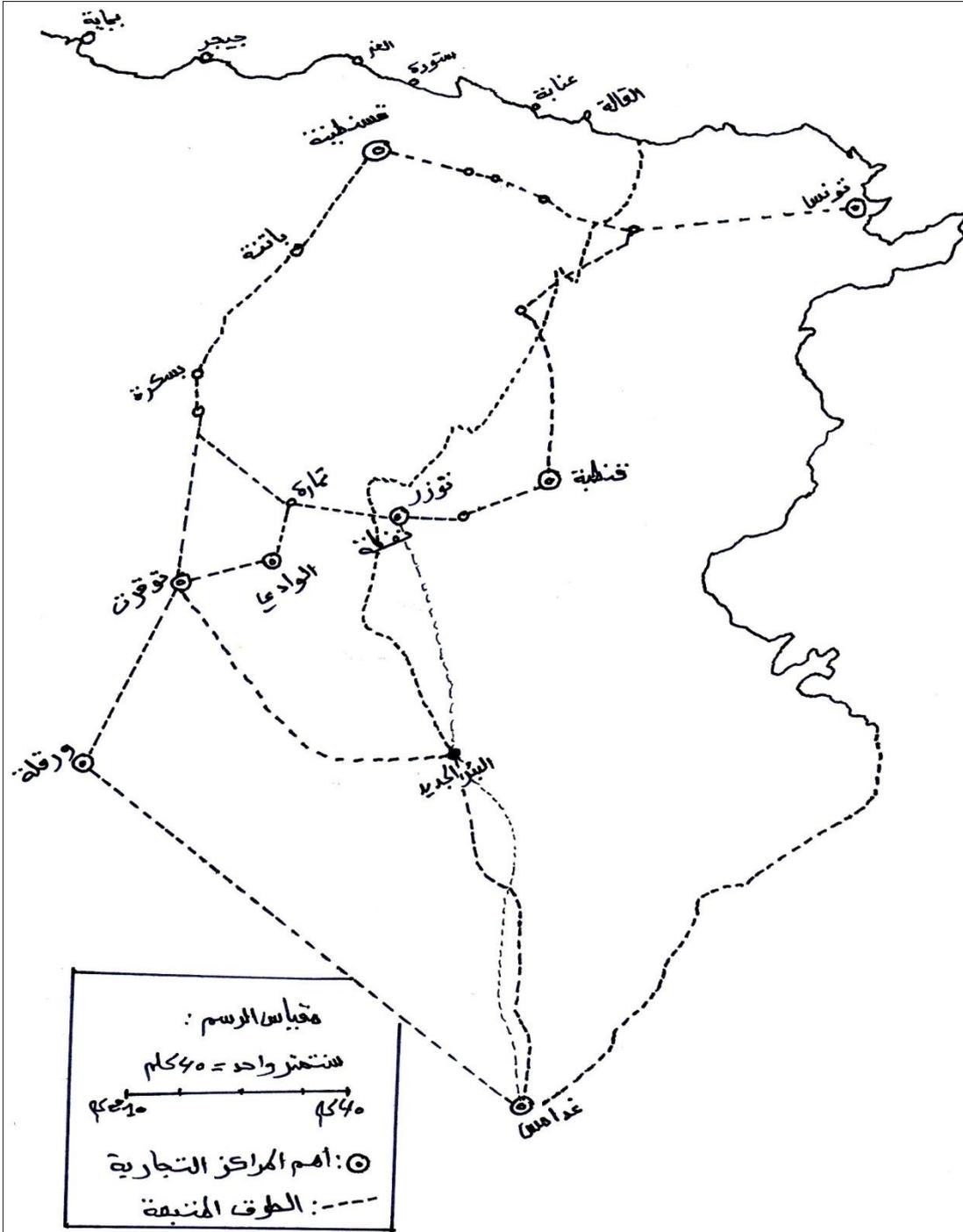
الملحق رقم 11: الطرق الرابطة بين الشرق الجزائري وتونس.



أهم الطرق الرابطة بين أسواق الشرق الجزائري
 وأسواق تونس

المصدر : محمد العربي الزييري : التجارة الخارجية للشرق الجزائري

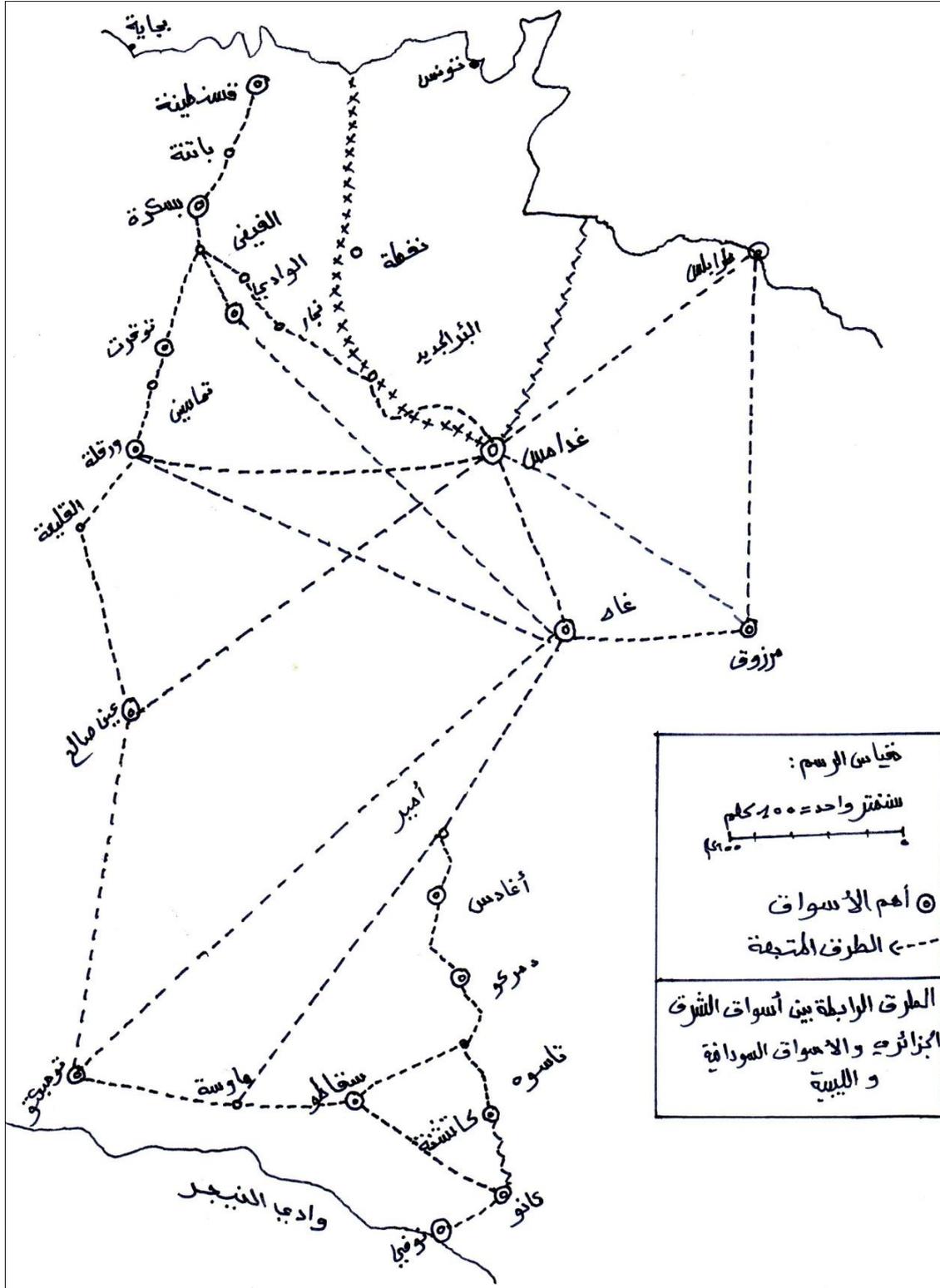
الملحق رقم 11: الطرق الرابطة بين الشرق الجزائري وتونس.



أهم الطرق الرابطة بين أسواق الشرق الجزائري
 وأسواق تونس

المصدر : محمد العربي الزييري : التجارة الخارجية للشرق الجزائري

الملحق رقم 12: الطرق الرابطة بين أسواق الشرق الجزائري والأسواق الطرابلسية.



المصدر : محمد العربي الزيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري.

الملحق رقم 16: ملخص بالعربية لرسالة بالفرنسية من القنصل الفونسي بتونس ماتتيو دو لسبس إلى السيد شاكير الوزير الأكبر بتونس حول هدف الحملة العسكرية على الجزائر، (بدون تاريخ ، فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر)

الرجل
 أطلع من مسيو ماتتيو دو لسبس قنصل جنرال من انطاقت
 إلى السيد الوزير الأكبر المذكور، مضمونه ان انتصار الجيوش الفرنسية
 يكتسب أهمية من شأنها ترفع من حياي الجزائر، فكل ما يمسها من
 البسوس به على التعداد الذي يتكلمه حافة البحر المتوسط واليه
 المصيبة التي لا يمكن فيها زواله بابطال التأسيس والتمهات
 الجزئية التي تؤديها ما كذا النصارى في حاله البحر يفيد
 له رينا الواعلى حالة الرف وترجع منحة صبه الرجاء في
 نسبه
 المكتوب اعلاه هو ما يدور في انظارنا مع القنصل المذكور في
 1830
 مصطفى الوطني التونسي

1830

المصدر : الأرشيف الوطني التونسي - الصندوق 223 - ملف 384 - مكرر - عنوان الملف - إحتلال الجزائر - الوثيقة 2.

الملحق رقم 17 : تكريم الأسطولين الجزائري والتونسي من قبل قائمقام باشا لأجل جهادهما العظيم في البحر إلى جانب الأسطول العثماني . سنة 1205 هـ.

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

الإمانة العامة

الجزائر في :

دفتر : خط همايون

عدد : 55725

تاريخ : 1205

قائمقام باشا



عندما تصب سفن الجزائر و تونس

اركب متوجها منطقة - سيتجينر - ثم انطلق من هناك ، ولكن يجب بحق اكرام هؤلاء الذين جاهدوا الجهاد العظيم بهذه الغيرة والاخلاص حق التكريم والالتفان نحوهم كما يليق بخدماتهم الجليلة .

ولذا ، يجب ان يصطحب القبطان باشا قبطان هؤلاء المجاهدين وفائدهم الا على الى الحضرة الهمايونية وذلك لا لياسر ك واحد منهما خلعة اكرام و اعزازا باشا بهما و شان اتباعها من المجاهدين مقابل الجهاد العظيم والخدمات الجليلة التي قدموها ، ولكن ابلح القبطان باشا ليقوم بتنظيم الا لى وترتيبه وليصطحب اثناء حضوره قبطان هؤلاء المجاهدين ، كما ويجب من تنبه القبطان باشا ليرتب الاوضاع بهذه الوثيرة . وهذا تقرر العبد للسلطان الوزير العظمى عبد العليم باشا بخصوص كيفية توجيه الاكرام والاعزاز الى اسطول الجزائر وتونس من قبله الى دار العلية و انك عملا بمقتضى الازدده اعطاه اليه التي صدرت بهذا الصدد .

والامر والفرمان من السلطان

ثم انه قد رأى رؤساء بحرى الجزائر التي تفر من طرفه ببلاد بوغاز بحرى

الاسطول التابع لاجاقات جزائر انغرب وتونس وهو في داخل الجزائر المذكور . كما طمأ من متجهة بانه ياتي الى الدار العلية .

و على اساس هذا الخبر وجب الاستعدادات لاستقبال هؤلاء البحارة بالحفاوة

والترحاب لما ابدوا و اظهروا من الخدمات الجليلة والتضحيات العظيمة والغيرة المخلصه في الدور عن حريم عصمة المقام الشاهاني والدفاع عن بيضة الاسلام في بلادهم وسلامة الدولة العلية .

ولهذا . . . وبعد ك ما نالوا من الاكرام والاعزاز والاحسان فانهم سوف

يؤخذون من واجهة القصر الهمايوني الى الترسانة العامرة بزيادة في تكريمهم وتلطيفهم وسينة في تسليح المسلمين وانشراح افئدتهم بهذه المناسبة ، وذلك بمقتضى الارادة الشاهية وموافقة الرومية السلطانية .

والامر والفرمان لصاحب الدولة والسعادة
سلطاني المعظم .

المصدر: الأرشيف الوطني الجزائري - دفتر خط همايون- العلية 3- عدد 55725.

الملحق رقم 18 : فرمان من السلطان العثماني حول تعيين مهمة السفن الجزائرية مع السفن التونسية في ميادين القتال في بحر السفيد سنة 1212هـ.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
الرشيد الوطني الجزائري
National Archives of Algeria

الرياسة
المراسلة العامة

دفتري: خط همايون
عدد: 8719
تاريخ: 1212
المغرب: فكري طونا

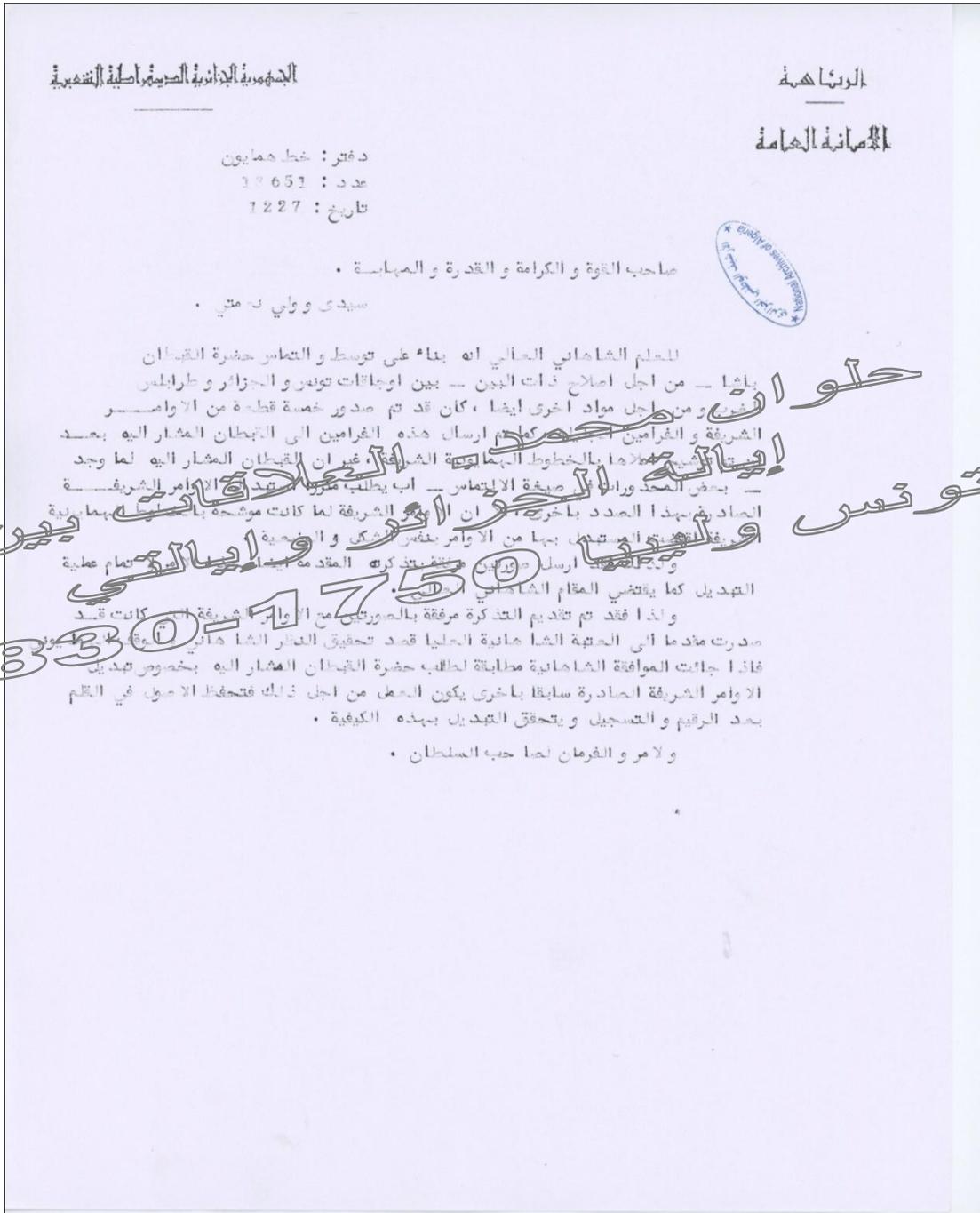
صاحب القوة والكرامة والقدرة والمهابة .
سيدي وولي نعمتي .

للعلم الهمايوني انه لما تم عرض وتقديم الامر الشاهاني العالي الذي كان قد صدر خطانا وموجها الى القائد الاعلى للسفن الجزائرية وسائر قباطنتهم بـ
بخصوص التعيينات والماضوية الى الحضور الملكي العالي اجيب بانه قد صدر خط همايوني
شريف بشأن هذه القضية يتضمن مايلي : ان هو لا يمكن تعيينهم للخدمة بمعية
مصطفى باشا القائد الاعلى للاسطول الهمايوني بل يجب تعيينهم وتوظيفهم في الخدمة
مع السفن التونسية التي تتولى مهمة المحافظة على الامن في بحر السفيد ولذا يجب تعديل
الفرمان المذكور على اساس هذا القرار الجديد الذي صدر بهذا الشأن .
كما يتضمن ايضا الاستفسار عما اذا كانت النقود التي كان يجب دفعها الى
البحرية قد دفعت اليهم لا ام لم تدفع حتى الان .
وبناء على هذا الامر وعملا بمضمون الخط الهمايوني الشريف تم تهد يسلم
الامر الى القائد اعلى الاسطول اعطاه وكما تم عرضه وتقديمه الى المقام الهمايوني
للنظر الشاهاني والروعية السلطانية .
اما من جهة المبلغ الذي كان يجب دفعه الى التوبة فانه قد تم تسليم
اليهم بواسطة مصلحة الافتادار التي لم يهمل تسليم مذكرة الاموال المشعارية
تبين دفع المبلغ الى المستحقين اي التولية من رئيس وسيد القبطان باشا الحمدي
اليه ، ولقد تم عرض المذكورة على العتبة الشاهانية العليا فتم حقية النظر الشاهاني
والروعية الهمايونية حتى يتم التصرف ضمن توجيهات الارادة الشاهانية بخصوص القضية
، ولا شك ان الامر والفرمان لصاحب القوة والسلطان ، سيدي وولي نعمتي

فالمقام باشا .
" عارم طيك " لقد اكتبتم الفرمان على احسن صورة واجمل اسلوب لتتم مراسلة
هذا الفرمان في الصباح الباكر ولتسح من اجل تحقيق اعطاء نقود التوانسة غدا وفي الصباح
الباكر ايضا .
ليتحركوا غدا وقت الظهر ، وانا سأفزع عليهم من " لانجولي " اسم السفينة
او مكان .
الامر الهمايوني .

المصدر : الأرشيف الوطني الجزائري- دفتر خط همايون- العلية 4- عدد 8719.

الملحق رقم 19: محمود الثاني . الحاج علي . توسط القبطان باشا في إصلاح ذات البين بين تونس والجزائر وطرابلس سنة 1227هـ.



المصدر : الأرشيف الوطني الجزائري- دفتر خط همايون- العلبه 5- عدد 13651.

الملحق رقم 20 ص 2

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

الريثا همة

الإسمانية العامة

2

هذه الاحوال

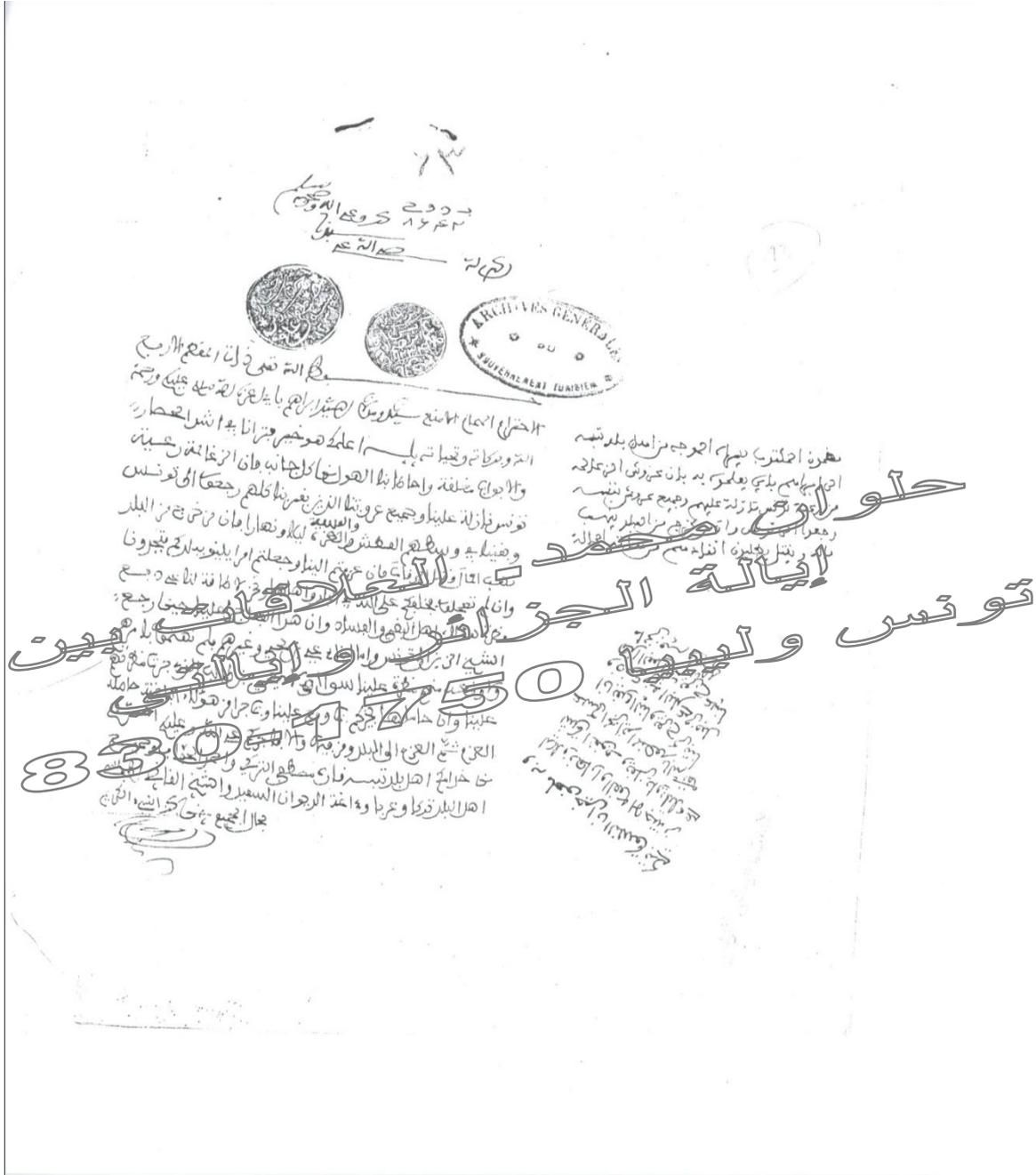
هذا . . . وقد تم رفع الرسالة المذكورة التي جاءت مكتوبة باللغة العربية

والاحاطة بها من جهة اخرى فان يظن ان السلام الذي وردت اليه الرسالة اكد من جهة مضمون
والاحاطة بها من جهة اخرى فان يظن ان السلام الذي وردت اليه الرسالة اكد من جهة مضمون
ايلاف الحاج محمود المذكور في الايام التي مضت من اجل تحقيق توافقه بين الطرفين
المتعلقة بفتح باب الحوار بين طرفي النزاع الذي تم رفعه بهذا الصدد الى المشاهدين
العالي .

فانما جاءت الارادة الشاهانية مطابقة لمضمون العريضة من العطف بمقتضاها من الا
والفرمان في هذا الميدان لصالح القوة والسلطان حضرة الباشا

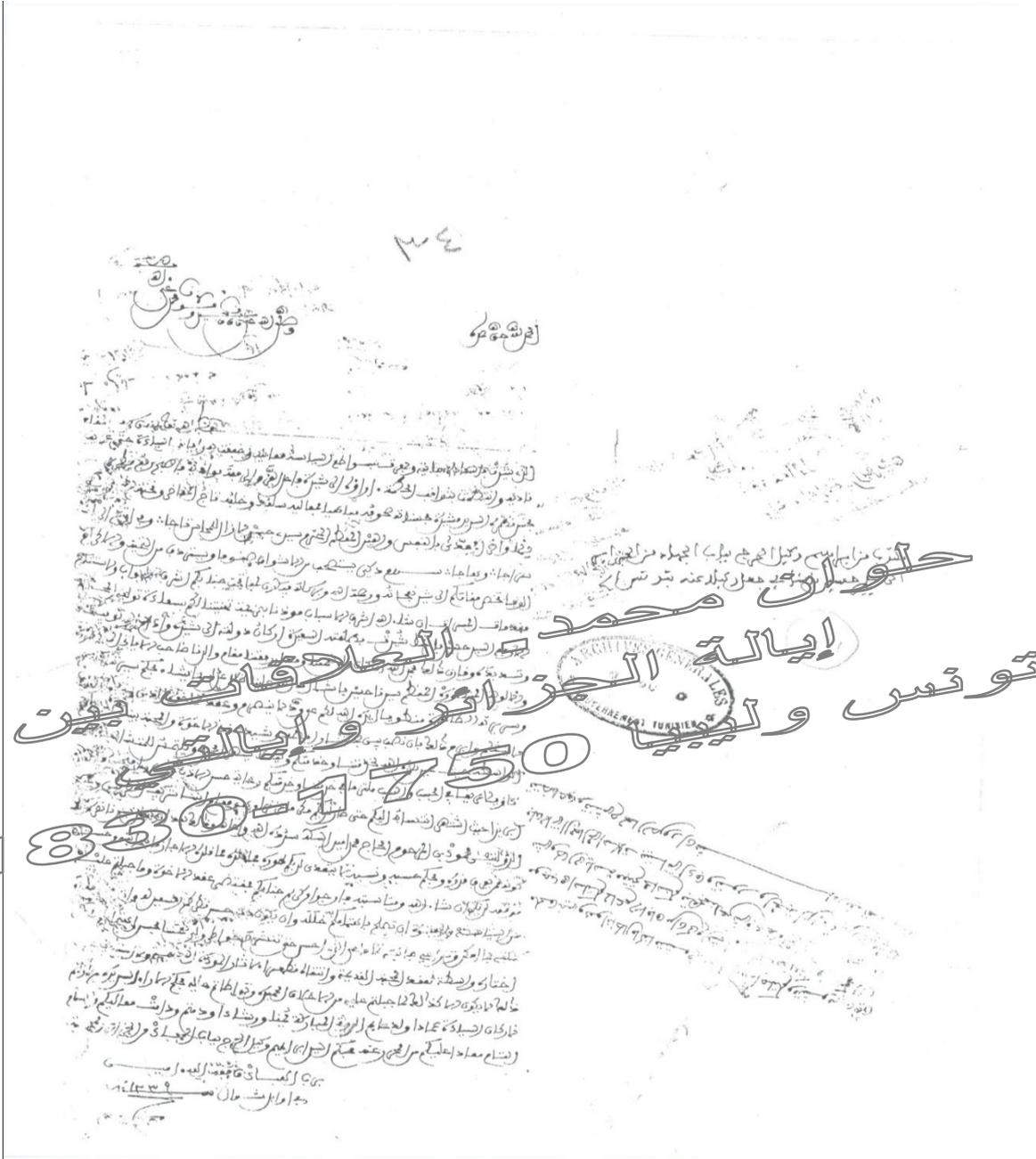
حلوان
ليالي محمد
تونس
1830-1750

الملحق رقم 21: من أعيان مدينة تبسة إلى إبراهيم باشا باي تونس . قبيلة الزغالمة التونسية قد حاصرتهم ومنعتهم من خروج البلد (بدون تاريخ / تاريخ الختم 1234هـ/1818-1819م.



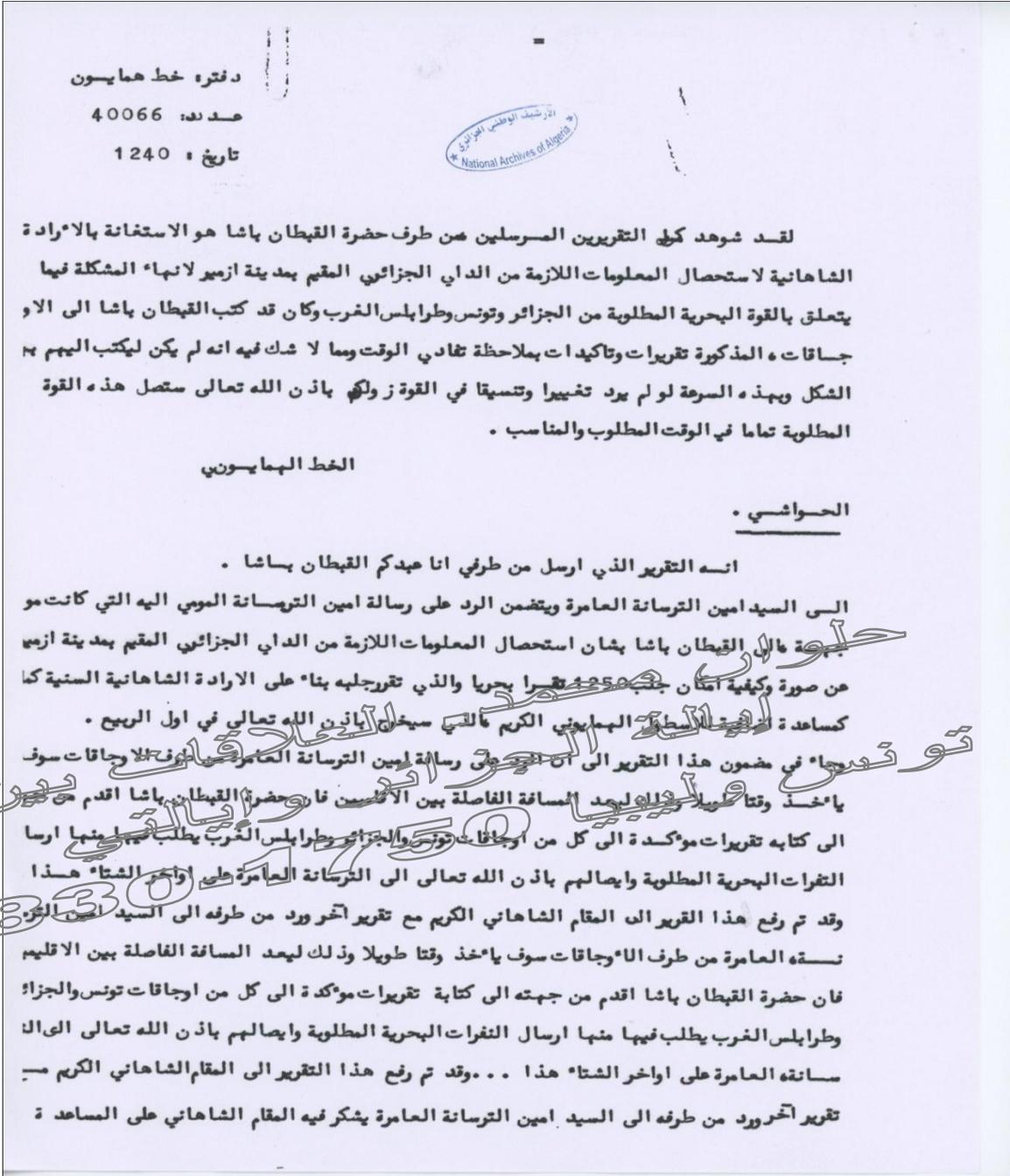
المصدر الأرشيف الوطني التونسي ، الصندوق 223 ملف 384، الوثيقة 15

الملحق رقم 22 : من إبراهيم وكيل الخرج باب الجهاد في الجزائر إلى حسين باشا باي تونس . حول تعيين محمود بن محمد أمين السكة وكيلا للجزائر بتونس سنة 1239هـ.



المصدر: الأرشيف الوطني التونسي، الصندوق 223، ملف 384، الوثيقة 66.

الملحق رقم 23 ص 1: محمود الثاني إلى حسين باشا. طلب 1250 مجاهد من أوجاقات الغرب سنة 1825 م / 1240 هـ.



المصدر : الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر خط همايون، عدد 40066. علية 11.



صاحب العناية والرفاة والكرامة

اخسي الاكبر حضرة السلطان المحترم

كما هو معلوم لدى مقامكم الشاهاني انه كانت قد وجهت عدة كتابات رسمية الى السيد خليل افندي الدا
الجزائري المقيم بمدينة ازميز وذلك لامتداد المعلومات اللازمة منه حول القوة البحرية التي تقرب جلبها من
الاجاقات الغربية موزعة بينها حسب الارقام التالية : 500 من اجاق الجزائر و500 من اجاق تونس
و250 من اوطاق طرابلس الغرب بحيث يكون المجموع 1250 -

لاستخدامها في الاسطول الشاهاني الذي تم خروجه باذن الله تعالى في اول الربيع ولذا
انا المطلوب من الاجاقات المذكورة القيام بالاستعداد اللازم لانزال هذه القوات المطلوبة منها الى
القرية المعروفة قبل اول الربيع وفي اواخر الشتاء .

وما ان كتابات الداي المذكورة تعميم بازمير الى الاجاقات لايصال رغبتنا هذه اليها والى ان ورد التي سوف
تأتي منها اليه قد تاخذ وقتا طويلا نظرا الى بعد المسافة بيننا وبينهم لئلا ان الكتب اليها يتعسر في
الموضوع تعجيبا في الموضوع وتقصيرا في الوقت فكتبت الى كل اجاق تقريرا وانه في موضوع
النفقات البحرية المطلوبة من طرفنا حتى يقوموا بالاستعداد اللازم لارسال هذه القوات الى النفقات التي
تتكون من 1250 كما ابنا سابقا وايضا اليها الى الترسنة العامة في اواخر الشتاء وقبل حلول الربيع -
يكون وصولها في الوقت اللازم والمناسب لانه خروج الاسطول الشاهاني يكون باذن الله تعالى في اول
الربيع وقد ارسلت صورة من هذا التقرير الى السيد امين الترسنة العامة ليوقع من طرفه الى المقام
الشاهاني الكريم .

قصد التحقيق النظر الشاهاني واطلاع الهمايوني لانه الامر والفرمان في هذا الميدان لصاحب
القوة والسلطان حضرة الباشا المعظم .

الملحق رقم 25 : رسالة يوسف باشا القرمانيلى إلى حسين باشا في الجزائر حول خبر تعيين إبراهيم نجل محمد علي باشا والي مصر واليا للإيالات المغاربية الثلاث سنة 1245هـ.

127

١٢٧ دولتوسعادتلوراقتلوسيني الصم سلطانم لخصي كك

كثيف وبمؤادى نارشوف لهما لهاب وبالعيني انسكاب فلو النار ما الالمع
تقضى ولولا الدمع لا حثف الكتاب جناب نصاب معالي كرميتيك فرمى
حصول موالات موصوفة وموافسات منصوصة اثبات حجة ورفهان ونفيسة
معدلة لها اشران مع قلب سليم مودة سيماك ملاجة منك في الحب دليلا
قد كان من القلب الى القلب سليل سبيلا مصدقها واما وانا فارجو طوع

من جليلهم لوانك ستم لوانك ستم الحديس
المراد على وحقته جلا ك بعض الشبهى المنبر اقبلت رسالتك التذكار واستغنى
رواج طيبة محتم وعاميتك و... وانا لنتك...
الخطاب و... لبعض مواد...
الخبير لموعدمة اسمعلا...
قاسم الثالث والعشرون من شوال...
مناقشة...
علم سيادتم سعتين...
والله لو غنع البنشير...
الخلعة وعناية واجراء...
العتومات...
بمنا...
بخر...
فدى الغصار...
بالمرتبة...
بعون الله...
من مواجزة...
مثلا...
ان معرو...
صورة...
ودا...
م...
وم...
نا...
ح...
وصورة الختم
عبد يوسف باي
يوسف باشا سمانلى
1245

من جليلهم لوانك ستم لوانك ستم الحديس
المراد على وحقته جلا ك بعض الشبهى المنبر اقبلت رسالتك التذكار واستغنى
رواج طيبة محتم وعاميتك و... وانا لنتك...
الخطاب و... لبعض مواد...
الخبير لموعدمة اسمعلا...
قاسم الثالث والعشرون من شوال...
مناقشة...
علم سيادتم سعتين...
والله لو غنع البنشير...
الخلعة وعناية واجراء...
العتومات...
بمنا...
بخر...
فدى الغصار...
بالمرتبة...
بعون الله...
من مواجزة...
مثلا...
ان معرو...
صورة...
ودا...
م...
وم...
نا...
ح...
وصورة الختم
عبد يوسف باي
يوسف باشا سمانلى
1245

الخصي الخارص
يوسف باي الباي
محمد بن عبد
عمرها الله
صورة...
ودا...
م...
وم...
نا...
ح...

المصدر: المكتبة الوطنية الجزائرية، قسم المخطوطات، المجموعة رقم 3190، الملف 1، الرسالة رقم 56.

قائمة المصادر والمراجع - ع

القسم الأول :

مصادر البحث:

أولاً: الوثائق الأرشيفية المحفوظة:

1/الأرشيف الوطني الجزائري (بئر خادم - الجزائر العاصمة).

أ- الوثائق الأرشيفية:

دفتر خط همايون :

- عدد40066. تاريخ 1240هـ علبة11.

- عدد 33301، تاريخ 1235هـ -العلبة7.

- عدد38548-تاريخ 1237هـ- العلبة10.

- عدد 13651.تاريخ 1227هـ- العلبة 5.

- عدد 8719.تاريخ 1212هـ- العلبة 4.

- عدد 55725.تاريخ 1205- العلبة3.

ب- المكتبة الوطنية الجزائرية (الحامة- الجزائر العاصمة).

1 - المجموعة رقم 3205 .

2 - المجموعة رقم 3206

3 - المجموعة رقم 1903

4 - المجموعة رقم 3190

2/الأرشيف الوطني التونسي: (شارع 9 أبريل 1938م- تونس العاصمة).

أ - الوثائق الأرشيفية:

الصندوق 220 ملف 340

الصندوق 220 ملف 345

الصندوق 223 ملف 384

ب - الدفاتر الإدارية والجبائية:

1- الدفتر 99

2- الدفتر 129

3- الدفتر 143

4- الدفتر 269

5- الدفتر 275

6- الدفتر 291

7- الدفتر 1046

8- الدفتر 1769

9- الدفتر 1847

10- الدفتر 2144

11- الدفتر 2145

12- الدفتر 2984

ثانيا : المخطوطات

محمد الطاهر بن أحمد النقاد- ذكر طرف من ولاية المرحوم صالح باي أمير قسنطينة- مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية تحت رقم 263.

ثالثا : المصادر بالعربية والأجنبية

1/ باللغة العربية:

- 1 إبن أبي الضياف أحمد ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار العربية للكتاب ط 2، 2004 (الجزءان الثاني والثالث).

- 2 ابن حمادوش عبد الرزاق ، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ والنسب والحال ، تقديم ، وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ، 1983.
- 3 ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة ، دار الأرقم ابن أبي الأرقم ، بيروت، 2006.
- 4 ابن عبد القادر محمد، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية.غرزوزي وجاويش، الإسكندرية ، 1903.
- 5 ابن غلبون ، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، تعليق الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة 1349هـ.
- 6 ابن ميمون (محمد الجزائري)، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق، محمد ابن عبد الكريم ، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1981.
- 7 أحمد النائب الأنصاري الطرابلسي، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا
- 8 جبروس خير الدين ، مذكرات، ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع ، ط1، 2010م.
- 9 جبرم محمد الخامس، صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج1، دار صادر، بيروت ، بدون سنة النشر.
- 10 - توللي ريتشارد، عشر سنوات في بلاط طرابلس، تعريب ، عمر الديراوي أبوحجلة، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1952.
- 11 - جوناثان كودري ، يوميات الطبيب كودري في قلعة طرابلس الغرب (1803، 1805م) ، تع عبد الكريم أبو شويرب، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، طرابلس، ليبيا، 1982م.
- 12 - حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، تحقيق محمد الأسطى و عمار جحيدر، ج 1، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط2، بنغازي . ليبيا، 2001.
- 13 - حمودة ابن عبد العزيز ، الكتاب الباشي ، تر، محمد ماضور، ج1، تونس 1970.
- 14 - خوجة حمدان ، المرأة، تعريب محمد العربي الزيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2006.
- 15 - خوجة حسين ، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق، الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1975.
- 16 - دوفال البير ، الرّئيس حميدو، تعريب، محمد العربي الزيري، الجزائر ، 1972.
- 17 - رودولفو ميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، تعريب ، طه فوزي، معهد الدراسات العربية العالية، 1961.
- 18 - الزهار أحمد الشريف، مذكرات ، تحقيق أحمد توفيق المدني، الطبعة الثانية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، 1980.

- 19 - سبنسر وليام ، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زبادية، دار القصبه للنشر ، الجزائر، ط 2006.
- 20 - سرهنك إسماعيل، حقائق الأخبار عن دول البحار، المطبعة الأميرية، بولاق القاهر ج 1، 1312هـ
- 21 - شالر وليام، مذكرات قنصل أمريكا، 1816-1824، تعريب إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- 22 - العنتري محمد الصالح ، سنين القحط والمسبعة ببلد قسنطينة أو مجاعات قسنطينة، تحقيق . رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974.
- 23 - العنتري محمد الصالح، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، تقديم وتعليق يحي بوعزيز، دار هومة، الجزائر، 2007.
- 24 - العياشي عبد الله بن محمد ، الرحلة العياشية ، تح. سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، مج 1، ط 1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ضبي ، 2006.
- 25 - كاثكارت جيمس ليندر، مذكرات أسير الداوي كاثكارت قنصل أمريكا بالمغرب، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.
- 26 - المبارك أحمد ، تاريخ قسنطينة، تحقيق رابح بونار، بدون سنة الطبع ومكان النشر .
- 27 - محمد الصغير بن يوسف، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، ت.د. أحمد الطويلي، (الجزء 1+3+4)، المطبعة العصرية، تونس، 2008.
- 28 - مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة ، تقديم محمد العربي الزيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1973.
- 29 - مروان محمد عمر ، سجلات محكمة طرابلس الشرعية 1760، 1854م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط 1، طرابلس، 2003.
- 30 - مسلم بن عبد القادر الوهراني، خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم رابح بونار، الجزائر، 1974.
- 31 - مقديش محمود، زهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق، علي الزاوي ومحمد محفوظ ، مجلد 2 ، الطبعة 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.
- 32 - مونتسكيو، روح الشرائع ، تر. عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.
- 33 - الناصري أبو راس ، نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان، تقديم وتعليق. محمد الحبيب العلاني وسهيل الحبيب، منشورات مركز الدراسات الإسلامية ، القيروان، 2012م.
- 34 - الناصري أبو راس ، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته ، تحقيق محمد عبد الكريم الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

- 35 - الورثيلاي الحسين ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد ابن شنب، مطبعة بيار فنتان، الجزائر، 1908.
- 36 - الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مج 2، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ، بيروت، 1985.
- 2، باللغة الأجنبية :
- 1- Benyoucef Med Sghir , Mechra El melki,chroniq tunissiene, traduir en francés par victor serres et Med Lashram,1ere edition.Bouslama 1978.
 - 2- de Haedo D,Histoire des Rois D'alger, trad par H.D.de Grammont,Adolphe jourdan, Libraire, éditeur, alger, 1881.
 - 3- De Lesseps. M -Algérie Et La Tunisie-Librairie Hachatte, paris, 1909.
 - 4- De Paradis V ,Alger Au 18^{ém} Siecl Imprimeur. Libraire. Editeur , Alger,1898.
 - 5- De Paradis. V ,Tunis et Alger a 18em siecle ,Paris,1983.
 - 6- De Tassy. L, histoire des royaume d'Alger, un diplomate français a Alger ,edition Loysel, Normandie,1992.
 - 7- De voulx.A , tachrifat.recueil de notes historiques,imprimerie du gouvernement, alger, 1852.
 - 8- Dunant H, notice sur la régence de tunis, societe tunisienne de diffusion,tunis,1975,p46.
 - 9- frank L,histoire de tunis ,2eme Edition, ed bouslama, tunis, s.d
 - 10- Peyssonnel. J.A, Voyage dans la Regence de Tunis"1724" , Centre de publication Universitaire, Tunis, 2003.
 - 11- Plantet E., correspondance des deys d'alger avec la cour de France 1597,1833.T2, paris,1889.
 - 12- Plantet E,correspondance des beys de tunis et des consuls de france1577-1830.T2,paris,1894.
 - 13- Plantet. E, correspondance des beys de tunis et des consuls de france1577-1830 .T3,paris,1894.
 - 14- Poiron M ,Mémoire Concernant L'état Présent du Royame De Tunis , Leroux, paris,1925.

القسم الثاني :

مراجـع البـحث

أولا : المراجع باللغة العربية والأجنبية

1/ باللغة العربية

- 1 - أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية ، بيروت، 1970م.
- 2 - إروين راي ، العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب و الو.م.أ (1816،1776)، ترجمة إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984.
- 3 - إنعام محمد سالم شرف الدين ، مدخل تاريخ طرابلس الاقتصادي والاجتماعي 1835،1711م، ط1، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس، 1998م.
- 4 - بروتشين إيتش ، تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف الق 16م حتى مطلع القرن 20م ، ترجمة عماد حاتم، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ط2، بنغازي، 2001م.
- 5 - بعيو مصطفى عبد الله دراسات في التاريخ اللوي،الإسكندرية، 1953.
- 6 - بن خروف عمار، علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات 1830،1671.دمشق،1996م.
- 7 - بوبكر الصادق، إيالة تونس في القرن السابع عشر وعلاقتها التجارية مع موانئ البحر الأبيض المتوسط مرسيلا وليفورنة، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والأندلسية الموريسكية، زغوان، 1987.
- 8 - بوحوش عمار ، التاريخ السياسي للجزائر من البدء و إلى غاية 1962 ، دار البصائر ، ط3 ، 2008.
- 9 - بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2007.
- 10 - بوعزيز يحي، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط1، 1991.
- 11 - ألتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، تر محمود علي عامر، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م.
- 12 - التليسي محمد خليفة، حكاية مدينة طرابلس لدى الحالة العرب والأجنب، ط 3، الدار العربية للكتاب ، بيروت ، 1997 م .

- 13 - التميمي عبد الجليل ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816،1871، الدار التونسية للنشر، ط 1، 1972.
- 14 - جلين تكرر، معارك طرابلس بين الأسطول الليبي والأسطول الأمريكي في القرن التاسع عشر، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة، بيروت ، 1967.
- 15 - الجمل شوقي عطا الله، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، ليبيا .تونس .الجزائر.المغرب، ط 1، مكتبة الأنجلومصرية، 1977.
- 16 - جنان طاهر، مازونة عاصمة الظهرة ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، مكتبة الرشاد للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر ، 2005.
- 17 - حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس ، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، دار الجنوب للنشر، تونس، 2001.
- 18 - حماش خليفة، كشاف ووثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف التونسي، ص 274. منشورات جامعة الأمير عبد القادر، ط1، 2013.
- 19 - خلاصي علي ، الجيش الجزائري في العصر الحديث ، دار الحضارة ، ط1، الجزائر ، 2007.
- 20 - رايت لويس وجوليا ماكليو، الحملات الأمريكية على شمال إفريقيا القرن التاسع عشر ، ترجمة.محمد روجي البعلبكي، بيروت، بدون سنة النشر .
- 21 - رشاد الإمام ، سياسة حمودة باشا في تونس، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، 1980م.
روسو ألفونسو، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تر.د.محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قارونوس، بنغازي، ط1، . 1991
- 22 - روسي إتوري، ليبيا من الفتح العربي حتى 1911، ترجمة. خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ط 1، طرابلس، 1974.
- 23 - الزيري محمد العربي ، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1972.
- 24 - الزيري محمد العربي، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1985.
- 25 - زيتون محمد محمد ، تاريخ القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، ط1، دار المنار للطبع والنشر، القاهرة، 1988.

- 26 - السبكي أمال، أوروبا في القرن التاسع عشر، عالم المعرفة، ط1، جدة، السعودية، 1985.
- 27 - سعد الله أبو القاسم، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007.
- 28 - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي 1830، 1500، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998م.
- 29 - سعد الله أبو القاسم، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- 30 - سعد الله أبو القاسم، رائد التجديد الإسلامي ابن العنابي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1990.
- 31 - سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1830، 1792م، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1985.
- 32 - سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة والمعاصرة، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م.
- 33 - سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م .
- 34 - سعيدوني ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1999.
- 35 - السهلي عبدالله بن دجين، الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وأثارها، دار كنوز اشبيليا، ط1، الرياض، 2005.
- 36 - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية. تونس. الجزائر. المغرب الأقصى، مع محمد مزالي. البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.
- 37 - الشتيوي منصور عمر، حرب القرصنة بين دول المغرب العربي والولايات المتحدة الأمريكية، ط1، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1970.
- 38 - الشريف محمد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش، محمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993م.
- 39 - شويتام ارزقي، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره، 1830، 1800م، ط1، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

- 40 - شويتام ارزقي، دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519، 1830، ط1، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.
- 41 - الصّيد سليمان، نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، ط2007.
- 42 - الطمار محمد، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
- 43 - الطويل أحمد الطويل، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ط1، 2005.
- 44 - الطويل أحمد سعيد، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرماني، دار الكتب الوطنية، ط1، بنغازي، 2000.
- 45 - الطويلي أحمد، تونس في الرحلات والعالم في عيون رحالين تونسيين، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، ط1، تونس، 2006.
- 46 - عامر محمود علي، تاريخ المغرب العربي الحديث. ليبيا، مطبعة الاتحاد، جامعة دمشق، 1986م.
- 47 - عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
- 48 - عثمان أباضة فاروق، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر الأبيض المتوسط أثناء ق16، ط2، دار العارف القاهرة، 1994.
- 49 - العقاد صلاح، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلومصرية، ط، 1993.
- 50 - العقاد صلاح، المغرب في بداية العصور الحديثة، معهد الدراسات العربية العالية، 1962.1963.
- 51 - العقبي صلاح مؤيد، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، 2001.
- 52 - عمر عبد العزيز عمر، جمال محمود حجر، صور من تاريخ العلاقات الدولية في العصر الحديث، دار المعرفة الجامعية، 2012.
- 53 - عمر علي ابن إسماعيل، انخيار حكم الأسرة القرمانيّة في ليبيا 1795، 1835، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ط1، بيروت، 1966م.
- 54 - فارس محمد خير، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط1، 1969م.
- 55 - فيرو شارل، الحوليات الليبية، ترجمة. محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، ط3، بنغازي، 1994.

- 56 - فيشر هربرت، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ترجمة زينب عصمة راشد. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ط3، دار المعارف ، القاهرة، 1961.
- 57 - قشي فاطمة الزهراء ، قسنطينة في عهد صالح باي البايات ، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة ، 2005م.
- 58 - قنان جمال، نصوص ووثائق تاريخ الجزائر الحديث 1830،1500م، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2010.
- 59 - الكعك عثمان ، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي ، تقديم ومراجعة ، أبو القاسم سعد الله ، محمد البشير الشنيتي، ناصر الدين سعيدوني، إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003.
- 60 - كوران أرجمنت، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ت. عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، 1970.
- 61 - كوستانزيو برنيا، طرابلس من 1510، 1850م، تعريب. خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، تونس، 2009م.
- 62 - كولافو لايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرماني، ترجمة. عبد القادر مصطفى الحيشي، مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، ط1، طرابلس، 1988م.
- 63 - الكيب نجم الدين غالب ، الحرب البحرية بين نيابة طرابلس الغرب وأمريكا (1801،1805)، طرابلس، ليبيا، 1971.
- 64 - مبارك الملي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، ط 1964،
- 65 - محمد الهادي أبو عبد الله ابوعجيلة، النشاط الليبي في البحر الأبيض المتوسط في عهد الأسرة القرمانيّة 1711، 1835م، وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية ، منشورات جامعة قارونس، ط 1، بنغازي، 1997.
- 66 - محمود حسن سليمان، ليبيا بين الماضي والحاضر، مؤسسة سجل العرب ، 1962م .
- 67 - محمود علي عامر، محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات جامعة دمشق، 2000.
- 68 - المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ، 1792،1492م، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، بدون سنة النشر.

69 - مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1985م.

70 - نصار ممدوح. وهبان أحمد، التاريخ الدبلوماسي العلاقات السياسية بين القوى الكبرى، قسم العلوم السياسية كلية التجارة، جامعة الإسكندرية، بدون سنة النشر .

71 - نقولا زيادة، ليبيا في العصور الحديثة، معهد البحوث والدراسات العربية، 1966م .

72 - ولف جون، الجزائر وأوروبا، 1830، 1500م، ترجمة، أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

2/ المراجع باللغة الفرنسية :

- 1-Arthure P, histoire de la tunisie, Edition A.S.P.L, Paris.
- 2-Belhamisi M , marine et marins D'Alger 1518, 1830, T3, bibliotheque nationale d'Algérie, imprimerie EN, Nakhla, Alger, 1996.
- 3- Bessis.J, La libye contemporaine, édition l'harmattan, paris, 1986.
- 4-Cambon. H, Histoire de la régence de tunis, editions berger levrault, paris, 1948.
- 5-Carette M , Du Commerce De L'algerie Avec L'afrique Centrale Et Les Etats Barbaresques, imp.Du Roi, Paris, 1844.
- 6-Chater. k , Dependance Et Mutations Précoloniales, la Régence De Tunis De 1815, 1857, Publication De L'universite De Tunis, 1984.
- 7-Cherif .M.H, Introduction De La Piastre espagnole "Ryal" Dans La Regence De Tunis Au Debut de 17em siecle , C.T, 1968 P54.
- 8-Cherif. M,H, pouvoire et societé dans la tunisie de H'usayn Bin Ali 1705, 1740, T2, Imprimerie Officielle De La republique Tunisienne, T2, 1986.
- 9-de Grammont H.D ,histoire d'alger sous la domination turque, presentation de lemnouar merouche, editions bouchene , 2002.
- 10- Devoulx.A , Le Rais Hamidou, Impremeur Libraire Editeur, Alger, 1859.
- 11- Dupuy.E, Américains Barbaresques 1776, 1824, presentation A.Blondy , Editions Bouchene, 2002.

- 12- Feraud Charles, La Call, T.Y.PDe L'association Ouvriere, 1877.
- 13- Fey. H.L , Histoire D'oran Avant, Pendant et Après La Domination Espagnole, Oran, 1858, p270.
- 14- Gaid. M , Chronique Des Beys De Constantine, O.P.U,alger, 1982.
- 15- Gaid. M, l'algerie sous les turcs, maison tunisienne de l'edition,tunis,1975.
- 16- Garrot. H , Histoire Général de L'Algérie,impreur. Crescenze Voutes, Alger, 1910.
- 17- Guellouz. A, Masmoudi. A, Smida. M, Histoire Général De la Tunisie, les temps modernes1534.1881,T3 , sud edition , tunis, 2010.
- 18- Hugon. H. , Les Emblemes des Beys de Tunis, Ernest Leroux, Paris,1913.
- 19- Julien Ch. A, Histoire de L'Algérie contemporaine La conquête et les débuts de la colonisation1827,1871, P.U.F,paris,1964.
- 20- Kaddache M , l'algerie Durant la periode ottoman,opu,1998.
- 21- Lamjed. B ,Pouvoir Et Esclavage Dans La Regence De Tunis, Centre De Publication Universitaire, Tunisie,2005.
- 22- mercier ernest - histoire de constantine , imprimeurs éditeurs,constantine,1903.
- 23- Mercier Ernest , histoire de l'afrique septentrionale, tome3, ernest leroux editeur, paris,1868.
- 24- Mzali M.S ,Les Beys De Tunis Et Le Roi Des Français , Maison Tunisien De L'édition, tunis, 1976.
- 25- Nouschi .A. , Enquete sur Le niveau de vie des population rurales Constantinois de la conquete jusqu en 1919 essai d histoire economique et sociale, P.U.F, paris,1961.
- 26- Péchot. L, France Et L'afrique Du Nord Avant 1830,Goposso Imprimeur Editeur, 1914.
- 27- Rinn Louis , Marabouts et Khouans ,étude Sur L'islam En Algérie, Adolphe Jourdan , Libraire éditeur, Alger ,1884.
- 28- Rousseau. A , annals tunisiennes , apercu historique sur la régence de tunis, bastide librain éditeur,pari 1864.
- 29- Temimi Abdeljelil , Le Beylik de constantine et Hadj Ahmed Bey 1830,1837, Tunis, 1978.

- 30- Valensi. L, Le Maghreb avant la prise d'alger 1790،1830, Paris, 1969.
- 31- Vayssette. E , Histoire De Derniere Bey De Constantine، Presentation Abderahmen Rebahi,Alger,2005.
- 32- Vayssettes Eugene , Histoire de constantine sous la domination turque,de 1517،1837,edition bouchene,2002 .
- 33- Veraud. Ch , Annales Tripolitaines, Presentation De Lora Lafi, 1er Edition, Edition Bouchen,2005.

ثانيا : المقالات.

1/باللغة العربية:

- 1 - الأ محمد بوزيد ، "الغرباء والجوع:دراسة حول 761غريبا ماتوا في مدينة تونس بين سنتي 1773و1779م"، المجلة التاريخية المغاربية، العدد131، تونس، مارس2008.ص19، 83.
- 2 - أمير يوسف ، "إسهام الدايات في وقف المساجد بمدينة الجزائر (1830،1671م)" ، مجلة الدراسات التاريخية، العدد14، الجزائر، 2012. ص165، 178 .
- 3 - أمين محمد ، "من مؤشرات واليات التبادل التجاري البيني من خلال تقييد التاجر علي بن سعيد البحار الجزائري خلال مطلع القرن 19م"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، عدد 46.45 ، 2012، تونس. ص17، 26.
- 4 - البستاني مهدي ، "القوافل التجارية في ولاية طرابلس الغرب خلال القرن 19م" ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 24، زغوان، ديسمبر2001.ص123، 146.
- 5 - بلغيث محمد الأمين ، "النسق الثقافي للسلطة في الجزائر وتونس من خلال تاريخ محمد بن عمر العدواني"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، لعدد 117، تونس، جانفي 2004 . ص29، 48.
- 6 - بوسليم صالح ، "حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات وإفريقيا الغربية خلال القرنين 12،13هـ/18،19م"، مجلة الحوار المتوسطي، العدد5، سيدي بلعباس، مارس 2013، ص36، 54.
- 7 - تابليت علي ، "موقع الجزائر من حركة القرصنة بالمتوسط ومواقف الشعب الأمريكي لإنقاذ الأسرى الأمريكيين بالجزائر" ، المجلة التاريخية المغاربية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، العدد 152، تونس، جويلية 2013.ص187 - 211.

- 8 - تابلت علي ، "وليام شالر والجزائر 1815،1816 من خلال مذكراته والوثائق الأمريكية " ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 122، تونس، مارس 2006 .ص79، 104.
- 9 - تابلت علي ، "الأسرى الأمريكيان في البلدان المغاربية 1784،1816م" ، المجلة التاريخية المغاربية ، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، عدد 142 تونس، مارس 2011م.ص23، 45.
- 10 - التميمي عبد الجليل ، " من دلالات الأنشطة الاقتصادية للإيالات المغاربية العثمانية في العصر الحديث " ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، العددان 37،38، تونس، ديسمبر 2008 .ص17، 25.
- 11 - التميمي عبد الجليل ، "وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر " ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد05، زغوان، 1980.
- 12 - جحيدر عمار ، "البحرية الليبية وحرب اليونان (1821،1828)" ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية - مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، العددان 1،2، زغوان، جانفي 1990.ص249، 243.
- 13 - جحيدر عمار، "العلاقات الليبية التونسية في القرن التاسع عشر " ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد29، 1983م.
- 14 - الجيلالي السايح، "موقف بايات تونس من الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830،1837م " ، حولية المؤرخ، العدد1، 2002.ص249، 265.
- 15 - حماش خليفة ، "الجزائر والحرب اليونانية العثمانية " ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 66.65، زغوان، أوت 1992. ص175، 185.
- 16 - زروق محمد ، "التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي،التأصيل التاريخي " ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، العدد63.64، زغوان، جويلية 1991. ص313، 318.
- 17 - السعداوي إبراهيم ، "نظام الالتزام بإيالة تونس أثناء فترة 1705،1574م" ، المجلة التاريخية المغاربية ، العدد117، تونس، جانفي 2004.ص183، 193.
- 18 - شويتام ارزقي ، "العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية(الفترة العثمانية) " ، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد 13، الجزائر، 2011، ص79، 108.
- 19 - صحراوي عبد القادر ، " الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني " ، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 3،4، مارس 2011،2012.ص25، 37.

- 20 - الطويل أحمد سعيد ، "الوفاق الأوروبي (1815،1818) وانعكاساته على إيالة طرابلس الغرب" ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 90.89، زغوان ماي 1998. ص 133، 142.
- 21 - عبد الجليل التميمي ، "مغامرة الحماية التونسية على وهران سنة 1831" ، المجلة التاريخية المغاربية ، عدد 5، زغوان، 1976.
- 22 - عزيزي محمد الحبيب ، "شبكة العلاقات البينية : تونس وقسنطينة في العهد العثماني" ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات. العدد 46.45 ، تونس، ديسمبر 2012. ص 224، 211.
- 23 - غطاس عائشة ، "أوضاع الجزائر المعاشية والصحية أواخر العهد العثماني: المجمعات والابوثة 1830، 1787م" ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العدد 18/17، زغوان، سبتمبر 1998م. ص 361، 370.
- 24 - غفيري موسى ، "القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط ، في القرنين 16م ز 18م بين القراءة التاريخية والطرح المدرسي" ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 146، تونس، مارس 2012م. ص 83، 103.
- 25 - غويني ليلي ، "التواصل الثقافي للرحالة الجزائريين مع العلماء المغاربة في العصر الحديث" ، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 14، الجزائر، 2012. ص 213، 231.
- 26 - فروة محمود، "النظام النقدي في تونس في القرنين الثامن والتاسع عشر 1740-1891" ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العددان 1، 2، زغوان، جانفي 1990. ص 215، 227.
- 27 - قنون حياة ، "التواجد الاسباني في الغرب الجزائري خلال الفترتين العثمانية والفرنسية" ، مجلة الحوار المتوسطي، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي ، العدد 5، جامعة سيدس بلعباس، مارس 2013. ص 86، 99.
- 28 - محمد عمر مروان ، "الأوضاع الصحية والإجراءات الوقائية في ولاية طرابلس الغرب خلال العهدين القرمانلي والعثماني الثاني 1711، 1912" ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 25، زغوان، تونس، 2002، ص 301، 314.
- 29 - المدني سعيد عمر، "الأوضاع الصحية في ليبيا في ضوء كتابات بعض من الرحالة العرب والأجانب خلال القرن التاسع عشر" ، المجلة التاريخية المغاربية ، العددان 154، 155، تونس، فيفري 2014. ص 62، 76.

- 30 - مروان محمد عمر ، "سجلات محكمة طرابلس الشرعية 1337،1174هـ/1760، 1918م كمصدر للمؤرخ"، المجلة التاريخية المغربية، العددان103.102، زغوان، مارس 2001.ص 311 - 322.
- 31 - معاشي جميلة ، "أسرة أحرار الحنانشة بين بايات قسنطينة وبايات تونس " ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد 128، جوان 2007.ص147،162.
- 32 - معاشي جميلة ، "مخطوط عن صالح باي حاكم بايلك قسنطينة1792،1771"، المجلة التاريخية المغربية، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، تونس، العدد 140، جويلية 2010م.ص31،49 .
- 33 - معلوم الإمام هيفاء ، "العلاقات الأمريكية، الشمال الإفريقي في العصر الحديث " ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 16.15، زغوان، جويلية 1979م.
- 34 - مكحلي محمد ، "الطرقية في الجزائر خلال العهد العثماني 1827،1707م"، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 114، تونس، جانفي 2004.ص92،97.
- 35 - النصيري عبد الرزاق أحمد ، "موقف صحافة طرابلس الغرب في العهد العثماني من التغلغل الاستعماري في المغرب العربي " ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد129، تونس، مارس 2008.ص89،107.
- 36 - هلال عمار ، "العلماء الجزائريون في فاس فيما بين القرنين العاشر والعشرين الميلاديين " ، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد9، الجزائر، 1995.
- 37 - هويدي سلوى ، "علي باي وإدارته للأزمات " ، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، العدد147، تونس، نوفمبر2012.ص403،425.
- 2/باللغة الفرنسية :

- 1- El Kechai Fella Moussaoui, « Situation Demographique Et Sanitaire Du Beylik De Constantine (1771—1837) », Arab historical Review For Ottoman Studies, N° 17.18, Zaghua, sep 1998 ,p 63،71.
- 2- Arnaud .Chabaud ، «Attaque Des Batteries Algeriennes Par L.Exmouth en 1816 »,IN.R.A, N°:19,1875.p194، 202.
- 3- Berbrugger A, « epitaph d'ouzoun Hassan, le conquérant d'oran en 1708 », in R.A. N° 09, 1885.p122،126.
- 4- Boubaker Sadok , « La Peste Dans Les Pays Du Maghreb. Attitudes Fac au Fleau et Impacts Sur Les Activites Commerciales », Revue D'histoire maghrébine, N° 79.80, Mai 199,p311،341.

- 5- Cherif .M.H, « Introduction De La Piastre espagnole Dans La Regence De Tunis Au Debut de 17em siecle » in Cahiers de tunisienne, N 61.62, 1968.
- 6- Danial P, « Un Active En Trompe L'œil »، R De L'occident Musulman, De La Méditerranéan, 1ér Trémestre, N.47, 1988, pp127.142.
- 7- De Grammont.H.D , « correspondance Des consuls D'alger » ,in R.A, N°33, ALGER, 1889.
- 8- Devoulx A.، « Les édifices religieux de L'ancien Alger » . in . R.A، N°12، 1868. P103، 116.
- 9- Farrugia De Candia، « Monnaies Husseinittes » in Revue Tunisienne – N 22 – 1936.
- 10- Feraud Ch. , « Les Harars Seigneure des Hanancha » , in. R.A, N°18 , 1874.p11، 32.
- 11- Touati Ismet ، « La Peste et le Commerce Exterieur De l'Algerie A L'époque Ottomane »، Revue D'histoire Maghrébine، N° 154.155، Février 2014 P97، 114.
- 12- Vayssette E.، « Histoire De Constantine »، in، R.A، Alger، 1860.
- 13- Veyssettes E, Mhammed « Tchakeur 1814 a 1818 », In. R.A , N°05 , 1861, p93، 113.

ثالثا: الموسوعات والمعاجم.

- 1 - الكيالي عبد الوهاب ، موسوعة السياسة ، ج4، بيروت، بدون تاريخ الطبع.
- 2 - صابان سهيل ، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000.
- 3 - محفوظ محمد ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي ، ج4، ط2، بيروت، 1994.
- 4 - نويهض عادل ، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط2، بيروت، 1980.

رابعا : الأطروحات الجامعية.

- 1 - حسام صورية، العلاقات بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر، مذكرة ماجيستر، إشراف عبد المجيد بن نعمة، جامعة وهران 2012/2013.

- 2 - دوبالي خديجة، رسائل احمد باي إلى حسين باشا 1826،1830، رسالة ماجيستر، جامعة وهران2005./2006
 - 3 - الطويل أحمد الطويل، العلاقات السياسية والتجارية بين ليبيا ودول غرب أوروبا المتوسطة ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، ، قسم التاريخ ،جامعة الجزائر2، 2007م.
 - 4 - غويني ليلي، التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية الجزائري ة، مذكرة ماجيستر، إشراف. عائشة غطاس، جامعة الجزائر2، 2010/2011.
 - 5 - هلايلي حنفي ، النظام الحربي للجزائر منذ مطلع ق 17 حتى 1830، رسالة دكتوراه ،جامعة سيدس بلعباس، 2003/2004.
- خامسا : المؤتمرات والملتقيات:

- 1 - يوم دراسي حول المؤرخ الأديب أبو القاسم سعد الله بالمركز الثقافي بسيدي بلعباس يوم 03 مارس 2013.
- 2 - المؤتمر الثالث والأربعين لمنتدى الفكر المعاصر حول: الحقيقة والمساواة والمصالحة لبناء المغرب الكبير من تنظيم مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بالاشتراك مع مؤسسة كونراد أديناور، تونس أيام 20.21.22 نوفمبر 2014م.
- 3 - ملتقى وطني حول أبو القاسم سعد الله ، نصف قرن من البحث والتأليف والكتابة، من تنظيم قسم العلوم الإنسانية، مخبر الجزائر تاريخ ومجتمع، جامعة سيدي بلعباس: يومي 14 و 15 ديسمبر 2014م.

سادسا: مواقع الانترنت

- 1-الموسوعة الحرة www.wikipedia.org
- 2- تاريخ نشأة وتطور جامع الزيتونة من الموقع: www.turess.com
- 3- يوسف بن حيدة، التواصل الطريقي بين الجنوب الشرقي الجزائري ومنطقة الجريد خلال القرن 19م، مداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي حول التواصل الحضاري بين الجنوب الشرقي للجزائر وتونس يومي 10/11 نوفمبر 2013 بقسم التاريخ جامعة الوادي.من موقع www.univ-eloued

الفهرس العام

- إهداء
 - كلمة شكر وتقدير
 - قائمة المختصرات
 - مقدمة
 - مدخل
- أولا : البحر الأبيض المتوسط والتنافس الدولي فيه : 16
- 1- أهمية البحر الأبيض المتوسط : 16.....
- ثانيا : إتجاه الأطماع الأجنبية إلى المغرب الإسلامي : 19.....
- 1 - الأطماع البرتغالية 19.....
- 2- الأطماع الاسبانية : 20.....
- أ - طبيعة الاعتداءات الاسبانية على شواطئ المغرب الإسلامي: 20.....
- ب - التدخل الاسباني ودوافعه 22.....
- * - دوافع دينية 23.....
- * - دوافع سياسية وإستراتيجية 23.....
- ثالثا: استتجاد سكان المغرب الإسلامي بالعثمانيين 26.....
- 1 -الجزائر إيالة عثمانية 26.....
- 2 -طرابلس إيالة عثمانية 28.....
- 3 -تونس إيالة عثمانية 29.....
- رابعا : واقع العلاقات بين الإيالة الجزائرية وإيالي تونس وطرابلس قبل سنة 1750م 30.....
- 1 - مع إيالة تونس 30.....
- 2 - مع طرابلس الغرب : 43.....
- الفصل الأول: العلاقات السياسية بين إيالي الجزائر وتونس خلال النصف الثاني من القرن 18م .. 52..
- أولا : العلاقات ما بن الإيالتين 1750 - 1782- من السلام إلى المجابهة والهيمنة الجزائرية 52.....
- 1- ثورة يونس ابن علي باشا 52.....
- أ- لجوئه إلى قسنطينة 53.....
- 2 - التدخل الجزائري في تونس سنة 1756م وتثبيت أبناء حسين بن علي على العرش 54.....
- أ - حرب 1756 54.....

- 57 *إستعدادات تونس
- 57 *إستعدادات الجزائر
- 59 ب - الحملة الجزائرية على مدينة الكاف
- 61 ج- الحملة الجزائرية على مدينة تونس
- 64 د- نتائج حرب 1756م
- 67 3 - العلاقات في عهد داي الجزائر بوصبع والباي محمد ابن الحسين (1756- 1759)
- 67 أ - فيما يتعلق بتكاليف الحملة الجزائرية عل تونس 1756م
- 68 ب - تأدية تونس الضريبة للجزائر
- 69 ج - إحتواء الجزائريين في تونس تجنباً لنقماتهم
- 69 4 - الباي علي ابن الحسين وسياسته تجاه الجزائر
- 70 أ - ثورة إسماعيل ابن يونس ولجوئه إلى الجزائر
- 71 ب. مواصلة تونس الوفاء بالالتزامات تجاه الجزائر
- 71 * تعويضات مصاريف الحملة
- 71 * دفع الهدايا والضرائب
- 72 * الاعتراف بسيادة الجزائر
- 73 ج- التجاوزات الصادرة من الجزائريين في تونس
- 73 د-محمد عثمان باشا داي الجزائر وعلاقاته مع تونس إلى غاية تولي حمود باشا العرش 1766-
- 73 1782م
- 76 ثانيا : عودة السلام بين الإيالتين (1782-1805م)
- 77 1 - شخصية حمودة باشا
- 78 2 - مظاهر علاقته مع الجزائر إلى غاية 1800م
- 78 أ - تقديم الهدايا
- 78 ب - الإحسان إلى الضيوف والمبعوثين
- 78 ج- استمرار تونس في إيواء المارين بها من الجزائريين
- 80 3 - صالح باي حاكم قسنطينة
- 81 أ - الأزمة مع تونس 1783- 1787م
- 83 4 - موقف الجزائر من حملة حمودة باشا على طرابلس الغرب 1794- 1795م
- 84 5 - دور الجزائر في إبرام الصلح بين تونس والولايات المتحدة الأمريكية

- 6 - إستعدادات تونس للتخلص من الهيمنة الجزائرية 87
- أ - بناء التحصينات العسكرية 88
- ب - الإعتماد على الجوسسة 88
- ج- الزيادة في عدد الجند 88
- 7 - التحالف مع سلطان المغرب الأقصى 89
- الفصل الثاني العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس من 1800-1830م 93
- أولا : فرار باي قسنطينة مصطفى ألقليز إلى تونس سنة 1803م 93
- ثانيا : دور حمودة باشا في ثورة ابن الأحرش 1804م 94
- ثالثا : التخلص تونس من الهيمنة الجزائرية 1806-1815م 95
- 1 - حرب 1806 بين الإيالتين 96
- أ - وقائع الحرب الأولى 97
- * نتائجها 100
- ب - وقائع الحرب الثانية 101
- * نتائجها 102
- 2 - موقف الدولة العثمانية من صراع الإيالتين ومحاولة الصلح 102
- 3 - حملة ربيع 1808م 103
- 4 - هدنة سبتمبر 1808م 104
- 5 - المواجهة البحرية بين أسطولي الإيالتين سنة 1811م 104
- 6 - الحملتين الجزائريتين البرية والبحرية على تونس سنة 1813م 107
- أ - الحملة البحرية (جويلية 1813م) 108
- ب - الحملة البرية (أكتوبر 1813م) 108
- 7 - موقف المغرب الأقصى من النزاع بين الإيالتين 110
- رابعا : العلاقات بين الإيالتين من سنة 1815م-1830م 110
- 1 - الحملات الأوروبية والأمريكية على الجزائر وموقف تونس منها 112
- 2 - معاهدة سنة 1817م بين الإيالتين 115
- 3 - عودة التوتر ما بين 1819م-1821م 117
- 4 - توسط الباب العالي في إبرام الصلح النهائي بين الإيالتين في مارس 1821م 119
- 5 - التعاون بين الإيالتين في حرب اليونان 1821م 120

- 6 - السلام الحذر بين الإيالتين 1821-1825م 121
- أ - مسألة فرار الجنود الجزائريين نحو تونس 123
- ب - هجرة قبائل الحدود من الجانبين 124
- ج- التجاوزات الحدودية 125
- 8 - موقف تونس من الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827-1830م) 126
- الفصل الثالث: العلاقات السياسية بين إيالة الجزائر وطرابلس الغرب 1750-1830 . 136
- أولا : فترة التعاون بين الإيالتين 1750 - 1793 136
- ثانيا : التدخل الجزائري في شؤون طرابلس الغرب (1793- 1815م) 139
- 1 - مسألة إستيلاء علي برغل علي طرابلس وموقف الجزائر منه 139
- أ - شخصيته 139
- ب - إستيلاءه علي طرابلس 141
- ج- الموقف الجزائري من إستيلاء علي برغل علي طرابلس 145
- 2 - الوساطة الجزائرية في عقد معاهدة بين طرابلس والولايات المتحدة الأمريكية 147
- أ- دخول الولايات المتحدة البحر المتوسط 147
- ب- المفاوضات الطرابلسية الأمريكية 152
- ج- دور الجزائر في إبرام الصلح الأمريكي الطرابلسي 153
- 3- الحرب بين الولايات المتحدة وطرابلس 1801-1805م 159
- 4- موقف الجزائر من الصراع الأمريكي الطرابلسي 162
- 5- صدى الصراع الأمريكي الطرابلسي في كل من الجزائر وتونس 163
- أ- في الجزائر 164
- ب - في تونس 164
- ثالثا : العلاقات بين الإيالتين 1815-1820 166
- 1- موقف المؤتمرات الدولية من النشاط البحري لإيالتي الجزائر وطرابلس الغرب 166
- أ- مؤتمر فيينا 166
- ب-موقف طرابلس من حملة اللورد إكسماوث علي الجزائر 169
- ج-مؤتمر أكس لاشابيل 170
- رابعا : العلاقات بين الإيالتين من 1820-1830م 172
- 1 - المشاركة والتعاون الجزائري الطرابلسي في حرب اليونان 1821م 172

- أ-المشاركة الجزائرية 172
- ب-المشاركة الطرابلسية 175
- ج-المقارنة بين المشاركين 175
- 2 - موقف طرابلس الغرب من الاحتلال الفرنسي للجزائر 176
- أ - الموقف الرسمي 176
- ب - موقف النخبة 177

الفصل الرابع:

العلاقات الاقتصادية والثقافية والترابط الاجتماعي بين الجزائر وإيالتى تونس وطرابلس 1750-1830م

- أولاً: العلاقات الاقتصادية..... 183
- 1 - التبادل التجاري بين الجزائر وتونس : 183
- 2 - نماذج من التبادل التجاري بين الجزائر وتونس:..... 184
- أ - تواتر القوافل التجارية بين تونس وقسنطينة : 185
- ب -بقر الجزائر- ظاهرة قديمة للتصدير نحو تونس. 185
- 3 - الطرق التجارية بين الجزائر وتونس:..... 187
- 4 - الطرق الرئيسية بين الشرق الجزائري وتونس 188
- 5 - صادرات وواردات الجزائر نحو تونس 190
- أ - الصادرات 190
- ب - الواردات 191
- 6 - مساهمة تقاييد التجار في المبادلات البيئية 191
- أ - علي بن سعيد البحار الجزائري 192
- ب - نشاطه مع تونس 192
- 7 - التبادل التجاري بين الجزائر وطرابلس الغرب 193
- أ - الطرق الرئيسية بين الجزائر وطرابلس 193
- ب - التجار الجزائريون بإيالة طرابلس 195
- 8 - العملة والمكايل والأوزان المستعملة في الإيالات الثلاث 196
- أ - النقود "العملة" 196
- في الجزائر 196
- في تونس 199

- 201..... • في طرابلس الغرب
- 203..... ب - المكايل والأوزان
- 205..... 9 - دور اليهود في المبادلات التجارية بين الإيالات الثلاث
- 208..... ثانيا: العلاقات الثقافية
- 208..... 1 - التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس
- 208..... أ - المراكز العلمية في الجزائر وتونس
- 208..... • في الجزائر
- 208..... - مدينة الجزائر
- 209..... - مدينة قسنطينة
- 210..... - مدينة مازونة
- 211..... • في تونس
- 211..... - جامع الزيتونة
- 212..... - مدينة القيروان
- 213..... ب- دوافع التبادل الثقافي بين الجزائر وتونس
- 213..... - طلب العلم
- 213..... - أداء فريضة الحج
- 213..... - الهجرة الإجبارية
- 213..... 2- مظاهر العلاقات الثقافية الجزائرية التونسية
- 214..... 3- أشهر الرحلات الجزائرية إلى تونس
- 214..... أ - رحلة ابن حمادوش
- 215..... ب - زيارة الورثيلاني لتونس
- 217..... ج - زيارة ابو راس الناصري الى تونس
- 219..... د - زيارة أحمد بن عمار
- 220..... هـ - زيارة ابن العنابي إلى تونس
- 221..... 4- المجالس والمناظرات بين علماء الجزائر وعلماء تونس
- 224..... 5- الإجازات المتبادلة بين علماء الإياليتين
- 225..... 6- التواصل الثقافي الجزائري الطرابلسي
- 227..... 7- الصلات بين الطرق الصوفية في الإيالات الثلاث

228.....	أ. الطريقة القادرية
229.....	ب. الطريقة التيجانية
230.....	ج. الطريقة الشاذلية
230.....	د. الطريقة الرحمانية
231.....	هـ. الطريقة الشايبية
232.....	و. الطريقة السنوسية
233	ثالثا: الروابط الاجتماعية بين الإيالات الثلاث
233.....	1 - المجال التخومي بين الجزائر وتونس
233.....	2 - قبيلة الحنانشة الجزائرية بين بايات تونس وبايات قسنطينة
234.....	أ-علاقتهم بايات قسنطينة
235.....	ب-المصاهرة بين بايات قسنطينة وأحرار الحنانشة
235.....	ج-علاقات بايات تونس بأسرة أحرار الحنانشة
236.....	د-المصاهرة بين بايات تونس وأحرار الحنانشة
236.....	3 - قبيلة دريد التونسية.....
237.....	4 -شيوخ وطن المعزولة.....
237.....	5 - التشابه في الكوارث الطبيعية والأوبئة في الإيالات الثلاث.....
237.....	أ - في الجزائر
240.....	ب -في تونس
242.....	ج- في طرابلس الغرب
246.....	خاتمة
252.....	ملاحق
282.....	قائمة المصادر والمراجع
306 -300.....	الفهرس العام